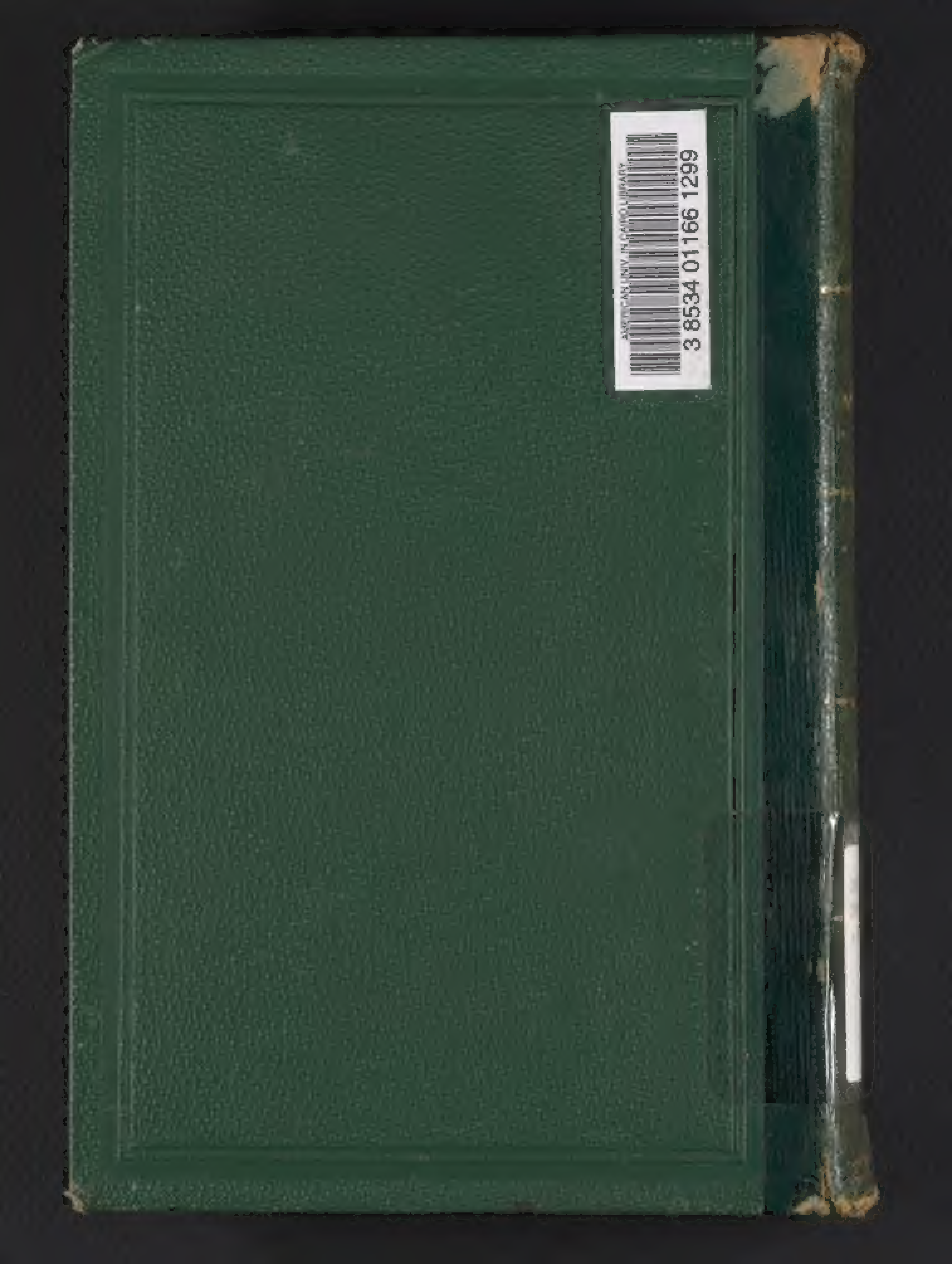
AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY
3 8534 01166 1299

كتاب

صناجة الطرب
في
تقدمات العرب

تأليف
نوفل افندي بن نعمة الله بن جرجس نوفل
الطرابلسي

ما لذّ للسمع اخبارٌ نروق له · تحلي الصدورَ وتنفي غصةَ الكُرَب
مثلُ حديثٍ اعاريبٍ تضمّنهُ · سفرٌ بعدلِ دُعي صنّاجة الطَرَبِ

برخصة نظارة المعارف العمومية الجليلة

طُبع في مطبعة الاميركان في بيروت

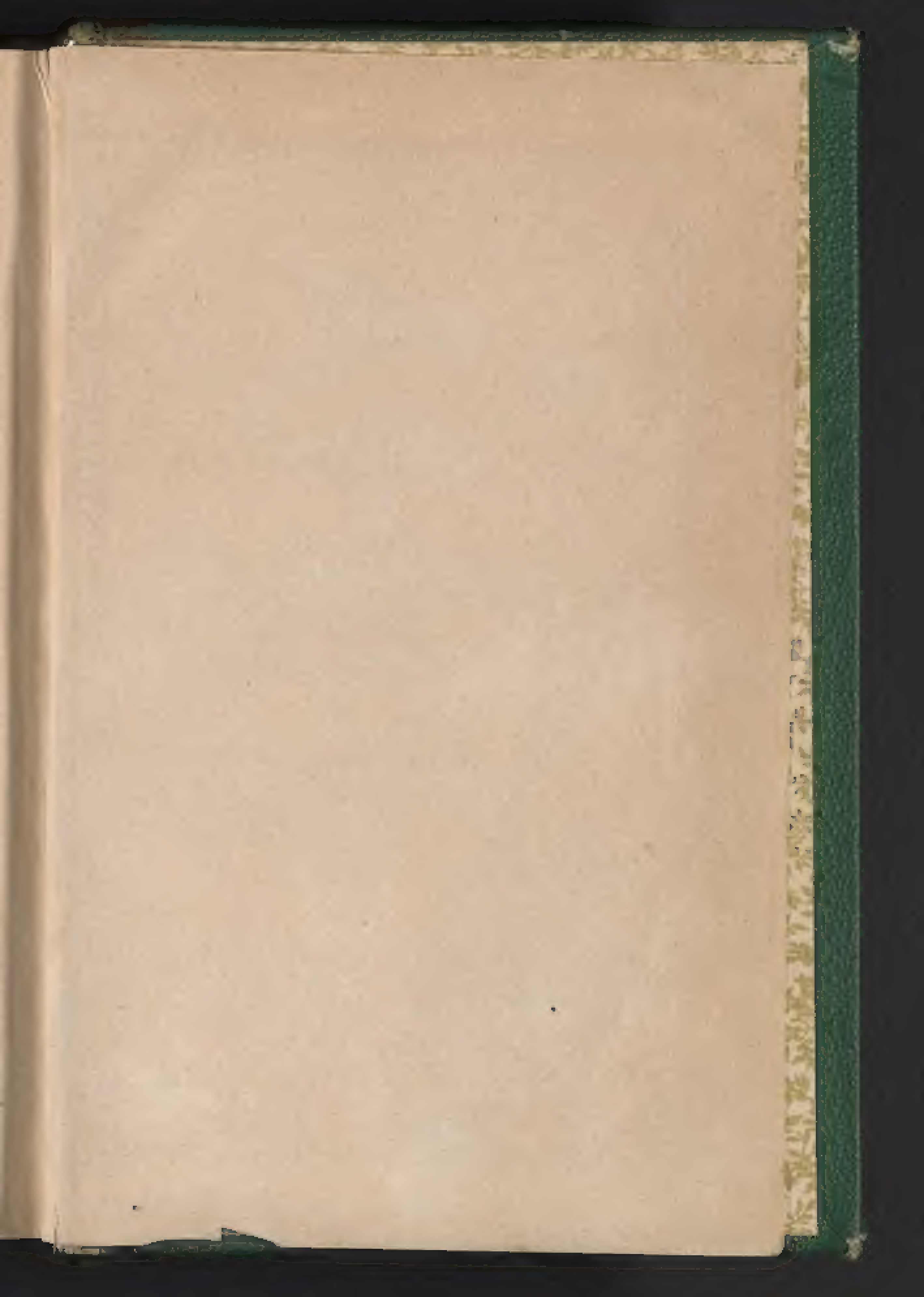

فهرس

صفحة

صفحة

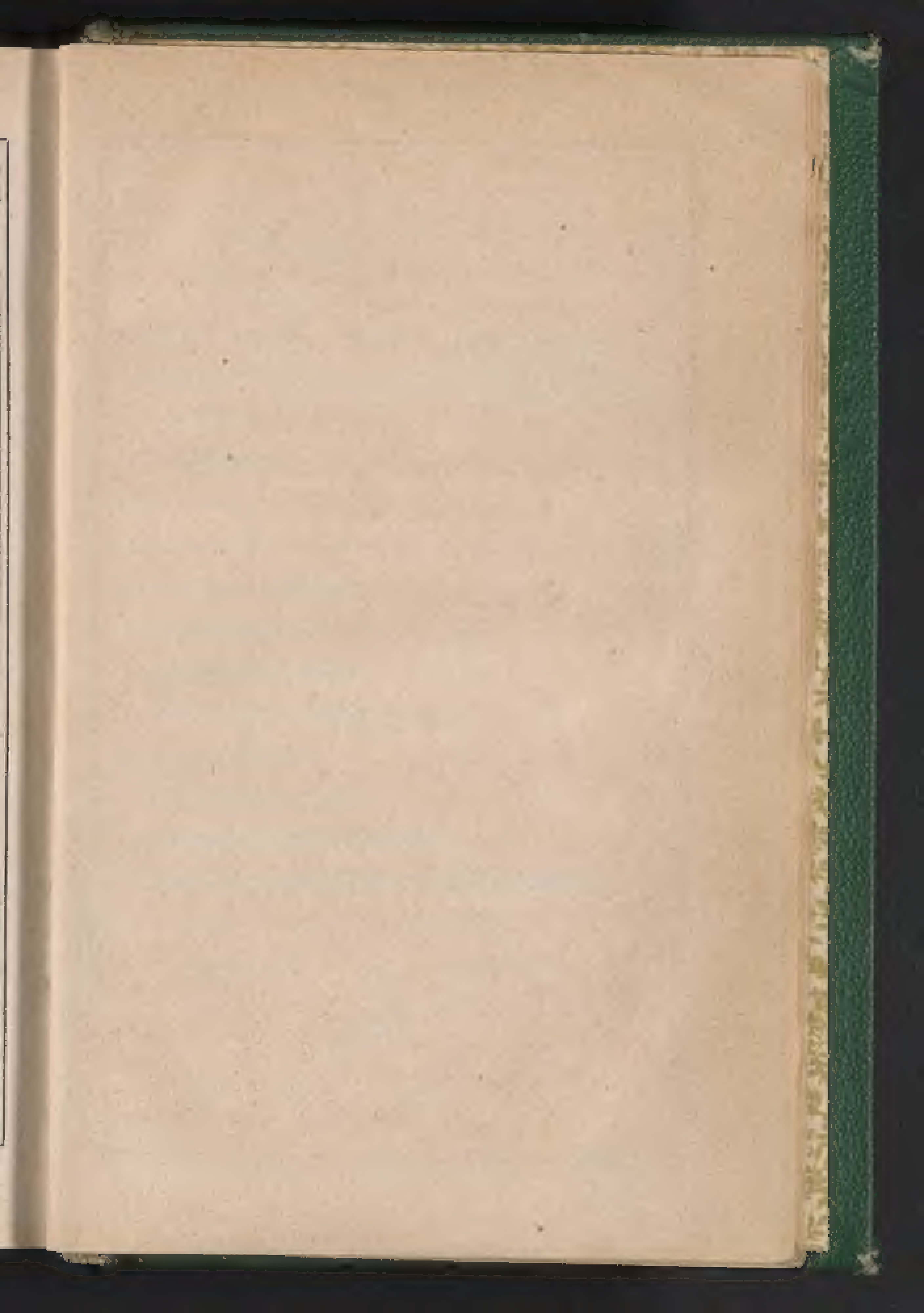

صناجة الطرب في تقدمات العرب

يتضمن عشر مقالات وخاتمة

المقالة الاولى

في مواطن العرب الحالية وفيه خمسة فصول

الفصل الاول

في الكلام على خطة العرب الاصلية المسماة جزيرة العرب

لا يخفى ان العرب كانوا يسكنون في شبه جزيرة تنسب اليهم باقليم اسيا اشتهرت عندهم بجزيرة العرب لكونهم لا يفرقون بين الجزيرة وشبه الجزيرة وهي جزيرة متصلة بالبرّ وهذه الشبه الجزيرة متوسطة بين افريقية وباقي اسيا وتنقسم الى خمسة اقسام

الاول اليمن واقسامه حضرموت ومهرة وعمان وشِحر ونجران وسمّي هذا القسم اليمن لوقوعه عن يمين الكعبة اذا استقبلت المشرق كما ان الشام عن شمالها وقد تضاف شِحر احيانا الى عمان قال الشاعر

دارُ سُعدى بشِحرِ عمانِ   قد كساها البلى المَلَوانِ

والثاني الحجاز . وفيهِ مكة ويثرب ويقال لها المدينة او مدينة الرسول وسُمّي حجازاً لانهُ حاجز بين تهامة ونجد وفي جنوبي مكة جبل ثور فيهِ الغار المشهور الذي يقول فيهِ الشيخ محمد البوصيري[1] في قصيدتهِ المعروفة بالبردة

وما حوى الغار من خيرٍ ومن كرمٍ   وكل طرفٍ من الكفّار عنهُ عمي
فالصدق في الغار والصدّيق لم يرما   وهم يقولون ما بالغار من أرِمِ

والى شرقي المدينة جبلا طيّ وهما أجا وسلمى ذكروا انهما اسماء شخصين من العرب كان احدهما أجا يعشق سلمى وكانت العوجاء تجمع بينهما فصلبوهما على هذه الجبال فسُمّيت باسمائهم وهذه الجبال هي المشار اليها في قول جابر بن رألان السِنبِسي

ونحن غلبنا بالجبالِ وعزّها   ونحن ورثنا غيثًا وندبا

اراد بالجبال اجا وسلمى وهضابهما وفي قول حسّان بن حنظلة الطائي

عَتِبت عليَّ بنو أُنَيسٍ تحنبرِ   وانا امرؤٌ من طيّئ الاجبالِ

اي أجا وسلمى وعُورض ومن جبال طيّ الجودي وهو المراد بقول الشاعر ابو صعترة البولاني

فما نطفةٌ من حبّ مُزنٍ تقاذفت   بها جنّبتا الجوديّ والليل دامسُ
بأطيبَ من فيها وما ذقتُ طعمهُ   ولكنني فيما ترى العينُ فارسُ

والثالث تهامة . وهي بين اليمن جنوباً والحجاز شمالاً
والرابع نجد . وهي ما يتصل بالشام شمالاً والعراق شرقاً والحجاز غرباً واليمامة جنوباً وهي اطيب ارضٍ في بلاد العرب وفيها يقول قيس بن الملوح

---

(1) نسبة الى بوصير قرية في [illegible] اسكندرية مصر

اقول لصاحبي والعيس تهوي ... بنا بين المنيفة فالضمار
تمتع من شميم عرار نجدٍ ... فما بعد العشية من عرارِ (١)

وقال آخر

سقى الله نجدًا والسلامُ على نجدِ ... ويا حبّذا نجدٌ على القرب والبعدِ

وفي نجد ارض العالية التي كان يحميها كُليب بن وائل بن ربيعة وافضى بذلك الى قتلهِ وانتشاب حرب البسوس التي يُضرَب بها المثل. وجبل عكاد التي لم تثبت العربية الفصيحة بعد تمادي زمان الاسلام الّا في اهلهِ

والخامس اليمامة. وهي بين نجد واليمن وتسمّى العروض ايضًا لاعتراضها بين نجد واليمن

ومن جبال هذه الاراضي جبلا سيناء وحوريب حيث انزل الله الشريعة على موسى النبي (خر ص ١٩) وجبل فاران (تك ص ٢١ وتث ص ٣٣) وجبل هرون الذي دُفن فيهِ هرون اخو موسى النبي (عد ص ٢٠: ٢٢-٢٨) والى جهة الشرق منهُ وادي موسى وهو موقع مدينة بترا القديمة قصبة العربية الصخرية عند اليونانيين والرومانيين

واشهر مدن بلاد شبه جزيرة العرب بلدة كانت تسمّى في الزمان القديم الناس والباسة والنساسة. واما الآن فتسمّى مكة ويقال بكة ايضًا بابدال الموحدة المموحة وقيل ان بكة يُطلَق على بطن مكة لازدحام الناس فيهِ لانهُ من بكّهُ اي زحمهُ ويسمونها ام القرى ولا يدخلها الآن احد ممن يخالف دين الاسلام فان بها المسجد الحرام الذي في وسطهِ الكعبة وطول هذه المدينة نحو ميلين وعرضها نحو ميل واحد وليس فيها من الامياه بئر زمزم فاجرى اليها الخيزرانة المتوكل الله العباسي الماء من مسافة بعيدة في قناة ومن اماكنها المشهورة الصفا

---

(١) العرار بهار البر اصفر ناعم طيب الريح وفي التسهيل هو بهار البر واحدتهُ عرارة وهو عين الثور وقيل بل هو النرجس البرّي

والمروة وهما بمكة وجبل ابي قبيس وكذا وادي منى وجبل عرفات والمزدلفة وبطن محسّر وغير ذلك

وقد امعن الشيخ عمر الفارض في ذكر هذه المواضع وغيرها من الحجاز بقوله

سقى بالصفا الربعيُّ ربعًا به الصفا   وجاد باجيادٍ ثرى منهُ ثروتي
على فائتٍ من جمع جمعٍ تأسّفي   ووجدٌ على واديه محسّر حسرتي

وقوله ايضًا

يا راكبَ الوجناء بُلّغتَ المُنى   عُجْ بالحمى ان جُزتَ بالجرعاء
متيممًا تلعات وادي ضارجٍ   متيامنًا عن قاعة الوعساء
واذا وصلتَ أُثيلَ سلعٍ فالنقا   فالرقمتين فلعلعٍ فالشطاء
وكذا عن العَلَمين من شرقيهِ   مِلْ عادلاً للحلّةِ الفيحاء
فناري سرح المربع فالشبيكـ   ـة فالثنية من شعاب كَداء
وللحاضري البيت الحرام وعامري   تلك الخيام وذري الخنساء
ولظبية الحرم [illegible]   حيّ المشيع نشي وعنائي

وايضًا

عمرك الله ان مررت بوادي الـ   ـينبع فالدهنا فبدرٍ عادٍ
وسلكتَ النقا فأودانَ ودّا   نَ الى رابغٍ الرويّ الثمادِ
وقطعتَ الحزارَ عمدًا لجماء   تٍ خليصٍ مواطنِ الأمجادِ
وتدانيت من خُلَيصٍ فعسفا   نَ فمر الظهرانِ ملقى البوادي
ووردتَ الجموم فالقصر فالدكـ   ـناء طرًّا مناهل الوُرّادِ
واتيت التنعيم فالزاهر الزا   هر نورًا الى ذُرى الاطوادِ
وعبرت الحجون واجتزت فاختر   ت ارتيادًا مشاهد الاوتادِ
وبلغتَ الخيامَ فابلغ سلامي   عن حفاظٍ عُرَيب ذاكَ النادي

يا رعى الله يوماً بالمُتَلّى حيثُ تُدعى الى سبيل الرشادِ
وقباب الركاب بين العُبَيـ ـنِ للأرمتين غوادي
وسقى جمعنا بجمعٍ مُلِثّاً وبالاتِ الخيفِ صوبَ عهادِ
مَنْ يكن مالهُ وحُسن مآلٍ فمُنى في مِنى وأقصى مرادي

وقد ورد في اشعار العرب اسماء كثيرة للجبال والاودية ونحوها كانوا يتداولونها لكنهم نسوا في الازمنة الاخيرة اكثرها. ومن ذلك اطلاقهم الاسم على مسميات شتى من الامكنة. ثم يميزونه بما يضاف اليه كالبرقاء وهي كما لا يخفى الارض الغليظة ذات حجارة فسموا برقاء حسب وبرقاء شمال وبرقاء الأجدين ونحو ذلك الى ٦٠ موضعاً وبرقة ثهمد وبرقة الاحواد وبرقة الاجداد وغير ذلك الى نحو ٩٠ موضعاً

قال الكميت بن معروف

وقد فاض غربٌ عند برقاء جندبٍ
لبينك من عرفان ما انت تعرفُ

وقال النعمان بن المنذر

وما اعتلادك مية بعد ما جزعت ايدي المطيّ به برقاء شمليلا

وقال آخر

وما ببرقاء الأجدين او بنى ابيا مقامي لامرئ او تجربا

وقال طرفة بن العبد البكري

لخَوْلَةَ اطلالٌ ببرقة ثهمدِ تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليدِ

وقال ابن مقبل

طربتَ الى الحيّ الذين تحملوا ببرقة احواذٍ وانتَ طروبُ

وقال آخر

لمن الديار ببرقة الاجداد عفت سوار رسمها وغوار

وكذلك لفظة ثبير فانها اسم لعدة جبال قرب مكة غير ثبير الذي ذكره امرؤ القيس الكنديّ بقوله

كأنّ ثبيرًا في عرانين وبله كبير اناسٍ في بجادٍ مزمّل

ومن ذلك ثبير الزنج وثبير الاعرج وثبير الخضراء وثبير النصع وثبير غينا وثبير الاحدب [illegible] الاثيرة

قال صاحب الاصل العلامة المذكور قال ذلك انهم يتصرفون في هذه الاسماء على وجوهٍ شتّى نحو ذي سلم وذي الغضا وذي قار وذي طلوح وكذلك ذات السفح وذات الحرمل وذات عرق قال صاحب البردة

أمن تذكّر جيرانٍ بذي سلمٍ مزجت دمعًا جرى من مقلةٍ بدم

وقال الفارض

أنارُ الغضا ضاءت وسلمى بذي الغضا ام ابتسمت عمّا حكته المدامعُ

وقال بكير بن الأصمّ التغلبي

هم يوم ذي قارٍ وقد حمسَ الوغى خطوا هامةً حملاً بسهام

وقال آخر

اذا نزل الخيام بذي طلوحٍ سُقيتِ الغيث ايتها الخيامُ

وقال الفارض ايضًا

وبذات الشيح عني ان مرر ت بحيٍّ من عريب الجزع حيّا

وقال عنترة العبسي

طال الثواء على رسوم المنزل بين الكبيل وبين ذات الحرمل

ومن ذلك ايضاً بطن فلج وبطن نعب وبطن مر وبطن اياد وبطن حز الى غير ذلك نحو ٣٠ اسماً قال امرؤ القيس

سما لك شوق بعد ما كان اقصرا وحلت سليمى بطن قوٍ فعرعرا

ومنهُ ايضاً حجر اليمامة وحجر الراشدة وحجر بني سليم وحجر دوس وحجر ابضَ وادٍ في بلاد عذرة وغطفان وموضع آخر في بلاد اليمن

ومنهُ ايضاً دارة دارا المدينة في الجزيرة ووادٍ في بلاد بني عامر وقال دارة بالدال ايضاً قال بعضهم ذكر ياقوت في المشترك فوق الاربعين منها وانهاها البدر البادي الى ما فوق المئة . وقد الف الشيخ ابو الحسين احمد بن فارس كتاباً في المواضع المعروفة بهذا الاسم

اما مدينة جدة فهي على البحر الاحمر وهي فرضة مكة ومدينة الحديبية قيل بعضها في الحل وبعضها في الحرم وتبوك على نصف المسافة بين المدينة ودمشق وفيها كانت الواقعة العظيمة بين المسلمين والروم

ودومة الجندل قيل كان رجل اسمهُ الاكيدر في بلدة لهُ قرب عين التمر في العراق يقال لها دومة وكان يزور اخوالاً لهُ من بني كلب باطراف الشام فبينما هو في بعض الطريق ظهرت لهُ مدينة منهدمة لم يبقَ الاَّ بعض حيطانها وكانت مبنية بمكان يقال لهُ الجندل فاعاد الاكيدر بناءها وغرس فيها الزيتون وسماها دومة الجندل تفرقةً بينها وبين دومة العراق فتحها خالد ابن الوليد سنة غزوة تبوك التي مر ذكرها وكان بنو كلب المذكورون يحلون يومئذٍ بها ومنهم زهير بن جناب الكلبي وهو القائل في غزوتهم لبني بكر وتغلب على ماء الحنيّ

ابن ابن الغرار من حدر الموت وراد شئون بالاسلاب

اذا أسرنا مهلهلًا واخاه — وابن عمرٍو في القيد وابن شهابِ
وسبينا من تغلبٍ كلَّ بيضاء — رقود الضحى برودِ الرضابِ

وزهير بن شريك الكلبي وهو القائل لزوجته اسماء

ألا اصبحت اسماء في الحجر عذل — وزعم اني بالسفاه موكَّلُ
فست ه كي عنــاك تسطيع ولأ قبني مالتعرب أمثلُ

والحِجر بكسر الحاء المهملة في الى الجنوب من دومة الجندل المذكورة تنزلها حجاج الشام قبل كانت هناك ديار ثمود واما الحَجر بفتح الحاء فهي في اليمامة بقرب مدينة اليمامة وفيها منازل بني حنيفة وبعض مضر وبنو حنيفة هؤلاء من بكر بن وائل الذين منهم مسيلمة الكذاب وهم من العرب المستعربة من قبيلة ربيعة الفرس التي منها الامام ابو القاسم الحريري صاحب المقامات المشهورة وكان من قرية يقال لها المشان فقال فيه بعضهم ما نجر في ديوان الانشاء

شيخٌ لنا من ربيعة الفرس — ينتف عثنونه من الهوسِ
انطقه الله بالمشان كما — رماهُ وسط الديوان بالخرسِ

ومن اليمامة حَذام الجديسية وكانت من مكانٍ هناك يقال له جوّ فلقّبت بزرقاء جوّ لزرقة كانت في لونها وهي التي يقول فيها شاعرهم

اذا قالت حَذامِ فصدّقوها — فان القول ما قالت حذامِ

واما تيما فكانت حاضرة طي وبها الحصن المعروف بالابلق الفرد وفيه يقول السموأل بن عاديا

اذا المرء لم يدنس من اللوم عرضهُ — فكلُّ رداء يرتديه جميلُ

الى ان قال

لنا جبلٌ يحتلّهُ من نجيرهُ — منيعٌ يردُّ الطرفَ وهو كليلُ

هو الابيق الفرد الذي شاع ذكرهُ   يعزُّ على من رامهُ ويطولُ
رسا اصلهُ تحت الثرى وسما بهِ   الى النجم فرعٌ لا يُنال طويلُ

وتربو شط البحر الى غربي الحجر مائلاً الى الجنوب خراب مَدْيَن وهي التي يقول فيها كُثيِّر عزّة

رهبان مدين والذين عهدتهم   يبكون من حذر العذاب قعودا
لو يسمعون كما سمعت كلامها   خرّوا لعزّةَ رُكّعًا وسجودا

وهناك بئر يقال انها التي سقى منها موسى سائمة رعوئيل كاهن مديان (خرص ٢)

والينبع وهي مدينة بقرب البحر كانت منزلاً لبني الحسن بن علي بن ابي طالب ولها فرضة على البحر نحو مرحلة منها وبقربها جبل رضوى الذي منه يُحمل حجر المسنّ الى الآفاق واليه اشار صفي الدين الحليّ بقوله

وحقِّكَ انّي قانعٌ بالذي تهوى   وراضٍ ولو حمّلتني في الهوى رضوى

اما المدينة فهي التي اشار اليها الفارض بقوله

تيقّنتُ ان لا دار من بعد طيبةٍ   تطيب وان لا عزّةٌ بعد عزّةِ

وخيبر فيها قبائل يهود متعربة يوصفون بالمكر والخبث وكان بها السموأل بن عاديا الذي مرّ ذكرهُ قيل كانت للعمالقة ثم صارت لبني عنزة بن اسد بن ربيعة وهي رديئة الهواء تولّد الحميات وحمّاها موصوفة بالشدّة قال الاخطل

فمن يكُ امسى في بلادٍ مقامهُ   يسائل اطلالاً بها لا تجاوبُ
فقد بتُّ بها ابكي وأشعرُ سخنةً   كما اعتاد محمومًا بخيبر صالبُ(1)

(1) يريد بالصالب الحمى التي يكون معها صداع

وحيبر هذه كثيرة نخل يحمل منها التمر الى الجهات القصوى . قال خارجة بن ضرار المرّيّ

أخالدُ هلاّ اذ سفهت عشيرة كففتُ لسانَ السوءِ ان يتدعّرا
فانك واستبضاعك الشعر نحونا كمستبضع تمرًا الى ارض خيبرا

وعجز البيت الثاني مثل مضروب بين العرب

واما الجار فهي الى الجنوب الشرقي من المدينة على نحو يوم وليلة وهي فرضة المدينة واليها ينسب جرعة بن عبد الملك بن نحس جاري الاحول والى الجنوب الشرقي منها على نحو مرحلة ماءٌ تنزل به بدر وبقربه قرية بدر التي كان فيها اليوم المشهور بين المسلمين والمشركين من قريش وكانت الدبرة للمسلمين فسمي بدر القتال وبدر الموعد وكان ممن قتل ذلك اليوم بدر بن الاسود بن زمعة بن المطلب بن نوفل القرشيّ وكان مشركًا فقال ابوهُ يرثيه

أتبكي ان يضلّ لها بعيرٌ ويمنعها من النوم السهودُ
فلا تبكي على بكرٍ ولكن على بدرٍ تقاصرت الجدودُ

وعلى نحو منتصف الطريق بين جحفة التي هي الآن خراب وبين مكة عُسفان ويقال ها مدرج عثمان وهي المشار اليها بقول عنترة العبسي

كأنها يوم صدّت ما تكلمنا ظبيٌ بعسفان ساجي الطرف مطروفُ

واما الطائف فهي الى شرقي مكة بطن من جبل غزوان وهو شديد البرد كثير الفواكه بما في جوارهِ من البساتين التي تسقيها العيون والجداول المنحدرة من الجبال ويقال انها سُميت بذلك لانها طافت على الماء في الطوفان او لانّ جبريل طاف بها على البيت لانها كانت بالشام فنقلها الله تعالى الى الحجاز بدعوة ابرهيم واهلها من قبيلة ثقيف الذين منهم الحجاج بن يوسف الثقفي وهم من قيس عيلان وقيل من اياد وقيل هم من بقايا ثمود

وتقرب الحدّ بين اليمامة وتهامة عكاظ التي كان يقوم بها سوق سوف يأتي الكلام عليه

واما صنعاء اليمن فهي من اشهر مدن بلاد العرب وانزهها وهي قصبة بلاد اليمن قيل انها تشبه دمشق لكثرة مياهها واشجارها وهي معتدلة الهواء حسنة الاسواق واسعة العمارة وكانت كرسي ملوك اليمن في الزمان القديم ولهم بها قصر عظيم يقال له غمدان سوف يأتي الكلام عليه

والى الجنوب الشرقي من صنعاء موقع مدينة مأرب ويقال لها سبأ نسبة باسم عبد شمس الملقب سبأ . قيل انه كان هناك سد عظيم تحبس فيه السيول من مدى بعيد وبني جانبًا كبيرًا من المدينة على السد في عصر السيل تركمت الامطار ودفعت ذلك السد وهلك بسببه خلق كثير ونشبت عن هذه الحادثة سيل العرم الذي تفرق به عدة قبائل من العرب . وفي تلك النواحي كتابات على الصخور بالخط المسند المعروف بالخط الحميري وكان مجهولاً قبل الآن الى ان اهتدى الى معرفته في سنة ١٨١٥ م بعض السياح من الفرنساوية والانكليز الذين طافوا اكثر انحاء هذه البلاد واستخرجوا منها ما هو منقوش منه على الآثار اي اكتشفوها بالخط الحبشي والكوفي والنبطي والعبراني (راجع سياحة المعارف صفحة ١٠٥) وزعم بعضهم انها من عصر عاد وثمود وان نسبتها الى حمير وهمٌ مبنيٌ على ان ثمود طردهُ حمير من ابين فحل في الحجر

والى جهة الشمال الغربي من صنعاء صعدة التي بنى الحريري عليها مقامته الصعدية التي يقول فيها

من ضامهُ او ضارهُ دهرهُ فليقصد القاضيَ في صعده
سماحهُ أزرى بمن قبلهُ وعدلهُ اتعب من بعده

والى الغرب من صنعاء على نحو مرحلة من شط البحر الاحمر مدينة زبيد ولها فرضة على البحر تسمى غلافقة والى الجنوب منها على شط البحر ايضاً مدينة المخا

الى يُجلب منها الذن وعلى اربع مراحل من المخا بيت الفقيه وهي من الاراضي التي يمت بها الان اسما عانيها التجار من جميع الاقطار

واما مدينة عدن فهي على شط بحر الهند ولها مرساة امينة للسفن كانت لها تجارة واسعة بين الشرق والغرب لكنها الآن لم يبقَ لها اعتبار والاراضي التي حولها جدبة يابسة وهي بيد الانكليز محطًا لمراكبهم الجارية بين الهند والسويس

وبين اليمن جزيرة سقطرة التي يُجلب منها الصبر السقطري المشهور والى هنا تنتهي حطة ابيس

واما مدينة مسقط فهي قصبة بلاد عمان

والاحساء قصبة بلاد البحرين وهي ذات مياه جارية وفيها ينابيع شديدة الحرارة ونخيلها يقارب غوطة دمشق في الكثرة ويوسقون التمر الى نواحي اليمامة ويستبدلونه بالحنطة

والى شمال الاحساء على شط خليج العجم اسطيف وهناك مغاص اللؤلؤ وبينها وبين كاظمة ٤ ايام وقربها في خليج العجم جزائر البحرين بها مغاوص لؤلؤ ليس لها نظير في العالم

واما كاظمة المذكورة فهي على خليج العجم الى الجنوب من الابلة وربما تُحسب من العراق وقد ذكرها صاحب البردة بقوله

أم هبت الريحُ من تلقاء كاظمةٍ

وأومضَ البرقُ في الظلماء من اضمِ

واما مدينة اليمامة فهي الى الجنوب من الاحساء بميلٍ الى الغرب وقد سبق ذكرها

ومن المدن القديمة بلاد العرب الحجَر وهي الى الشمال الشرقي من زبيد والى الجنوب من زبيد حصن تعز كان مقام ملوك اليمن وهو على جبل مطل على التهايم واراضي زبيد والى شرقي صنعاء على شط جون داخل البحر مدينة

طفار وهي قصبة بلاد شحر وبينها وبين الهند تجارة وفي اراضيها كثير من شجر الهند كالنارجيل والنسل والى شمالي طفار رمال الاحقاف وهي بلاد عاد

واما نجران فهي على جبال من شمال اليمن الى شمال صعدة تبعد عن صنعاء نحو ١٠ مراحل وكانت اراضيها لقبيلة همدان وهمدان هو كهلان بن سبا

الفصل الثاني

في الكلام على بلاد الجزيرة وتسمى ديار بكر وديار ربيعة وديار مُضر

قيل انهُ بعد سيل العرم الذي سبق الكلام عليهِ رحل ثلاث قبائل من عرب اليمن وهم ربيعة وبكر ومُضر وسكنت في شمال ما بين النهرين (يعني نهر دجلة والفرات وسمّي تلك الاراضي بالجزيرة) فسمّيت حينئذٍ تلك النواحي ديار بكر وديار ربيعة وديار مُضر قال الشيخ صفي الدين الحلي

هوى يقتادني لديار بكرٍ ... وآخرُ نحو ارض الجامعَين
سأسرع نحو راس العين حصوًا ... واقصدها على راسي وعيني

وفيها يجري نهر الخابور وعلى جانبيهِ اشجار كثيرة اشار اليها قول الخارجية في رثاء ابن طريف

أيا شجر الخابور مالك مورقًا ... كأنك لم تجزع على ابن طريفِ

ومن بقايا بني مُضر المذكورين العرب الطائية وطي قبيلة حاتم بن عبد الله المشهور بالكرم واوس بن حبيب المعروف بابي تمام الطائي الشاعر المشهور

ومن مدنها سروج واليها يُنسب ابو زيد السروجي الذي بنى الحريري مقاماته عليه . ومدينة الرقة ويقال لها ايضاً البيضاء واليها يُنسب الامام البيضاوي صاحب تفسير القرآن

والرحبة وتُنسب الى مالك بن طوق احد قواد الرشيد العباسي فيقال لها رحبة مالك

وقرقيسيا وهي مدينة هند بنت الريان التي قتلت حديثة الارش وتعدّ من ديار مُضر

ومدينة دارا التي يقول فيها بعض الشعراء

ولقد قلتُ لرحلي بين حرّان ودارا
اصبري يا رحلُ حتّى يرزق اللهُ حمارا

ومدينة نصيبين من ديار ربيعة مختصة بالورد الابيض ويُجلب منها الى الآفاق ولا توجد فيها وردة حمراء

وجزيرة ابن عمر وهي مدينة صغيرة على غربي دجلة يُنسب اليها طائفة كبيرة من اهل العلم منهم بنو الاثير وهم المبارك صاحب كتاب جامع الاصول في احاديث الرسول ونصر الله صاحب الانشاء والبلاغة وعلي صاحب التاريخ فيقال لكلٍ منهم الجزري نسبةً الى هذه الجزيرة

وعانة وهي بلدة بالقرب من موقع بابل القديمة موصوفة بجودة الخمر قال الشاعر

أَمِن بابلٍ ام من لواحظك السحرُ ومن عانةٍ ام من مراشفك الخمرُ
وهل ما اراه الموت ام حادث الهوى
وهل هو شوقٌ من جبيٍّ ام هجرُ

وتكريت واليها يُنسب جماعة من العلماء وسميت تكريت بنت مالك وهي الآن خراب

الفصل الثالث

في الكلام على بلاد العراق

قال ابو الفداء انما سمّي العراق عراقًا لانهُ سفل عن نجد ودنا من البحر آخذًا عن عراق القربة وهو الخرز الذي من اسفلها والعراق على ضفتي دجلة مثلما بلاد مصر على ضفتي النيل

وحكى ابن خلدون المغربي في كلامهِ على الطبقة الثالثة من العرب وهم العرب التابعة للعرب ان هذه الامة من عرب البادية اهل الخيام الذين لا اعلاق لهم لم يزالوا من اعظم العالم وكثر جيال الخليقة يكثرون الامم تارة ويسمو اليهم العزّ والغلبة بالكثرة فيطمحون بالملك ويعلون على الاقاليم والمدن والامصار . ثم يدركهم الترفه والنعم ويغلبون عليهم ويفنون ويرجعون الى باديتهم الى ان قال وجعلوا طلب رزقهم في معاشهم بترصد السبيل وانتهاب متاع الناس وكان في الطبقة الاولى منهم العمالقة . وفي الثانية التبابعة ولهم وقائع وحروب مع بختنصّر ملك بابل وهو الذي اسكن بعضهم في الحيرة وبعد موته انتقلوا منها الى الانبار فاستمروا بعد ذلك بارض العراق والشام

اما الحيرة المذكورة فهي مدينة على حافة البادية وحافة سواد العراق قبل ان تبّعًا لما سار من اليمن الى خراسان وانتهى الى موضعها ليلًا فتحير ونزل وامر ببنائها فسميت الحيرة وصارت مقام الملوك اللخميين من آل النعمن بن المنذر وبها تنصّر المنذر بن امرء القيس وبنى بها الكنائس العظيمة واقام قصرًا سماه الزوراء واليه اشار النابغة الذبياني اذ قال

وتسقى اذا ما شئت غير مصرّد بزوراء في اكنافها المسك كارعُ

وكانت مدينة عظيمة ذات زرعٍ وانهار فلما ظهر الاسلام افتتحها ابو بكر الخليفة الاول بالامان ومن ثمَّ صارت دار الخلافة الاسلامية مدَّةً يسيرة الى ان انتقل منها التخت الى الانبار

والانبار مدينة في العراق ايضاً على شرقي نهر الفرات بينها وبين بغداد ١٠ فراسخ قيل انها تسمت بهذا الاسم لان الملوك الاكاسرة كانوا يخزنون فيها الطعام وقد نسب اليها جماعة كثيرة من اهل العلم في كل فنّ

ومن ثمَّ شرع عمر بن الخطاب خليفة ابي بكر المشار اليهِ وخلفاؤُهُ من بعدهِ في بناء بلاد بهذه البقعة التي اختاروها مركزًا لاقامتهم وكانوا ينقلون كرسي الخلافة الى البعض منها فغصَّت بالسكان وعمرت وتزينت بالعلوم والفنون التي ادخلوها فيها وازهرت

واول مدينة بناها المسلمون على ما ذكرنا كانت البصرة في زمن عمر بن الخطاب المقدَّم ذكرهُ ومعنى البصرة الحجارة الرخوة وينسب اليها جماعة من اهل الادب منهم الشيخ محمد ابو القسم الحريري صاحب المقامات المشهورة . وفي الجنوب الغربي منها وادٍ يقال له وادي السباع لان السباع يحرسنَ اليهِ ويحسبنَ منهُ الكلا وفيها مربد البصرة المشهور وسوف يأتي ذكرهُ في محلهِ

ومدينة الكوفة مصَّرها سعد بن ابي وقاص احد الصحابة في زمن خلافة عمر المشار اليهِ ايضاً ونزل اليها اهل الخبرة وقيل هي على ذراعٍ من الفرات ولعلهُ اسمي بالخورنق قال ابو الفداء . الخورنق نهرٌ بأرض الكوفة وهو ايضاً قصرٌ بها اه . وقد لهجت شعراء العرب كثيرًا بذكر الخورنق قال ابو العتاهية

غنّي على الزمن القصير بين الخورنق والسدير

وقال الاسود بن يعفُر

اهل الخورنق والسدير وبارقٍ والقصر ذي الشرفات من سنداد

وقال المخبل اليشكري

واذا شربتُ من المدا مة بالصغير وبالكبيرِ
واذا انتشيتُ فانني ربُّ الخورنق والسديرِ
واذا صحوتُ فانني ربُّ الشُوَيهةِ والبعيرِ

وبين الكوفة والقادسية موضع الواقعة الشهيرة التي كانت بين العرب والفرس وتُعرف بيوم القادسية واليها اشار ايضاً بقولهِ

ويوم القادسيةِ قد دَعَتْنا الى تبديد شملهم دواعي

وبينها وبين واسط ايضاً جرت واقعة اخرى بينهما وهي من اعظم وقائع العرب وفيها يقول بكير بن الاصمّ القعبي

هم يومَ ذي قارٍ وقد حَمِسَ الوغى خطوا هاماً جحفلاً بلهامِ
ضربوا بني الاحرار يومَ لَقُوهُمُ بالمشرفيّ على صميم الهامِ

والكوفة مولد احمد بن الحسين الشاعر المعروف بالمتنبيّ المولود في سنة ٣٠٣ للهجرة (سنة ٩١٥ م) وبالقرب منها مشهد عليّ وهو مدفن الامام علي بن ابي طالب واليهِ يحج كثيرون من شيعة الفرس وغيرهم وفي هذه الاراضي نشأت الطائفة الباطنية والقرامطة

ومدينة واسط بناها الحجاج في ايام خلافة عبد الملك بن مروان سنة ٧٨ للهجرة (سنة ٦٩٦ م) وسماها بهذا الاسم لكونها متوسطة بين البصرة والكوفة

ومدينة بغداد بناها ابو جعفر المنصور الخليفة العباسي وسوف يأتي الكلام عليها في محلهِ

ومدينة سرّ من رأى التي خففها الناس وقالوا سامري وعلى ذلك قول ابي الطيب المتنبي في كاتبٍ كان من اهلها عند سيف الدولة العدوي

أسامريُّ ضحكةَ كلِّ راءٍ فطنتَ وكنتَ أغبى الاغبياء

ومن انهر العراق نهر يُعرف بنهر عيسى نسبةً الى عيسى بن عبد الله العباسي

والحلّة مولد الشيخ صفي الدين بن سرايا الحليّ صاحب الديوان المشهور في الشعر والجوكات الارتقية قيل ان هذه المدينة بنيت من حجارة بابل القديمة وموقع بابل الى الشرق منها وهي على الجنوب الغربي من بغداد

والقادسية وهي على حافة البادية وحافة سواد العراق

وقطربل الى جهة بغداد بالقرب من بلدةٍ يقال لها عُكبَرَى كانت مجمعًا للخلفاء ومألفًا لاهل القصف وفيها يقول محمد بن جعفر الحليّ

يقولون ها قطربلٌ فوق دجلةٍ عدمتك الفاظًا بغير معاني
اقلّب طرفي لا ارى القنص دونها ولا النخل بادٍ من قرى البردانِ

وهي توصف بجودة الخمر حتى صار يُنسب اليها قال المتنبي

بلاد اذا زار الحسان بغيرها حصى تربها ثقبنهُ للمخانقِ
سقتني بها القطربُليّ مليحةٌ على كاذبٍ من وعدها ضوء صادقِ

وقال ابو النواس الحكمي حكايةً عن الخمر

قطربلٌ مربعي ولي بقرى الكر خ مصيفٌ وأمّي العنبُ

والمداين على بعد مرحلةٍ من بغداد لجهة الجنوب وكانت تسمَّى قديمًا طيسيفون وكان فيها بقايا ايوان كسرى قيل ان سعته من ركنٍ الى ركنٍ ٩٥ ذراعًا وارتفاعه ٨٠ ذراعًا

وبين بغداد وواسط بلدة يقال لها جبل ينسب اليها خلق كثير منهم ابو الخطاب الشاعر الجبلي كان بينه وبين الشيخ ابي العلا المعرّي مشاعرة وفيه قال المعرّي قصيدته المشهورة

غير مجدٍ في ملّتي واعتقادي نوحُ باكٍ ولا ترنُّم شادِ

الفصل الرابع

في الكلام على اراضي الشام

قال ابو الفداء انما سمي الشام شاماً لان قوماً من بني كنعان تشاءموا اليه اي تياسروا لانه عن يسار الكعبة وقيل سمي شاماً بسام بن نوح واسمه بالعبرانية والسريانية شام وقيل سمي شاماً لبقع فيه حمر وبيض وسود تشبيهاً لها بالشامات وهي تجمع على شام كما تجمع الهامة على هام اه . وهذا الاسم لم يطلق على هذا القسم الا منذ افتتاحه من العرب المسلمين سنة ٦٣٢ م وكان يطلق عليه قبل ذلك اسم سورية وقد اعادت له هذا الاسم الآن الدولة العلية العثمانية منذ جمعت كثيراً من اقسامه الى ولاية واحدة اطلقت عليها اسم ولاية سورية

وقد ذكرنا في الكلام على العراق ما حكاه ابن خلدون المغربي عن سبب سكنى العرب في هذا القسم واسناده ذلك الى بختنصر ملك بابل وقال ابو الفداء ان قوماً من اليمن من بني الازد بن الغوث بن نبت بن مالك بن ادد ابن زيد بن كهلان بن سبا تفرقوا من اليمن بسيل العرم ونزلوا على ماء بالشام يقال له غسان فنسبوا اليه

وغسان هذه قرية من قرى حوران التي هي الى الجنوب الشرقي من دمشق وهناك قرية اخرى يقال لها بصرى ذكر ابو الفداء انها من ديار فزارة وبني مرة ومن قرى حوران ايضاً اذرع مذكورة في التوراة (يش ص ١٢: ٤) وكانت العرب تسميها اذرعات قال امرء القيس

تنورتها من اذرعات واهلها بيثرب ادنى دارها نظر عالي

ومنها ايضًا السوداء التي فيها بنى النعمان بن عمرو بن المنذر من ملوك غسّان قصرًا وفيه يقول النابغة

لهم شيمةٌ لم يعطها الله غيرهم ... من الناس والاحلام غير عوازبِ
ولا عيب فيهم غير ان سيوفهم ... بهنّ فلول من قراع الكتائبِ
تخيّرنَ في ازمان .. حليمةٍ ... الى اليوم قد جرّبنَ كل التجاربِ

ومنها قوله في عمرو المذكور

عليّ لعمرٍو نعمةٌ بعد نعمةٍ ... لوالدهِ ليست بذاتِ عقاربِ

والى شرقي جبل حوران المذكور ارض البثنية المسماة في الكتب المقدسة ارض باشان وسماها ابو الفداء البثنية وقال انها كانت لايوب الصديق ملكًا ومن قراها صلخد ويقال ايضًا صرخد وهي بلدة ذات قلعة مرتفعة يقول ابو الفداء انها قاعدة بني هلال

وكثر الاماكن المشهورة بهذه الاراضي في الزمان القديم هي الآن خراب لكن اسماؤها باقية وابنيتها مبنية من الحجر الاسود الذي يُجلب الى سائر البلاد لارحية الطواحين وسقوفها من اعمدة حجرية مكان الجسور عليها صفائح من الحجارة مكان الالواح قيل ان في بُصرى بيت يُنسب الى سركيس الراهب الذي يقال له بحيرى مركّب من ٥ حجارة لاغير اربعة منها حيطان والخامس سقف وله باب من الحجر ايضًا سهل الفتح والاغلاق كباب الخشب واكثر ابنيتها تحتها ابيات أُخرى عميقة في الارض

وكانت ملوك غسّان التي مرّ ذكرها عمّالًا للقياصرة على عرب الشام وقبل ظهور الاسلام كانت دمشق تحت ملكهم وهم الذين يقول فيهم حسّان بن ثابت الانصاري

اولاد جفنة حول قبر ابيهم ... قبر ابن مارية الكريم المفضلِ
يسقون من وردَ البريص عليهمِ ... بردى يصفّقُ بالرحيق السلسلِ

وبردى المذكور في السطر الاخير هاهو نهر يسقي غوطة دمشق التي فيها نفس المدينة وهي غوطة حسنة جداً واحدى جنات الارض الاربع المفضلة على غيرها من المنتزهات وثانيها شعب بوان وثالثها نهر الابلة ورابعها سغد سمرقند[1] قال الشيخ برهان الدين القيراطي يصف وادي بَرَدى

اشتاق في وادي دمشق معهداً	كلُّ الجمال الى حماهُ ينسبُ
ما فيهِ الأ روضةٌ او جوسقٌ	او جدولٌ او بلبلٌ او ربربُ
وكانَّ ذاك النهر فيهِ معصمٌ	بيد النسيم منقشٌ ومكتبُ
فاذا تكسَّر ماؤهُ اضرتهُ	في الحال بين رباضهِ ينشعبُ
وشدَت على العيدان ورقٌ اطربت	نغماتها من غاب عنهُ المطربُ
فالورق تشدو والنسيم مشبب	والنهر يسقي والحدائق تطربُ
وحلت فلبي من اعالي حنق	فيها لارباب الخلاعة ملعبُ
ولكم طربت على السماع بجنكها	وغدا بربوتها اللسان يشببُ

ومدينة دمشق هي من المدن القديمة جداً يقال انها سميت بذلك نسبة الى بانيها دمشاق بن كنعان او دامشيوس فتحها المسلمون سنة ١٤ للهجرة (سنة ٦٣٥ م) في خلافة عمر بن الخطاب تحت لواء خالد بن الوليد ونقل اليها كرسي الخلافة من الكوفة في زمن معاوية بن ابي سفيان ولا زال بها الى ان انقرضت دولة بني أُمية وقامت دولة العباسيين ونشأ بها جماعة من العلماء واهل الادب منهم الشيخ محمد بن مالك الاندلسي صاحب الالفية المشهورة في النحو والشيخ محمد الحريري صاحب الحاشية على شرح الفاكهي للقطر والشيخ حسن البوريني شارح ديوان ابن الفارض والشيخ عبد الغني النابلسي وعائشة الباعونية

---

(١) شعب بوان المذكور هو غوطة ببلاد فارس بين جبل يقال لهُ ارجان وجبل آخر يسمى النوبندجان وسغد سمرقند هو ببلاد بخارا واما نهر الابلة فهو شعبة من نهر دجلة تتفرع في اراضي البصرة

صاحبة البديعية المشهورة وكثيرون من العلماء والشعراء قيل ان في مائها سريرة تدفع الجذام عن اهلها فلا يصيبهم البتة وكسر عادية عن الغريب المصاب به فانه اذا اقام فيها توقف به في الدرجة التي يكون قد بلغ اليها فلا يزيد عليها وكل ذلك وهمٌ

وفي وادي نهر رَدَى المذكور قرى كثيرة ومتنزهات كالفيجة وبلودان والزبداني والصالحية التي يقول فيها الشيخ عبد الغني النابلسي

الصالحيةُ جنّةٌ والصالحون بها اقاموا

وقارة والنبك وهي اعدل مكانين في تلك الديار حتى يُضرَب المثل بجودة هوائهما ومائهما وقد لهجت بها الشعراء قال بعضهم

اذا هاجت الرمضاء ذكراكِ بَرَّدَت
حشائي كَنْي بين قارة والنبكِ

والنيرب والربوة والمشار وفي ذلك يقول صلاح الدين الصفدي

انهض الى الربوة مستمتعاً تجد من اللذة ما يكفي
فالطير قد غنّى على عوده في الروض بين الجنك والدّفِّ

وبيت راس التي ماتت بها حبابة جارية يزيد بن عبد الملك الاموي وجداً عليها وذلك انه نزل في بيت راس لنتزه فقال زعموا انه لا يصفو لاحد عيشة يوماً كاملاً وسأجرب ذلك ولما اصبح امر ان لا يُرفع اليه شيء من مهمات الملك الى الليل وخلا بحبابة تغنيه الى ان حضر الطعام فجلس للاكل وهي معه وكان قد قُدِّم اليه من رمان بيت راس وهو عظيم الحب في الغاية فشرقت حبابة بحبة منه وماتت قبل انتصاف النهار فجزع عليها جزعاً شديداً افضى به الى الموت في ذلك الشهر

اما بعلبك فليس لها اعتبار في هذه الايام الا لسبب آثار ابنيتها القديمة

واما في الزمان القديم فكانت مدينة عظيمة من احسن المدن واوسعها ولم تزل على جانب من العظمة بعد استيلاء المسلمين الى نحو سنة ٧٠٠ هجرية (سنة ١٣٠٠ م) وكان فيها اسواق كثيرة وجوامع وحوانيت ولها سور عظيم تراكم عليه السيل مرةً من الجهة الجنوبيةً فدفعهُ وطمت المياه على المدينة فاخربت منها ما ينيف على ١٥٠٠ بيت واهلكت خلقاً كثيراً والآن قد بقي منها قلعة عجيبة البناء في اركانها واعمدتها وحجارتها العظيمة الهائلة وفيها كثير من الاعمدة مستوفة بالواح حجرية وعليها نقوش كثيرة مختلفة الاشكال يصعد الى سطحها والبعض من حوف بعض الاركان وعليها آثار بنال لما قصر بنت الملك وجميع هذه الابنية محكمة الوصل حتى كانها حجر واحد . وقال بعض الذين يترددون الى هذه القلعة انهُ لا يدخلها مرةً الا ويرى فيها شيئاً جديداً لم ينتبه لهُ قبلاً لكثرة ما فيها من الصنائع والاعمال غير انها الآن تهدمت ولم يبق منها الا ما لم يقدر عليهِ كرور الايام ومع ذلك لم تزل معدودة من عجائب الابنية والناس يزعمون انها من بناء سليمان بن داود وان الرومانيين بنوا على آثار كانت قبل عصرهم وذلك في ايام الملك انطونينوس بيوس في القرن الثاني بعد الميلاد

اما مدينة حلب الشهباء فقيل انها سميت بذلك لان ابرهيم الخليل كان لهُ بقرة شهباء يحلبها على التل الذي عليهِ قلعة حلب الآن وينادي رجل على الفقراء قائلاً ابرهيم حلب الشهباء فيجتمعون اليهِ ويتصدق عليهم بلبنها لكن الصحيح ان العلة مجهولة في تسميتها واما في لقبها فهي بناؤُها الذي هو من حجر ابيض او على ارض بيضاء وفيها يقول ابن الوردي

عليك بصهوةِ الشهباء تُكفَى   حوشيهـــا محاربةَ الزمانِ
فمعروفات في الفردوس طيبٌ   يفوح شذاهُ من باب الجنانِ

والى ناحية الجنوب منها موقع قنسرين التي كانت في اوائل الاسلام مدينة اعظم من حلب وهي الآن خراب وقربها حاضر قنسرين الذي يقول فيهِ عكرشة

سقى الله اخوانا ورائي تركتهم محاصر قنسرين من سُبُل القطرِ

وبقربها ايضًا موضع يقال له المرادبس وهو المأسدة التي مرّ فيها ابو الطيب المتنبي ولما زأرت عليه الاسود قال

أجارُكِ يا أسدَ المرادبس مُكرَمٌ فتسكنَ نفسي ام مُهانٌ فمُسلَمُ
ورائيَ وقدّامي عداةٌ كثيرة احاذر من لصٍّ ومنكِ ومنهمُ

وبقرب قنسرين موقع مدينة الحاضرة التي كان يسكنها عمر بن عبد العزيز وقد ذكرها المتنبي فقال

احبُّ حمصًا الى خُناصرةٍ وكلُّ نفسٍ تحبُّ محياها

اما معرّة النعمن فهي منسوبة الى النعمان بن بشير الانصاري وكان اجتاز بها فمات له ولد فيها فاقام عليه فنسبت اليه بهذا السبب الصعب ثم مات النعمان المذكور قتيلاً بيد اهل حمص سنة ٦٥ للهجرة (سنة ٦٨٤ م) والى المعرة المذكورة ينسب ابو العلا احمد بن عبد الله بن سليمان التنوخي المعري الشاعر الاعمى المشهور وفيها يقول

يا ماء دجلةَ ما اراك تمدُّ لي شوقًا كماء معرّة النعمانِ

توفي سنة ٤٩٤ للهجرة (سنة ١١٠٠ م)

ومدينة حماه على جانبي نهر العاصي قال ابو الفداء في برّه البلاد الشامية وتشبه شيزر بكثرة النواعير التي تختص بها دون غيرها من بلاد الشام وكان لها سورٌ عظيم قال فيه شهاب الدين الداري سور حماه بربها محروس وهي عبارة بديعة في الصناعة لاستوائها في القراءة طردا وعكسًا واليها يُنسب كثير من الادباء كياقوت وابي الفداء المؤرخين والشيخ تقي الدين بن حجة صاحب البديعية المشهورة وشيخ الشيوخ بحماه وغيرهم وفيها يقول ابن حجة المذكور

مرجُ حمـــاةٍ نواعيرُهُ زادت على المقياس في روضتهِ[1]
واغتاظ عورُ دمشق لما قلت لا افكر في غيضتهِ

ومدينة حمص وهي بالقرب من نهر العاصي ايضاً وفيها يقول بدر الدين حسن بن حبيب

جزيرةُ حمصٍ كعبة اللهو اصبحت يطوفُ بها دانٍ ويسعى لها قاصي
لها حلةٌ من نبتهـــا سندسية تعلق في ذيل استارها العاصي

فعارضهُ الشيخ تقي الدين ابن حجة وقال

جزيرة حمص لم تكن قط كعبةً يطوف بها دانٍ ويسعى لها قاصي
ولكنهـــا اللهو والقصف حانةٌ ألم تنظروها كيف جاورها العاصي

وعلى مسافة ٤ ساعات من حماه لجهة الشرق خرائب مدينة سَلَمْيَة التي اشتهرت في ايام الرومانيين وفي اوائل الاسلام وقد ذكرها المتنبي بقولهِ في وصف واقعةٍ جرت مع سيف الدولة العدوي سنة ٣٤٤ للهجرة (سنة ٩٥٥ م)

فَرَقْتَهُمْ المُروجِ مسوَّماتٍ ضوامرَ لاهزالَ ولا شيارُ
تثيرُ على سلمية مُسْتَطِيرًا تناكَرَ تحتهُ لولا الشعارُ

والى شرقي حمص تدمر وهي من لفظة عبرانية معناها التمر فترجمها اليونانيون والرومانيون بلميرا اي مدينة النخل يقال بناها سليمان بن داود (١ملو ص٦ ١٨) ولعلَّ مراد انهُ حسَّنها وزاد في ابنيتها وقد ذكرها المتنبي حين تحصَّن بها بنو عامر وكلاب من سيف الدولة سنة ٣٤٤ للهجرة (سنة ٩٥٥ م)

وليسَ بغير تدمرُ مُستغاثٌ وتدمرُ كاسمها لهم دمارُ
ارادوا ان يديروا رأي فيها فتديرهم برأيٍ لا يدارُ

وكانت العرب تزعم انها من بناء الجن لما ترى من قوتها الباهرة وعلى

[1] اشارة الى الروضة والمقياس وهي في جزيرة وسط النيل من اعظم منتزهات مصر

ذلك قول النابغة الذبياني

الّا سليمانَ اذ قال الاله له … قم في البريَّة فاحددها عن الفَنَدِ
وخيّس الجنَّ اني قد أذِنتُ لهم … يبنون تَدمُرَ بالصفّاح والعَمَدِ

وكانت هذه المدينة في اعظم زهوها في عصر الملكة زينب التي تسميها الافرنج زنوبيا وكانت حلّت على المملكة زوجها المسمّى عند الافرنج اودوناتوس لكونه من بني عذينة وذلك في اواخر القرن الثالث للتاريخ المسيحي اعني قبل الاسلام باكثر من ٣٠٠ سنة فلما انتصر على هذه الملكة القيصر اورليانوس الروماني واخذها اسيرةً الى رومية ابتدأت تدمر تنحط عن عظمتها القديمة والآن لم يبقَ منها سوى آثار هياكلها وابنيتها القديمة

ومن مدن ريف البحر المتوسط ممتدًّا من جهة الشمال مدينة اللاذقية بناها الملك سلوقوس الغالب وسمّاها على اسم أمهِ وكانت قديمًا من المدن المعتبرة ومقامًا للتنوخيين امراء تلك الاعمال وفيها توفي الامير محمد بن اسحق التنوخي الذي رثاهُ المتنبي بقصيدة منها قوله

خرجوا به ولكلِّ باكٍ خلفهُ … صَعَقاتُ موسى يومَ دُكَّ الطورُ
والشمس في كبد السماء مريضةٌ … والارض واجفةٌ تكاد تمورُ
وحفيف اجنحة الملائك حولهُ … وعيون اهل اللاذقية صورُ

وقد خربت هذه المدينة بزلزلةٍ حصلت سنة ١٢١١ للهجرة (سنة ١٧٩٤ م)

اما جبلة فلا يوجد بها سوى الجامع الذي بناهُ السلطان ابرهيم ادهم وآثار مكان ملاعب الرومانيين لا يزال للآن يسمّى الثياتر وهو على شكل قوس دائرةٍ مقاعدهُ صفوفٌ حولَ الساحة المتوسطة كلُّ صفٍّ منها مرتفع قليلاً عمّا تحتهُ ونصف قطر الدائرة نحو ١٥٠ قدمًا ومحيطها من خارج نحو ٤٥٠ قدمًا وتحت المقاعد مرابض كانوا يضعون فيها الوحوش التي يحضرونها لتلك الملاعب

وفي قريةٍ يقال لها سعبطة شرقي طرطوس لجهة الجنوب برج على تلّ من

ايام الرومانيين والى الجنوب الشرقي منها دير الحميراء المنسوب الى القديس جاورجيوس بالقرب من عين دورية تجري منها المياه مدةً ثم تنقطع مدةً اخرى وطول مدة جريانها او انقطاعها يختلف بحسب اختلاف الفصول وهو النهر السبتي الذي اشار اليه يوسيفوس بن كريون المؤرخ اليهودي

والى الجنوب من هذا الدير قلعة الحصن وهو المعروف قديمًا بحصن الاكراد وكان مقام السلطنة قبل افتتاح طرابلس ويقال له حصن عكار ايضًا وكان قد حاصرهُ الملك الظاهر بيبرس (انظر تاريخ ابي الفداء الحموي مجلد ٥ صفحة ٢٨) فامتنع عليهِ زمانًا وكان في صحبتهِ الناصري محيي الدين بن عبد الله بن عبد الظاهر فقال في ذلك

حصن عكّار ما صفا قطُّ يومًا من الكدرْ
كيف يصفو الذي ثلاثة ارباعهِ عكرْ

وكان في تلك الايام قد اقام بعض اجنادهِ على حصار عكا وامتنعت عليهِ ايضًا ثم افتتح حصن عكار ولم تزل عكا ممتنعة فقال الناصري المشار اليهِ

يا مليك النصر قد هُنّئتَ فابشر بالاراده
انَّ عكّارَ لعمري في عكّا وزياده

وعكار المذكورة هنا هي الآن احدى مقاطعات طرابلس الآتي ذكرها وكانت مقام الامراء بني سيفا ومن قراها قرية عرقا التي كانت قديمًا مدينة مشهورة والآن ليست الا قرية بهيجة فى هذه المقاطعة (راجع كتابنا سياحة المعارف وجه ٤٢) •

اما طرابلس فقد قيل ان اصلها من اناس رحلوا من صور وصيدا ورواد في الايام القديمة فبنى كل قوم منهم محلةً ثم اتصلت تلك الابنية الى واحدة ودعيت باسم طرابلس لان معناهُ باليونانية المدن الثلاث . وقال ابو الفداء طرابلس

مدينة رومية على طرف داخل البحر افتتحها المسلمون (اي استرجعوها من الصليبيين) سنة ٦٨٨ للهجرة (سنة ١٢٨٩ م) وخربوها وعمروا على نحو ميل منها مدينة سموها باسمها. قال ياقوت في المشترك وقد فرّق بعضهم بينها وبين مدينة اخرى بهذا الاسم في شمال افريقية فجعلوا التي في الشام اطرابلس بزيادة الهمزة في اولها والاخرى طرابلس بغير همزة الّا ان المتنبي خالف هذا بقوله في طرابلس الشامية

اكارمُ حسّدَ الارضَ السماءُ بهم وقصّرتْ كلُّ مصرٍ عن طرابُلُسِ

ويعرفون بينها ايضاً بقولهم لهذه طرابلس الشام ولتلك طرابلس الغرب وهو مشهور اه. وكان في طرابلس القديمة التي الآن في موقعها الميناء مكتبة قد اعتنى بجمعها القاضي ابو طالب حسن حتى اشتملت على ٣٠٠ الف مجلد في اللغة العربية والفارسية واليونانية احترقت لما افتتح الافرنج الصليبيون تلك المدينة سنة ٤٩٦ للهجرة (سنة ١١٠٢ م) وقال العلامة الفاضل الدكتور كرنيليوس فان دَيك الحكيم الاميركاني في كتابه المرآة الوضية في الكرة الارضية الذي ننقل عنه اغلب ما اوردناه في هذه المقالة . طرابلس قسمان المدينة والمينا اما المدينة فعلى جانبي نهر ابي علي والمياه دائرة في شوارعها وابنيتها وربما صعدت الى الطبقة الثالثة من دورها) واما الميناء فهي على راس لسانٍ داخل البحر وهي موقع المدينة القديمة واهالي طرابلس موصوفون بشدة الباس وعزة النفس واكثرهم يحبون العلم والعلماء وهذه المدينة بساتين كثيرة تكثر فيها الاثمار والفواكه وهي مشهورة بطيب السفرجل والبردقان واليوسفي اه. وتلقب هذه المدينة بالفيحاء عدلاً لشدة ما ينتشر فيها من روائح الازهار العطرية وخاصةً في ايام الربيع عند ما تستغرق بزهر اشجار الليمون والاترج المحيطة بكل اطرافها بل وفي حدائق بيوتها ايضاً وقد وصفها ابن ماتية الرومي فقال

ألا اخبي من قول زيدٍ ومن عمرو وقم ننهب اللذات في فرص العمرِ

فان الليالي تسرق العمرَ خلسةً من الغافل المغترّ من حيث لم يدرِ
فيا قلب لا تأسف على كلّ فائتٍ وحلّ عن الخلّ الذي زاد في الهجرِ
ففي كلّ يومٍ تلتقي الفَ موطنٍ فعشْ خاليَ الافكارِ والبالِ والشرِ
وان كان وادي الشام سار بمأثمٍ طرائس اسمحاء باسمة الثغرِ
حكت جنّةَ الفردوس حسنًا ومنظرًا وسكانها الولدان تسمو على البدرِ
لها قصبات السبق بالقصب الذي حلا رشفهُ طعمًا على السكر المصري
ولو لم تكن تحكي الجنان لما حوت فواكه رمانٍ يجلّ عن التبرِ
بوادي بواديهـا حبت رحابها حكى انه المشتاق من لوعة الهجرِ
وابراجها عدّ الكواكب سبعةٌ ونحمي حمى الاسلام من عصبة الكفرِ
وكم طمّست عين العدوّ بقلعةٍ حماها اله العرشِ بالعز والنصرِ
باربعةٍ سادت وسادَ مقامها على سائر الامصار في البحر والبرّ
بابيض ثلجٍ واحمرار كانهـا وخضرة مرجٍ قد حلا زرقة البحر
بنوها بنوا في الجد ركنًا مشيدًا له في الملا ذكرٌ وناهيك من ذكرِ
وناهيك من قومٍ واهل مروءةٍ غريبهم لم يشكُ من ضيقة الصدرِ
كرام الحَشا شيمهم وقيامهم وملتقاهمُ بالضيف ان جاء بالبشرِ
وفيهم امرا للامارة اهمّ اذا امروا بالخير واولوك بالبرّ
وفيهـا تجار تربح الكسبَ والثنا وقد ينفقوا اموالهم لذوي الفقرِ
أيا ربّ فاحرسهم بعين عنايةٍ بجاه رسول الله من سادَ بالفخرِ

ومدينة بيروت وهي فرضة دمشق والى جهة الجنوب منها بنحو ساعةٍ مقام الامام الاوزاعي النبيه وهو ابو عمرو عبد الرحمن بن عمرو بن محمد الاوزاعي امام اهل الشام توفي سنة ١٥٧ للهجرة (سنة ٧٧٤ م) وقد رثاهُ بعضهم بقوله

جاد الحيا بالشام كلّ عشيةٍ قبرًا تضمّن لحدهُ الاوزاعي
قبرٌ تضمن فيه طود شريعةٍ سقيًا له من عالمٍ نفّاعِ

عرضت له الدنيا فاعرض مثلنا عنهـا بزهدٍ أبيّا اقلاع

واما مدينتا صيدا وصور فقد نقلنا ما وصل الينا من اخبارها في الكتاب المسمى زبدة الصحائف في سياحة المعارق (صفحة ٣٦) فيراجع

واما عكا فهي الى الجنوب من صور وكانت تسمى قديمًا بطولمايس وهي الآن حصن مهمّ من الحصون العثمانية

وعلى الجنوب من عكا مدينة حيفا فوقها جبل الكرمل الذي كان يتردد اليه ايليا النبي

ومدينة طبرية يوجد بالقرب منها مياه سخنة وعليها حمام يغتسل الناس به وفي ما يلي هذا الحمام بحيرة عظيمة واسعة تجتمع اليهـا المياه وهي ذات امواجٍ واسماك وكان حولها غياض وبساتين كثيرة وفيها يقول ابو الطيب المتنبي في قصيدته التي يمدح بها علي بن ابرهيم التنوخي

لولاك لم اترك البحيرة والـ ـغور دفيءٌ وماؤها شبمُ
والموج مثل الفحول مزبدة تهدر فيها وما بها قطمُ
والطير فوق الحباب تحسبها فرسانَ بُلقٍ تخونها اللجمُ
كأنها والرياح تضربهـا جيشُ وغًى هازمٌ ومنهزمُ
كأنهـا في نهارها قمرٌ حفّ به من جنانها ظُلَمُ
ناعمة الطير في جوانبهـا وجادت الارض حولها الديمُ
تغنّي كماريةٍ مطوّقةٍ جُرِّدَ عنها غشاؤها الأدَمُ

وفي مدينة نابلس قرية يقال لها بورين التي منها اصل الشيخ حسن البوريني ونابلس هي مدينة شكيم المذكورة في الكتاب المقدس (تك ص ١٢ و٣٣ و٣٤ و٣٧) ومنها الشيخ عبد الغني النابلسي المشهور بالتصوّف وصناعة الشعر نشأ بدمشق الشام وتوفي في القرن الثاني عشر للهجرة (الثامن عشر للميلاد)

ونواحي اقاجيقة لجنوب الشرقي منها مدينة الرملة التي منها خرج الشيخ

خير الدين الرملي صاحب الفتاوي الخيرية المشهورة عند الفقهاء وكانت دار ولاية الامراء بني طنج الذين يقول فيهم ابو الطيب المتنبي

ارى دون ما بين الفرات وبرقةٍ	ضرابًا يمشي الخيلَ فوق الجماجمِ
وطعن غطاريف كأنّ اكفّهم	عرفنَ الردينيات قبل المعاصمِ
حمتهُ على الاعداء من كل جانبٍ	سيوف بني طغج بن جفّ القماقمِ
هم المحسنون الكرَّ في حومة الوغى	واحسنُ منهُ كرُّهم في المكارمِ

واما مدينة اورشليم المعروفة بالقدس الشريف فقد استوفينا كلامنا عليها في كتابنا زبدة الصحائف في اصول المعارف (صفحة ١٤—١٧)

ومدينة حبرون ويقال لها الخليل وهي مدينة قديمة وهناك سكن ابرهيم الخليل واسحق ويعقوب ودفنوا مع بعض نسائهم

ومدينة غزة الى الجنوب الغربي من الخليل ويقال لها غزة هاشم لان عمر ابن عبد مناف القرشي الملقب بهاشم الثريد خطر اليها تاجرًا فمات فيها وفي ذلك يقول مطرود بن كعب الخزاعي

وهاشمٌ في ضريحٍ وسط بلقعةٍ	تسفي الرياحُ عليهِ بين غزّاتِ

الفصل الخامس

في الكلام على بلاد مصر

هذه البلاد استولى عليها العرب بحق الفتوح مرتين الاولى قبل التاريخ المسيحي بعدة قرون ذكر بعض المؤرخين انهم جاءوا اليها من جهة آسيا ودخلوها

من الجهة البحرية المسماة دلتا واستولوا على جميع جهات مصر السفلى تحت راية الوليد بن دومع وهو المسمّى عند اليونان باسم سلاطيس ولما استقر بالولاية احرق المعابد والهياكل وبنى القلع والحصون وشحنها بالعساكر ومهمات الحرب خوفاً من هجوم المصريين وجعل مدينة منفيس تخت المملكة وكان المصريون يكرهون هولاء العرب الذين يقال عنهم بانهم من رعاة المواشي وينفرون منهم لقساوتهم وكثرة جورهم واحتقارهم الديانة المصرية واستمرت احكام البلاد في ايديهم نحو ٢٦٠ سنة وقبل اكثر من ذلك الى ان اقتصها منهم فرعون اموسيس بعد حروب كثيرة وذلك قبل الميلاد نحو ١١٠٠ سنة

اما المرة الثانية فكانت بعد الاسلام في سنة ٢٠ للهجرة (سنة ٦٤٠ م) تحت راية عمرو بن العاص في زمن خلافة عمر بن الخطاب ومن ثمّ استوطنوها الى يومنا هذا وحيث قد تكلمنا على هذه الخطة بالكتابة في كتابنا زبدة الصحائف في سياحة المعارف (وجه ٤٢ – ٧٨) فلا حاجة الى اعادة ذكر شيء من بلادها وآثارها وما قاله الشعراء فيها هنا بل نكتفي بما قاله الشيخ عمر الفارض

وطني مصر وفيها وطري ولعيني مشتهاها مشتهاها
ولنفسي غيرها ان سكنت يا خليليّ سلاها ما سلاها

المقالة الثانية

في اقسام العرب الاصلية وفيها اربعة فصول

الفصل الاول

في اقسام العرب الاصلية

لا يوجد اسقم من تاريخ هذه الامة في الاعصار القديمة وهي تنقسم الى ثلاثة اقسام بائدة وعاربة ومستعربة . اما البائدة فهم العرب الاولون الذين ذهبت عنا تفاصيل اخبارهم لتقادم عهدهم كعاد وثمود وجرهم الاولى ولم يبقَ من ذكرهم الاَّ القليل وسوف نذكر شيئاً منه . واما العرب العاربة فهم عرب اليمن من ولد قحطان. واما العرب المستعربة فهم ولد اسماعيل بن ابرهيم الخليل الذي على ما قيل اتصل بجرهم الثانية من ولد قحطان ايضاً وتزوج منها وقيل لنسلهِ المستعربة لان اصل اسماعيل ولسانهُ كان عبرانيًا ومن العرب العاربة والمستعربة تكونت قبائل العرب المعروفة

الكلام على العرب البائدة

قيل ان اولاد سام بن نوح استوطنوا هذه البلاد ونشأ منهم قبائل وبطون

كثيرة باد اكثرها او اندرج مع غيرها حتى لم يبقَ لها رسم منذ ادوار وهولاء هم المسمون بالعرب البائدة وقيل انها سبع قبائل عاد وثمود وصحار وجاسم ووبار وطسم وجديس وكانت مساكنهم بعمان والبحرين واليمامة وكانت لغتهم عابقة خشنة

واشهر هذه القبائل قبيلة عاد بن عوص بن ارام بن سام بن نوح (تك ص ١٠ ٢٢و٢٣) وكانوا ينزلون في الاحقاف في حضرموت

وقبيلة ثمود وهي قبيلة جاثر بن ارام بن سام (تك ص ١٠ ٢٣) سكنوا اولاً في اليمن ثم طردهم منها حيمير بن عبد شمس الملقب سبا فنزلوا في الحجر من الحجاز وصار ذلك مثلاً يُضرَب في تفرّق القوم يقال تفرقت بهم ايدي سبا

وقبيلة طسم من ولد لود بن سام (تك ص ١٠: ٢٢) وجديس من ولد جاثر المذكور آنفا وسكنت هاتان القبيلتان معًا الى ان وقع السيف بينهما فبادتا جميعًا قال المتنبي

أَشمت الخلفُ بالشراة عداها وشفى ربَّ فارسٍ من اباد
وتولّوا كأمسِ في الترب مما وكطسم واختهـــا في البعادِ

وقبيلة جرهم الاولى وقد وقع ذكرها وذكر عاد في شعر المتنبي ايضًا حيث يقول

يقرّ له بالفضل من لا يودّهُ ويقضي له بالسعد من لا ينجّمُ
اجار على الايام حتى ظننتهُ تطالبهُ بالردِّ عادٌ وجرهمُ

وقبيلة عمليق بن اليفاز بن عيسو (تك ص ٣٦ ١٢) وهم اشهر قبائل العرب البائدة ولم يزل محفوظًا شيء من اسماء احيائهم وقطع من اشعارهم. قال أُليف بن رباد وقيل أُنيف بن حكيم النبهاني

لهم عجزٌ بالرملِ فالحزنِ فاللوى وقد جاوزت حيَّيْ جديس رِعالُها

وقال المتلمس

أَلم تر أَنَّ الجون(١) اصبح راسيًا ... تُطيفُ بهِ الايام ما يتأَيَّسُ

ومن اشعارهم قول عفيرة بنت عباس الجديسية ويقال لها الشموس تحرّض قومها على عملاق ملك طَسْم وكان فاحشًا ظَلومًا

لا احدٌ اذلُّ من جديس ... أَهكذا يفعل بالعروس
يرضى بهذا يا لَقومي حُرُّ ... هدا وقد أُعطي وسيق المهرُ
لَخوضهُ بحر الردى بنفسهِ ... خيرٌ لهُ من فعلِ ذا بعرسهِ

وقول هذيلة امرأة قرقس الجديسي في عملاق المذكور

اتينا اخا طسمٍ ليحكم بيننا ... فانفذ حكمًا في هُذَيلة ظالما
لعمري لقد حُكِّمتَ لا متورّعًا ... ولا كنتَ فيمن يُبرِمُ الحكم عالما

وكان انقراض القبيلتين على يد عملاق المذكور فانهُ لما فتك بعرس الشموس الجديسية المذكورة ثار اخوها الاسود فاحتال على عملاق حتى تمكن منهُ وهو في نفرٍ من قومهِ فاعملوا بسيوف اصحابهِ الجديسيين حتى اتى على آخرهم ثم قال

ذوقي ببغيكِ يا طسمٌ مجلَّلةً ... فقد اتيتِ لعمري اعجب العجبِ
أَنَّا ابينا فلم نحفل بقتلهمِ ... والبغيُ هيَّجَ منا سَوْرة الغضبِ
ولن يعود علينا بغيهم ابدًا ... ولن يكونوا لذي انفٍ ولا ذنبِ
فلو رعيتم لنا قُربى مؤكَّدةً ... كنَّا الاقارب في الارحام والنسبِ

ونجت بقيةُ طَسْمٍ الى حسَّان بن تُبَّع فغزا بني جديس وقتل رجالهم واخرب

(١) يريد بالجون حصن اليمامة ويقال انهُ من صنع طَسْم وجديس قال بهِ التبريزي في شرح الحماسة

بلادهم فهلكت القبيلتان جميعاً ولذلك قيل في الامثال اغر من جديس عن طسم

الكلام على العرب العاربة والمستعربة

اما العرب العاربة والمستعربة فقد ذكروا ايضاً انهٔ سكن في بلاد العرب نواحي اليمن بنو قحطان بن عابر بن شالح بن ارفخشاد بن سام بن نوح (تك ص ١٠ع ٢١–٣٠) وسمّي نسلهُ العرب العرباء

ومن نسل قحطان مَن ملك في اليمن ومنهم من ملك في الحجاز والذين ملكوا في اليمن على ما قالهُ بعضهم قحطان بن عابر المذكور وان ملكهُ كان قبل عهد الاسكندر المكدوني بنحو ١٧٠٠ سنة وفيهِ يقول بعض الشعراء

فما مثل قحطان السماحة والندى ولا كابنهِ ربّ الفصاحة يعرب

وقيل بل هو يعرب بن قحطان وبهِ سُميت العرب وكان اوّل من حيّاهُ قومهُ بتحية الملك واوّل من ابتدأ بعمارة المدن في اليمن واول من نطق بالعربية ايضاً وقيل بل ان قحطان اباهُ اوّل من نطق بها وتأول ابن خلدون المغربي بان معناهُ من اهل هذا الجيل الذين هم العرب المستعربة والاَّ فقد كان للعرب جيل آخر وهم العرب العاربة ومنهم تعلم قحطان اللغة العربية ضرورةً ولايمكن ان يتكلم بها من ذات نفسهِ

ثم ملك بعدهُ يشجب بن يعرب وعبد شمس بن يشجب وهو الملقب بسبا. وقيل انهُ لُقّب بهذا اللقب لكثرة فتكهِ وسبيهِ . قال ابن خلدون انهُ هو اول من سنّ السبي وهو الذي بنى مدينة سبا وسدّ مارب وعين شمس باقليم مصر ثم اولادهُ حِميَر وكهلان وعمرو واشعر وعاملة ومن هولاء قبائل العرب العرباء

واما الذين ملكوا في الحجاز فاولهم جُرْهم بن قحطان بن عبد ياليل ثم عبد المدان بن نُعَيلَة ثم عبد المسيح بن مضاض الذي تزوج بابنتهِ رعلة اسماعيل

الذي من نسلهِ اهاجريون وقد اتخذوا لقبهم من اسم امهِ هاجر والسوئيون المتخذون لقبهم من نبيوث والايثوريون من ابو ايثور (تك ص ٢٥: ١٣—١٥) ثم عمرو بن الحرث بن مضاض بن عمرو ومنهم العرب العاربة وهم قبيلة جرهم الثانية ويخفون نسبهم الى عدنان لا الى اسماعيل بسبب الاختلاف الواقع في الاجيال بين اسماعيل وعدنان فقد قيل انها ٨ اجيال وقيل ٧ وقيل ٣ ومن عدنان قبائل العرب المستعربة واشهرها قبيلة فهر المُلقَّب قريش ومنهُ آل قريش الذين هم سدنة الكعبة ومنهم ظهر صاحب الشريعة الاسلامية كما يتضح ذلك من التفصيلات الآتية

الفصل الثاني

في قبائل العرب وما يتفرَّع عنها

تُقسم العربُ في اصطلاح علماء النسب الى طوائف اعمّها الشعب واخصّ منهُ القبيلة ثم العمارة ثم البطن والبطون هم اوساط الانساب في القرب من الجدّ الاعلى والبعد عنهُ ثم الفخذ ثم الفصيلة ثم العشيرة وهم ادنى الاقارب فالشعوب في القبائل مثل بني مُضَر والقبائل مثل بني قيس بن غيلان بن مُضَر والعمائر مثل بني سعد بن قيس بن عيلان والبطون مثل بني غطفان بن سعد ابن قيس والافخاذ مثل بني ذبيان بن بغيض بن ريث بن غطفان والفصائل مثل بني فزارة بن ذبيان والعشائر مثل بني بدر الفزاري

وعدهم الجماجم جمع جمجمة هم السادات والقبائل التي تجمع البطون فيُنسب اليهم دونهم نحو كلب بن وبرة اذا قلت الكلابي استغنيت عن ان تنسبهُ

الى شيء من نطويه اما قولهم بالحرث مثلاً فهو مقطوع من بني الحرث بن كعب وهو من سواذ التخفيف وكذلك يفعلون في كل قبيلة تظهر فيها لام التعريف كبلقين لبني القين وبلهجيم لبني الهجيم وبلعنبر لبني العنبر وهكذا الخ

وينتسبون ايضاً الى حضر وبدو قال ملطبرون يعرف من مؤرخي العبرانيين ان العرب ينقسمون من قديم الزمان الى قبائل عديدة بعضها رحّل وبعضها مقيم في المدن فالمقيمون في المدن هم العرب ويُعبَّر عنهم بالحَضَر من الحضارة والتمدن والقصر. واما الرحالة الدالة سكان الخيام فهم اعراب جمعه اعاريب قال المتنبي

من الجآذر في زيّ الاعاريب بيض الطلا والثنايا والجلابيب

ويُطلق عليهم البدو واهل الوبر فالبدو نسبة الى البادية وهي الصحراء واما الوبر فهو شعر الجمال

وذكر ملطبرون ايضاً مراتب بعض هذه التقسيمات فنقل نقلاً عن بعض المؤرخين ان العرب الجنوبية كانوا مثل الهنديين والمصريين منقسمين الى خمسة طوائف طائفة المحاربين وطائفة الرعاة وطائفة الصناع وطائفة العلماء وطائفة التجار

الفصل الثالث

في اشراف العرب

وكان كريم العرب وشريفها في الجاهلية عبد مناف من ولد قصيّ بن كلاب القرشيّ وبنوهُ عبد شمس وهاشم والمطلب ونوفل وهم كذلك في الاسلام

وكان يُدعى القمر والسيد والفهد واسمهُ المغيرة واخوتهُ عبد الدار وعبد العزى وكان اسمهُ اولاً عبد مناة بن كنانة بن خزيمة فأُحيل الى عبد مناف

وكذلك عبد المدان بن الديان بن قطن بن زياد بن الحرث بن مالك ابن ربيعة الحارثي رهطهُ من بني الحرث بن زياد واهل بيتهِ بنو قنان واولادهُ اخوال بني العباس الآتي ذكرهم وهو من اشراف العالم واكابر الدنيا وبهِ يُضرب المثل للرجل العظيم فيُقال اشرف من ابن عبد المدان قال لقيط بن زرارة

شربتُ الخمرَ حتى خلتُ أني ابو قابوس[1] او عبدُ المدانِ
اسيرُ في بني عبس بن زيدٍ رخيُّ البالِ منطلقَ اللسانِ

وكانت العرب تعدُّ البيوتات المشهورة بالكبر والشرف من القبائل بعد بيت هاشم بن عبد مناف المتقدم ذكرهُ في قريش ثلاثة بيوت ومنهم من يقول اربعة اولها بيت حذيفة بن بدر الفزاري وبيت قيس وبيت آل زرارة بن عديّ الدارميين وبيت تميم وبيت آل ذي الجدين بن عبد الله بن همام وبيت شيبان وبيت بني الديّان من بني الحرث بن كعب بيت اليمن . واما كندة فلا يعدُّون من اهل البيوتات وانما كانوا ملوكاً

اما بعد الاسلام فقد انحصر الشرف العربي في السلالة الهاشمية ويعبَّر عنها اهل البيت (اي بيت صاحب الشريعة الاسلامية) فلا يُعرف الشريف ربما ويُطلق عليهِ لقب السيد الاّ اذا كان نسبهُ متصلاً باحدٍ من اهل البيت بدون التفاتٍ الى حالة دنياهُ ولا الى صناعتهِ

وصاحب الشريعة المشار اليهِ هو محمد بن عبد الله بن عبد المطّلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصيّ بن كلاب بن مرَّة بن لوي بن غالب بن فهر بن مالك بن نضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مُضَر بن نزار بن معدّ بن عدنان

---

(١) ابو قابوس كنية النعمان بن المنذر اللخمي ملك العرب

وتوفي عن تسع نسوة جُمعنَ في هذه الابيات الثلاثة

توفي رسول الله عن تسع نسوة   اليهنَّ تُعزى المكرمات وتنسبُ
فعائشة ميمونة وصفيّة   وحفصة يتلوهنَّ هندٌ وزينبُ
جويرةٌ مع رملة ثم سودةٍ   ثلاث وست ذكرهنَّ مهذبُ

وخلفه بعد وفاته كبار اصحابه واولهم كان ابو بكر الصدّيق الخليفة الاول واسمهُ عتيق ويقال عبد الله بن ابي قحافة عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن تيم القرشي وثانيهم عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزّى بن قرط بن رباح بن رزاح بن عديّ القرشي . والثالث عثمان بن عفّان بن العاص بن أُميَّة بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصيّ الذي تقدَّم ذكرهُ . والرابع علي بن ابي طالب بن عبد المطّلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصيّ

اما الذين تولوا الخلافة بعد كبار الصحابة المشار اليهم فينقسمون الى ثلاث طوائف الاولى منهم بنو أُميَّة ويقال لهم الأُمويون وأُميَّة هو ابن عبد شمس بن عبد مناف بن قصيّ . والثانية العباسيون وهم بنو العباس عمّ الرسول صاحب الشريعة المشار اليهِ . والثالثة بنو الحسين بن عليّ بن ابي طالب المتقدم ذكرهُ ويقال لهم الفواطم نسبةً الى فاطمة الزهراء زوج علي المشار اليهِ وهي بنت الرسول صاحب الشريعة الاسلامية لكنهم شيعة وفي نسبهم خلاف كبير بين العلماء فمنهم من ينكر عليهم هذا النسب ومنهم من يثبتهُ

الفصل الرابع

في علم الانساب

قال ابن خلدون المغربي ان حفظ الانساب والنعمة كان في مضر وقريش وكنانة وثقيف وبني اسد وهذيل ومن جاورهم من خزاعة لانهم كانوا اهل شظف[1] ومواطن غير ذات زرع ولا ضرع وبعدوا من ارياف[2] الشام والعراق ومعادن الادم[3] والحبوب فلم يخلطوا بغيرهم فكانت انسابهم صريحة محفوظة لم يدخلها اختلاط ولا عُرِف فيها شوب[4]

ويضربون المثل في نسب تميم فيقولون لمن ارادوا المبالغة في حسن نسبه احسن نسبًا من تيم وتيم هذا هو اد بن طابخة بن الياس بن مُضَر وهو خال النضر بن كنانة ابي قريش وذلك ان برّة بنت مرّ اخت تيم هي امّ النضر وفيها يقول جرير

وما الامُّ التي ولدت قريشًا   بمقرفةِ النجار ولا عقيمِ
فما والدٌ باكرم من قريشٍ   ولا خالٌ باكرم من تميمِ

ومن قبائل تميم بنو الحرث الذين منهم الاحنف بن قيس بن عاصم بن صيفي وكلٌّ منهم مثلٌ في ما اختصّ به

ولشدّة مباهاة الجاهلية في انسابهم كان كثيرًا ما يقع التنافر بسببها فكان

---

(١) الشظف ضيق العيش (٢) الريف الارض المخصبة ذات خضرة ومياه
(٣) الادم هنا الجلود (٤) الشوب الاخلاط

اذا تنافر رجلان في الحسب والنسب[1] تنافرا الى حكامهم فيقولان عند المنافرة أ ينا اعزّ نفرًا والمنفور هو المغلوب والنافر الغالب ويقال لمن يقضي في ذلك الحكم وكان المنفور يعطي النافر ما يقع عليه الشرط فيحطّ قدرهُ بين العرب

وكان من حكام تميم اكثم بن صيفي وحاجب بن زرارة والاقرع بن حابس وربيعة بن مخاشن وضمرة بن ابي ضمرة غير ان ضمرة هذا حكم فاخذ رشوة فعدر

ومن حكام قيس عامر بن الظرب الذي مرّ ذكرهُ وغيلان بن ابي سلمة الثقفي يزعمون انهُ كان له ثلاثة ايام يوم يحكم فيه بين الناس ويوم ينشد شعرهُ فيه ويوم ينظر فيه الى جماله وجاء الاسلام وعندهُ عشر نسوة فخيّرهُ الرسول صاحب الشريعة الاسلامية فاختار منهنّ اربعة فصار ذلك سنّة

ومن حكام قريش عبد المطّلب وابو طالب والعاص بن وائل والعلاء بن حارثة

ومن حكام اسد ربيعة بن حذار

ومن حكام كنانة يَعْمُر الشدّاخ وصفوان بن أُميّة وسلمى بن نوفل

واما الذين اشتهروا في الجاهلية بمعرفة الانساب وضربت بهم في ذلك الامثال فمنهم دغفل بن حنظلة السدوسي من بني ذهل بن ثعلبة وكان اعلم اهلِ زمانه بالانساب وورقاء بن الاشعر ويكنى ابا الكلاب ويقال ايضًا ان رجلاً يقال له عبد الله بن حُصين كان انسب العرب واعظمهم كبرًا وهو الذي يُضرَبُ به المثل فيقال أنسبُ من ابن لسان الحُمَّرة ومنهم زيد بن الكيس وقيل ابن الحرث النمري ومالك بن جبير وهو صاحب المثل المشهور على الخبير سقطت يُضرَب لواقف على الحقائق العالم بها

ومن اشتهر بالحيلة على الاصلاح بين المتنافرين رجل يقال له هرم بن قطبة فانهُ احتال في المصالحة بين علقمة بن علاثة بن صعصعة وعامر بن الطفيل

(١) قيل الحسَبُ من طرف الاب والنسب من طرف الام

ومع بجلبهِ العداوة التي كان لابدَّ من وقوعها بين الفريقين فضُرب بهِ المثل في الحكمة

ويحكى ايضًا بان عامر بن الظرب العدواني وقيل له ذو الحلم كان لا يعدل بفهمهِ فهماء ولابحكمهِ حكماء فلما طعن في السن انكر من عقلهِ شيئًا فقال لبنيهِ قد كبرت سني وعرض لي سهوٌ فاذا رايتموني خرجتُ من كلامي واخذت في غيرهِ فاقرعوا لي المجنّ بالعصا ولذلك قيل في امثالهم ان العصا قُرعت لذي الحلم. ويحكى انهُ أُتيَ بخنثى ليحكم فيهِ فلم يدرِ ما الحكم فجعل ينحر لهم ويطعمهم ويدافعهم بالقضاء وكان له جارية يقال لها خُصيلة فقالت له ما شأنك قد اتلفت مالك واخبرها انه لم يدرِ ما حكم الخنثى فقالت اتبعهُ مبالهُ يعني ان ينظر الى محل ما يبول فان كان بائلاً كالرجل فيكون حكمه ذكرًا وان كان كالمرأة فيكون خنثى ثم لما جاء الاسلام صار ذلك سنّةً فيهِ فيعامل المحكوم عليهِ على هذه الطريقة بانهُ رجلٌ معاملةَ الرجال في ميراثهِ فاذا مات غسلهُ رجل واما اذا حُكمَ عليهِ بانهُ امرأة فيعامل في ميراثهِ معاملة امرأة وتغسلهُ كذلك بعد موتهِ امرأة

وكان للعرب في الجاهلية حكيماتٌ من النساء ايضًا ومنهنّ صحر بنت لقمان وهند بنت الخسّ وجمعة بنت حابس وابنة عامر بن الظرب الذي مرَّ ذكرهُ

وفائدة معرفة الانساب للعرب في الجاهلية انما هي ايجاد العصبة التي بها قوام سطوتهم فهي منهم كالقطب الذي عليهِ مدار ظفرهم في غزوهم وفتكهم في بعضهم ولذلك يقال ان النسب علم لا ينفع وجهالة لا تضر يعني ان النسب اذا خرج عن الوضوح وصار من قبيل العلوم تحصل معرفته من الكتاب والتعليم ذهبت فائدة الوهم فيهِ عن النفس وانتفت النعرة(١) التي تحمل عليها العصبة ولا منفعةَ فيهِ حينئذٍ كما وقع في صدر الاسلام لانهُ لما ضاعت العصبية النسبيّة قام موضعها التشيعات كما يأتي ذكر ذلك في محلهِ ثم وقع الانتماء الى المواطن

(١) النعرة النكتة على ظهر الدواة

فتيل جند قنسرين وجند دمشق وجند العواصم وانتقل ذلك الى المغرب ايضاً كبلاد الاندلس وغيرها ولاسيما بعد ان وقع الاختلاط في الحواضر مع العجم ففسدت الانساب الاّ في البدو

واما ما بقي من فائدتها في الاسلام فهو لكون الحاجة تدعو الى هذا العلم في كثير من المسائل الشرعية مثل تعصب الوراثة وولاية النكاح والعاقلة[1] في الديات والعلم بنسب صاحب الشريعة الاسلامية وكذا الخلافة عند من يشترط النسب فيها وكذا من يفرق في الحرية والاسترقاق بين العرب والعجم

وهذا هو السبب الذي لاجله اعتنى كثيرون من علماء النسب في الاسلام كعبد الحميد بن عبد الله بن اسامة الكوفي والشريف قثم بن طلحة النسابة وابن عبد السميع الخطيب وغيرهم. والّفوا تصانيف كثيرة في الطريقة التي يقال لها المشجر وهي الشجرة التي يصنعونها في كتب هذا الفن وهي سلسلة كانها شجرة قائمة على عروشها باغصانها وافنانها وقاتها ومنهدلها وعروقها وسوقها يبدون بها بالبطن الاسفل ثم يرتقون الى البطن الاعلى وبين ذلك خطوط ونقط تدل على جهة القرب والبعد في النسب بين الاسماء

ومن جملة المؤلفين في هذا الفن ايضاً ابو المنذر هشام بن ابي النصر محمد بن السائب بن بشر بن عمرو الكلبي النسابة الكوفي كان اعلم الناس بعلم الانساب وله كتاب الجمهرة في النسب وهو من محاسن الكتب في هذا الفن وكتاب المنزل وكتاب الموجز وكتاب الفريد صنّفه للمأمون العباسي وكتاب الملوكي صنّفه لجعفر البرمكي وكلهم في النسب وله ايضاً كتاب حلف عبد المطّلب وخزاعة وكتاب حلف الفضول وكتب حلف تميم وكلب وكتاب المنافرات وكتاب بيوتات قريش وكتاب فضائل قيس بن عيلان وكتاب الموردات وكتاب بيوتات ربيعة وكتاب الكنى وكتاب شرف قصي وولده في الجاهلية والاسلام

---

(1) العاقلة دية المقتول تؤخذ من القاتل

وكتاب القاب قريش وكتاب القاب اليمن وكتاب المثالب وكتاب النوافل
وكتاب ادعاء معاوية زياد بن ابية وكتاب اخبار زياد المذكور وكتاب صنائع
قريش وكتاب المشاجرات وكتاب المنافرات وكتاب ملوك الطوائف
وكتاب افتراق ولد نزار وكتاب تفريق الازد وكتاب طسم
وجديس وغير ذلك توفي سنة ٢٠٤ للهجرة
(سنة ٨١٩ م)

المقالة الثالثة

في تقاطيع العرب وسحنها واوصافها وزواجها وما يتبع ذلك وفيها اربعة فصول

الفصل الاول

في تقاطيع العرب واوصافها

وصف سطابرون العرب فقال هم في الغالب ليسوا بالطوال ولا بالقصار بل هم ربعات ونحاف كأنهم يبسوا بالحرّ ولونهم اسمر وهم سود العيون والشعور ولون نسائهم اصفر فاقع واما في الجبال فتكون بعض الاحيان النساء ذوات تقاطيع لطيفة وتناسُب في الاعضاء ولون ابيض كلون نساء الاروام وافرنج ايطاليا

اما الرجال فيتمدحون بخفةِ اللحم لان كثرته داعية الى الكسل والثقل ويقولون اشدُّ الرجال الاعجف ويسمون الرجل الخفيف اللحم الضرب والصغير حُرْقة والمستوي البُنية الرتل والجسيم الطويل المشرعب

وكنت اعتنيت ان اجمع من القاموس كلَّ ما يتعلق بفروع كتابي هذا من الاسماء فكان ما جمعتهُ من الالفاظ المختصة باوصاف الرجال والنساء دون

عندهم من مليح وفصيح بعد كل ما اهملته نحو مئتين وخمسين لفظة اكثرها في الطويل الاحمق ومع هذا لم اتم حرف الحاء فعند ذلك وجدتُ نفسي بانني اذا كملت مشروعي هذا اكون جمعت كتابًا كبيرًا يحتوي على معظم القاموس فعدلت عنهُ واكتفيت بما وجدتهُ مجموعًا في مؤلفات البعض من اهل الفضل

اوصاف الرجال . ومن ذلك انهم يقولون للرجل العظيم قَيْلَم والعظيم الرأس كَرَوَّس ورُأَّس والعظيم الاذنين كُنَارِيّ والعظيم الأنف قُنان والعظيم الشفتين شفاهيّ والعظيم الرجل أَرْجَل والعظيم الركبة أَرْكَب والعظيم العينين جَحَظ والعظيم الخلقة جَرَنْفَش

والكثير الاكل اكول وحروز وحُراحم والكثير الكلام ثرثار ومهذار والكثير السفر سِفَر والكثير المكر مكير والكثير الاضطجاع والكسلان الملازم للبيت لا يكاد ينهض ويخرج لمكرمة ضُجَعَة والكثير القعود قُعَدة والكثير الصلاة والصيام عَمَّار والكثير الصدق صِدّيق والكثير الشعر أشعر

واذا كان الرجل سريع الفهم فهو لَقِن او كان ذا رأي وتجربة فهو خبرٌ وداهٍ واذا سافر واستفاد التجارب فهو يافعة واذا نقّب في البلاد واستفاد العلم فهو نقاب فاذا كان حديد الفؤاد فهو شهم فاذا كان صادق الظن جيّد الحدس فهو لوذعي فاذا كان ذكيًا متوقد الرأي فهو المعي فاذا كان طيب النفس ضحوكًا فهو فكه فاذا كان ماضيًا في الحوائج فهو أصليت فاذا كان مليح الشمائل فهو كيّس فاذا كان حاذقًا في صناعته فهو عبقريّ فاذا حكّمتهُ مصائرُ الامور فهو مُجذ فاذا كان كاتمًا للسرّ فهو كتوم

اما اذا كان يظهر من حذقهِ اكثر مما عندهُ فهو متحذلق وعناهية واذا كان يبدي من سخائهِ ومروءتهِ ودينهِ غير ما هو عليهِ فهو مُتَلَهوق فاذا كان يتظرف ويتكيّس من غير ظرف فهو مُتَملّح فاذا كان يركب الامور ويأخذ من هذا ويعطي ذاك فهو مُغَذمِر فاذا كان يحبص الامور بعضها في بعض فهو حَنّاص فاذا كان لا يعرف من اين يدخل في الامر ولا من اين يخرج منهُ فهو

مِزبال فاذا كان خبيثًا فاجرًا فهو عِتْرِيف فاذا كان غليظًا جافيًا فهو عُتُلّ فاذا كان ثقيلاً فهو فظّ فاذا كان لايتمّ الكلام فهو لحّانة فاذا كان معترضًا لما لايعنيهِ فهو مِتياح ومِعَنّ فاذا كان يتكلم بما لايسأَل فهو فُضُولي فاذا كان يقول لكل احدٍ انا معك فهو امِعَة فاذا كان لايثبت على صحبة احدٍ فهو مُطرِف ونَقّاط فاذا كان لايحسن العمل ولايثبت على حديثهِ فهو أَعفَك فاذا كان لايرى شيئًا الّا احبّ ان يكون له فهو طَرِف فاذا كان لايستطيع كتم السرّ فهو بذبر ونمّام وعُلَنة فاذا كان لايرجى عندهُ الخير فهو حَرِض فاذا كان يتّبع الناس ويتجسّسهم فهو لَقِس فاذا كان يدخل على الناس وهم يأكلون فهو وارِش فاذا كان يدخل بغير اذن ويتحيّن طعامهم فهو متطفّل وطفيلي وحَضِر فاذا كان لايطرب للهو فهو غِرماة فاذا كان يسأَل الناس كثيرًا فهو سؤلة فاذا كان لصًّا لاينام الليل فهو سِبّار فاذا كان يعجب بنفسهِ فهو شنّق فاذا كان يرقص ويثب ويصفق ويلعب ويحدث ويضحك فهو مُخَبِّش فاذا كان يصاحب ويغضب من غير سبب فهو مَسنُوت فاذا كان يجيء مع الضيف فهو ضَيفَن فاذا كان يخالط الامور فهو مِخلَط فاذا كان احمق فهو وقب واذا كان يشمخ بانفهِ زهوًا وكبرًا فهو شامخ

اوصاف النساء. اما النساء فقد قيل فيهنّ اذا كانت المرأة حييّة فهي خَفِرَة واذا كانت مخفضة الصوت فهي رخيمة واذا كانت محبة لزوجها متحببة اليهِ فهي عَرُوب فاذا كانت نفورًا من الريبة فهي نَوار فاذا كانت تجتنب الاقذار فهي قذور فاذا كانت عاملة الكفين فهي صناع فاذا كانت كثيرة الولد فهي نثور ومِتاق وبَرْزاء فاذا كانت قبلة الاولاد فهي نَزور فاذا كانت تلد الذكور فهي مِذكار فاذا كانت تلد الاناث فهي مئناث فاذا كانت تلد مرةً ذكرًا ومرة انثى فهي معقاب فاذا كانت تلد توأمين فهي مِتآم فاذا كانت تلد النجباء فهي مِنجاب فاذا كانت تلد الحمقى فهي مِحماق ومِيقاب فاذا كانت كثيرة موت الاولاد فهي مِثكال فاذا تركت الزينة لموت زوجها فهي مُحِدّ واذا تزوّجت بعد زوجها

ولها ابن بالغ كبير فهي بَرُوك فاذا كانت ملازمة بيتها فهي حُبَأَة وخبيئة واذا كانت تطلع ثم تختبئ فهي خُبَعة طُلَعة فاذا كانت لاتثبت على حال فهي خَيتَعُور فاذا كانت بارعة الجمال مستغنية بكمال جمالها عن التزيُّن فهي غانية لكن ابن عقيل يتبول العانية في الشابة الحسناء التي تحب الرجال ويحبها الرجال وقال آخر انها هي المقيمة في بيت ابويها لم تتزوج بعد وقيل بل هي ذات الزوج لانها غنية بزوجها من الرجال اما الجارية اذا بقيت في بيت ابويها غير متزوجة فهي العانس وفي درّة الغواص لاعانق الأ ما دامت في بيت ابويها والخُبَأة الجارية المخدرة لم تتزوج بعد

ويعبرون عن الشابة الحسنة الخلق بالرخصة وعن البيضاء اللينة الجسيمة الجميلة الرقيقة العظم بالخرعبة وعن العظيمة البطن المسترخية اللحم بالمفاصة وعن اللطيفة الحصر الضامرة البطن بالمهفهفة وعن التي في شفتها سُمرة بالحواء كاللمياء وعن الناعمة البدن رقيقة الجلد بالغضّة كالبضّة وعن الحسنة الخلق السمينة الناعمة بالبهكنة وعن كريمة النساء بالعقيلة وعن كريمة المال كذلك وعن الحرائر الخيار من النساء بالعواتك ومنه اسم عاتكة اما الخاتون فهي كلمة اعجمية من لغة التاتار تُطلَق على المرأة الشريفة وتُلقَّب بها نساء الملوك عند العرب وتجمع على خواتين ويعبرون ايضاً عن المرأة التي لاتمدّ عينها الى غير بعلها بقاصرة الطرف وعن الناعمة التي لم تجرب الامور بالغريرة وعن طويلة هدب العينين بالرشاء وعن السيئة البصر بالعشاء ومنه الاعش اسم رجل وعن الخشنة بالجشوب وعن القليلة الخير بالحنظوب وعن المرأة السمينة زيب ورداح وعن المحزونة بالمّ التجوب وعن اللطيفة باللبّة وعن الحسنة الدلّ[1] باللعوب وعن التي تُنفسَن وحدها لايحبّ النساء بالحوت والتي لايعيش لها ولد بالمقلات ويقابلها العبيّ وهي التي لايكاد يموت لها ولد ويعبرون عن البكر في اول حملها

(١) الدلّ الدلال يقال دلّت المرأة على زوجها اظهرت جراءة عليه كانها تخالفه وما بها خلاف

بالخُرُوس وكذلك التي تُعمل لها الخرسة[1] والقبيلة اعذرْ وعن الجارية التي تُفترع[2] قيل الاول بالماحن ومنه المثل جلّت الماجنُ عن الولد يضرب في المعرض لشيء قبل وقته واما التي لم تفترع بعد فيسمونها البكر والمفترعة التي فارقت زوجها الثيّب ويقولون عركت المرأة او ضحكت اذا حاضت واما التي لا تحيض ولا لبن لها فهي الضهياء والتي ينزل لبنها من غير حمل فهي المُهبل اما الأيّم فهي الارملة وتجمع على الايامى والظعينة هي امرأة في هودجها او في بيتها سُميت بذلك لانها تظعن مع زوجها والظعن الارتحال بالارض انعلّها اي امرتعة قاله الروزني ويكنون عن العيال بالثقل لان النساء محل الحرث والزرع ومنه المثل جاء يجرّ بقرهُ اي عياله

اما الحزر فهو ضيق العين وصغرها وقال ان يكون الانسان كانه ينظر بمؤخّرها والتصعر هو ميل في الوجه او في احدى الشقين وساجي العين ساكنها اما العين النجلاء فهي الواسعة . والرتل هو الثغر المستوي النبت والحدلة هي المشلة والشحمة واللعس سواد في الشفة تستحسنه العرب والمعدل المنة ارمح والحنب اعوجاج الساقين والطُرطُب الثدي الضخم المسترخي قال الذبي يهجو ضبة بن يزيد

ما انصف القوم ضبّه ... وامّهُ الطُرْطُبّه

والزّلّ امتاع والمسحاء الرسحاء والأعقت الاعسر والسناء الحولاء والفلج تباعد ما بين القدمين وما بين الاسنان

قال الروزني ان العرب تشبّه النساء بالبيض وذلك من ثلاثة اوجه احدها بالصحة والسلامة عن الطمث ومنه قول الفرزدق

خرجنَ اليّ لم يُطمثنَ قبلي ... وهنّ اصحّ من بيض النعام

والثاني في الصيانة والستر لان الطائر يصون بيضهُ ويحضنهُ . والثالث في

(١) الخرس طعام النفساء (٢) الافتراع ازالة البكارة

صفاء ابيض وبقائه وربما شُبِّهت النساء ببيض النعامة لان بيض النعامة ابيض يشوبه صفرة يسيرة وهذا اللون هو احسن الوان النساء عند العرب وعليه قول ذي الرمة

كأنها فضةٌ قد مسّها ذهبُ

ومن كلامهم بيضة الخدر وجاريته

والظاهر ان بعض صفات الجمال يُعتبر دليلاً عند العرب على رفعة القدرِ وعلو المنزلة وشرف الحسب قال الشاعر

بعيدةُ مهوى القرطِ اما لنوفلٍ ابوها واما عبد شمسٍ وهاشمِ

يريد ببعد مهوى القرط طول العنق وقال حسان بن ثابت

بيضُ الوجوه كريمةٌ احسابهم شمُّ الانوفِ من الطرازِ الاولِ

وعارضه آخر فقال

سود الوجوه لئيمةٌ احسابهم فطس الانوفِ من الطراز الآخر

قال الزوزني ان وصف العرب بالبياض متوجه الى الاحرار الذين ولدتهم حرائر لم تُعرف الاماء فيهم فتورثهم الوانهنّ ولاشراق الوانهم وتلألؤ غررهم في الاندية[1] والمقامات اذ لم يلحقهم عار يُعيّرونه فتتغير الوانهم ولسلامتهم من العيوب لان الابيض يكون نقيًّا من الدرن والوسخ او لاشتهارهم لان الفرس الاغرّ مشهور فيما بين الخيل ومدح بالبياض في كلام العرب لا يخرج من هذه الوجوه ولذلك كانوا يتيمنون بالوجه الابيض

---

(1) الاندية جمع نادي وهو مجلس القوم ومتحدثهم [illegible] ما داموا مجتمعين فيه

الفصل الثاني

في الحسن عند العرب

تعبر العرب عن الحسن بالوسامة قال الزوزني الميسم الحُسن وهو من الوسام والوسامة وهما الحسن والجمال وكذا القسامة وفي محيط المحيط الميسم المكواة يوسم بهِ الحيوان ويُعلم وهو ايضاً اثر الجمال وقسُم الغلام يقسمُ قسامة كان جميلاً

وقد فرّق بعضهم بين معنى الحسن ومعنى الجمال فقال قوم الحسن يلاحظ لون الوجه والجمال يلاحظ صورة اعضائهِ والملاحة تعمها جميعاً فكل مليح حسن وجميل معاً وليس كلُّ حسنٍ جميلاً ولا كل جميل حسناً وقيل الجميل الذي ياخذ ببصرك على البعد والمليح الذي ياخذ بقلبك على القرب وقيل ان الجميلة هي التي تعجبك على البعد فاذا دنت لم تجدها كذلك والمليحة هي التي تعجبك على البعد والقرب وقال آخرون الحسن في الوجه صباحة وفي البشرة وضاءة وفي الانف جمال وفي العينين حلاوة وفي الفم ملاحة وفي اللسان ظُرف وفي القد رشاقة وفي الشمائل لباقة وقد يتسع فيها فيقوم بعضها مقام بعض

وقال آخرون ان وصف الجمال عند العرب هو اعتدال القد وبروز النهد وذبول العيون السود واحمرار الخدود وابيضاض الصدور وثقل الردف ونحول الخصر وطول الجيد

ويحكى ان رجلاً من العرب استشار صديقاً له في امرأةٍ يتزوجها فقال خُذ ملساء القدمين لفاء[1] الفخذين ضخمةَ الذراعين رخصة الكفين ناهدة[2]

(١) الملف الضم (٢) النهد الشيء المرتفع

الخدين حمراء الخدين كحلاء[1] العينين زجاء[2] الحاجبين لمياء[3] الشفتين بلجاء[4] الجبين شماء[5] العرنين شنباء[6] الثغر حلوكة[7] الشعر غيداء[8] العنق مكسّرة[9] البطن

ولما ارسل الحرث بن عمرو ملك كندة امرأة من كندة لتخبر له جمال ابنة عوف بن محلم الشيباني وكمالها وقوة عقلها رجعت اليه فقال ما وراءكِ يا عصام فذهبت مثلاً فقالت صرّح المحضُ عن الزبَد رأيتُ جبهةً كالمرآة المصقولة يزينها شعرٌ حالك كاذناب الخيل ان ارسلتهُ خلتهُ السلاسل وان مشطتهُ قلت عناقيد جلاها الوابل وحاجبين كانما خُطّا بقلم او سوّدا بحمم تقوسا على مثل عين ظبيةٍ عبهرة[10] بينهما انفٌ كحدّ السيف حُفّت به وجنتان كالارجوان[11] في بياض كالجمان[12] شُقّ فيهِ فمٌ كالخاتم لذيذ المبسم فيهِ ثنايا[13] غرٌّ ذات أشر[14] تقلّب فيهِ لسان ذو فصاحةٍ وبيان بعقلٍ وافر وجوابٍ حاضر تلتقي فيهِ شفتان حمراوان تحلبان ريقاً كالشهد اذا دلِكَ في رقبةٍ بيضاء كالفضة رُكّبت في صدر كصدر تمثال دُميةٍ[15] وعضدان مدمجان[16] يتصل بهما ذراعان ليس فيهما عظمٌ يُمسّ ولا عرقٌ يُجسّ ركبت فيهما كفّان دقيقٌ قصبهما لينٌ عصبهما تعقد ان شئتَ منهما الانامل تماً في ذلك الصدر ثديان كالرمانتين

---

(١) الكحل سواد يعلو منابت اهداب العين سواد خلقة (٢) الزجج دقة الحاجبين في الطول (٣) اللمى سواد او سمرة في الشفة واللثة ويراد الريق ايضاً (٤) البلج تفارق ما بين الحاجبين (٥) الشم حسن الانف وارتفاع قصبتهِ والعرنين الانف (٦) الشنب عذوبة ماء الاسنان والثغر الفم والاسنان او مقدم الاسنان (٧) الحلكة شدة السواد (٨) الاغيد المثني (٩) الكسر الثني وتكسير البطن طياته (١٠) الظبي حيوان كالغزال والعبهر الممتلئ الجسم (١١) الارجوان الاحمر (١٢) الجمان اللؤلؤ (١٣) الثنايا اربع اسنان في مقدم الفم ثنتان من فوق وثنتان من اسفل والغرة بياض الاسنان (١٤) تأشير الاسنان تحزيزها وتحديد اطرافها (١٥) الدمية راجع اديان العرب (١٦) المدمج المدوّر

يحرفان عليها ثيابها تحت ذلك بطن طوي طي القباطي المدمجة كسر عكنا كالقراطيس المدرجة تحيط بتلك العكن سرة كالمدهن المجلو خلف ذلك ظهر فيه كالجدول[1] ينتهي الى خصر لولا رحمة الله لانبتر[2] لها كفل يقعدها اذا نهضت وينهضها اذا قعدت كأنه دعص[3] الرمل لبّده سقوط الطل[4] يحمله فخذان كأنهما نضيدا على نضد جمّار تحتهما ساقان خدلتان[5] كالبرديتين[6] وشيا بشعر اسود كأنه حلق الزرد ويحمل ذلك قدمان كحذو اللسان فتبارك الله مع صغرهما كيف يطيقان حمل ما فوقهما

وكتب المنذر الاكبر الى كسرى انوشروان وقد اهدى له جارية اني قد وجهت الى الملك جارية معتدلة الخلق نقية اللون والثغر بيضاء وطفاء[7] كحلاء دعجاء[8] حوراء[9] عيناء[10] قنواء[11] شماء برجاء[12] زجاء[13] اسيلة[14] الخد شهية المقبل جثلة الشعر عظيمة الهامة بعيدة مهوى القرط عيطاء[15] عريضة الصدر كاعب[16] الثدي ضخمة مشاش[17] المنكب[18] والعضد حسنة المعصم لطيفة الكف والقدم قطوف[19] المشي مكسال[20] الضحى بضّة[21] المتجرد سموع

(1) الجدول النهر الصغير (2) انبتر انقطع (3) الدعص كثيب الرمل
(4) الطل المطر الضعيف والندى (5) الخدل الممتلئ من الشيء
(6) البردي نبات (7) الوطف كثرة شعر الحاجبين والعينين
(8) الدعج شدة سواد العين (9) الحور اشتداد بياض العين وسوادها واستدارة حدقتها ورقة جفونها (10) العين عظم سواد العين في سعة
(11) القنا في الانف ارتفاع اعلاه وارتفعت قصبته وضيق منخراه
(12) البرج هو ان يكون بياض العين محدقا بالسواد كله
(13) الزج التحريك والتحرك والاهتزاز (14) الاسيل الاملس
(15) العيط طول العنق (16) الكعوبة نهود ثدي الجارية يعني ارتفاعها
(17) المشاش جمع مشاشة وهي رأس العظم الممكن مضغه (18) والمنكب مجمع رأس الكتف والعضد (19) القطوف الحسوس واقطف الاثر
(20) المكسال من الكسل وهو التواني عن الشيء والفتور فيه
(21) البض الرخص الجسم الرقيق الجلد

لسيد ليست بحساء[1] ولا سعفاء[2] رقيقة الانف عزيزة النفس لم تعذ[3] في بؤس حيية[4] رزينة حليمة ركينة كريمة الخال تقتصر على نسب ابيها دون فصيلتها وتستغني بفصيلتها دون جماع قبيلتها قد احكمتها الامور في الادب فرأيها رأي اهل الشرف وعملها عمل اهل الحاجة صناع الكفين قطيعة اللسان رهوة[5] الصوت ساكنة تزين الولي وتشين العدو ان اردتها اشتهت وان تركتها انتهت تحملق[6] عيناها وتحمرّ وجنتاها وتذبذب[7] شفتاها وتبادرك الوثبة اذا قمت ولا تجلس الاّ بامرك اذا جلست

نبذة

في بعض المشتهرات في الجمال والمتادبات من النساء

اشتهر كثير من النساء العربيات بالجمال المفرط من النساء والرجال ايضاً وضربت بهم فيه الامثال فمن النساء ماوية بنت عوف بن جشم وقيل بنت ربيعة الثعلبي وهي ام المنذر ملك العراق ابن امرء القيس بن النعمان خليفة كسرى على العرب وكان مقامه في قصر الخورنق والحيرة وبه ضُرِب المثل فيقال أكرم لقومه من ابن ماء السماء فان امه ماوية المذكورة كانت تُلقَّب بماء السماء لجمالها والمنذر هذا هو ابو النعمان الذي كان يحمي ظهر الكوفة رغبة في

(1) الحسس احمرار الوجه عن الانف مع ارتفاع الارنبة
(2) اسعفة قروح تكون في راس الصبي ووجهه والسعف سواد يضرب الى الحمرة ايضاً (3) اي بلغ في السير وغذ وثب (4) الحيية المرأة لا يروعك منظرها
(5) الرهو السكون وليّه واغير ( ) الحملقة فتح العينين والنظر الشديد
(1) الذبذبة راجع الاصوات في الفصل الثالث من المقالة السابقة

الشقائق التي كانت تنبت فيه فنُسبت اليه فقيل شقائق النعمان

ومنهنَّ شيرين وهي بنت رجل كبير من روءساء بلدةٍ يقال لها سابروج او ساروح اخذها والي تلك البلدة من ابيها واهداها الى قيصر فاهداها قيصر الى كسرى ابرويز فوقعت في قلبه حتى صار حبهُ لها مثلاً نظير حسنها فانهم يقولون في المثل اجمل من شيرين

ومنهنَّ عائشة بنت طلحة وامها ام كلثوم بنت ابي بكر الصديق وكانت لا تستر وجهها فعاتبها مصعب بن الزبير في ذلك وكان جميلاً فقالت ان الله وسمني بميسم جمالٍ احببت ان يراهُ الناس ويعرفوا فضلهُ عليهم

ومنهنَّ لُبابة بنت عبد الله بن العباس وكانت عند الوليد بن عتبة بن ابي سفيان وكان الوليد جميلاً ايضاً فكانت تقول ما نظرت وجهي في مرآةٍ مع انسان الاَّ رحمتهُ من حسن وجهي الاَّ الوليد فكنت اذا نظرت الى وجهي مع وجههِ رحمت وجهي من حسن وجههِ

ومن اشتهر بالجمال من الرجال غير الوليد المذكور ذو العمامة سعيد بن العاص بن أُمية كان اذا خرج لم تبقَ امرأة الاَّ برزت للنظر اليهِ وبهِ تضرب اهل مكة المثل فيقولون اجمل من ذي العمامة

ومنهم المتوكل بن المعتصم بن هرون الرشيد وسوف يأتي ذكرهُ

ومنهم المقنَّع الكندي محمد بن ظفر بن عمير بن فرعان بن قيس بن الاسود ابن عبد الله بن الحرث بن عمرو بن معاوية بن كندة كان اجمل الناس وجهاً واكملهم خلقاً واعدلهم قواماً وكان يمشي بين الناس مقنعاً اي مغطياً وجههُ كالمرأة خوفاً من اصابة العين (وهو غير المقنَّع الخراساني المشهور بالشعبذة) قال الاصبهاني ان المقنع الكندي وابا زبيد الطائي ووضاح اليمن واسمهُ عبد الرحمن ابن اسماعيل لُقِّب وضاح اليمن لجمالهِ وبهائهِ كانوا يردون مواسم العرب مقنعين يستردون وجوههم خوفاً من العين

وحيث ان العرب لم تكن تنكر على النساء شيئاً من الاوصاف التي تستحسن

في الرجال الاَّ الشجاعة والكرم كان مما لا بأْس بذكرهِ هنا بعض النساء المتأدبات اللواتي اشتهرنَ بالفصاحة والمعارف وضرِبت بهنَّ الامثال في ذلك

ومنهنَّ الخنساء واسمها تُماضِرُ بنت عمرو بن الشريد السلمية التي اشتهرت بمراثيها في اخيها صخر الذي كان اجمل رجل في العرب قتلهُ ربيعة بن ثور الاسديّ في يوم ذي الاثل فحزنت عليهِ حزنًا شديدًا لم يُسمَع بمثلهِ وضرب المثل في رثاها فقالوا ارثى من الخنساء وزعموا بانهُ لا يمكن ان تأْتي فحول الرجال باحسن من مراثيها ومن ذلك قولها

ولولا كثرة الباكين حولي | على اخوانهم لقتلت نفسي
وما يبكون مثل اخي ولكن | اعزّي النفس عنهُ بالتأَسي

وقولها في مدحهِ

وان صخرًا لتأْتمُّ الهداة بهِ | كأَنهُ علمٌ(١) في رأْسهِ نارُ

ومنهنَّ ليلى الاخيلية بنت عبد الله بن الرحال كانت من النساء المتقدمات في الشعر بعد الاسلام وكان توبة بن الحمير احد بني الاسدية راغبًا فيها فخطبها الى ابيها فابى ان يزوجهُ اياها وزوجها الى رجل من بني الادلع ثم قتل توبة في خلافة معاوية قتلهُ رهط عوف بن عامر بن عقيل لكونهِ كان يغير على احيائهم فكانت ترثيهِ بمراثٍ جيدة ولها مقاطيع من الشعر في مديح عبد الملك بن مروان والحجاج وغيرهُ حسنة للغاية

ومنهنَّ الفارعة المرّية اخت مسعود بن شداد وغيرها كثير من النساء البدويات نضرب عن ذكرهنَّ اختصارًا

واما الحضريات فمنهنَّ عائشة الباعونية التي مرَّ ذكرها في الكلام على دمشق

(١) العلم من اسماء الجبل العظيم

ومنهن الفارعة وقيل فاطمة وقيل ليلى اخت الوليد بن طريف بن الصلت الشيباني احد الطغاة الابطال كان راس الخوارج في خلافة الرشيد العباسي وقتل سنة ١٧٩ للهجرة (سنة ٧٩٥ م) فكانت ترثيه بقصائد تسلك فيها سبل الخنساء في اخيها صخر

ومنهن فاطمة بنت السلطان محمد السلجوقي زوجة المقتفي لامر الله العباسي كانت تقرأ وتكتب ولها التدبير الصائب توفيت سنة ٥٤٢ للهجرة (سنة ١١٤٧ م)

ومنهن فخر النساء شهدة بنت ابي النصر احمد بن الفرج بن عمر الابري الكاتبة الدينورية الاصل البغدادية المولد كانت من العلماء وتكتب الخط الجيّد وسمع عليها خلق كثير توفيت سنة ٥٧٤ للهجرة (سنة ١١٨٨ م)

وام علي تقيّة بنت ابي الفرج وهي ام تاج الدين ابي الحسن علي بن فاضل ابن حمدون الصوري الاصل نظمت قصيدة تمدح فيها الملك المظفر تقي الدين عمر ابن اخي السلطان صلاح الدين وكانت القصيدة خمرية فلما وقف عليها قال الشيخة تعرف هذه الاحوال في زمن صباها فلما بلغها ذلك نظمت قصيدةً اخرى حربيةً وصفت الحرب بها احسن وصف وسيرتها اليه تقول علمي بهذا كعلمي في ذلك توفيت سنة ٥٧٩ للهجرة (سنة ١١٨٢ م)

وام المؤيد زينب وتُدعى حرّة ايضًا بنت ابي القاسم عبد الرحمن بن الحسن بن احمد بن سهل بن احمد بن عبدوس الجرجاني كانت من العلماء وكتبت لبعضهم اجازة ايضًا توفيت سنة ٦١٥ للهجرة (سنة ١٢١٨ م)

وما احسن ما اجاب به يحيى بن علي المنجم الجاحظ وقد قال في كتابه المسمّى بكتاب البيان والتبيين انما يستحسن اللحن من النساء في الكلام واستشهد بقول مالك بن اسماء وهو

وحديث الذّه هو مما	ينعت الناعتون يوزن وزنا
منطق صائب وتلحن احيا	نًا واحلى الحديث ما كان لحنا

فقال له المنجم ان المرأة فطنة تحن بالكلام الى غير الظاهر بالمعنى لتستر معناهُ وتوري عنهُ وتعنيهُ من ارادت بالتعريض وفي الآية لتعرفنهم في لحن القول ولم يرد الخطاء من الكلام والخطاء لا يستحسن من احد

الفصل الثالث

العشق في الاعراب

لا يخفى بان اصل دواعي العشق في البادية هو لكون نساء العرب في الجاهلية لم يكنَّ يتبرقعنَ اصلاً لان لبس البراقع للنساء هو امرٌ حادث في نساء الحضر وحتّمته الشريعة الاسلامية منذ أُنزلت آية الحجاب ومن ثم امرت بعدم تمكن الرجال من رؤية النساء مطلقاً. روى الاصمعي انه في عهد الخلفاء العباسيين ايضاً ما كانوا يحجبون جواريهم ما لم يلدنَ اه . اما نساء البدو فلا زلن حتى الآن يظهرنَ امام الرجال مكشوفات الوجوه قال بعضهم ولذلك كانت البادية محل العشق وما يترتب عليهِ من الغزل وغيرهِ كالنوادر المذكورة في كتب الادب

وقالوا ان العشق هو نهاية درجات المحبة وقد عرفوهُ بانهُ عجب المحب بمحبوبهِ او افراط الحب ويكون في عفاف وفي دعارة او عمى الحس عن ادراك عيوب المعشوق او مرضٌ وسواسيٌ يجلبهُ الى نفسهِ بتسليط فكرهِ على استحسان بعض الصور وقال ابن فارس ما العشق الا غرام بالنساء وقد عدّت الاطباء العشق من الامراض قال ابقراط ان العشق نصف الامراض وقال الداري انهُ ثلثا الامراض لتعلقهِ بالبدن والنفس جميعاً وقالوا لا يعرض لغليظ الطبع

ولا لفاسد المزاج ووضيع الهمّة قال المتنبي

وعذلتُ اهلَ العشقِ حتى ذقتهُ   فعجبتُ كيف يموتُ مَن لا يعشقُ

وذكر في مجمع السلوك ان مبادئ المحبة الموافقة[١] ثم الميل[٢] ثم المواسة[٣] ثم المودّة[٤] ثم الهوى[٥] ثم الخلّة[٦] ثم المحبة[٧] ثم الشغف[٨] ثم التتيُّم[٩] ثم الوله[١٠] ثم العشق[١١] واما في الكليات فقد قيل ان اول مراتب الحبّ الهوى ثم العلاقة[١٢] ثم الكَلَف[١٣] ثم العشق ثم الشعف واللوعة واللاعج مثل الشغف ثم التتيُّم ثم التبل[١٤] ثم الوله ثم الهيام[١٥]

ويُضرَب المثل بين العرب ببني عذرة في ذلك فيقال اعشق من بني عذرة كما انهم يعبّرون عن الهوى الخالي من الريبة بالهوى العذريّ نسبةً الى هولاء القوم الذين اشتهروا به وعليهِ قول الفارض

يا لائمي في الهوى العذريّ معذرةً   مني اليكَ ولو انصفت لم تلُمِ

وبنو عذرة المذكورون هم حيّ من احياء العرب يقال انهم اذا احبّوا ماتوا ومنهم بُثَينة بنت عبد الله العذرية صاحبة جميل بن معمر العذريّ وعفراء بنت

(١) الموافقة ضد المخالفة (٢) الميل العدول الى الشيء عن غيره مع التردد
(٣) الانس ضد التوحش وقيل الملاطفة والترفق وارتفاع الحشمة مع وجود الهيبة
(٤) المودة والتمني والمحابة (٥) الهوى ارادة النفس وميلها الى ما تستلذهُ
(٦) الخلة المؤاخاة والصداقة المختصة لا خلل فيها بخلوص المودة
(٧) المحبة ميل الطبع الى الشيء الملذ وقيل ترادف الارادة
(٨) الشغف هو ان يشقّ الى شغاف القلب وهو حجابه حتى يصل الى الفؤاد
(٩) التتيم والتعبيد والتذلل ومنه تيم اللات اي عبد اللات
(١٠) الوله اضطراب العقل والحيرة من شدة الوجد والخوف منه
(١١) العشق عجب المحب بمحبوبه (١٢) العلاقة الحب اللازم للقلب
(١٣) الكلف الحب الشديد مع الولوع واللهج (١٤) التبل الذهاب بالعقل والسقم من العشق (١٥) الهيام الوسوسة والجنون في العشق

مالك العذرية صاحبة عروة بن حزام قال شاعرهم

اذا ما نجا العذريُّ من ميتة الهوى فذاك وربِّ العاشقين دجيلُ

قيل لاعرابي ممن انت قال من قوم اذا احبوا ماتوا فقالت جارية سمعته عذريٌّ وربِّ الكعبة

وصحب جميلاً الذي مرَّ ذكرهُ رجل من بني عذرة يدَّعي العشق وهو سمين فقال فيهِ

وقد رابني من زَهدَمٍ انَّ زهدمًا يُشدُّ على خبزي ويبكي على عُمْلِ
فلو كنت عذريَّ العلاقة لم تكن سمينًا وانساك الهوى كثرة الاكلِ

وتزعم العرب ان المرأة اذا احبت رجلاً واحبها ثم لم يشقَّ عليها رداءهُ ونشقُّ عليهِ برقعها فسد حبهما قال عبد بني الحَسْحَاس

وكم قد شققنا من رداء مزنرٍ ومن برقعٍ عن ناظرٍ غير ناعسِ
اذا شقَّ بردٌ نيط بالبرد برقعٌ على ذاك حتى كلنا غير لابسِ

هكذا رواهُ الزوزني واما الشيخ ناصيف اليازجي فقد اورد هذين البيتين في كتابهِ مجمع البحرين هكذا

وكم قد شققنا من رداء محبرٍ[1] ومن برقعٍ عن طفلةٍ[2] غير عانسٍ[3]
اذا شقَّ بردٌ شقَّ بالبرد برقعٌ من الحبِّ حتى كلُّنا غيرُ لابسِ

وفي محيط المحيط

اذا شقَّ بردٌ شقَّ بالبردِ مثلهُ دواليك[4] حتى ليس للبردِ لابسُ

(١) الحبر والحبير الناعم الجديد (٢) الطفل الرخص الناعم من كل شيء
(٣) العانس الجارية التي طال مكثها في بيت ابيها بعد ادراكها
(٤) دواليك كرات متتابعة يقال فعلنا ذلك دواليك اي كرات بعضها في اثر بعض

وللعرب خرزة تسمى السلوانة تُجمع على سلوان يزعمون ان العاشق اذا حكها وشرب ما يخرج منها صبر والبها نسب الامام ابو عبد الله محمد بن ابي محمد ابن ظفر كتابهُ المسمى سلوان المطاع في عدوان الاتباع

قال روبة

لو اشرب السُّلوانَ ما سَليتُ ما بي غِنَى عنكم وان غَنِيتُ

وكان من امثالهم اذا دخلت ارضَ الحُضَيب فهرول اي اسرع في مرورك لئلا تفتنك نساؤهُ بجمالها والحُضَيب موضع في اليمن ،وصف بحسن النساء مع ان اهالي اليمن مشهورين بين العرب بقبح الصورة

الفصل الرابع

في احوال الزواج وما يتعلق به وبالاولاد الى غير ذلك من شؤون المعيشة والممات

اما في امر الزواج فقد فرّ في حرائر العرب من يرغبن في الزواج بغير من هو كفؤ لهنّ وفي طبقتهنّ وقد تعرض الآباء على بناتهم امر الزواج قبل العقد عليهنّ يُحكى انهُ كان لرجلٍ في الجاهلية يقال لهُ همام بن مرّة بنات يمنعهنّ ان يجاوبنهُ عند ما يعرض ذلك عليهنّ فيطنهُ لعدم رغبتهنّ فيمتنع الى ان سمعهنّ يتحادثنَ يومًا في خلوتهنّ امر الزواج فكانت كل واحدةٍ منهنّ تقول ابياتًا تبدي رأيها فيهِ الى ان وصل الدور لصغراهنّ فالحت عليها ان تقول فقالت زوج من عود خير من قعود فذهبت مثلًا

وكانت الرجال ترغب في المرأة الغريبة اكثر من القرائب ولذلك قالوا في امثالهم النزائع ولا القرائب والربيعة الغريبة يعني ان الغريبة انجب وصدّق على ذلك الاسلام لما ورد في الحديث اغتربوا ولا تضوُوا اي تزوجوا في الاجنبيات ولا تتزوجوا في العمومة وهذا النهي ليس هو من قبيل التحريم بل على سبيل النصيحة لان العرب تعتقد ان ولد الرجل من قرائبهِ يجيء ضاويًا يعني نحيفًا غير انهُ يجيء كريمًا على طبع قومهِ قال الشاعر

فتًى لم تلدهُ بنت عمٍّ قريبةٍ فيضوي وقد يضوي رديد القرائبُ

ولا يخفى بان الشريعة الاسلامية لم ترد شيئًا في امر الزواج على ما جاءت بهِ التوراة الا في منع الرجل من التزوج برضيعتهِ فان المرأة التي تكون رضعت مع الرجل من حليب امهِ او هو رضع معها من حليب امها تُعتبَر نظير الاخت الشقيقة لهُ فلا يجوز ان يتزوج بها فمن ثمَّ كانت درجات القرابة المحرَّمة عندهم تحصر في الامهات والبنات والاخوات والعمَّات والخالات وبنات الاخ وبنات الاخت والامهات من الرضاعة والاخوات من الرضاعة وامهات النساء والربائب اللاتي في الحجور من النساء اللاتي دخل بهنَّ وحلائل الابناء الذين من الاصلاب والاجماع بين الاختين

وظهر ان بعض هذه القواعد كان محفوظًا في الجاهلية ايضًا لانهم كانوا لا يجمعون في الزواج بين الاختين ولا يتزوجون المرأة وبنتها واما بعضها كان مهملًا بالكلية حتى انهُ كان من سننهم نكاح المقت وهو ان الرجل اذا مات قام ولدهُ الاكبر فالقى ثوبهُ على امرأة ابيهِ فورث نكاحها فان لم يكن لهُ بها حاجة زوجها لبعض اخوتهِ بمهرٍ جديد فكانوا يرثون ذلك كما يرثون الاموال وقال آخرون انهم كانوا يعيبون من يفعل ذلك ويسمونهُ الضَّيزَن وفي محيط المحيط الضَّيزَن من يزاحم اباهُ في امرأتهِ قال اوس بن حجر المازني وكلهم لابيهِ ضَيزَنٌ خَلَفُ ومنهُ الضيزن الغساني عمّ الزباء ملكة جزيرة العرب وقال ابن خلكان

ضَيْزَن اسم صنم كان في الجاهلية وبه تسمّى الساطرون صاحب تكريت (من بلاد الجزيرة) وحاصل الامر ان الاسلام أبطل من بينهم هذه العادة الردية

وجرت العادة ان ابا البنت او اخاها اذا كان ابوها ميتًا او مَن كانت تحت حجره من الاقارب يمدّ يدهُ الى نفس الخاطب او الى ابيهِ ولمن يكون بُعث وسيطًا في الطلب ويجيب سؤلهُ في طلبهِ بعد ان يتفقا على مهرٍ معلوم للزوجة كما يأتي الكلام على ذلك وقيل كانت العرب تتزوج بهذه الكلمة وهي ان يقول المخطوب نكحٌ ويقصّان ثم يتواعدن على يومٍ او وقتٍ معين للزفاف بحضرة شهود عدل وفي الاسلام لابد من تحرير صكٍ بذلك يسمونه الكتاب فمتى قيل ان فلانًا كتب كتابهُ على فلانة عُلِمَ انهُ قد تزوج بها

ومتى جاء اليوم المعين اولموا الولائم وزُفت العروس على عريسها بعد ان تصلح النساء المسميات بالمواشط واحدتهنَّ ماشطة شأنها ويقدّم لها الزوج الجلوة وتكون اما وصيفة او غيرها ثم تُضرَب له قبة فيدخل عليها بها ويبذر الحاضرين في العرس اشياء كالكعك والحيص يسمونها النثار وقيل بل ان نثار العرب في اعراسهم كان التمر

ويسمون الليلة التي تفترع فيها المرأة شيباء والليلة التي لايقدر الزوج فيها على ذلك حرّة ولذلك جاء في امثالهم باتت بليلةٍ حرّة يعني لم يغلبها الزوج وباتت بليلةٍ شيباء اذا غلبها يضربان للغالب والمغلوب ويقولون عن الرجل هو بعل المرأة وللمرأة هي بعلة وبعلتهُ كما يقال هو زوجها وهي زوجة وزوجتهُ وكذلك الحليل هو الزوج والحليلة الزوجة لانهما يحلان منزلاً واحدًا وفراشًا واحدًا

ويعتنى عند زواج البكر بوجود البكارة عند الدخول عليها واعلان ذلك يوم صباحيتها باظهار منديلٍ او نحوهِ ولازالت العادة محفوظة على هذه الصورة عند المصريين الى عصرنا هذا واما في بعض بلاد الشام فيكتفي بارسال قميص المبيت ليلة الزواج الى بيت ابيها ولعلهُ لهذا السبب كانت العرب في

الجاهلية لا يزوجون امرأةً لرجلٍ شبَّب بها قبل خطبتهِ كما انهُ اذا كان زواجها في بيت ابيها عند ما لم يكن العريس من سكان نجعها قلَّ ان سمحت لهُ باقترابهِ منها احترامًا لابيها وعشيرتها فلا يتمُّ لهُ ذلك الَّا بعد ان يرجع بها الى وطنهِ

ثم لا بد لنساء العرب من متبنة وهي كيس تضع فيهِ المرأة مرآتها وادواتها ويضربون المثل بنقاوة مرآة الغريبة لان المرأة التي تزوجت بغير قومها لا ترى من تعتمد عليهِ فتحتاج ان تنقي مرآتها من كل ما يكدرها حتى تريها من نفسها ما يخفى عليها فتزيلهُ ولذلك يقولون لمن ارادوا المبالغة في وصف نقاوتهِ انقى من مرآة الغريبة

واذا لم تحسن المعاشرة بعد ذلك بين الزوجين كان للمرأة في الجاهلية حق ان تطلق زوجها كما جرت عادة الرجال عندهم ان يُطلقوا نساءهم بان يقول الرجل لامرأتهِ الحقي باهلكِ او اذهبي فلا أنده سربكِ والنده الزجر والسرب المال الراعي فكانت تُطلق عندهم بهذه اللفظة او ان يقال لها الظباء على البقر واما النساء اذا اردنَ الطلاق وكنَّ في بيوتٍ من شعر فان كان البيت من قبل المشرق حولنهُ الى المغرب وان كان من قبل المغرب حولنهُ الى المشرق وان كان من قبل اليمن حولنهُ الى الشام وان كان من قبل الشام حولنهُ الى اليمن فاذا رأى الرجل ذلك علم ان امرأتهُ طلقتهُ فلم يأتها بعدهُ لكن لما جاء الاسلام جُعلت العصمة للرجال لا للنساء وان الرجل سيد اهل بيتهِ ولا يقع الطلاق الَّا ان يقول الرجل لامرأتهِ صراحةً انتِ طالق ويجوز بعدها ان تُردَّ اذا كان لم يقع الطلاق الَّا مرتين في كلِّ مرةٍ طلقةً واحدةً واما بعد الثالثة او اذا قال الرجل لامرأتهِ دفعةً واحدةً انتِ طالق ثلاثًا فلا يجوز حينئذٍ الردُّ الَّا ان تدخل المطلقة في عصمة زوجٍ آخر بعد ان تنقضي العدَّة ليتحقق خلوها من الحبل ثم تطلق منهُ ايضًا وحينئذٍ يمكن لمن طلقها قبلًا ان يستردَّها غير ان هذا الردَّ لا يكون مقبولًا كل القبول الَّا اذا كان وقوع ذلك اتفاقيًا عن غير قصدٍ واما اذا كان وقوعهُ مقصودًا فلا

والعدّة التي مرّ ذكرها نوعان عدّة طلاق وهي ثلاث حيض او ثلاث اطهار وعدّة وفاة وهي اربعة اشهر وعشر يلزم المرأة التربصُ فيهــا شرعًا ليصير بعد ذلك التزوج بها حلالاً وكانت العادة عند العرب في الجاهلية ان المرأة متى انتهت عدّتها اي تربصها الاربعة الاشهر بعد موت زوجها كسرتها بمسّ الطيب او بغيره او دلكت جسدها بدابةٍ او بطيرٍ ليكون ذلك خروجًا عن العدّة وقيل بان الطائر الذي كانت تمسح المرأة به قُبُلَها على ما تقدم لا يكاد يعيش بعد ذلك والاستبراء للأمة نظير العدّة للحرّة

وكان تعدّد الزوجات واباحة ما في ملك الرجل من الاماء شائعًا في الجاهلية فاقرّ ذلك الاسلام ايضًا للرجل بخلاف النساء فان المرأة لا تكون الا في عصمة رجلٍ واحد فقط واما الرجل فانهُ يتزوج بالتي ارادها بحيث لا يكون في عصمته سوى اربع نسوةٍ فقط في آنٍ واحد غير ملك اليمين فان ذلك لا حصر فيه ويقال للرجل اذا تزوج أَحْصَنَ كما يقال للمرأة اذا تزوجت أَحْصَنَتْ فهو مُحْصَنٌ وهي مُحْصَنَةٌ ومُحْصِنة وثنّى الرجل اذا تزوج بثلاث نسوةٍ واثنى الرجل دون ثلاث نساء والذي يموت له الازواج كثيرًا والمِثْناة مؤنث المِثنى وحرث الرجل جمع بين اربع زوجات اما النساء المتزوجات برجلٍ واحد فيقال لهنّ ضرائر وقيل ان العرب تكنّي عن الضرّة بالجارة تطيرًا من الضرر وتجمع على جارات واما المرأة التي تتزوج بعدة رجال في آنٍ واحد فيسمونها بغيّة واذا ولد لها ولد الحقته بمن شاءت فربما ادّعاهُ وربما انكرهُ لانها لا تمنع من يتأتاها ولذلك يقولون في امثالهم ابنكَ ابنُ بوحِكَ يشربُ من صبوحِكَ يريدون بذلك ابنك من بحت به وباحت به امهُ

واما الصداق(١) للمرأة وهو المهر الذي مرّ ذكرهُ فكان لا بدّ منهُ في الجاهلية

(١) العرب يجعلون لكل عطيةٍ اسمًا. فاسم ما تُعطى المرأة في النكاح الصداق. واسم ما يعطى الشاعر الجائزة واسم ما يعطى عن دم المقتول الدية واسم ما يعطى عما يتلف القيمة واسم ما تصح به المعاوضة الثمن وما يعطى عن تفاوت الجنايات الارش وما يعطى الدليل

وهو كذلك في الاسلام ايضاً وربما بلغ مبلغاً عظيماً ولذلك كانت العرب في الجاهلية تقول اذا وُلِدَت لاحدهم بنتٌ هنيئاً لك النافجة اي المعظمة لمالك لانك تاخذ مهرها فتضمه الى مالك فينتفج فلا يمكن للرجل ان يتزوج بدون اصداق الزوجة شيئاً يعطيها بعضهُ قبل دخوله عليها وبعضهُ يبقى ديناً عليه تستوفيه منه متى طلقها او من تركته بعد موته وذلك ما عدا حقها من ارثه بحسب ما توجبه لها الفريضة الشرعيةُ بمقتضى الاحكام القرآنية

اما حقوق الارث فهي اذا كان للميت اولاد من زوجاته كنَّ او من واحدةٍ منهنَّ كان حقُّ نسائه واحدةً كُنَّ او اربعاً الثُّمن من مخلفاته واما ان لم يكن له اولاد فيكون الربع تستقلُّ به الواحدة او يقتسمنه اذا كُنَّ اكثر من ذلك وحيث ان الذكر في الشريعة الاسلامية له مثل حظِّ الانثيين كان حقّ ارث الرجل من ارث الزوجة مضاعفاً يعني من التي لها اولاد الربع ومن التي ليست بذات اولاد النصف يستقلُّ به للذاته

وكذلك للذكر من اولاد الميت مثل حظِّ الانثيين فان كنَّ نساءً فوق اثنتين فلهنَّ ثلثا ما ترك وان كانت واحدة فلها النصف ولابويه لكل واحد منهما السدس مما ترك ان كان له ولد فان لم يكن له ولد وورثهُ ابواهُ فلامهِ الثلث فان كان له اخوةٌ فلامهِ السدس وان كان رجل يُورَثُ كلالةً او امرأةٌ وله اخ او اخت فلكل واحدٍ منهما السدس فان كانوا اكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث وان امرؤٌ هلك ليس له ولد وله اخت فلها نصف ما ترك وهو يرثها ان لم يكن لها ولد فان كانتا اثنتين فلهما الثلثان مما ترك وان كانوا اخوةً رجالاً ونساء فللذكر مثل حظِّ الانثيين وجميع ذلك لا يكون الا من بعد انفاذ وصية المتوفي ووفاء دَينه

الجعالة وما يعطى الخفير الخفارة وما يعطى الراقي الرُّقية وما يعطى الدلال وغيره مما من الحلوان وما يعطى الفقير الصدقة وما يعطى تلميذ الصانع الرائش وما يعطى السلطان الاتاوة وما يعطى الجندي الوظيفة وما يعطيه الذمي الجزية

نبذة

في ما يتعلق بالاولاد

وكانت العادة عند العرب ان لا يلحقوا في النسب الاّ من ارادوا ان ينوّهوا به على ما سبقت الاشارة اليهِ اذا كان مولودًا لهم من بغيّة والاّ بقي منسوبًا الى امهِ او الى ابٍ مجهول كما وقع ذلك لزياد بن سمية زوج عبيد الذي الحقهُ معاوية بن ابي سفيان في النسب ليستميلهُ اليهِ عند ما مدحهُ عمرو بن العاص بقولهِ لو كان هذا الغلامُ من قريش لساقَ الناسَ بعصاهُ وكان ابو سفيان قد قال اني لاعرفُ الذي وضعهُ في رحم امهِ ومع ذلك بقي هذا الرجل مشهورًا باسم امهِ سميّة فيقولون له زياد بن سميّة او زياد ابن ابيهِ او ابن امهِ ولم تكفّ العرب عن الطعن عليهِ وعلى نسبهِ فألّف هو كتابًا في مثالب العرب واعطاهُ لولدهِ وقال لهم استظهروا بهذا على العرب فانهم يكفّون عنكم فكان هو اول من ألّف في هذا الموضوع

اما اولادهم من الاماء فكانوا يستعبدونهم الاّ اذا انجب الولد فحينئذٍ يعترفُ بهِ ابوهُ (كما وقع لعنترة بن شداد العبسيّ) والاّ بقي عبدًا واما في الاسلام فلا فرق بين الاولاد سواء كانوا مولودين من حرائر او من اماء بل اذا كان الولد مولودًا من أمةٍ فان امهُ تصير حرّة شرعًا ولا يوجد فرق بينهُ وبين سائر اخوتهِ المولودين لابيهِ من حرائر لا في النسب ولا في الحقوق

وكان من عادة نساء العرب ايضًا ان لا يرضعنَ اولاد غيرهنَّ لان ذلك عارٌ عندهم فتجوع المرأة الشريفة النفس ولا تأجر نفسها للرضاع ولذلك جرى

في المثل عندهم تجوع الحرّة ولا تأكل بثديها

ويكني العرب عن الولد بالبول وعلى هذا عبّر ابن سيرين رؤيا عبد الملك بن مروان وكان رأى في حلمهِ بانهُ قام في محراب المسجد وبال فيهِ خمس مرّات فكتب لهُ ابن سيرين المذكور ان صدقت رؤياك سيقوم من اولادك خمسة في المحراب ويتقلدون الخلافة من بعدك وكان كذلك

ويعبّرون عن الولد ما دامَ في بطن امهِ بالجنين اما اذا كان في بطن امهِ وقد أُخِذَت من ارض الشرك فهو حَمِيل فاذا مات الولد في بطن امهِ فهو حُشٌ فاذا القتهُ ميتاً فهو حَبِيش واذا كان يُبقر عنهُ بطنُ امهِ اذا ماتت فهو خِشعَة فاذا ولدتهُ املاً اي كان ابوهُ عبداً وامهُ جارية فهو الهَجُوس اما المولود من الحرّة فهو وليد فان لم تستتم عليهِ سبعةُ ايامٍ فهو صَديغ ثم ما دام يرضع فهو رضيع فاذا فُطِمَ عنهُ اللبن فهو فطيم فاذا دبّ ودرج فهو دارج فاذا سقطت اسنانهُ بعد السقوط فهو مثغر فاذا كان يجاوز عشر سنين فهو مترعرع وناشئ فاذا كان يبلغ الحلم فهو يافع وحَزوّر ومُراهق فاذا اخضرّ شاربهُ فهو فتى ثم شاب ثم كهل وهو من جاوز الثلاثين الى الخمسين من عمرهِ ثم شيخ وهو من جاوز الخمسين الى الثمانين ثم يَفَن وكُنتي قال الشاعر

وماذا تبتغي الشعراء مني وقد جاوزت حدّ الاربعينِ

وقال آخر

ان الثمانين وبلغتها قد احوجت سمعي الى ترجمانِ

ويقولون في سنّ الرجل ابن العشر سنين لعّاب بالقلين[1] وابن العشرين باغي نسين[2] وابن الثلاثين اسعى الساعين وابن الاربعين ابطش الباطشين وابن الخمسين ليث عفرين وابن الستين مؤنس الجليسين وابن السبعين احكم الحاكمين

(١) القلين مثنى القلة وهما عودان يلعب بهما الصبيان ج قلات وقلون

(٢) باغي نسين اي طالب نساء

وابن الميتين اسرع الحاسبين وابن التسعين احد الاربعين وابن المئة لاحاء ولا ساء[1]

ويسمّون اول ولد المرأة زكمة والآخر عجزة وقيل بل ان زكمة مرادف عجزة وهو آخر ولد الابوين والهَرَل ولد المرأة من زوجها الاول وهو فاروطٌ له عند العامةِ والحَرَنْذَةُ الذي لامهِ زوجٌ واليتيمُ من فقد اباهُ ولم يبلغ الحلم فان مات الابوان فهو لطيم وان ماتت امه فهو عجي اما اليتيم من البهائم من فقدت امه ويعنةُ العترِ آخرُ الاولاد لان الام قد صارت عاقراً بعدهُ

ويسمون اول الاولاد البكر لان البكر اول كل شيء على ان الاوليات لابدّ لكلِّ نوعٍ منها اسم مخصوص ايضاً يُعرَف به ففي قبل الفاتحة عرفت بانها اولُ الكتاب والشرخُ والرَّيْعان والعُنْفُوان والمَيْعةُ والغلواء اولُ الشباب. واولُ المطرِ ربق واول الامر حدثان واول الريح عُثُون واول الصبح تباشير واول النهار صبح واول الليل غَسَق واول مطر الربيع وَسْميّ واولُ البستر بارِضٌ واول الزرع لُعاع واول الفاكهة باكورة واول الجيش طَلِيعَة واول الشرب نَهَل واول السكر نَشْوَة واول النوم نُعاس واول الشيب وَخط واول صياح المولود اذا ولد استهلال واول الحمّى رَسّ واول المرض دَعث واول ما يبغ الخطيب خطبته والشاعر قصيدته براعةُ الاستهلال او حسن المطلع

وكان الرُجل في الجاهلية اذا غلبه ابنه او من هو بسببهِ او نسبهِ منه اتى به الى الموسم ثم نادى يا ايها الناسُ الا اني خلعتُ ابني هذا فان جرَّ لم اضمن وان جُرَّ عليهِ لا اطلب اي قد تبرأت منه فكان لا يوخذ بعد ذلك على جرائرهِ قال الزوزني الخليعُ الذي خلعه اهله لخبثه وزعم الأئمةُ ان الخليعَ في البيت المقامر والمعيل الكثير العيال

---

(1) لاحاء ولا ساء اي لا رجل ولا امرأة

نبذة

في الجنائز

تندب العرب في الجاهلية الميتَ بقولهم واحرباه قيل اصلها انهُ لما توفي حربُ بن أُمية ندبهُ اهل مكة فقالوا واحربا ثم استعملت بعد ذلك عندهم لندب الميت والاشعار بالتأسف والحزن عليهِ . واما تشييعهُ عند عرب البادية فيكون بمشي الاقارب خلف الجنازة حفاةً وتحلُّ النساء شعورهنَّ ويلطخنَ رؤوسهنَّ بالرماد ويستبين من قول العرب لا تفعل ذلك امُّكَ حالقٌ ان النساء كنَّ يحلقنَ رؤوسهنَّ في الجاهلية حزنًا على الميت وفي اسعةِ الحالقةُ التي تحلق شعرها في المصيبةِ والشوم . ثم تُستأجرُ النائحاتُ ليظهرنَ شعار الحزنِ والحسرة ويذكرنَ للميت محاسن من حيث كان وبعد ذلك يحضر شيء من الطعام بعد الرجوع من تشييعهِ ويصنع ايضًا ستّ مرّاتٍ من الضيافات الحزنية وتأكل النائحات المستأجرات فيها وذلك في اليوم الثالث والتاسع والخامس عشر والاربعين ولتمام ستة اشهر والسادسة على راس السنة من موت الميت وقال الاصبهاني كانت المرأة في العرب اذا ناحت قائمةً على زوجها عُلِمَ انها لا تريد ان تتزوج بعدهُ

وقد بقي شيء من هذه العوائد في البلاد الاسلامية الى عصرنا هذا ايضًا لكنهُ يختلف باختلاف الامصار فان في بعضها لا يكون البكاء والندب وحلّ شعور النساء وبواحهنَّ الأ فوق راس الميت ما دام في البيت ومتى دُفن بطل ذلك كلهُ وفي بعضها يكون الى ايام معينة وفي بلاد مصر ربما دامت النائحاتُ مستأجراتٍ اسبوعًا او اكثر الى اربعين يومًا يدمنَ صابغاتٍ ايديهنَّ بالنيلة

كالمعزّاة ولاطمات وجوههنّ بها ايضًا ويحللن شعورهنّ ويرقصن في المحافل والساحات والمراح رقصًا هائلاً لاطمات وجوههنّ على نقر الدفوف مرائي مزعجة ينشدن عليها نواحًا بصوتٍ حزين تحسبه خارجًا من قبور الموتى

واما العادة الجارية في تشييع الميت فهي بعد ان يُغسل في بيته ويُحنّط ويكفّن باكفان ربما بلغ عددها الى سبعة اكفانٍ من القماش القطن الابيض يوضع على نعش واذا كان من اهل العلم أذّن المؤذنون في المساجد يدعون الناس الى الصلاة والاّ نُقل الى الجامع بدون اذان وعلى اي حال كان لابدّ ان يكون امام الجنازة صفّ من المشائخ وحفظة القرآن رافعين علاماتٍ اي راياتٍ مكتوب على قماشها الشهادتان او بعض الآيات من القرآن وهم ينشدون البُردة وهي قصيدة امتدح بها الشيخ محمد البوصيري صاحبَ الشريعة الاسلامية او يوحّدون الى ان يصلوا به الى الجامع فيصلّون عليه الناس المجتمعون هناك مع الماشيين في جنازته على حسب حاله ودرجته في الدنيا والدين ثم ينقلونهُ الى الجبانة ويدفنونهُ في اللحد المحفور لهُ بلا صندوق وبعد ان يلقنهُ الشيخ في اذنهِ حسب قواعد الديانة يحثون عليهِ التراب وبعد ذلك يبنون عليهِ قبرًا اما من الرخام واما من البلاط او من الحجر المعتاد على حسب غناه وورثائهِ وغالبًا ينقشون تاريخ وفاتهِ على رخامةٍ منظومًا في ابياتٍ من الشعر ويضعونها على القبر واكثر الناس الموجودين وقت الدفن يعزّون اقرباءهُ عند القبر وبعضهم في البيت واما اطعام الفقراء والتصدّق بشيءٍ من الدراهم وعمل الموالد والاذكار الليلية في بيتهِ وتلاوة القرآن على قبرهِ ايامًا وزيارة قبرهِ من اقاربهِ رجالاً ونساء ولاسيما في كل يوم جمعةٍ وتزيين قبرهِ بشيءٍ من الزهور والنباتات وخاصةً اغصان الآس النضرة كل ذلك من الامور التي لابدّ منها

وفي اللغة الموتُ والفيضُ والآكّة والخراع بمعنى واحد ومن الغلط ان يقال توفى بصيغة المعلوم والصواب تُوفي على المجهول والمعنى قُبِضَتْ روحهُ ويعبّرون عن الموتِ بهادمِ اللذات واما المجهز من الموت فهو السريع والمحتضر فهو

القريب من الموت واختضر الرجلُ بالخاء المعجمة اذا مات شابًا غضًا واجزر الشيخ حان له ان يموت ومات حتف انفهِ اي مات موتًا طبيعيًا والموتُ الابيض الموت فجأةً والموت الاحمر الموت قتلاً وفي حاشية امثال ابي عبيدة الموت الاحمر ان يُقتل بالسيف والموت الاسود ان يُخنق حتى يموت والموت الابيض ان يموت حتف انفهِ. والجارف الموت العام وحبائل الموت اسبابهُ واحتسب فلان ولدًا له مات ولدهُ كبيرًا فان مات صغيرًا قيل افترطهُ وفوّز الرجل قضى نحبهُ وهوّذ وتيّن وجُنّز مات

والجنازةُ والعاكب والخبيص والنبط والعرش الميت والجيفةُ جثةُ الميت المنتنة والجنيبُ المقبور والملُّ صديدُ الميتِ والربعُ والشرجعُ والنعشُ والتابوت والاران والآلة سرير من الخشب يُحمل فيهِ والحرَج خشب يشدُّ بعضهُ الى بعضٍ تحمل فيهِ الموتى ايضًا وربما وضع فوق نعشِ النساء والدكّة كرسي من الخشب ايضًا يُغسل عليهِ

والجُرَّةُ والحبيرُ والذنوبُ والرجمِ والرجمة والراموس والرمس والمرمس والرم والزحلوفة والأُكْثة والجثوة والجَنن والرحلوفة والصهر والضير والضريح والتربة والجدَث والوتيرة والودع والأدَم والجدَث والجدَف والجدْل القبرُ والاصداء القبورُ والجنابذُ القبورُ العادية مفردها جنبذٌ واللحد الشقّ المائلُ يكونُ في عرضِ القبرِ اي جانبهِ والنواويسُ قبورُ النصارى اذا خربت قبل الاسلام جاز اخذُ ترابهـــا للسماد والجبّانةُ والملَدُ وبيتُ اللهِ والتربةُ المقبرةُ والمحثـــاةُ حفرةُ القبرِ والجالُ والجولُ ناحيةُ القبرِ والجارةُ حجرٌ عريض يوضع على اللحد والجبجقُ قعيرةُ القبرِ والتحسيبُ دفنُ الميتِ في الحجارةِ او مكفنًا ورجمُ القبرِ علمهُ او وضع عليهِ الرجام والهابي ترابُ القبرِ وجمهرَ القبرَ وضع عليهِ الترابُ ولم يطينهُ

المقالة الرابعة

في اديان العرب ومعابدها ومناسكها وفيها ستة فصول

الفصل الاول

في اديان العرب

كانت العرب في الجاهلية على انواع مختلفة من العبادات فمنهم من انكر الخالق والبعث وقالوا بالطبع المحيي والدهر المفني ومنهم من عرف الخالق وانكر البعث ومنهم من عبد الاصنام وكان اكثرهم يعبدون النجوم كالشمس والقمر وعطارد والمشتري وغير ذلك ومنه اسماؤهم كعبد العزى وعبد يغوث وتيم اللات وعبد شمس وعبد المشتري ونحو ذلك

وكانت المجوسية في بني تميم ومنهم زرارة بن عدي وابنه علي وكان تزوج بنته حسب اباحة ذلك في دين المجوس ثم ندم بعده

وكانت الزندقة في قريش اخذوها من الجزيرة

وكانت اليهودية في حمير وبني كنانة وبني الحارث بن كعب وكندة قال المقريزي ان العرب تعلموا كبس الشهور من اليهود الذين نزلوا بيثرب على عهد صموئيل النبي (الذي توفي سنة ١٠٥٧ قبل الميلاد) وقال ابو الفرج الاصبهاني

في ترجمة السموأل بن عاديا اليهودي انهُ كان من اليهود من ولد الكاهن ابن هرون بن عمران وكان موسى النبي وجَّه جيشاً الى العماليق وكانوا قد تسطّوا وبلغت غاراتهم الى الشام وامرهم ان ظفروا بهم يقتلوهم اجمعين فظفروا بهم وقتلوهم اجمعين سوى ابن ملكٍ لهم كان جميلاً فرحموهُ واستبقوهُ وقدموا الشام بعد وفاة موسى فاخبروا بني اسرائيل ما فعلوهُ فقالوا انتم عصاة لا تدخلون الشام علينا ابدًا فاخرجوهم عنها فقال بعضهم لبعضٍ ما لنا غير البلد الذي ظفرنا بهِ وقتلنا اهلهُ فرجعوا الى يثرب واقاموا بها وذلك قبل ورود الاوس والخزرج اياها عند وقوع سيل العرم باليمن فمن هؤلاء اليهود قريظةُ والنضيرُ وبنو قينقاع وبنو ... ولم يوجد لهم نسب يذكر لانهم ليسوا من العرب فتدوَّن العرب انسابهم وانما هم حلفاؤهم

فاذا اردنا المطابقة بين كلام المقريزي وبين ما قالهُ الاصبهاني بعد حذف ما جرت بهِ عادة الرواة من زخرف القصص يمكنا ان نجد في ذلك اشارةً الى حرب شاول ملك اسرائيل مع اجاج ملك عماليق (١صم ص ١٥: ١—٣٥)

وقال ابن خلدون ان اول من ادخل الديانة اليهودية بين العرب هو ذو نواس احد ملوك التبابعة وكان اسمهُ يوسف وتهودت معهُ اهل اليمن وقتل اهل نجران من النصارى وقال غيرهُ ان جلوس هذا الملك كان في سنة ٤٩٠م وفي محيط المحيط ما نصهُ واصحاب الاخدود اهل نجران الذين وفد عليهم زرعةُ ابن كعب ملك اليمن الملقب بذي نواس الحميري ودعاهم ان يتحولوا عن النصرانية الى اليهودية فامتنعوا فاحتفر لهم اخدودًا وأضرم فيهِ النار والقى فيها من ظفر بهِ منهم

وفي بعض تواريخ النصارى كان دميان اليهودي حاكمًا على اليمن اضطهد مَن كان هناك من الاريوسيين فسار اليهِ ايلسبانُ ملك الحبشة وقهرهُ سنة ٥٢١م وفي بعض المؤلفات ان هذه الواقعة جرت بين الحبش وعرب اليمن عند البحر في موقع ايلة التي هي الآن خراب فالتقى ملكهم ذو نواس الحميري بتسعة في

الحرية من وقوعه في اسر الحبشة

وفي تاريخ القرون الوسطى ان ملوك اليمن الحميريين كانوا قد تهودوا في اوائل القرن الرابع للميلاد ولما تعدّوا على النصارى وظلموهم التجأ هولاء المظلومون الى من دبّ عنهم من ارباب الشوكة وهم ملوك الحبشة فلما اتى النجاشي اليمن سنة ٥٢٩ م حمل الملك عليه رجلاً يقال له ارباط وهو ابو ابرهة الاشرم صاحب الفيل الذي قصد مكة ولم ينجح في محاصرتها لشجاعة عبد المطلب وكان سنة ٥٧٠ م ولما صار الملك لاولاد ابرهة طردهم كسرى انوشروان من بلاد اليمن وولى بدلهم رجلاً من نسل قدماء ملوك تلك الارض وذلك سنة ٥٧٢ م

والرجل الذي اشير اليه هنا انه تولّى من قبل كسرى انوشروان هو سيف بن ذي يزن الحميري وفي ذلك يقول ابن دريد

وسيفٌ استعلت به همتهُ حتى رمى أبعدَ شأو المُرتمى
فجرّع الأحبُشَ سمّا ناقعًا واحتلّ من غمدان محراب الدمى

وكانت النصرانية في ربيعة وغسّان وبعض قضاعة قال ابن خلدون المغربي كان اهل نجران من بين العرب يدينون بالنصرانية وكان لهم فضل في الدين واستقامة اخذوا هذا الدين عن رجل سقط لهم من مُلكِ التبعية يقال له فيميون من بقية اصحاب الحواريين

وفي الكتاب المقدس ان بولس الرسول كان اول من بشّر العرب بالانجيل (غل ص ١: ١٥-١٧) وفي بعض التواريخ المسيحية ايضًا ان في القرن الثالث من الميلاد استزار احد حكام العرب المعلّم اوريجانوس الشهير فهدى قبيلة من همَل العرب الذميين وكذلك في خلال القرن الرابع سار موسى الراهب المصري الى العرب ذرية اسماعيل وبشّرهم فتنصرت زوجة حاكمهم المسماة موفية وفي تاريخ القرون الوسطى ان عرب غسّان تنصروا في ايام القيصر

والتين وكان تنصرهم على يد عبّاد الصحراء بالشام (يعني النساك)

واما العبادة الوثنية فهي وان تكن قديمة في العرب من الامور الواضحة ومعرفة اسباب دخولها عندهم من الغوامض الخفية لكن نذكر هنا ما ذكرهُ كثيرون من مؤرخي العرب كالشهرستاني وابن خلدون وغيرها وهو ان اول من جعل الاصنام على الكعبة وعبدها واطاعهُ العرب وعبدوها معهُ واستمروا على ذلك الى ان جاء الاسلام هو عمرو بن لحي بن حارثة بن امرء القيس بن ثعلبة بن مازن بن الازد من ولد كهلان بن سبا كان ملك الحجاز واليهِ تُنسب خزاعة فيقولون انهم من ولد كعب بن عمرو المذكور وان السبب في ذلك هو انهُ لما سار عمرو هذا الى البلقاء من اراضي الشام رأى قومًا يعبدون الاصنام فسألهم عنها فقالوا هذه اربابٌ اتخذناها على شكل الهياكل العلوية والاشخاص البشرية نستنصرُ بها فننصر ونستقي بها فنُسقى فاعجبهُ ذلك وطلب منهم صنمًا فدفعوا اليه هبلَ فسارَ بهِ الى مكة ووضعهُ على الكعبة واستصحب ايضًا صنمين يقال لها اساف ونائلة وكانا على موضع زمزم ودعا الناس الى تعظيم الاصنام فاجابوهُ وكان ذلك في ايام سابور ملك الفرس نحو سنة ٤٠٠ قبل الاسلام (سنة ٢٠٠ م) ويحكى عن عمرو المذكور ايضًا بانهُ هو الذي بحر البحيرة وسيب السائبة وحمى الحامي وكان بكر البعث وفي ذلك يقول

حياةٌ ثم موتٌ ثم حشرٌ كلامُ خرافةٍ يا امَّ عمرِو

وزعم آخرون ان اساف هو ابن عمرو ونائلة بنت سهل ارتكبا القبيح في الكعبة فمسخها الله سبحانهُ حجرين فعبدتها قريش

وقيل ايضًا ان يغوث ويعوق ونسر كانوا اسماء اولاد آدم وكانوا من العبّاد الاتقياء فلما ماتوا جاء الشيطان وحسّن للناس ان يصوّروا صورهم ويجعلوها في قبلة المسجد ليذكروهم اذا نظروهم ثم حسّن لهم ان يعبدوهم فعبدوهم وذكروا ان ودّ كان على صورة رجل وسواع على صورة امرأة ويغوث على صورة اسد

ويعوق على صورة فرس ونسر على صورة نسر

وكانت هذه الاصنام ونظائرها من الاوثان المعبودة عند العرب مخصصةً بالقبائل فكان كذي لجديس وطسم وودّ لكلب وهو بدومة الجندل وتيم لبني تميم وسواع لهذيل و يغوث لمذحج ولقبائل من اليمن ونسر لذي الكلاع بارض حميرَ ويعوق لهمدان واللات لثقيف بالطائف وكان حجابها بنو معتب من ثقيف والعزى لقريش وبني كنانة وكان حجّابها بنو شيبة ومناة وذو الشرى للاوس والخزرج والباجر للازد والجهار لبني هوازن وأوال لبكر وتغلب والمحرّق لبني بكر بن وائل وسعد لبني ملكان بن كنانة وسعير لبني عنزة خاصةً وعياس لخولان كانوا يقسمون له من انعامهم وحروثهم والفلس ورضا لبني طي وذو الكفين لدوس . اما الجبة وجريش والخلد والشارق والعائم والأقيصر وكسعة والمدان وعوف ومناف وبالبل والجهة فهي اصنام ايضاً لكن لم نقف الأ على اسمائها فقط واما اسافُ ونائلةُ النداران فقد سبق ذكرهما فكانا على الصفا والمروة وهبلُ وهو اعظم اصنامهم كان على ظهر الكعبة

وقال ملطبرون ان اللات وقد مرّ ذكرها هي معبودةٌ تشبه الزهرة السماوية كانت تُعبد في تمثال حجرٍ اسود واما بعض كتّاب العرب فيقولون الظاهر ان الحجر الاسود الذي يعتقدون انه من جواهر الجنة وكان ابيض ساطعاً ثم اسودّ لكثرة لمس الحجاج وتقبيلهم له او كما قال آخرون انه ياقوتةٌ من يواقيت الجنة وانه يبعثه الله يوم القيامة وله عينان ولسانٌ ينطقُ به ويشهد لمن استلمه بحقٍ وصدق كان معظّمًا في الجاهلية ايضاً لان قبائل العرب كانت تجتمع في الكعبة ويطوفون بها سبع مراتٍ ويلثمون هذا الحجر

وذكر ملطبرون صنماً آخر سماهُ اراطلاه قال انه من معبودات العرب وانه اله النار

وقال الابشيهي انه كان لاهل كلِّ دارٍ صنمٌ في دارهم يعبدونه فاذا اراد الرجل سفرًا تمسّح بهِ حين يركب وكان ذلك آخر ما يصنع اذا توجّه الى سفره

فاذا قدم من سفره بدأ به قبل ان يدخل الى اهله

ثم ان المصنوع من هذه الاوثان من الحجارة يقال لها الانصاب واحدها نُصُب اما البعيم فهو الصنم والتمثال من الخشب والدُمية من اصبع وقيل الدمية الصورة المنقوشة فيها حمرة كالدم او هي من الرخام او عامة وقيل هي الصورة من العاج تُضرَبُ مثلاً في الحسن فيقال احسن من الدمية والدميةُ الصنم ايضاً وكذلك البُهار والجِبت واما النُصُور فهو الحجر الذي يُذبح عليه القربان للصنم

ويستفاد ما ذكرهُ ابو الفرج الاصبهاني ان العرب كانوا يعبدون الجمل الاسود ايضاً فانه يقول لما دخل زيد بن مهلهل الى المسجد كان صاحب الشريعة الاسلامية يخطب فلما رآه قال أني خيرٌ لكم من العزّى ومما حازت مناع من كل ضارٍ غير نفّاع ومن الجمل الاسود الذي تعبدونهُ من دون الله

وكانوا يسجدون للفصاحة ايضاً امام المعلقات السبع ويسمونها السموط والسبع الطول جمعها حمادُ الراوية واعتنت علماء الاسلام بشرحها لما فيها من الفصاحة والصناعة الشعرية ويعتبرونها الطبقة الاولى وكانت العرب تفخر بها ولسمو درجة فصاحتها علقوها على باب الكعبة قال صاحبُ تذكرة الحكم في طبقات الامم ان العرب اقامت تسجد لهذه المعلقات نحو مئة وخمسين سنة الى ان ظهر الاسلام وابطل القرآن بسطوة فصاحته اعتبار العرب لهذه المعلقات

ثم كما ابطل الدين الاسلامي سجود العرب للفصاحة ابطل كذلك عبادة الاوثان واقام مبانيه في خمسة قواعد اساسية وهي اولاً النطقُ بالشهادتين اللتين احدهما تتضمن الاعتراف بوحدانية الباري تعالى جلّ شأنهُ والثانية الاقرار برسالة صاحب الشريعة الاسلامية ويعبَّر عنها بكلمة الإخلاص واما الاربعة الباقية فهي اقامة الصلوة وايتاء الزكوة وصوم شهر رمضان اياماً معدودات فمن كان مريضاً او على سفرٍ فعدةٌ من ايام أُخر واما ان صامَ فهو خيرٌ له وحجُّ البيت من استطاع اليه سبيلاً

اما الصلاة فهي الدعاء والدين والرحمة والاستغفار وحسن الثناء من الله

على الرسول وصلاة العبادة يكون فيها ركوع وسجود واقوال وافعال مفتتحة بالتكبير ومختتمة بالتسليم مع النية بشرائط مخصوصة وقالوا هي من الله الرحمة ومن الملائكة الاستغفار ومن المؤمنين الدعاء ومن الطير والهوام التسبيح

واما الزكاة فيراد بها قدرٌ معين من النصاب الحولي اي قدر المال الذي تجب فيهِ الزكاة كل سنة يخرجهُ الحرّ المسلم المكلّف لله تعالى الى الفقير المسلم غير الهاشمي ولا مولاهُ (اي ولا عبدهُ) وهو معطوف على الهاشمي مع قطع المنفعة عنهُ من كل وجهٍ قيل سميت بذلك لانها تزيد في المال الذي تخرج منهُ وتوفرهُ وتقيهِ من الآفات وفي الحديث هاتوا ربع العشر من اموالكم ولا يعفى من ذلك الّا من كان ما في حوزتهِ اقل من مئتي درهم من الفضة او عشرين مثقالاً من الذهب ولا يُلتفت الى قيمة الارزاق والعقارات والثياب بل الى غلالها فقط وفي الحديث ايضاً ليس في الجبهة ولا في الكسعة ولا في النخة صدقة. والجبهة هي الخيل والكسعة الحمير والنخة الرقيق وقيل البقر العوامل وليس في الخضراوات صدقة والخضراوات هي الخُضر والفواكه والبقول ولذلك لا يلتزم المسلمون بتزكية شيءٍ هو من هذا القبيل

واما الصوم فهو الامساك عن الطعام والشراب والوطءِ من زمان الصبح الى المغرب مع النية (اي مع عقد النية على الصوم) وشهر رمضان هو تاسع الشهور القمرية وفي الحديث كان عليهِ السلام يأمرنا ان نصوم ايام البيض وايام البيض هي اليوم الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر من الشهر القمري اما صوم الوصال فهو صوم يومين او ثلاثة

واما حجّ البيت فسوف يأتي الكلام عليهِ في الفصل الثالث من هذه المقالة

فتعلم العرب التوحيد وان كلّ ما يحدثُ هو معينٌ بقدرٍ لا مناصّ منهُ وانهُ بعد الموت يجازى الخيرُ خيرًا والشرُّ شرًا والمداومة على الصلوات المتتابعة في الاوقات الخمسة والحسنة للمساكين وصوم شهر رمضان والامتناع عن الخمر وتقرر عندهم الختان وزواج اكثر من امرأةٍ واحدة والطلاق وتحولت مقاصدهم

في الغارات بعضهم على بعض الى الجهاد في سبيل الدين واضم الى ذلك رغبتهم في المكافاة عليهِ بالنعيم في جنةٍ تجري من تحتها الانهار فيها من كل ما تشتهيهِ الانفس وتلذّ الاعين وخلاصة الامر ان القرآن ازال ما كان في قلوبهم من العداوة والبغضاء فجعلوا ياخذون في الائتلاف والانضمام حتى انهُ في طرف يسير من الزمان خضعت كل بلاد جزيرة العرب وبواديهـا الى هذا الدين وصار الدرس النادر ان يوجد فيها من لا ينطق بالشهادتين ولئن كان اغلب اهالي البادية لا يعرفون من المعتقدات والسنن والفرائض الاسلامية غيرها

الفصل الثاني

في معابد العرب

الكعبةُ التي مرّ ذكرها هي الآن في وسط المسجد الحرام بمكة من بلاد الحجاز وقد سميت بهذا الاسم لعلوها من اسم الكعب وقد ذكروا بان موضع الكعبة الحقيقية منها كان فيهِ خيمةٌ لادم وضعها الله لهُ من الجنة فبنى شيثُ بن آدم هناك الكعبة بالطين وان الذي بنى البيت هو آدم نفسهُ وانهُ لما قضى مناسكهُ فيهِ لقيتهُ الملائكة فقالوا يا آدم لقد حججنا هذا البيت قبلك بالفي عام . وقيل ان بناء البيت كان قبالة البيت المعمور ثم هدمهـا الطوفان وقال ابن خلدون ان ابرهيم لما ترك هاجر في الفلاة وضعهـا وابنهـا اسماعيل في مكان البيت فاتخذ اسماعيلُ هناك بيتًا وادار عليهِ سياجًا من الردم وجعلهُ زريبًا لغنمهِ ثم لما جاء ابوهُ لزيارتهِ من الشام آخر مرة امرهُ الله ببناء الكعبة مكان ذلك الزريب وان يؤذّن في الناس بالحج فيهِ فبناهُ هو وابنهُ اسماعيل كما نصّه القرآن وسكن اسماعيل بهِ

مع هاجر ومن نزل معهم من جُرهُم الى ان قبضها الله ودُفنا بالحجر منه اه . وعلى هذا يكون ابرهيم واسماعيل انهُ هما اول من رفع قواعد الكعبة ثم لما غلبت قريشُ خزاعةَ على امر البيت كما يتضح ذلك مما يأتي بنى قصي بن كلاب البيت وسقفهُ بخشب الدوم وجريد النخل قال الاعشى

حلفتُ بثوبي راهبَ الدورِ والتي بناها قصيٌّ والمضاضُ بن جُرهُمُ

ثم اصابهُ سيلٌ وقبل حريقٌ فتهدَّم فاعادوا بناءهُ ثم اصابهُ حريقٌ سنة ٦٤ للهجرة (سنة ٦٨٣ م) من النفط الذي رمى بهِ جيوش يزيد بن معاوية على ابن الزبير لما تحصَّن بهِ فاحصر بعد ذلك بنائين من الفرس والروم واعاد بناءهُ على احسن ما كان ثم هدمهُ لما احتجت عليهِ الصحابة في بنائهِ واقامهُ ثانيًا على اساس ابرهيم وجعل فرش الكعبة وازرها بالرخام وصاغ لها المفاتيح وصفائح الابواب من الذهب ثم لما حاصر كليبُ بن يوسف الثقفي المعروف بالحجاج ابن الزبير المذكور في ايام عبد الملك بن مروان وظفر بهِ امر بهدم البيت وردَّهُ على قواعد قريش كما هو اليوم فهو والحالة هذه من بناء ابن الزبير وبناء الحجاج اما الذين زادوا في ارضهِ ووسعوهُ فهم عمر بن الخطاب وعثمان بن عفَّان ثم ابن الزبير ثم الوليد بن عبد الملك الذي اقام فيهِ عمد الرخام ثم زاد فيهِ المنصور العباسي وابنهُ المهدي

ووصف مطرون الكعبة فقال وفي كتب الجغرافية المعتادة قد مدحوا جمال الكعبة وزينتها وابوابها الكثيرة وقببها المذهبة ولما رآها المعلم بيوهر (احد السياح الالمانيين) قال في وصفهِ انها اشدُّ شبهًا بهياكل الهند القديمة وهياكل بلاد سيام من شبهها بالمساجد المحدودة بعد ظهور الاسلام فانها بناء مربعٌ مكشوف تحتاط بهِ اعمدةٌ وبهِ منارات تدلُّ عن الاهرام والمسلات الموجودة بغيرها وفي هذا الدائرة مساجد للصلاة وداخلها بناء مربع هو الكعبة الحقيقية وكان اول من كسا الكعبة على ما قالهُ ابن خلدون هو تبَّع كساها بالملاء

والوصائل وجعل لها مفتاحاً وهو اول من تهود من العرب وتبعته في ذلك قبيلة حِمْيَر وقال ابو الفرج الاصبهاني ان قريشاً كانت تكسو الكعبة في الجاهلية من اموالها باجمعها سنةً وكان بحيرُ بن ابي ربيعة الذي سماهُ صاحب الشريعة الاسلامية عبد الله يكسوها من مالهِ سنةً ولذلك لقبتهُ قريش بالعدل يريدون انهُ وحدهُ عدلهم جميعاً وكان عبد الله المذكور تاجراً موسرًا ومتجرهُ الى اليمن وابوهُ ابو ربيعة واخوته هشام وهاشم والعاكهُ بنو المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم يُضرَب بعزّهم المثل وقال المقريزي ان كسوة الكعبة كانت المسوح والانطاع واول من كساها الديباج هو عبد الله بن الزبير الذي مرّ ذكرهُ احد الخلفاء الامويين

وقال المروزي بان العرب في الجاهلية كانوا اذا نأوا عن الكعبة ينصبون حجرًا يسمونهُ الدوار يطوفون حولهُ تشبهاً بالطائفين حول الكعبة

وكان لبعض القبائل من العرب معابدُ خصوصية ايضاً فقد ذكر الاصبهاني بان غطفان بنت بيتاً سمتهُ بُسّ وشبهتهُ بالكعبة فكانوا يحجونهُ ويعظمونهُ ويسمونهُ حرماً فغزاهم زهيرُ بن جناب الكلبي وهدمهُ وفي محيط المحيط العُزّى سمرةٌ لغطفان كانوا يعبدونها وكانوا بنوا لها بيتاً واقاموا لها سدنةً فبعث اليها صاحب الشريعة الاسلامية خالد بن الوليد فهدم البيت واحرق السمرة وهو يقول

يا عزّ كفرانكِ لا سبحانكِ ‏ ‏ ‏ ‏ اني رأيتُ الله قد اهانكِ

وحكى غيرهُ ان ذا الخلصة بيتٌ لبني خثعم كان يُدعى الكعبة اليمانية وسُمّي بذي الخلصة لصنمٍ كان فيهِ يسمّى الخلصة او لانهُ كان في منبت الخلصة[1] وهناك بيتٌ آخر يسمّى سعيدة كانت العرب تحجّ اليهِ في جبل أُحُد وذو الكعبات بيتٌ لربيعة كانوا يطوفون بهِ

اما كعبة نجران فهي قبةٌ لعبد المسيح بن دارس بن عدي مصنوعةٌ من

(١) شجر كالكرم يتعلق بالشجر ذو حب وهو طيب الريح وحبه كخرز العقيق

ثلاث مئة جلدٍ وكانت العرب تسميها كعبة نجران لانهم كانوا يقصدون زيارتها كما يقصدون زيارة الكعبة فكان اذا نزل بها مستجيرٌ أُجيرَ او خائفٌ آمن او جائع شَبعَ او طالبُ حاجةٍ قُضِيَت او مسترفدٌ أُعطي ما يريد قال الاعشى يخاطب ناقتهُ

وكعبةُ نجرانٍ حتمٌ عليكِ	حتى تناخي بابوابهـا
نزورُ يزيدَ وعبدَ المسيحِ	وقيسًا همُ خيرُ اربابهـا

قال ابو الفرج الاصبهاني انها بيعةٌ بناها بنو عبد المدان على بناء الكعبة وعظّموها مضاهاةً للكعبة

ثم بعد ظهور الاسلام اندرس جميع ما ذكر وتعوض عنهُ بالكعبة والمساجد التي أُحدثت بعد الاسلام وكان اول اتخاذها المسجد الذي بناهُ صاحب الشريعة الاسلامية في المدينة قال ابن خلدون ان الله تعالى امرهُ بالهجرة اليها واقامة دين الاسلام فيها فبنى مسجدهُ الحرام بها وكان محلهُ الشريف في تربتها وان هذه المساجد الثلاثة هي قرّة عين المسلمين (يريد بذلك الكعبة التي تقدّم ذكرها ومسجد المدينة الذي نحن بصدده وبيت المقدس وهو الجامع الاقصى الذي بناهُ عمر بن الخطاب في اورشليم في المحل الذي كان مبنيًّا عليهِ هيكل سليمان بن داود ملك اسرائيل) ثم ذكر ايضًا مسجدًا آخر غير الثلاثة المذكورين قال انهُ لآدم ابي البشر في سرنديب من جزر الهند لكنهُ لم يقطع بصحتهِ

وكانت هذه المساجد وغيرها من الجوامع الاسلامية خاليةً في مبدإ الامر من المنابر ولم تُتخذ فيها الَّا في زمن الخلفاء من الصحابة وكان اول من اتخذها عمرو بن العاص عاملُ عمرَ بن الخطاب على مصر لما بنى جامعهُ المشهور فيها فانكر عليهِ ذلك الخليفة المشار اليهِ وامرهُ بكسرهِ ثم لما تولّى الخلافة ابو عبد الله المهدي امر بتقصيرها

واما الدعاء على المنابر للخلفاء فاول من ابتدأ به ابن عباس دعا لعلي بن ابي طالب وكان عاملهُ على البصرة وسرى ذلك الى ان صارت الخطبة من شعائر الملك فتهدد الخوارجُ ملوكها باقامةِ الدعاء في الخطبة لغيرهم

واول من اتخذ المقصورة من المسجد لصلاة السلطان كان معاوية بن ابي سفيان اول خلفاء بني أمية حين طعنهُ الخارجي ليقتلهُ وقيل بل هو مروان بن الحكم حين طعنهُ اليمانيّ ثم اتخذها الخلفاء بعد ذلك في المشرق والمغرب

نبذةٌ

في سدانة الكعبة

وكانت سدانة الكعبة في زمن الجاهلية مع بني اسمعيل حتى انتهى ذلك الى نابت احد اولادهِ فلما توفي صارت الى جدهِ لأُمهِ مضاض بن عمرو الجرهمي حتى غلبت خزاعة على مكة فصارت اليهم ونفوا بني جُرهُم عن مكة وفي ذلك يقول مضاض المذكور

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا	انيسٌ ولم يسمر بمكة سامرُ
ولم يتربَّع واسطـاً فجنوبهُ	الى المنحنى من ذي الاراكةِ حاضرُ
بلى نحنُ كنا اهلها فابادنا	صروفُ الليالي والجدود العواثرُ
ونحنُ ولاةَ البيتِ من بعد نابتٍ	نطوفُ بذاك البيتِ والامرُ ظاهرُ
فاخرجنا منهـا المليكُ بقدرةٍ	كذلك بين الناسِ تجري المقادرُ

الى ان يقول

فبطنُ مِنًى امسى كأن لم يكن به مصاضٌ ولابن انطاح عمائرُ
فهل فرجٌ يأتي بشيء نحبّهُ وهل جزعٌ ينجيك مما تحاذرُ

ولم تزل السدانة في خزاعة الى ان انتهت الى غبشان الملكاني وصيًّا لحليل بن حبشيّة الخزاعي فاسكرهُ قصي بن كلاب القرشي واشترى منهُ مفاتيح الكعبة بزق خمر فلما صحى ابو غبشان ندم حيث لم ينفعهُ الندم فصار ذلك مثلاً يقال اخسرُ من ابي غبشان قال الشاعر

باعتْ خزاعةُ بيتَ الله اذ سكرت بزق خمرٍ فبئست صفقةُ البادي
باعت سدانتها بالخمر وانصرفت عن المقام وظلّ البيت والنادي

ومن ثمّ صارت سدانة الكعبة لآل قريش حيث استولى قصيٌّ المذكور على مفاتيحها بعد ان قضى له بذلك يعمر بن عوف بن كعب بن عمرو بن ليث بن بكر بن عبد مناة بن كنانة احد حكام العرب وقد مرّ ذكرهُ وتولّى البيت وصار له لواء الحرب وحجابة البيت وتيمنت قريش برأيهِ فاتخذ دار الندوة امام الكعبة في مشاوراتهم وتصدّى لاطعام الحج وسقايته ففرض على قريش خراجًا يؤدّونهُ اليهِ فتمت له بذلك الحجابة والسقاية والرفادة والندوة واللواء

الفصل الثالث

في مناسك العرب

الحج[1]. وللعرب كثيرٌ من المناسك التي جاءت شريعة الاسلام اخيرًا بها

(١) الحج القصد والكف والقدوم وكثرة الاختلاف والتردد

ومنها الحجُّ الى البيت فكانت قبائلهم تجتمع حول الكعبة ويطوفون بها سبع مرات ويعتمرون[1] ويحرمون ويسعون ويقفون المواقف كلها ويرمون الجمار كما هو الحال جارٍ عليهِ بعد الاسلام

والاحرام هو الدخول في اعمال الحج سمي بذلك لان الحاجّ يحرّم على نفسهِ الحلقَ وتقليم الاظفار وقتل الصيد ومباشرة النساء وبقابلهِ الاحلال او انهم يطوفون عراة بالمدرر فقط ومنهُ قول الشاعر

لما رأيت مآدبكم هَلُمَّ بنا[2] شددتُ مئزرَ احرامي ولبَّيتُ[3]

وكانوا يطرحون اثوابهم بين ايديهم في الطواف ويسمونها حرمًا قال ابن خلدون الاحرامُ هو لبسُ الاثواب غير المخيطة لما ان البدو من العرب يتناولون اللباس اشتمالاً واما اللباس المخيط فهو مختصٌّ بالعمران الحضري وهذا هو السرُّ في تحريمهم لبس المخيط في الحجّ لما ان مشروعية الحجّ مشتملهٌ على نبذ العلائق الدنيوية كلها

واما الجمار فهو جمع جمرة يعني الصغار من الحصى وجمراتُ مِنًى ثلاث بين كل جمرتين مقدار غلوة ترميها الحجاج بالحصى وذلك من مناسك الحج وفي محيط المحيط الجمار مِنًى في من جمَرَ ملانًا اي نحّاهُ او من اجمراي اسرع وقيل ان آدم رمى ابليس فاجمرَ بين يديهِ

النسيء[4] كان الحجُّ عندهم يقع في الازمنة الشمسية كلها وهو ابدًا عاشر ذي الحجة الى ان تعلموا كبس الشهور من اليهود الذين بيثرب فابتدأوا بهِ قبل الاسلام بنحو مئتي سنةٍ ليجعلوا حجّهم في وقت ادراك شغلهم من الادم والجلود

---

(1) الاعتمار من العمرة وهو القصد الى مكانٍ عامر او الزيارة وشرعًا افعال مخصوصة تسمّى بالحج الاصغر واعمالها ثلاثة الاحرام وسوف يأتي ذكرهُ والطواف وقد ذكر في ٠ مرَّ والسعي بين الصفا والمروة والحلق (2) الهلمة الدعوة وهي مصدر هلمَّ اي اقبل (3) التلبية اجابة الداعي

(4) النسيء معناهُ التأخير وانساهُ اجَّلهُ

والنار ونحوها ولن يثبت ذلك على حالة واحدة في اطيب الازمنة واخصبها فكانوا يكبسون في كل ثلاثة اعوام شهرًا واحدًا لاجل مطابقة السنة القمرية على دورة الشمس السنوية وقال المقريزي انهم كانوا يكبسون في كل اربع وعشرين سنة تسعة اشهر حتى تبقى السنة ثابتة مع الازمنة على حال واحدة لا تتغير

وكان يتولّى ذلك النسأة[1] من بني كنانة المعروفون بالقلامس واحدهم قلمس[2] واختلف في مَن كان اول من انسأ الشهور منهم فقيل القلمسُ هو عدي بن يزيد وقيل هو سمير بن ثعلبة بن الحارث بن مالك بن كنانة قال المقريزي انهُ كان يلي ذلك منهم ابو ثمامة المالكي ثم من بني فقيم وبنو فقيم هم النسأة وهو مسمّي الشهور وكان يقوم على باب الكعبة فيقول ان الهكم العزى قد انسأت صفر الاول وكان يحلهُ عامًا ويحرّمهُ عامًا وكان اتباعهم على ذلك هوازن وغطفان وسليم وتميم وآخر النسأة جنادة بن عوف بن أمية بن قلع بن عباد بن حذيفة بن عبد الله بن فقيم وقيل القلمس هو حذيفة المذكور بن عبد ابن فقيم بن عدي بن عامر بن ثعلبة بن الحارث بن مالك بن كنانة ثم توارث ذلك منهُ بنوهُ من بعدهِ حتى كان آخرهم الذي قام عليهِ الاسلام وكان اذا اراد ان ينسي منها شيئًا حلّ المحرّم فحلوهُ وحرّم مكانهُ صفر فحرّموهُ لكي يواطئوا عدَّة اربعة اشهرٍ حرم عددهم قال عُمير بن قيس جدل الطعان يفخر

وايُّ الناس لم يُسبق بوترٍ ... وايُّ الناس لم يعلك لجاما

أَلسنا الناسئين على معدٍّ ... شهورَ الحلِّ نجعلها حرامًا

وقال آخر

أزعم اني من فقيم بن مالكٍ ... لعمري لقد غيرت ما كنت اعلمُ

لهم ناسئ يمشون تحت لوائهِ ... يحلّ اذا شاء الشهورَ ويحرم

ثم لما حجّ صاحبُ الشريعة الاسلامية في السنة العاشرة للهجرة أُنزلت الآية

(١) النسأة المسمون لهذا العمل (٢) القلمس البحر الغزير

تحريم النسيء فبطل ما احدثته الجاهلية من ذلك واستمرَّ وقوعُ الصوم والحج رؤية الأهلة فرجع الحج الى ما كان عليهِ من الوقوع في ازمنة السنة الشمسية كلها

الاجازة وكانت اجازة الحج لخزاعة فاخذتها منهم عدوان فكان الرجل منهم يجيز الناس الى الحج بان يتقدمهم على حمارٍ ثم يخطبهم فيقول اللهمَّ اصلح بين نسائنا وعادِ بين رعائنا واجعل المال في سمحائنا ايها الناس اوفوا بعهدكم واكرموا جاركم واقروا ضيفكم ثم يقول اشرق ثبير كيما نغير وكانت هذه اجازته ثم ينفر ويتبعه الناس

الابل في ازمنة الحج وكانت العرب اذا حجت قلدت الابل النعال والبستها الجلال واشعرتها فلا يتعرض لها احدٌ الأ من خثعم كما يتضح ذلك مما يأتي

القرابين وكانوا يقربون القرابين في الكعبة من الغنم والابل الى ثلاث مئة وستين صنماً موضوعاً عليها وظن بعضهم ان الاصنام بهذا العدد في ختام السنة من الجن كما في معتقدات اليونان وان الصنم الموضوع على الكعبة هو الشمس وكانوا يسمون هذا ايام البيها الورائم وكانوا يذبحون ذبيحة في رجب يسمونها العَتيرة

وكانوا يذبحون لها الفَرَع وهو اول ولدٍ تنتجهُ الناقة فكان الرجل يقول اذا تمَّت ابلي كذا نحرتُ اول ولدٍ ينتج منها وكانوا اذا ارادوا نحرهُ زبَّبوهُ والسوهُ قال الروزني وقد كان الرجل ينذر ان بلغ الله غنمهُ مئة ذَبحَ منها واحدةً ثم ربما ضنَّت نفسهُ بها فاخذ ظبياً وذبحهُ مكان الشاة الواجبة عليهِ وكان المسلمون ايضاً يفعلون ذلك في صدر الاسلام ثم نُسخَ وفي الحديث لا فرع ولا عتيرة

وقال بعضهم ان العرب كانوا يتقربون الى معبوداتهم بذبح الآدميين قرباناً كالأنعام ايضاً ومن ذلك ما ذكروهُ عن هاشم جدّ صاحب الشريعة الاسلامية وكان نذر لئن وُلِدَ لهُ عشرةٌ من الولد ليحرنَّ احدهم قرباناً فلما

كانوا عشرة ضرب عليهم القِداح (وسوف يأتي الكلام عليها) فخرج القِداح على ابيهِ عبد الله ابي صاحب الشرعة المشار اليهِ فنعه قومهُ من تقريبهِ قرباناً فافتداهُ بمئةٍ من الابل باشارة العرافة وقد جاء في الحديث انا ابن الذبيحين يعني عبد الله اباهُ واحد ابي ابرهيم الخليل لان علماء الاسلام لا يقطعون بمن هو الذي امر الله بتقديمهِ له قرباناً مبهماً ثم افتداهُ بالكبش نظرًا لعدم الصراحة باسمهِ في القرآن اما الذين يرجحون اسحق في هذا الامر فيطابقون ذلك على الحديث كما لو كان اسماعيل لان العمّ ابٌ ايضاً

وكانوا يسمون اليوم الاول من النحرِ يوم النَّحْر والثاني يوم القرّ والثالث يوم النفر والرابع يوم الصدر

مناسك اخرى وكان باقيًا عند العرب بعض المناسك الشائعة بينهم اما من عهد اسماعيل بن ابرهيم الخليل واما سرت اليهم من الديانة اليهودية التي كانت منتشرة في بلادهم وهي انهم لا يجمعون في الزواج بين الاختين ولا يتزوجون المرأة وبنتها ويغتسلون ويداومون على المضمضة والاستنشاق وفرق الراس والسواك والاستنجاء وتقليم الاظفار وقص الشارب وحلق الراس والعانة والختان ويحرمون اكل لحم الخنزير ويقطعون يد السارق اليمنى فلما ظهر الاسلام امر بذلك ايضاً وزاد عليهِ ايضاً ما زجرهم بهِ عن ارتكاب القبائح التي كانوا الفوها في زمن جاهليتهم بتأييد الحدود التي وافقت بها شريعتهُ كثيرًا من احكام التوراة كالطلاق والجلد والرجم ومقابلة الجاني بما فعل كالعين بالعين والسنّ بالسنّ وما شاكل ذلك

القسم واليمين وكانوا يقولون في حلفهم لحَقٌّ لا اتيك وهو يمين لهم ومعناهُ لحَقُّ اللهِ لا اتيك فاذا اسقطوا اللام قالوا حقًا لا اتيك

وكانوا يحلفون بزمزم والحطيم ويقولون ايضاً لا وربِّ هذه البنية اما زمزم فهو بئر الماء الذي مرّ ذكرهُ في الكلام على مكة قال بعض مؤلفي الافرنج ان هذا البئر لا يوجد بمكة غيرهُ وانهُ لا يصلح للشرب لانهُ يسبّب القروح

والبذور واما سبب تعظيمه فهو اعتقادهم بانهُ البئر الذي اظهرهُ الله لهاجر المصرية ام اسماعيل لما كانت تائهة مع ابنها في برية بئر سبع وقد فرغ الماء الذي كان في قربتها لتسقي اسماعيل ابنها (تك ص ٢١ ١٤–٢١) وذكر بعض المؤلفين من العرب ان هذه البئر حفرها عبد المطلب وكانت مطمومة واستخرج منها غزالين ذهب ضرب احدها صفائح لباب الكعبة وجعل الآخر فيها وقال ابن خلدون ان هذين الغزالين كانا من قرابين الفرس لانهم كانوا يحجون اليه. واما الحطيم فهو الحائط الذي يحيط على حجر الكعبة من الجانب الغربي قال ابن دُريد وكان الجاهلية يحلفون به فيحطم الكاذبَ ولذلك سمّي الحطيم. واما البنية فهي الكعبة

ويحلفون ايضاً بذمة العرب فاذا قال احدهم لا وذمّة العرب كان صادقاً في ما قال واذا كان ذلك لعهدٍ فلا يخون بعدهُ اصلاً قال متمم بن نويرة يعاتب ابا بكر وكان خالد ابن الوليد قتل اخاهُ في الردّة

نعمَ القتيلُ اذا الرياحُ تناوحت   تحت الازارِ قتلت يا ابنَ الازورِ
أدعوتهُ باللهِ ثم قتلتـــهُ   لو هُوَ دعاك بذمةٍ لم يغدرِ

فقال ابو بكر اما ما دعوتهُ ولا قتلتهُ

ويحلفون ايضاً بشهر رجب لانهم كانوا يحترمونه ويمتنعون فيه عن الغزو والقتل ويسمّونهُ الاصمّ ومنصلِ الألّ والألُ الاسنّة فكانوا اذا دخل رجب انصلوا الاسنّة من الرماح حتى يخرج الشهرُ وهذا السبب في تسميته بالاصمّ لانهُ لا يُسمع فيه رنة السلاح ولا صهيل الخيل ولا جلبة القتال وقيل انهم كانوا يصومونهُ ايضاً قال الميداني في تفسير المثل المضروب وهو اذا العجوز ارتجبت فارجبها يقال رجبتهُ اذا هبتهُ وعظمتهُ ومنهُ رجب مُضَرَ لان الكفار كانوا يهابونهُ ويعظمونهُ ولا يقاتلون فيه وكذلك في ذي القعدة وذي الحجة ومحرّم ويسمونهـا الاشهر الحرم لانهم لا يستحلّون فيهـا القتـال الاّ مع بني خثعم وبني طيء لاستحلالهم

الدماء فيها فكان الذين ينسأون الشهور ايام المواسم يقولون حرّمنا عليكم القتال في هذه الشهور الا دماء المُحلّين يعني القبيلتين المذكورتين وقيل انهُ كان لقوم من غطفان وقيس ثمانية اشهر حرم يسمّونها البَسْل

ويحلفون ايضًا بالدم احرج العَدَق من الحريقِ والنارَ من الوثيمةِ والعَدَقُ بفتح العين المهملة النخلة والحريقة النواة والوثيمة الصخر والحجر

الفصل الرابع

في المدارك الغيبية

قال ابن خلدون المغربي كما ان عالم العناصر المشاهدة تدرجُ صاعدًا من من الارض الى الماء ثم الى الهواء ثم الى النار متصلاً بعضها ببعض وكل واحد منها مستعدٌ ان يستحيل الى ما يليهِ صاعدًا او هابطًا[١] والصاعد منها الطف مما قبلهُ الى ان ينتهي الى عالم الافلاك وهو الطف من الكل كذا عالم التكوين ابتدأ من المعادن ثم النبات ثم الحيوان على هيئةٍ بديعة من التدريج[٢] فآخر افق المعادن متصلٌ باول افق النبات مثل الحشائش وما لا بزر له وآخر افق النبات مثل النخل والكرم متصلٌ باول افق الحيوان مثل الحلزون والصدف وهو ما لم يوجد لهُ الا قوةُ اللمس فقط ومعنى الاتصال في هذه المكونات ان آخر افقٍ منها مستعدٌ بالاستعداد القريب لان يصير اول افق الذي بعدهُ

(١) انظر كلام تاليس وفيثاغورس من فلاسفة اليونانيين في كتابنا زبدة الصحائف في اصول المعارف (٢) انظر تلك ص ٤٠١-٥٢

واتسع عالم الحيوان وتعددت انواعهُ وانتهى في تدريج التكوين الى الانسان صاحب الفكر والروية

ثم بعد ان برهن على وجود النفس المدركة والمحرّكة في الانسان قال ولابدّ فوقها من وجود آخر يعطيها قوى الادراك والحركة ويتصل بها ايضاً ويكون ذاته ادراكاً صرفاً وتعقلاً محضاً وهو عالم الملائكة فوجب من ذلك ان يكون للنفس استعدادٌ للانسلاخ من البشرية الى الملكيّة ليكون بالفعل من جنس الملائكة وقتاً من الاوقات في لمحة من اللمحات

ثم قسم النفوس البشرية على ثلاثة اصناف صنف عاجزٌ بالطبع عن الوصول الى الادراك الروحاني وليس له الاَّ المدارك الحسيّة والخياليّة وبها يستفيد العلوم التصورية والتصديقية بحسب نطاق الادراك البشري الجسماني واليهِ تنتهي مدارك العلماء وفيهِ ترسخُ اقدامهم

وصنف يتوجه بحركة الفكر نحو العقل الروحاني والادراك الذي لا يفتقر الى الآلات البدنية فيتسع نطاق ادراكهِ عن الاوليات التي هي نطاق الادراك البشري ويسرح في فضاء المشاهدات الباطنية وهذه مدارك العلماء الاولياء اهل العلوم اللدُنيّة والمعارف الربانية

وصنف مفطور على الانسلاخ من البشرية جملةً جسمانيةً وروحانيةً الى الملائكة من الافق الاعلى ليصير لمحةً من اللمحات ملكاً بالفعل ويحصل على شهود الملاء الاعلى في افقهم وسماع الكلام النفساني والخطاب الالهي في تلك اللمحة وهؤلاء الانبياء في حالة الوحي[1] يجوزونها بما رُكِزَ في غرائزهم من الصدق والاستقامة

واما الكهانة فهي من خواص النفس الانسانية وذلك لما تقدَّم في ما مرَّ من ان للنفس الانسانية استعداداً للانسلاخ من البشريَّة الى الروحانيَّة التي فوقها وكان ذلك الاستعداد موجوداً في الطبيعة البشريَّة فيعطي التقسيم العقلي ان

(١) الوحي في اللغة الاسراع وقد سمي الاعلان الروحي بهذا الاسم لاسراعهِ باقرب من لمح البصر

فها صنف آخر من البشر ناقصاً عن رتبة الصنف الاول نقصان الضدّ عن ضدهِ الكامل الّا انهُ مفطورٌ على ان تتحرك قوتهُ العقلية حركتها الفكرية بالارادة عندما يبعثها النزوع الى ذلك وهي ناقصةٌ عنهُ بالجبلة فيكون لها بالجبلة عندما يعوقها العجزُ عن ذلك تشبثٌ بامور جزئيةٍ محسوسةٍ ومتخيلة كالاجسام الشفافة وعظام الحيوانات وسجع الكلام وما سنحَ من طيرٍ او حيوانٍ فيستديم ذلك الاحساس والتخيل مستعيناً بهِ في ذلك الانسلاخ الذي يقصدهُ ويكون كالمشيع لهُ وهذه القوة التي فيهم مبدأٌ لذلك الادراك هي الكهانة(١)

ولا يقوى الكاهن على الكمال في ادراك المعقولات لان وحيهُ من وحي الشيطان وارفع احوال هذا الصنف ان يستعين بالكلام الذي فيهِ السجع والموازنة ليشتغل بهِ عن الحواس ويقوى بعض الشيء على ذلك الاتصال الناقص فربما صدق ووافق الحق وربما كذب واصحاب هذا السجع هم المخصوصون باسم الكهان ويخمد الكهانة في زمن النبوة كما تخمد الكواكب والسرج عند وجود الشمس ويلي الكهان على النمط المذكور الرؤيا والتكهن والرياضة والصناعة ولكلٍّ من ذلك كلامٌ في ما يأتي

الكلام على الكهان

الكاهن عند اليهود والنصارى والامم هو الذي يقدم الذبائح والقرابين وربما كان مأخوذاً في الاصل من معنى انقضى بالغيب كما كانت تفعل كهنة الامم واليهود وفي المعربات الكاهن هو الذي يخبر عن الكوائن في مستقبل الزمان ويدّعي معرفة الاسرار ومطالعة علم الغيب وفي الكليات الكاهن من يخبر بالاحوال الماضية والعراف من يخبر بالاحوال المستقبلة

والمعروف بهذه الوظيفة من الجاهلية كثيرون منهم الافعى الكاهن الذي

---

(١) تأمل في ما يروى عن بلعام العراف وغيره من اصحاب العرافة والانبياء الكذبة في العهد القديم

حكم بين ولد نزار بن معد لما تنافروا اليهِ بعد موت نزار بن عمر ماء السماء الحميري وكذلك جذيمة الابرش كان قد تكهن وادَّعى النبوة ومثلهُ الزبَّاء وسوف يأتي ذكرها في محلهِ وابن صياد وسواد بن قارب ولم نقف على ترجمتهما واما الذين وقفنا على تراجمهم فهم

اولاً . الاسود العنسيّ من قبيلة مذحج واسمهُ عبهلة بن كعب وكان يُسمَّى ذا الحمار ايضاً لانهُ كان لهُ حمار اسود مُعلَّم يقول لهُ اسجد لربك فيسجد لهُ ويقول لهُ ابرك فيبرك ادَّعى النبوة في اليمن وكان يشعبذ ويري الجهال الاعاجيب ويسبي بمنطقهِ من يسمعهُ قتلهُ رجلٌ يقال لهُ فيروز قبل وفاة صاحب الشريعة الاسلامية بيوم وليلة

ثانيًا . عامر بن عبد الله بن سعد بن ابي سرح الذي كان اخًا لعثمان بن عفان من الرضاعة وكان كاتبًا للوحي يحكى عنهُ انهُ كان يكتب آية ابتداء الخليقة فقال تعجبًا فتبارك الله احسنُ الخالقين فقال لهُ صاحب الشريعة الاسلامية اكتبها فانها أُنزلت فارتد لوقتهِ عن الاسلام وقال لئن كان محمدٌ نبيًا فانا نبيٌ واوحِيَ اليَّ وفيهِ يقول ابو تمام

وَاخْتَارَ مِنْ سَعْدٍ لَعِينَ بَنِي أَبِي سَرْحٍ لِوَحْيِ اللهِ غَيْرَ خِيَارِ
حَتَّى اسْتَضَاءَ بِشُعْلَةِ السُّوَرِ الَّتِي رُفِعَتْ لَهُ سِجْفًا مِنَ الْأَسْتَارِ

وقد هدر دمهُ صاحب الشريعة المشار اليهِ الى يوم عمن وسأله فيهِ فأمنهُ وبقي الى زمن خلافة عثمان فولاهُ مصرًا

ثالثًا . مسيلمة الكذاب وكنيتهُ ابو ثمامة من قبيلة بكر بن وائل تنبأ باليمامة وقيل لهُ رحمان اليمامة من باب التهكم لان الرحمن من اسماء الله الحسنى مختصٌ بالله فلا يجوز ان يسمَّى بهِ غيرهُ ثم مخرق بها الى ان سار اليهِ خالد بن الوليد وقتلهُ في ايام خلافة ابي بكر وبهِ يضرب المثل في الكذب فيقال اكذب من ابي ثمامة

رابعاً . سجاح[1] وهي امرأة تميمية من بني يربوع وابوها الحارث بن سويد ابن عقفان وكنيتها ام صادر ظهرت في ايام مسيلمة المذكور وسارت اليهِ لتناظرهُ وتختبرهُ فآمنت بهِ ووهبت لهُ نفسها وقيل ان ادّعاءها النبوة كان بعد وفاة صاحب الشريعة الاسلامية وكان ذلك بالجزيرة في بني تغلب واتبعها قومٌ من بني تميم وظهر امرها حتى هابها العرب وصالحتها على ان تجوز من بلادهم حيث شاءت وبها يضربون المثل في الكذب ايضاً فيقولون اكذب من سجاح

خامساً . طلحة الاسدي احد مشاهير الشجعان في الجاهلية والاسلام أسلم ثم ارتد وتنبأ وجمع جمعاً عظيماً وكان يتكهن فلما فلّ خالد بن الوليد جمعهُ عاد الى الاسلام

سادساً . المختار بن ابي عبيد بن مسعود بن عمرو بن عُمير بن عوف بن غيرة الصحابيّ المقتول يوم الجسر من ايام القادسية وكان عاملاً لعبد الله بن الزبير على الكوفة انتقض اولاً عليهِ ودعا لمحمد بن الحنفية ثم اخيرًا ادّعى النبوة

سابعاً . ابو الطيب المتنبي الشاعر المشهور ظهر بارض الشام في آخر القرن الرابع من الهجرة (العاشر من الميلاد) وادّعى النبوة ايضاً فخرج عليهِ لؤلؤ امير حمص وامسكهُ وسجنهُ في القلعة الى ان تاب واقلع

ولنرجع الى ما كنا بصددهِ فنقول ويوجد بطن في كندة يقال لهُ السكاسك لهم مجالاتٌ شرقي اليمن متميزةٌ كانوا معروفين بالسحر والكهانة وكثيرون غيرهم لا يمكن استقراء اسمائهم جميعاً واما الاشهر بينهم اثنان الواحد يقال لهُ شقّ والثاني سطيح كانا اولاد خالات وقريبين من زمن ظهور الاسلام. اما شقّ فاسمهُ ابو صعب شكر بن رهب بن امول بن يزيد بن قيس عبقر بن انمار ويقولون انهُ دُعي شق لكونهِ كان نصف انسان اي شق الانسان فكانت لهُ يدٌ واحدة ورجلٌ واحدة واما سطيح فهو ربيع بن ربيعة بن مسعود بن مازن ابن ذئب بن عدي بن مازن بن غسان ولوقوع اسم ذئب في نسبهِ كان يُعرف

(١) سجاح مشتق من السجاحة وهي السهولة

الذئبي وكان جسداً ملقى لاجوارح له وكان وجهه في صدره فلم يكن له راسٌ ولاعنقٌ وكان لايقدر على الجلوس الا اذا غضب فانه ينتفخ ويجلس وكانت ولادتهما في يوم واحد وهو اليوم الذي ماتت فيه طريفة بنت الخير الحميريّ الكاهنة زوجة عمرو مزيقيا اخي عمران الكاهن بن عامر ماء السماء ولما وُلدا دعت بكل واحد منهما وتفلت في فيه وزعمت انه سيخلفها في علمها وكهانتها ثم ماتت في ساعتها ويقال بانه عاش كلٌّ منهما ست مئة سنة وقيل ان سطيحاً عاش سبع مئة سنة وانه مات في ايام كسرى انوشروان

وكما كان العرب يتحاكمون الى حكامهم في مفاخرة الانساب على ما تقدم هكذا كانوا يفزعون الى هولاء الكهان في تعرّف الحوادث ويتحاكمون اليهم في الخصومات ليعرّفوهم بالحق فيها من ادراك غيبهم وفي كتب الاخبار من كثير من ذلك قال الشاعر

فقلتُ لعرّافِ اليمامةِ داوني فانك ان داويتني لطبيبُ

وقال آخر

جعلتُ لعرّافِ اليمامةِ حكمهُ وعرّافِ نجدٍ ان هما شفياني
فقالا شفاك اللهُ واللهِ ما لنا بما حملتْ منك الضلوعُ يدانِ

قال ابن خلدون المغربي وقد وُجد من هذا النوع بعد الاسلام ايضاً فانه كان للبربر بالمغرب كهانٌ من اشهرهم موسى بن صالح من بني يفرن له كلماتٌ حدثانية برطانتهم[1] على طريقة الشعر وفيها حدثان كثير ومعظمه في ما يكون لزناتة من الملوك والدولة بالمغرب ووقع في الدول الاسلامية منه كثيرٌ في ما يرجع الى بقاء الدنيا ومدتها على العموم وفي ما يرجع الى الدولة واعمارها على الخصوص وكان المعتمد في ذلك في صدر الاسلام آثار منقولة عن مسلمة بني اسرائيل مثل كعب الاحبار ووهب بن منبه وامثالهما وكانوا يخرجون مدةّ الملل

(1) الرطانة التكلم بغير العربية

وبقاء الدنيا من بعض الاحاديث ومن الحروف المقطعة في اوائل سور القرآن ولهم في ذلك اعتباراتٌ بحساب الجُمَّل يطول شرحها

واما في حدثان الدول فكانوا يستندون الى كتاب الجفر ويزعمون فيه علم ذلك كلهِ من طريق الآثار والنجوم لا يزيدون على ذلك ولا يعرفون اصلهُ ولا مستندهُ . واصلهُ ان هرون بن سعيد العجلي راس الزيدية له كتابٌ يرويهِ عن جعفر الصادق (السادس من الأئمة المشهورين العلويين) وفيهِ علم ما سيقع لاهل البيت على العموم ولبعض الاشخاص منهم على الخصوص وقع ذلك لجعفر ونظائرهِ من رجالاتهم وذلك على طريق الكرامة والكشف الذي يقع لمثلهم من الاولياء وكان مكتوبًا عند جعفر في جلد ثورٍ صغير فرواهُ عنهُ هرون العجلي وكتبهُ وسماهُ الجفر باسم الجلد الذي كُتبَ فيهِ لان الجفر في اللغة هو جلد المعز الصغير[1] وصار هذا الاسم علمًا على هذا الكتاب عندهم وكان فيهِ تفسير القرآن وما في باطنهِ من غريب المعاني مروية عن جعفر الصادق انتهى كلام ابن خلدون غير ان ابن خلكان يقول ان الروافض يفسرون القرآن ويدَّعون علم باطنهِ بما وقع لهم عن الجفر الذي ذكرهُ سعيد بن هرون العجليّ وكان راس الزيدية بقولهِ

ألم ترَ ان الرافضين تفرقوا فكلهمُ في جعفرٍ قال منكرا
فطائفةٌ قالوا امامٌ ومنهمُ طوائفُ سمَّتهُ النبيَّ المطهرا
ومن عجبٍ لم اقضهِ جلد جفرهم برئتُ الى الرحمن ممن تجفرا

قال ابن قتيبة هو جلد جفر ادَّعوا انهُ كتب لهم فيهِ الامام كل ما يحتاجون اليهِ وكل ما يكون الى يوم القيامة وقولهم الامامُ يريدون بهِ جعفر الصديق والى

---

(١) الجفر بفتح الجيم وسكون الفاء بعدها راء من اولاد المعز ما بلغ اربعة اشهر وجفر جنباه وفصل عن امهِ والانثى جفرة وكانت عادتهم في ذلك الزمان يكتبون في الجلود والعظام والخزف وامثال ذلك

ههذا اشار ابو العلاء المعري بقوله

لقد عجبوا لاهل البيت لما　　اتاهم علمهم في مَسْكِ[1] جفرِ
ومرآةُ المنجم وهي صغرى　　أرتهُ كلَّ عامرةٍ وقفرِ

وفي محيط المحيط علمُ الجفر هو علمٌ يبحثُ فيهِ عن الحروف من حيث هي بناءٌ مستقلٌّ بالدلالة ويسمّى علم الحروف وعلم التكسير ايضاً قال السيدُ السندُ من نوع العلم الجفر والجامعة كتابان لعليٍّ كرَّم الله وجههُ ذكر فيهما على طريقة علم الحروف الحوادث التي تحدث الى انقراض العالم وكان الائمة من اولادهِ يعرفونها ويحكمون بها وفي كتاب قبول العهد الذي كتبهُ عليُّ بن موسى الرضا الى المأمون العباسي بعد وعد المأمون لهُ بالخلافة انك قد عرفت من حقوقنا ما لم يعرفهُ آباؤك فقبلت منك عهدك الا ان الجفر والجامعة تدلان على انهُ لا يتم قيل ولمشائخ المغاربة نصيبٌ من علم الحرف ينتسبون فيهِ الى اهل البيت

الكلام على التكهن

وقال ابن خلدون ايضاً انهُ يوجد اشخاصٌ يخبرون بالكائنات قبل وقوعها بطبيعةٍ فيهم يتميز بها صنفهم عن سائر الناس ولا يرجعون في ذلك الى صناعةٍ ولا يستدلون عليهِ بأثرٍ من النجوم ولا غيرها انما مداركهم فيهِ بمقتضى فطرتهم التي فطروا عليها ومنهم العرافون الذين يسلطون افكارهم على الامر الذي يتوجهون اليهِ ويخمنون فيهِ بالظن والتخمين ويدَّعون بذلك معرفة الغيب وهم ليسوا منهُ على الحقيقة. ومنهم الناظرون في الاجسام الشفافة كالمرائي وطساس الماء والناظرون في قلوب الحيوانات واكبادها وعظامها واهل الطَرقِ بالحصى والحبوب من الحنطة والنوى كلهم من قبيل الكهان الا انهم اضعف رتبةً في الكهانة وكذلك اهل الزجر في الطير والسباع وهذه كلها

[1] المسك بفتح الميم وسكون السين المهملة الجلد

موجودة في عالم الانسان لا يسع احداً جحدها ولا انكارها واضعفُ منهم من يشغل حسهُ بالحور فقط ثم بالعرائم للاستعداد ويزعمون انهم يرون الصور متشخصة في اهواء تحكي لهم احوال ما يتوجهون الى ادراكه بالمثال والاشارة ثم الحايين وادراك هولاء كلهم مشوب الحق بالباطل وحتى الآن يوجد في المدن والامصار الاسلامية كثيرٌ من الناس ضعفاء العقول والنساء والصبيان يستكشفون عن عواقب امرهم في الكسب والجاه والمعاش والمعاشرة والعداوة وامثال ذلك من الناس يتحرون معاشهم في الخط بالرمل ويسمونهُ المنجم والطارق بالحصا والحبوب ويسمونهُ الحاسب والنظر في المرائي والمياه ويسمونهُ ضارب المندل

القيافة . قال بعض المؤرخين ان القيافة في العرب الجاهلية كانت على ضربين قيافة البشر وقيافة الاثر . اما قيافة البشر فهي ان يستدلَّ المتكهن من النظر في جبلان الوجه وفي بعض اعضاء الانسان ليتكهن ويسمّون من يتكهن بذلك الحادي وكانت تختصُّ بقوم من العرب يقال لهم بنو مدلج يُعرَض على احدهم مولود في عشرين نفراً فيلحقهُ باحدهم

واما قيافةُ الاثر فهي الاستدلالُ بالاقدام والحوافر والخفاف وقد اختصَّ بهِ قومٌ من العرب ارضهم ذات رمل اذا هرب منهم هاربٌ او دخل عليهم سارقٌ تتبعوا آثار قدميهِ حتى يظفرون بهِ والعجب في ذلك انهم يعرفون قدم الشيخ من الشاب والمرأة من الرجل والبكر من الثيب والغريب من المستوطن يحكى عن رجل منهم يقال له عمر بن خالد المازني انهُ كان عائفاً قائفاً وكان يسير يوماً في طريق فقال ارى اثر رجلين شديد كلبهما غزير سلبهما والفرار بقراب اكيس وذهب قولهُ مثلاً يُضرَب في الرضا باليسير والقناعة مع سلامة العرض وقالوا ان القُراب بالضم من قريب يراد بهِ تعجيل الفرار ممن لا طاقة له بهِ والصحيح ان قراباً بالضم اسم فرس عبد الله بن الصمّة اخي دريد المشهور كان معهُ في حرب فاستضعف دُريد نفسهُ وقومهُ فقال لاخيهِ الفرارُ بقرابٍ

كيّس اي أحزم رأياً والصواب من الثبات ولم يطعه احوه وقابل فتل وأخذ الفرس

الفراسة. وكذا الفراسة هي من هذين النوعين ايضاً وهي ان يتوسم الانسان من النظر الى وجه صاحبه ما اضمره في نفسه ومن استماع كلامه على امره ومن هيئته على صناعته ومن تقاطيع سحنته على اخلاقه او ينظر الى جرم الشيء من مكيل او موزون فيعرف مقداره وضروب استدلال العرّاف كثيرة منها ان يرى شخصاً اول مقابلته مثلاً انه جالس في محل عالٍ فيستدل بذلك على علوه او بيده ماء فيستدل له بالحياة والحاصل انه يراقب حركات الانسان وتصرفاته وظروفه ويتخذها كرمز يشير الى مستقبل اموره (١)

التفاؤل والتشاؤم (٢). ومن ذلك نتج ايضاً التفاؤل والتشاؤم اما التفاؤل فهو ان يكون الرجل مريضاً فيسمع آخر يقول يا سالم او يكون طالباً لحاجةٍ فيسمع آخر يقول يا واجد يا غانم والحاصل ان الفأل كلمة طيبة يتيمّن بها او حركة اختلاجٍ في الجسم ايضاً كاختلاج العين مثلاً فانهم يتفاءلون منه بلقاء الحبيب قال الشاعر

طفقت تبشرني عيني اذ اختلجت بان اراك وقد كنّا على حذرِ

او في اليد اليمنى فيكون دالاً على الاخذ وعكسه اذا كان ذلك في اليسرى اما حركة طنين الاذن فتكون دالّة على استماع حوادث جديدة وامثال ذلك وهو مباح في الشريعة الاسلامية بخلاف الطيرة حيث ورد في الحديث الطيرة والعيافة والطرق من الجبت

اما الطيرة فهي التشاؤم من اي ما يتشاءم به من نحوس كرؤية غراب مثلاً فانه يدل عندهم على الغربة ويزعمون انه اذا رحل العرب من مكانٍ زل

(١) انظر سفر العدد ص ٢٣: ١-٢٤ وص ٢٤: ١٣ و١٤ و٢٧ و٢٨

(٢) الفأل بالهمزة يكون في الخير والتشاؤم من الشؤم يكون في الشر

فيه وزعق في اثرهم ولذلك يصيفونه الى البين وهو البعاد فيقولون غراب البين ثم كرهوا اطلاق ذلك الاسم مخافة الزجر وتطيرًا منه ايضًا وعلموا انه نافذ البصر صافي العين حتى قالوا في امثالهم اصفى من عين الغراب كما قالوا اصفى من عين الديك فسموهُ الاعور كناية كما كنوا طيرةً عن الاعمى فقالوا يا بصير وكما سموا الملدوغ والمنهوش السليم وكما قالوا للمهالك المفاوز وهذا كثيرٌ . ومن اجل تشاؤمهم بالغراب اشتقوا منه اسم الغربة والاغتراب والغريب وليس في الارض بارحٌ ولا نطيحٌ ولا قعيدٌ ولا اعضب ولا شيء مما يتشاءمون به الا والغراب عندهم انكد منه ويرون ان صياحهُ اكثر اخبارًا وان الزجر فيه اعم ويزعمون انه اذا صاح مرتين فشرٌ واذا صاح ثلاثة فخيرٌ ويسمونه بالفاسق ايضًا واشدُّ انواع الغراب كراهةً الغراب ذو المنقار والرجلين الحمر

وبعضهم اعرض عن الغراب وتطيَّر بالابل لكونها تحمل اثقال من ارتحل وفي ذلك يقول الشاعر

زعموا بان مطيَّهم سبب النوى والمؤذنات بفرقة الاحباب

وقال الميداني في تفسير قولهم اشأم من ورقاء انهم يعنون بهِ الناقة

وكانوا يتشاءمون من العطاس وقيل سبب ذلك انهم كانوا يكرهون دابة يقال لها العاطوس

واعظم ما يتشاءمون بهِ من الحوس ايضًا البوم فانهُ يدل عندهم على الموت والخراب

والأخيلُ وهو طائرٌ يقال لهُ الشقراق ويسمونه مقطع الظهور لانهم يتطيرون منهُ للظهور فاذا وقع على بعيرٍ وان كان سالمًا يئسوا منه واذا لقيه المسافر تطير وايقن بالعقر[1] وان لم يكن موت في الظهر واورد بعضهم في هذا

---

(1) عقرهُ يعقرهُ عقرًا جرحهُ وغرهُ وادبرهُ والكلب والفرس والابل قطع قوائمهُ كالمجرَّ

المعنى بيتًا عن الفرزدق يخاطب ناقتهٔ حيث يقول

اذا قطنٌ بلّغتنيهِ ابن مدركٍ   فلاقيت من طير العراقيب اخيلا

واستطرد منهُ الى ذكر طير العراقيب بقولهِ فان العرب تسمي كل طائر تتطيّر منهُ الاول طير العراقيب لانهُ يعرقبها وهو طير الشؤم عندهم واذا عاين احدهم شيئًا من طير العراقيب قالوا أُتيح لهُ اسا عيانٍ كانهُ قد عاين القتل والعقر لكن صاحب محيط المحيط يقول الأخيلُ ذو الخالِ والكثير الخيلانِ وطائرٌ مشؤومٌ او هو الصُرَدُ او الشقراق سمي بهِ لاختلاف لونهِ بالسواد والبياض تتفاءل بهِ العرب قال الفرزدق

اذا قَطَنٌ بلّغتنيهِ ابن مُدركٍ   فلاقيتِ من طير الاحائل أخيلا

يدعو لناقتهِ قَطَن التي يناديها بان تلاقي هذا الطائر المبارك اذا بلّغتهُ هذا الرجل الذي هو ابن مدرك (ولا يخفى ما في ذلك من التناقض)

ويتشاءمون ايضًا بالطيلساء ومن نومة الضحى ويسمونها نومة الخُرق قيل لها ذلك لانها تدل على البلادة ويعتقدون انها تورث الهمّ والخوف ونومة العصر فانها تورث الجنون وقد قال بعضهم في ذلك

ألا ان نومات الضحى تورث الفتى   غمومًا ونوماتِ العُصيرِ جنونُ

ويضربون المثل بنومات رجل يقال لهُ عبود وكان عبدًا اسود يزعمون انهُ نام سبعة سنين فيقولون نام نومة عبود او انوم من عبود وقال بعض رقاد العرب

رقدت رقاد الهيمِ حتى لو انّني   يكونُ رقادي معدمًا لعيبتُ

ويزعمون ايضًا ان من خرج الى سفرٍ والتفتَ وراءهُ لم يتم سفرهُ ولذلك كانوا اذا التفتَ المسافرُ يتطيرون لهُ

وقال ابن خلدون زعم بعضُ اهل الخواص من المسلمين ان المدينة اذا

كثر فيها غرس النارنج في الدور تأذنت بالخراب حتى ان كثيرًا من العامة يتحاشى غرسهُ فيها وقيل مثلُ ذلك في الدفلى ايضًا وسببهُ كونهُ من الترف الذي ينشأ عن زيادة الحضارة لان هذه الاشجار لا يكون الاّ للزينة وهي تسبب الخراب لان زيادة الترف تكون سببًا للجبن والرخاوة اللذين يعقبها عادةً الانقلاب وذل العبودية

العيافة . واما العيافةُ فهي زجر الطير وهو ضربٌ من التكهن يقال عاف الطائر يعيفها عيافةً اي زجرها ومعنى الزجر في اللغة المدُّ والزواجرُ الموادُ وهو ان يرمي الطائر بالحصاة او يصيح الرجل به فان ولاهُ ميامنهُ في الطيران تفاءل به اي تيمن وان ولاهُ مياسرهُ تشاءم به وقيل انهم اذا ارادوا السفر خرجوا من الغلس والطير في اوكارها على الشجر فيطيرونها فان اخذت يمينًا اخذوا يمينًا وان اخذت شمالاً اخذوا شمالاً وفي ذلك يقول امرء القيس

وقد اغتدي والطيرُ في وكناتها[1] بمنجردٍ[2] قيد الاوابد هيكلِ[3]

وكانت بنو نهد هم زجرة الطير وعن الجوهري ان عيافة الطير تعتبر باسمائها او مساقطها واصواتها ومن امثالهم أبكرُ من الغراب لان الغراب يبكر على الطيران دون بقية الطيور وكنوهُ بابي زاجر لانهُ يُزجر به في العيافة ومن امثالهم مرَّ له غراب شمال اي اتي ما يكرهُ . قال بعض المؤلفين يستبين من اشعار العرب بان نمط زجرهم فيه واحد لا يتغير بل قد يزجرون الطير غير الغراب على طريقين احدهما على طريق الغراب في التشاؤم والآخر على طريق التفاؤل لان الشاعر ان شاء جعل العقاب عقبى خيرٍ وان شاء جعلها عقبى شرٍ وان شاء جعل الحمامَ حِمامًا وان شاء قال حمٌ اللقاء والهدهد هدًى وهدايةً والحبارى حبورًا وحبرةً والبان بيانٌ يلوحُ والدومَ نوعٌ من الشجر دوامَ العهد

(١) الوكنات مواقع الطير (٢) والمنجرد الفرس الماضي السير القصير الشعر
(٣) والهيكل العظيم الجرم والاوابد الوحش

كما صارت الصباء عنده صابة والجنوب اجنابًا والصرد تصريدًا الا انه لم يرجر احدٌ منهم في الغراب شيئًا من الخير هذا قول اهل اللغة وذكر بعض اهل المعاني ان نعيب الغراب يتطير منه ونغيقه يتفاءل به ويدل نعق الغراب نعيقًا اذا قال غيق غيق فيتفال عندها نعق ويتال نعب الغراب نعيبًا اذا قال غاق فيتفال عندها بعب بشرٍ قال ومنهم من يقول نعق بخير ومنهم من يخنع لغراب ويقول العرب تيمن به ومنهم من يدفع ذلك اما طير التارنة فكانت تنشرح له صدورهم ويتيمنون برؤيته وهو طائر قصير الرجلين طويل المنقار اخضر الظهر

الطَرْقُ . واما الطَرْقُ فهو الطرق بالحصا نوع من التكهن في الجاهلية ايضًا واصحابه يسمون الطرّاق ومنه الطوارق المتكهنات من النساء قال لبيد ابن ربيعة العامري

لعمرك ما تدري الطوارقُ بالحصا ولا زاجراتُ الطيرِ ما الله صانعُ

وفي بعض المؤلفات الضوارب بالحصا

النُفَثُ والعُقَدُ . ومن ضروب التكهن ايضًا النُفُثُ جمع نفثةٍ وهي نوعٌ من السحر والعُقَدُ التي تعتقدها الساحرات وينفثن عليها فهنّ النافثاتُ في العقد

دور القمقم . وكان اذا اراد الكاهن استخراج السرقة أخذ قمقمةً وجعلها بين سبابتيه ينفث فيها ويرقي ويديرها فاذا انتهى في زعمهِ الى السارق دار القمقم ولذلك يقولون في المثل على هذا دار القمقم يضرب لمن ينبي الخبر ودار عليهِ

نداء الكهان . وكان اذا تكهن كاهنهم او زجر زاجرهم او خط حاطّهم فرأى في ذلك ما يكرهُ قال انا عيان اظهرا البيان ويروى اسرعا البيان وهما خطان يخطهما الزاجر ويقول هذا الخط كانه بهما ينظر الى ما يريد ان يعلمه ويروى ابني عيان اظهرا البيان على النداء اي يا ابني عيان اظهرا البيان

الكلام على الرياضات

قال ابن خلدون ومن هذه المدارك الغيبية ما يصدرُ لبعض الناس عند مفارقة اليقظة والتباسه بالنوم من الكلام على الشيء الذي يتشوق اليه ولا يقع ذلك الّا في مبادئ النوم وكذلك الميتُ لاول موته يتكلم بالغيب وما يصدر ايضًا من المقتولين عند مفارقة رؤوسهم ولوساط ابدانهم من التكلم بمثل ذلك

ومن الناس من يحاول حصول هذا المدرك الغيبي بالرياضة فيحاولون بالمجاهدة موتًا صناعيًا باماتة جميع القوى البدنية ليقع لهم قبل الموت ما يقع لهم بعدهُ وتطّلع النفس على المغيبات ومن هؤلاء اهل الرياضة السحرية ويوجد اكثرهم في الاقاليم المنحرفة جنوبًا وشمالاً خصوصًا بلاد الهند ويسمّون هناك الحوكية ولهم كتبٌ في هذه الرياضة كثيرة والاخبار عنهم في ذلك غريبة(١)

اما المتصوفة فرياضتهم دينية وعريّة عن المقاصد المذمومة وانما يقصدون جمع الهمة والاقبال على الله بالكلية ليحصل لهم اذواق اهل العرفان والتوحيد ويزيدون في رياضتهم الى الجمع والجوع والتغذية بالذكر فبها تتم وجهتهم في هذه

(١) يمكن هنا الظن بانهُ ربما كان من هذا القبيل ما نسمعهُ من اخبار المغناطيسية التي تمت اخبارها في هذه الايام وهو ان البعض من اهل اوربا يسمون مسمريين ومغناطيسيين روحيين يغطسون بعض الاشخاص بالمغنطيس تغطيسًا يجعلهُ حاسيًا بحيث لو وضع على جسمهِ شيء كجمرة نار او نحوها لما شعر بهِ الّا بعد ان يصحى من نومهِ ثم يسألونهُ في حال غيبوبتهِ عن كل ما ارادوهُ وكلفوهُ ليبحث عنهُ او ليجاوبهُ عليهِ فيجاوب مهما كانت الاسئلة عويصة او بعيدة عن معرفتهِ او في اقصى البلاد بعدًا عن المركز الذي هو فيهِ ومتى نبهوهُ من الغيبوبة اتتهُ غير مشعر بشيء مما سئل عنهُ او اجاب بهِ غير ان بعض المخبرين يقول انهُ ربما صدق او كذب ويقال انهم بهذه الواسطة يحضرون ارواح الموتى ايضًا ويسألونها فتجاوبهم عن كل ما ارادوا ويقال بان الافرنج اكتشفوا على هذه الطريق حديثًا من عرافي الهنود وان قدماء المصريين كانوا يحضرون الارواح بهذه الطريقة ويسألونهم عن العلاجات الطبية الموافقة للمرضى

الرياضة ويسمّون ما يقع لهم من الغيب والحديث على الخواطر فراسةً وكشفًا وما يقع بهم من التصرُّف كرامةً ولا يحصل لهم ما يحصل من معرفة الغيب والتصرُّف الاَّ بالعرض لا عن قصدٍ وكثيرٌ منهم من يبرَّمهُ اذا عرض له وقد ذهب الى انكاره من العلماء ابو اسحق الاسفرايني وابو محمد بن ابي زيد المالكي

ومن هؤلاء المريدين من المتصوفة قومٌ بهاليل معتوهون اشبه بالمجانين منهم بالعقلاء قد صحَّت لهم مقاماتُ الولاية واحوال الصديقين ووقع لهم من الاخبار عن المغيبات عجائب وربما ينكر الفقهاء انهم على شيء من المقامات لما يرون من سقوط التكليف عنهم والولاية لا تحصل الاَّ بالعبادة لكن بعضهم يظنُّ ان الاعتراض عليهم بهذا السبب غلطٌ ويسمّون مَن لا شعور له بالمجذوب يريدون بذلك انه جُذِب الى طريق الخير والصلاح

اما اعتبار العرب للاحلام وتعبير الرؤْيا فهو من الامور الشائعة والمتيقنة عندهم منذ الاجيال القديمة[1] وعدَّ آخرون منهم تعبيرها من الطبيعيات قال ابن خلدون ما ملخصهُ اذا كانت الرؤْيا صحيحة غير جلية وهي بالمحاكاة والمثال كانت محتاجةً الى التعبير واذا كانت جلية فلا تحتاج الى تعبير وتنقسم الى ثلاثة انواعٍ رؤْيا من الله وهي الجلية ورؤْيا من الملاك وهي محاكاة الداعية الى التعبير واضغاث احلامٍ وهي من الشيطان لان كلها باطلٌ وقد ذكر اهل الرياضات في كتبهم اسماء زعموا انها تُذكر عند النوم فتكون عنها الرؤْيا في ما يتشوَّق اليهِ ويسمّونها الحالومية

وكان لابي بكر الصديق اليد الطولى في تعبيرها ثم ألَّف كثيرون بعدهُ كتبًا في ذلك ومن جملتهم الشيخ محمد بن سيرين الذي يُحكى عنهُ انهُ كان اردد الناس وصنعتهُ بزازٌ وفي اذنيهِ صممٌ توفي سنة ١١٠ للهجرة (سنة ٧٢٨ م) وتأليفهُ هو المعوَّل عليهِ الآن في هذا الباب

(١) انظر قص ص ٢٠٧ و١٤ واصول المعارف وجه ١ ٢

الكلام على الصناعة

التنجيم . قال ابن خلدون وقد يزعم بعض الناس ان هذه مدارك غيب من دون غيبة عن الحسّ وهم المتأثرون بالدلالات النجومية ومقتضى اوضاعها في الفلك وآثارها في العناصر وما يحصل من الامتزاج بين طباعها التناظر ويتأدّى من ذلك المزاج الى الهواء وهؤلاء المنجمون ليس من الغيب في شيء انما هي ظنونٌ حدسية وتخمينات باطلة

وكانت العرب في ايام جاهليتهم يعتقدون في انواء المنازل اعتقاد المنجمين في السيارات حتى ان بعضهم لا يتحرك الا بنوء من الانواء كما سوف تأتي تفاصيل ذلك في محلها

فلما تُرجمت كتب الفلاسفة الى العربية وتاق الناس الى العلوم والاصطلاحات صار اكثر معتمدهم في ذلك كلام المنجمين في الملك والدول وسائر الامور العامة من القرانات وخصوصاً بين العلويين كزحل والمشتري ومنها القران الكبير فانه يدل على عظام الامور مثل تغيير الملك والدولة وانتقال الملك من قوم الى قوم واما القران الاوسط فانه يدل على ظهور المتغلبين والطالبين للملك واما القران الصغير فانه يدل على ظهور الخوارج والدعاة وخراب المدن وعمرانها . وقران النحسين يدل على الفتن والحروب وسفك الدماء وظهور الخوارج وحركة العساكر وعصيان الجند والوباء والقحط

وكان لبني أُمية منجمٌ من الروم يقال له ثيوفيل تكلم في بقاء مدّة الاسلام . اما الرشيد وابنه المأمون من الخلفاء العباسيين فكان لهم يعقوب بن اسحق الكندي وضع كتاباً في القرانات الكائنة في الملة الاسلامية سماهُ الشيعة بالجفر باسم كتابهم المنسوب الى جعفر الصادق ذكر فيه على ما يقال حدثان دولة بني العباس وكيفية انقراضها وحيث لم يقف احدٌ على شيء من خبر هذا الكتاب

يظنُّ انهُ غرق في كتبهم التي طرحها هلاكو ملك التتر في نهر دجلة عند استيلائهِ على بغداد كما يتضح ذلك في محلهِ من هذا الكتاب

وقد وقع بالمغرب جزءٌ منسوبٌ الى هذا الكتاب ويسمّونهُ الجفر الصغير والظاهر انهُ وضع لبني عبد المؤمن لذكر الاولين من ملوك الموحدين

والكتب والاخبار امثال ذلك كثيرة منها قصيدة ابن مرانة بالمغرب وقصيدة اخرى تسمى التبعية نحو الف بيت ونسبة من الشعر الرجليّ منسوبة لبعض اليهود وهي نحو خمس مئة بيت في القرانات التي دلّت على دولة الموحدين وقصيدة من عروض المتقارب على رويّ الباء في حدثان دولة بني ابي حفص بتونس من الموحدين منسوبةٌ لرجل يقال لهُ ابن الابّار خياط من اهل تونس وملحمة اخرى في دولة بني ابي حفص ايضاً وملعبة منسوبة الى الهوشني على لغة العامة محفوظة بين اهالي المغرب

وملعبة منسوبة الى ابن العربيّ الحاتمي في المشرق في كلام طويل شبه الالغاز واشكال حيوانات ورؤوس منطعة وتماثيل من حيوانات غريبة وفي آخرها قصيدة على رويّ اللام وملحمةٌ اخرى منسوبة الى ابن سيناء وابن عقب وملحمةٌ من حدثان دولة الترك منسوبة لرجل من الصوفية يقال لهُ الباجربقي وكلها الغازٌ بالحروف وكثير من ارباب الحيل في بغداد وغيرها كانوا يصطنعون رموزاً نظير ذلك يعنون بها ارباب الوجاهة والمراتب السامية يقدمونها اليهم ويختطفون منهم بواسطتها المناصب العالية او ما بايديهم من الاموال

ومن المؤلفات المتداولة بين ايادي العامة الى هذا العصر الذي نحن فيه تستكشف الناس فيها عواقب امرهم وما يحدث لهم مدّة حياتهم من خير وشرّ مؤلفات ابي معشر جعفر بن محمد بن عمر البلخي المشهور بالتنجيم حتى كان يضرب بهِ المثل فيقال انجم من ابي معشر ومؤلفاتهُ شهيرة وهي المدخل والزيج والالوف وكتاب القرانات وكتاب الدول والملل وكتاب الملاحم وكتاب الاقاليم وكتاب السلاح وكتاب المسألات في المواليد وكتاب الطبائع يحكى ان المستعين بالله

العباسي ضربه اسواطاً لانه أخبر بشيء قبل وقوعه فكان يقول اصبت فعوقبت وكان ذلك سبب موته في سنة ٢٧٢ للهجرة (سنة ٨٨٥ م)(١)

خط الرمل . ومن مدارك الغيب بالصناعة ايضاً خط الرمل قال ابن خلدون ومن هؤلاء قومٌ من العامة استنبطوا لاستخراج الغيب وتعرّف الكائنات صناعةً سمّوها خط الرمل نسبةً الى المادة التي يضعون فيها عملهم وحصول هذه الصناعة انهم صيّروا من النقط اشكالاً ذات اربع مراتب تختلف باختلاف مراتبها في الزوجية والفردية واستوائهما فيهما فكانت ستة عشر بيّنةً طبيعية بزعمهم وكانها البروج الاثنا عشر التي للفلك والاوتاد الاربعة وجعلوا لكل شكلٍ منها بيتاً وحظوظاً ودلالةً على صنفٍ من موجودات عالم العناصر يختص به واستنبطوا من ذلك فنّاً حاذوا به فنّ النجامة ونوع قضائه الا ان احكام النجامة مستندة الى اوضاع طبيعية كما زعم بطليموس وهذه انما مستندها اوضاعٌ تحكميةٌ واهواء اتفاقية ولا دليل يقوم على شيء منها ويزعمون ان اصل ذلك من النبوة القديمة في العالم وربما نسبوها الى دانيال او ادريس (كما يتضح ذلك في ما يأتي) وكثرت هذه الصناعة في العمران ووضعت فيها التآليف

(١) زعموا ان ملكاً من الملوك طلب رجلاً من اتباعه ليقتله بسبب جريرة ارتكبها وعلم الرجل ان ابا معشر يدل عليه بالطرائق التي بها يستخرج الخبايا فاخذ طستاً وجعل فيه دماً وجعل في الدم هاوناً من ذهب وقعد على الهاون اياماً وتطلب الملك ذلك الرجل وبالغ في التطلب فلما عجز عنه احضر ابا معشر وقال له تعرّفني موضعه بما جرت به عادتك فعمل المسئلة التي بها يستخرج الخبايا وسكت زماناً حائراً فقال له الملك ما سبب سكوتك وحيرتك قال ارى شيئاً عجيباً قال وما هو قال ارى الرجل المطلوب على جبلٍ من ذهب والجبل في بحرٍ من دم ولا اعلم موضعاً في العالم على هذه الصفة فامره الملك ان يعيد النظر واخذ الطالع جديداً ففعل ثم قال ما ارى الا كما رأيت وذكرت فلما ايس الملك من القدرة عليه بهذه الطريق نادى في البلد بالامان للرجل ولمن اخفاه فلما اطمأن الرجل ظهر وحضر بين يدي الملك فسأله عن الموضع الذي كان فيه فاخبره فاعجبه حسن احتياله ولطافة ابي معشر في استخراجه

واشتهر فيها الاعلام من المتقدمين والمتأخرين

حساب النيم. ومنهم طوائف يضعون قوانين لاستخراج الغيب ليست من الطور الاول الذي هو من مدارك النفس الروحانية ولا من الحدس المبني على تأثيرات النجوم كما زعم بطليموس ولا من الظن والتخمين الذي يحاول عليه العرّافون وانما هي مغالط يجعلونها لاهل العقول المستضعفة وما ذكرهُ من ذلك المصنفون وولع به الخواص الحساب الذي يقال له حساب النيم وهو مذكورٌ في آخر كتاب السياسة المنسوب لارسطو الفيلسوف يعرَف به الغالب من المغلوب من الملوك وهو ان تحسب الحروف التي في احدهم بحساب الجُمَّل وينظر مجموع المتحصل ثم تحسب اسم الآخر كذلك ثم يطرح كل واحدٍ منها تسعةً تسعةً ويُنظرُ بين العددين الباقيين بعد ذلك من حساب الاسمين فاذا كان العددان مختلفين في الكمية وكانا معًا زوجين او فردين فصاحب الاقل منهما هو الغالب وان كان احدهما زوجًا والآخر فردًا فصاحب الاكثر هو الغالب وان كانا متساويين في الكمية وهما معًا زوجان فالمطلوب هو الغالب وان كانا معًا فردين فالطالب هو الغالب وقد اجتمع ذلك في هذين البيتين

اري الزوجَ والافراد يسمو اقلها | واكثرُها عند التخالف غالبُ
ويغلبُ مطلوبٌ اذا الزوج يستوي | وعند استواء الفرد يغلبُ طالبُ

ثم وضعوا لمعرفة ما بقي من الحروف بعد طرحها بتسعةٍ قانونًا معروفًا عندهم في طرح تسعةٍ حتى اذا ارادوا طرح الاسم بتسعةٍ نظروا كل حرفٍ في اي كلمةٍ هو من تلك الكلمات واخذوا عددها مكانهُ وهي ايقغ بكرجلص دمت هنث وضخ زعذ حفظ طصغ ولكن بعض الشيوخ يرى ان الصحيح فيها كلماتٌ اخرى غير هذه المتداولة بين الناس منذ القديم وهي ارب يسقك جزلط مدوص هف تحذن عثى ضغ تعظ وهولاء الشيوخ كانوا ينقلونها عن شيخ المغرب في هذه المعارف من السيميا واسرار الحروف والخانة وهو ابو العباس

ان البنا ويقولون عنه ان العمل بهذه الكلمات أصحّ من العمل بكلمات ابقش ثم ان الكتاب الذي وجد فيه حساب البم غير معزوّ الى ارسطو عند المحققين لما فيه من الآراء البعيدة عن التحقيق

الزايرجة. ومن هذه القوانين الصناعية لاستخراج الغيوب فيما يزعمون الزايرجة ايضاً وهي المسماة بزايرجة العالم المعزوّة الى ابي العباس احمد السبتي من اعلام المتصوفة بالمغرب كان في آخر المئة السادسة للهجرة (آخر القرن الثاني عشر للميلاد) بمراكش ولعهد ابي يعقوب المنصور من ملوك الموحدين وهي غريبة العمل صناعةً وصورتها دائرة عظيمة في داخلها دوائر متوازية للافلاك والعناصر والمكونات والروحانيات وغير ذلك من اصناف الكائنات والعلوم وكل دائرة مقسومة باقسام فلكها اما البروج واما العناصر وغيرها وخطوط كل قسم مارّة الى المركز ويسمونها الاوتار وعلى كل وتر حروف متتابعة موضوعة فمنها برشوم الزمام التي هي اشكال الاعداد عند اهل الدواوين والحساب بالمغرب ومنها برشوم الغبار المتعارفة في داخل الزايرجة وبين الدوائر اسماء العلوم ومواضع الاكوان وعلى ظاهر الدوائر جدولٌ متكثر البيوت المتقاطعة طولاً وعرضاً يشتمل على خمسة وخمسين بيتاً في العرض ومئة واحدى وثلاثين في الطول جوانبُ منه معمورة البيوت تارةً بالعدد واخرى بالحروف وجوانب خالية البيوت ولا نعلم نسبة تلك الاعداد في اوضاعها ولا القسمة التي عينت البيوت العامرة من الخالية وتوجد ابياتٌ من عروض الطويل على رويّ اللام المنصوبة تخصّ صورة العمل في استخراج المطلوب من تلك الزايرجة الاّ انها من قبيل الالغاز وفي بعض جوانب الزايرجة بيتٌ من الشعر منسوبٌ لبعض اكابر اهل الحدثان بالمغرب وهو مالك بن وهيب من علماء اشبيلية كان في الدولة اللمتونية ونصُّ البيت

سؤالٌ عظيم الخلق حزتَ فصن اذن
غرائب شكٍّ ضبطه الجدّ مثّلا

وهو البيت المتداول عندهم في العمل لاستخراج الجواب من السؤال في الزايرجة وغيرها ثم ان الحروف المتقطعة التي يأخذونها منها عند ادراك كل درس من العمل الذي يعملونه تؤلف على التوالي فتصير كلمات منظومة في بيت واحد على وزن البيت الذي يقابل به العمل ورويه وهو بيت مالك بن وهيب المتقدم وهناك زايرجة اخرى منسوبة الى سهل بن عبد الله والزايرجة من الاعمال الغريبة والمعاناة العجيبة وعلى كل حال لا سبيل الى معرفة الغيب بواسطتها لان الغيب لا يدرك بواسطة الصناعة مهما كانت من الاختراعات الدقيقة

المغاربة في كشف الدفائن . وكثيرون من طلبة البربر بالمغرب عاجزون عن المعاش الطبيعي واسبابه يتقربون الى اهل الدنيا بالاوراق المخرمة الحواشي اما بخطوط اعجمية او بما ترجم زعمهم منها من خطوط اهل الدفائن باعطاء امارات تدل على كنوز ودفائن مدفونة في الارض يبتغون بذلك الرزق منهم بما يبعثونهم على الحفر والطلب ويوهمون عليهم بانهم انما حملهم على ذلك طلب الجاه في مثل هذه من منال الحكام والعقوبات فكثير من ضعفاء العقول في الامصار يصدقون ذلك معتقدين ان اموال الامم السالفة مختزنة كلها تحت الارض مختوم عليها بطلاسم سحرية لا يفض ختامها الا من عثر على علمه واستحضر ما يحله من البخور والدعاء والقربان واهل البلاد في افريقية(١) يرون ان الافرنج الذين كانوا قبل الاسلام بها دفنوا اموالهم واودعوها في الصحف بالكتاب الى ان يجدوا السبيل الى استخراجها واهل الامصار بالمشرق يرون مثل ذلك في امم القبط والروم والفرس ويتناقلون في ذلك احاديث خرافية من مشاهدة بعض الطالبين الاموال والجواهر موضوعة والحرس دونها منتضين سيوفهم او تميد به الارض حتى يظنها خسفاً واذا افترقوا بانهم لم يعثروا على شيء ردوا ذلك الى الجهل بالطلسم وفي القطر المصري كانوا يبحثون عن تغوير المياه او نضوبها بالاعمال السحرية بما يرون من ان اموال

(١) يراد بافريقية فاس وتونس وطرابلس وغيرها من بلاد المغرب

قدمائهم كلها مدفونة في مجاري النيل انتهى كلام ابن خلدون

الطِلَّسم . والطلسمُ المذكور هنا ويجمع على طلسمات هو عبارة عن مزج القوى السماوية الفعالة بالقوى الارضية المنفعلة بواسطة خطوطٍ مخصوصة يستخدمها من يتعاطى هذا الفن لدفع كل مؤذٍ

السحر . واما السحر فهو نوعان حقيقي وغير حقيقي فالحقيقي قيل هو اخراج الباطل في صورة الحق وهو في اصل اللغة الصرف وسمي سحرًا لانه يصرف الشيء عن جهته وقيل هو عمل يُقرَّب به من تقدماته الى الشيطان ومعونة منه ما لا يستقلّ به الانسان ويزعمون بانه خمسة انواع ترجع الى اصلين وهما السحر الابيض اي الالهي والسحر الاسود اي الشيطاني فالاول يمكّن صاحبه ان يستخدم الشيطان بالتقوى والعزيمة والثاني يجعل صاحبه خادمًا للشيطان بعبادته وذكره وبكفران الله وبكتبه . وعندهم ان الاول حلال والثاني حرام وبواسطته يُعمل الرصد وهو شخص سحري او غيره يُنصب في مكان الدفائن لحراستها

واما غير الحقيقي من السحر فهو السيميا وهي على ما زعموا علمٌ خاصته احداث مثالات خيالية لا وجود لها في الحس وقد يُطلق على ايجاد تلك المثالات بصورها في الحس وتكون في جوهر الهواء

الفصل الخامس

في الاسماء الشريفة وغيرها من اهل العالم الروحاني

يُشار الى الذات الالهية بتسعة وتسعين اسمًا يقال لها اسماء الله الحسنى وهي

الله الرحمن الرحيم الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الخالق البارئ المصور الغفار القهار الوهاب الرزاق الفتاح العليم القابض الباسط الخافض الرافع المعز المذل السميع البصير الحكم العدل اللطيف الخبير الحليم العظيم الغفور الشكور العلي الكبير الحفيظ المقيت الحسيب الجليل الكريم الرقيب المجيب الواسع الحكيم الودود المجيد الباعث الشهيد الحق الوكيل القوي المتين الولي الحميد المحصي المبدئ المعيد المحيي المميت الحي القيوم الواجد الماجد الواحد الصمد القادر المقتدر المقدم المؤخر الاول الآخر الظاهر الباطن الوالي المتعالي البر التواب المنتقم العفو الرؤوف مالك الملك ذو الجلال والاكرام المقسط الجامع الغني المغني المانع الضار النافع النور الهادي البديع الباقي الوارث الرشيد الصبور

واصحاب الشريعة الاسلامية سمّوا نبيهم وهي

محمد احمد حامد محمود حميد وحيد ماحي حاشر عاقب طه يس طاهر مطهر طيب سيد رسول نبي رسول الرحمة قيم جامع مقتفٍ مقفى رسول الملاحم رسول الراحة كامل اكليل مدثر مزمل عبد الله حبيب الله صفي الله نجي الله

كليم الله خاتم الانبياء خاتم الرسل محيي منجي مذكر ناصر منصور نبي الرحمة
نبي التوبة حريص عليم معلوم شهير شاهد شهيد مشهور بشير مبشر نذير منذر
نور سراج مصباح هدى مهدي منير داع مدعو مجيب مجاب حفي عفو ولي
حق قوي امين مأمون كريم مكرم مكين متين مبين مؤمل وصول ذو قوة
ذو حرمة ذو مكانة ذو عز ذو فضل مطاع مطيع قدم صدق رحمة بشرى
غوث غيث غياث نعمة الله هدية الله عروة وثقى صراط الله صراط مستقيم
ذكر الله سيف الله حزب الله النجم الثاقب مصطفى مجتبى منتقى أمي مختار اجير
جبار ابو القاسم ابو الطاهر ابو الطيب ابو ابرهيم مشفع شفيع صالح مصلح مهيمن
صادق مصدق صدق سيد المرسلين امام المتقين قائد الغرّ المحجلين خليل
الرحمن برّ مبرّ وجيه نصيح ناصح وكيل متوكل كفيل شفيق مقيم السنة مقدّس
روح القدس روح الحق روح القسط كاف مكتف بالغ مبلغ شاف واصل
موصل سابق سائق هاد مهد مقدّم عزيز فاضل مفضل فاتح مفتاح مفتاح
الرحمة مفتاح الجنة علم الايمان علم اليقين دليل الخيرات مصحح الحسنات مقيل
العثرات صفوح عن الزلات صاحب الشفاعة صاحب المقام صاحب القدم
مخصوص بالعز مخصوص بالمجد مخصوص بالشرف صاحب الوسيلة صاحب
السيف صاحب الفضيلة صاحب الازار صاحب الحجة صاحب السلطان صاحب
الرداء صاحب الدرجة الرفيعة صاحب التاج صاحب المغفرة صاحب اللواء
صاحب المعراج صاحب القضيب صاحب البُراق صاحب الخاتم صاحب
العلامة صاحب البرهان صاحب البيان فصيح اللسان مُطهر الجنان رؤوف
رحيم اذن خير صحيح الاسلام سيد الكونين عين النعيم عين الغرّ سعد الله
سعد الخلق خطيب الامم علم الهدى كاشف الكُرَب رافع الرتب عز العرب
صاحب الفرج

اما الصحابة فهم الذين ادركوهُ والتابعون هم الذين ادركوا الصحابة
، والمهاجرون هم الذين هاجروا معهُ في هجرته من مكة الى المدينة والانصار هم

الذين نصروهُ من اهل المدينة ورحبوا بهِ لما هاجر اليها والحديث ما جاء عنهُ والخبر ما جاء عن غيرهِ والاثر ما روي عن اصحابهِ ويجوز اطلاقهُ على كلامهِ ايضًا وامُّ المؤمنين عائشة زوجتهُ والبتول الزهراء فاطمة ابنتهُ زوجة عليّ بن ابي طالب والحسنُ والحسين سبطاهُ منها وحليمة بنت ذؤيب السعدي مرضعتهُ وبلال مؤذنهُ وابو طيبة حاجمهُ ونعيمان بن عمرو مزّاحهُ وعبد الله ذو البجادين دليلهُ والعقاب رايتهُ والعيدان قدحٌ كان يبول فيهِ ودلدل بغلةٌ شهباء اهداها لهُ المقوقس صاحب الاسكندرية مع جارية يقال لها مارية القبطية والقصواء او العضباء او الجدعاء ناقتهُ ويعفور او عفير حمارهُ والظرب او الطرب واللحيف فرساهُ والبُراق دابةٌ دون البغل وفوق الحمار ركبها ليلة المعراج وهي السنة التي عرج فيها من مكة الى القدس ومنها الى السماء

وليلة القدر ويقال لها الجُهَنيّ هي الليلة التي أُنزل فيها القرآن وهي من اوتار العشر الاخيرة من رمضان اي من الليالي التي عددها فردٌ لا زوج كالثالثة والخامسة ولعلها السابعة منها وقيل الثالثة والعشرون واما السبعُ الطول من القرآن فهي سورة البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والانعام والاعراف ويونس والانفال والبراءة جميعًا

واولي العزم هم على الاشهر نوح وابرهيم وموسى وعيسى والحواريّ ناصر الانبياء ومنهُ الحواريون انصار المسيح اي تلاميذهُ وصاحب الحوت يونان النبي والقطب رجلٌ واحدٌ موضع نظر الله سبحانهُ في العالم في كل زمان ويُعنى بالغوث ايضًا والابدال هم قومٌ من الصالحين لا تخلو الدنيا منهم ولا يموت احدهم الا قام مكانهُ آخر من الناس وهم سبعون منهم اربعون بالشام وثلاثون بغيرها والخضر وهو صاحب موسى النبي ويكنى بابي العباس وقيل اسمهُ ايليا وهو نبيٌّ والمشهور انهُ ماري جرجس عند النصارى والمخصرون هم المصلون بالليل فاذا تعبوا وضعوا ايديهم على خواصرهم وقيل المعتمدون على اعمالهم يوم القيامة وذو الكفل قيل هو ايلياس النبي وقيل يوشع وقيل زكريا ويحيى الحصور هو المعروف

يوحنا المعمدان عند النصارى ايضاً وشعيب نبي وهو رعوئيل كاهن مديان
حمو موسى نبي وهود نبي وهو عابر بن شالح أُرسل الى قوم عاد وكانوا اتخذوا
دين الصابئة ليردهم الى التوحيد فاطاعته منهم جماعة قليلة من عاد وصالح
نبي بُعث الى ثمود ليدعوهم الى عبادة الله فطلبوا منه آية فخرج بهم الى هضبة
من الارض فتمخضت عن ناقة ذات فصيل فنهاهم صالح عن ان يتعرضوا لها
بعقر او هلكة فلم يمتثلوا كلامه بل رماها احدهم بسهم فصرعها وقتلها
غير انهم لم يدركوا فصيلها فصعقوا بالصيحة من السماء انشقت بها قلوبهم وهلكوا
اجمعين ولذلك يتداولون في المثل اشأم من الذين عقروا الناقة يُضرب للاشرار
من اللؤم وحنظلة بن صفوان كان نبياً في اهل الرس وهم قوم من ثمود وقيل
انهم من بني فالج بن عابر وهو الاصح وادريس اخنوخ وعزير نبي وهو عزرا
الكاهن

وطالوت شاول ملك اسرائيل وجالوت جلياث الجبار الفلسطيني واهل
الكهف هم اهل السبعة وقطمير هو كلبهم واما معروف الكرخي فهو ابو محفوظ
ابن فيروز وقيل اسمه فيروز كان ابواه نصرانيين فاسلم هو على يد علي بن موسى
الرضا واشتهر باجابة الدعوى توفي ببغداد سنة ٢٠٤ للهجرة (سنة ٨١٩ م)
والرجال الاربعون هم الاربعون شهيداً عند النصارى والفضيل هو ابن عياض
الزاهد كان في ايام الخليفة هرون الرشيد واصله من خراسان وقيل من سمرقند
وابرهيم بن ادهم هو ابو اسحق البلخي الخراساني الذي صحبه في زهده سفيان الثوري
واويس القرني الذي يُضرب المثل في زهده فيقولون أزهد من القرني اويس
وهو ابن عامر ويضرب المثل بنظيره ايضاً بذي النون المصري وهو ابو الفياض
ثوبان بن ابرهيم وقيل الفياض بن ابرهيم المصري المتوفي سنة ٢٤٥ للهجرة
(سنة ٨٥٩ م) وكذلك يُضرب المثل برابعة العدوية وهي بنت اسماعيل
القيسي البصري مولاة آل عتيك وكنيتها أُم الخير ومن شعرها ما رواه
شهاب الدين السهروردي في كتاب عوارف المعارف

اني جعلتك في الفؤاد محدّثي ... وأبحت جسمي من اراد جلوسي

فالجسم مني للجليس مؤانسٌ ... وحبيب قلبي في الفؤاد انيسي

اما الملائكة ويوصفون بالعبرة منهم الكروبيون او الكروبية وهم سادة الملائكة او المقرّبون منهم لفظ اسروفيت والناموس الاكبر وروح القدس وجبريل فهو الملاك جبرائيل لفظ عبراني وجبرو واسم عربي ومن السفرة او الحفظة الملائكة يحصون الاعمال والحفيظ هو الذي يكتب حسنات الناس وسيئاتهم واصحاب الاعراف قيل هم انبياء وقيل ملائكة يعرفون اهل الجنة واهل النار والمعقّبات ملائكة الليل والنهار وقُزَح ملك موكل بالسحابة ومنه قوس قُزَح والرعد اسم ملك يسوق السحاب كما يسوق الحادي الابل بحدائه والصاعقة اسم المخراق الذي يكون بيده ولا يأتي على شيء الا احرقه ومنه سيف الصاعقة يطلعُ من جسم معدني كالحديد يسقط مع الصاعقة والرادفة ملائكة هبطوا مع ادم وبنيه حفظة لا تخلو الارض منهم وعزرائيل ملك الموت موكل بالقبض على ارواح البشر ومنكرٌ ونكيرٌ ملكان هما فتانا القبور يسألان الموتى في قبورهم عما كانوا عليه من الدين والسيرة في حال حياتهم في الدنيا وفي سلطانٌ ان يعذبا مستحق العذاب في قبره. وبدوح اسم ملك موكل بحفظ الامانات ولذلك يكتبون اسمه على ظروف المكاتيب تحت العنوان اما بالحروف المعتادة واما بالرقم على مقتضى حساب الجُمَّل وهو (٨٦٤٢) كما انهم يكتبون عليها اسم معروف الكرخي وقطمير اسد بن مرّ ذكرهم. اما هاروت وماروت فكانا من الملائكة لكنهما عصيا ربهما فأُهبط بهما الى الارض واستوليا على مدينة بابل وقد البسهما الله الجثة الانسانية ليكونا حكمًا للناس ويمنعاهم عن الاغواء بالاهواء فجرى من امرهما ان اغواهما حبُّ النساء حتى بعّدهما عن رضى الحق وكان ان عنصرهما الاصلي روحي ملكي وفيه خاصية الاطلاع على الاجرام العلوية والسفلية فاحكما صناعة السحر باتقان وعلّماها الى حكماء بابل(١) وبذلك

(١) ذكر البغدادي عن مجاهد انه رأى بعينه معلّقين في بابل لم يزل بها [illegible] هاروت

يقولون في امثالهم اسحر من هاروت وماروت وينسبون بابل الى السحراء فيقولون بابل السحراء كما انهم ينسبون السحر الى بابل ايضاً فيقولون سحرٌ بابلي

والجلد الرقيع والسماء او كرة الهواء او الماء المتجمد فوق السماوات والرقيع هو السماء الاولى والصاقورة السماء الثالثة والحاقورة السماء الرابعة وابرقع السماء الرابعة وقيل الاولى وقيل السابعة والعروبا والعُرقة السماء السابعة وسدرة المنتهى شجرة في السماء السابعة وقيل هي شجرة نبق عن يمين العرش لا يجاوزها احدٌ من الملائكة وغيرهم والضراح البيت المعمور في السماء الرابعة وقيل هو بيتٌ في السماء حيال الكعبة والمجل الكتاب الاول وهو اللوح المحفوظ جسمٌ فوق السماء السابعة كتب فيه ما سيكون الى يوم القيامة

والساعة ويوم الدين واليوم الآخر ويوم الحساب ويوم الحشر والآزفة ويوم البعث ويوم المعاد والحاقة والخُروج يوم القيامة ودار السلام ودار الجزاء وحظيرة القدس الجنة ورضوان حارسها والتسنيم ماء يجري فوق الغُرَف والقصور قيل هو ارفع شراب اهل الجنة والصاح نهرٌ في الجنة ايضاً والكوثر نهرٌ فيها احلى من العسل واشدّ بياضاً من اللبن وابرد من الثلج وألين من الزبد حافتاهُ الزبرجد واوانيه من فضة لا يظمأُ من شرب منه وطوبى او طوبى شجرة في الجنة والعليون جمع عليّ اسمٌ لاعلى الجنة وقيل موضعٌ في السماء السابعة تصعد اليه ارواح المؤمنين وقيل السماء السابعة والجنةُ وقائمة اليمنى وقيل سدرة المنتهى والاعراف سورٌ بين الجنة والنار

ودار البوار هي دار الهلاك ولظى وسعير وحُطمة وبواس وجهنم وهاوية وسقر هي سبعة أدراكٍ لنار الآخرة والدركُ هو اقصى قعر الشيء والدركة المنزلة يقابلها الدرجة للصاعد ومالك اسم خازنها والزبانية ملائكةٌ يدعون اهل النار اليها والصراط جسرٌ ممدود على متن جهنم ارقّ من الشعرة واحدّ من السيف والأثام وادٍ في جهنم وسجين وادٍ آخر فيها او كتابٌ جامعٌ لاعمال

وماروت محبوسين الى هذا اليوم

الشياطين والكفرة وقيل هو كتابٌ جامعٌ لاعمال الجبرة من الثقلين اي الانس والجنّ وقيل السجّيل بمعنى السجّين ايضاً وسهٔ حجارة طبخت بنار جهنم وكُتِبَ فيها اسماء القوم كانت الطيرُ الابابيلُ اي المعرفة ترمي بها اصحاب الفيل والصعود جبلٌ في جهنم يُصعد فيه سبعين خريفاً ثم يُهوى منهُ ولايزال كذلك اما الغسلين هو ما يسيل من جلود اهل النار ولحومهم ودمائهم وشجرٌ في جهنم والخبالُ صديد اهل النار والزقّوم شجرة تخرج في اصل الجحيم طلعُها كأنهُ رؤوس الشياطين ومنها طعام اهل النار وهي الشجرة الملعونة في القرآن

اما الراهون فهو جبلٌ في الهند هبط عليه آدم وحَبْذَخُوَّر او حَبْذُخُوَّر او فُوَّر جبل في اليمن يقولون ان فيه كهفٌ يتعلمون فيه السحر وبرهوت اسم بئرٍ في حضرموت تجتمع ارواح الكفار اليها والمؤتفكات المدائن التي قلبها الله على قوم لوط وهرشى ثنيةٌ في طريق مكة يُرى منها البحرُ لها طريقان فكلُّ من سلكها كان مصيباً وطاحية اسم ايلة التي كلّمت سليمان وست طبق سعلاة تزعم العرب انها تبيض نسعة وتسعين بيضة كلها سلاحف وتبيض بيضة تنقفُ عن حيّة اما الجساسة فهي دابة تكون في الجزائر تجس الاخبار فتاتي بها الرجال ودابة الارض حيوانٌ ظهورهُ من اشراط الساعة قبل اول علامات هذه الدابة تخرج بمكة من جبل الصفا فيتصدعُ لها والناس سائرون الى منى او من الطائف او تخرج من ثلاثة اماكن ثلاث مرّاتٍ معها عصا موسى وخاتم سليمان تضرب المؤمن بالعصا وتطبع وجه الكافر بالخاتم فينتقشُ فيه هذا كافرٌ

واما الجنُّ فهم مثل البشر طوائف وقبائل وعشائر وبطون وافخاذ وفصائل وعشائر وهم ملوك وحكام ويدينون بما تدين به الآدميون من انواع الاديان والمذاهب ويتزاوجون ويتناسلون الى غير ذلك من الصفات البشرية ومنهم الابيض والاسود والاحمر والاخضر والاصفر والازرق . يحكى ان ابا السري سهل بن ابي غالب الخزرجي الشاعر الذي كان في ايام الخليفة هرون الرشيد العباسيّ ادّعى انهُ نشأ بسجستان وارضعتهُ الجنُّ وانهُ صار اليهم ووضع كتاباً في

امرهم وحكمهم وانسابهم واشعارهم وزعم انه بايعهم للأمين بن الرشيد المشار اليه بولاية العهد فقربه الرشيد وابنه الامين وزبيدة ام الامين وسمع منهم وافاد منهم وله اشعار حسان وضعها على الجنّ والشياطين والسعالى فقال له الرشيد ان كنت رأيت ما ذكرت فقد رأيت عجبًا وان كنت ما رأيته فقد وضعت ادبًا

وقال الشيخ شرف الدين الجاحظ ان الجنيّ اذا ظلم وكفر وتعدى وافسد فهو شيطانٌ فان قوي على حمل البنيان والشيء الثقيل وعلى استراق السمع فهو مارد فان زاد على ذلك فهو عفريت فان طهر ونظف وصار خيرًا كله فهو ملك

والجنُّ في اللغة خلاف الانس او كل ما استتر عن الحواس من الملائكة والشياطين قيل سُميت بذلك لانها تُتّقى ولا تُرَى (1) وقيل بين الملائكة والجنّ عمومٌ وخصوص فكلّ ملائكةٍ جنٌّ وليس كلُّ جنٍّ ملائكة وعرّفه الشيخ ابو علي الحسين بن سينا بأنه حيوانٌ هوائي يتشكل باشكالٍ مختلفة ثم قال وهذا شرح الاسم اي بيانٌ لمدلول هذا اللفظ سواء كان معدومًا في الخارج ام موجودًا ولم يُعلم وجودهُ فيه وقال نحو ذلك وظاهر كلام الفلاسفة ان الجنّ والشياطين هم النفوس البشرية المفارقة عن الابدان بحسب الخير والشر وذكر ابو وهب ان الجنّ منهم من يولد لهم ويأكلون ويشربون ومنهم بمنزلة الريح

والجانُّ هو ابو الجنّ كما ان آدم هو ابو البشر ومن اسماء اولاده اسماء القبائل دَحرَش او دَهرَش ومن اسماء قبائلهم سيصبان ومزدة عزوان والعسل اما الحنُّ فهو حيّ من اجنتهم قيل منهم الكلاب السود منهم او سفلة الجنّ وضعفاؤهم او كلابهم او حيٌّ من الانس والحنّ واما الشقّ فهو جنسٌ من اجناس الجنّ صورته صورة نصف آدمي وقد مرّ ذكرهُ في الفصل الرابع من هذه المقالة والعمار سكان البيوت من الجنّ والأخيب حيّ من الذين استمعوا القرآن والعكشُ المارد من الجنّ

(1) اي لاستتارها عن الابصار البشرية ولا ... مأخوذ من جنّ بمعنى اي يخفى ولجنة من ذلك ايضا

ومن المواطن المشهورة عندهم بانها مختصة بسكنى الجن يبرين وجيرة ووبار وهو موضع برمل عالج والدارقة موضع بساحة البحرين فوق كاظمة والحوش وهو موضع وراء رمل يبرين لا يسكنه احد من الناس واليه ينسبون نوعاً من الابل يقال له الحوشية سوف يأتي الكلام عليه وحوث دار وقيل حوث دار هو موضع يضربون به المثل فيقولون تركته في حوث بوث دار اي بحيث لا يدري وعبقر وهو موضع يضربون به المثل ايضاً فيقولون هذا عبقري انهم كانوا ينسبون اليه كل ما يستحسن ويستغرب وكان الجن صفة لغرابته وحسنه حتى قالوا انه ظلم عبقري والاول يضرب بالرجل السوء والثاني بسلم السوء وقال آخرون ان عبقر او حبقر هو البرد ويعنون بالمحضور ايضاً ما تحضره الجن فيقولون اللبن محضور فغطِّ الاناء اي كثير الآفة والجن تحضره والكُنُف محضورة تحضرها الجن

ومن ابنية الجن صرواح وهو قصر بلقيس الآتي ذكرها وتدمر مدينة تقدم الكلام عليها في اراضي الشام وعلى هذا فمن كل ما كان من الابنية القديمة الطريفة

ولهم صوت يقولون انه يُسمع في الدور اذا سمعه العرف عازف زي وارم فيها حكاية هذا الصوت ايضاً

ومعظم المعروف من الجن هو انهم كانوا يعتقدون ان نساء الجن قد تعرض لصرع رجال الانس على جهة العشق في طلب السفاد كما تعرض كذلك رجال الجن لنساء الانس ايضاً وقد يقع التناسل بين الفريقين بهذا السبب لامكان حصول ذلك بين الارواح المجرّدة والآدميين

وممن تدّعي العرب انه متولد على هذه الطريقة جُرهم فانه كان من نتاج الملائكة والآدميين وكذلك بلقيس ملكة سبا المار ذكرها والاسكندر ذو القرنين وبعضهم يرى ان الاسكندر ذا القرنين المذكور هو غير الاسكندر بن فيلبس المكدوني وانه هو المسمى في خرافات اليونانيين هرقول اما عمرو بن يربوع

فيقولون انهُ متولد بين السعلاة الآتي ذكرها والانسان ولم تنزع من تخيلاتهم هذه الاوهام الاَّ بعد ان ظهر الاسلام

واما الجنُّ فهم الشياطين والخُبثُ ذكورهم والخبائث اناثهم ومن ذكورهم ابو مرّة وابو قِترة وهي كنية ابليس وقِترة علم للشيطان وزَلَنبور وثبر واعور ومسوط وداسم خمسة اولاد لابليس وهم ذريتهُ لكلٍّ منهم عملٌ خاصٌ بهِ ولُبَنى اسم ابنتهِ والقلاط والماوط من اولاد الشياطين وهياه ودكالى والدلانز من اسماء الشياطين والودان والمُذهب شيطان يغري بكثرة صبّ الماء في الوضوء وحنزب اسم الشيطان الذي يتسلط على المصلّي وازبُّ شيطان العقبة وقيل اسم حي لاقاهُ ابن الزبير فوضع السوط في رأسهِ حتى باص اي استتر والزوبعة اسم شيطان او رئيس للجن ومنهُ سميت الاعصار وهي الريح التي تثير الغبار وترتفع الى السماء كأنها عمودٌ وتسمّى ام زوبعة لانهُ هو الذي يثور بها

الفصل السادس

في عوائد العرب واوابدها[1] الملغاة في الاسلام

وكان لعرب كثيرٌ من العوائد والاوابد يرونها فضلاً فابطلها الاسلام منها البحيرة والسائبة والحام والخمر والميسر والانصاب والازلام ووأد البنات والرفادة في الحج فلما أُنزلت آية ما جعل الله من بحيرةٍ ولا سائبةٍ ولا وصيلة ولا

---

(١) الاوابد الوحشيات ومنهُ قولهم اتى فلان في كلامهِ بآبدةٍ اي بكلمةٍ وحشيةٍ

حام وآية انما الخمرُ والميسرُ والانصابُ والازلام رجسٌ من عمل الشيطان هو ما حشوهُ ابطل ذلك جميعهُ

البحيرة هي ناقة كانت اذا نتجت خمسة ابطن وكان الاخير ذكرًا بحروا اذنها اي شقوها وامتنعوا عن ذكاتها ولا تمنعُ من ماء ولا مرعًى

السائبة هي ان الرجل اذا اعتق عبدًا قال هو سائبة فلا عقل بينهما عقدٌ ولا ميراث

الوصيلة تكون في الغنم وهي اذا ولدت الشاة انثى فهي لهم وان ولدت ذكرًا جعلوهُ لآلهتهم فان ولدت ذكرًا وانثى قالوا وصلت اخاها فلا يذبحون الذكر لآلهتهم

الحامُ هو الذكر من الابل كان اذا نتج من صلب الفحل عشرة ابطن قالوا حمى ظهرهُ فلا يحمل عليهِ ولا يمنع من ماء ولا مرعًى

الخمر هو ما خامر العقل ومنهُ سمّيت الخمر خمرًا وكانت باعة الخمر في الجاهلية ينصبون رايات ليُعرف مكانهم بها ويسمّونها الغاية وكانت العرب تفخر بشربها وبصب اقداحها لانها من دلائل الجود عندهم وقد بلغ تولعهم في شرب الخمر ما فعله ابو غبشان اذ باع مفاتح الكعبة بزق خمر ثم ان تفننهم في اوصافها اوجبهم ان يسموها باسماء كثيرة في اشعارهم سواء كان في زمن الجاهلية او بعدهُ ولهم اليد الطولى في مدحها واحسن انواع الشعر ما كان مبنيًّا على تعداد اوصافها والتفنن في كيفية معاطاتها وما كان ناظموهُ من المتصوفة كالامام الفارض وغيره تأولوا فيهِ معاني اخرى روحانية قال الفارض

قالوا شربتَ الاثمَ كلّا وانما ... شربتُ التي في تركها عندي الاثمُ

على ان امثال هولاء يحرمون لا الخمرة فقط بل شرب اللبن اذا مال طعمهُ الى الحموضة ايضًا لانهم يرون فيهِ وهو على تلك الحالة خاصة التخدير فيعدونهُ من المسكرات

وله من محرمات ومؤنسات وتعاليق لا تحصى كثرةً في الخمرة ومن جملتها كتاب بغية حلبة الكميت للامام النواجي قيل ان من قراه مرة قلّ ان يستطيع بعدها صبرا عن شرب الخمر وقد جمع هذا المؤلف في الباب الاول من كتابه المذكور الاسماء التي اطلقتها العرب على الخمرة قال انه اعنى بجمعها من كلام الشعراء الجاهليين والاسلاميين وهي هذه

الخمر والراح والراحة والمدام والمرقد والنشر والخندريس والصهباء والقهوة والشراب والعقار والرحيق والشمول والحميا والكميت والمروقة والمعتقة والمشعشعة والسلافة والمشمولة والصرف والغبوق والعاتق والبكر والعذراء والعروس وأم الدهر والحث والمزة والسخب والسلسل والسلسبيل والسكر والسبيئة والمصطوح والخمر والسخمة والكسيس والنشوة والجريال والاسفنط والعقور والمزة والمعرقة والمرق والدرياق والزنجبيل والمامور والمازة والطلا والطيبة والعصمة والمسطار والمصفق والمصفى والمدامة والخرطوم والثعلب والسحرة والغانية والعانية والجاهلية والعتيقة والمصرة والجنة والمارى والمساة والمعتقة والهبة والهرية والسلسالة والبرية والرسعة والنمة والحمة والسامرية والساهرية والمرنة والمعذبة والمدبة والمنسية والسارة والمعوية والاسرة والغادرة والحص والرمة والدانة والنوبة والمصرعة والصاردة والدسمة والحامعة والمؤخرة والثيح والصرخة والشديل والكميس والزرحون والخندوس والعرى والعرب والاسفطون والفارص والناقع والناقع والنبع والسيد والسريب والمتوع والناجح والحفة والصعد وفوق الدن وام عا وام زمق وام ليلى وام الخبائث والحرام والاثم والمسة (وهي التي تنبت على النار حتى صرت على الثلث) والخمرة (وهي التي عُصرت من العنب) والتبع (وهو نبيذ العسل) والجعة (نبيذ الشعير) والمزر (نبيذ الحنطة) والسكركة (نبيذ الذرة وهو شراب الحبشة) ويقال ان للخمرة الف اسم

ويسمون شراب الغداة صبوحًا وشراب العشية غبوقًا وشرب نصف النهار

قيلًا وشراب اول الليل فحمة وشراب السحر جاشرية قال الشاعر

وافضلُ ما يهدى الى الشيء جنسهُ   ولروح اهدي الراح فهي لها جنسُ

وقال ابو نواس يريد ان تشترك كل حواسه بها

ألا فاسقني خمرًا وقل لي هي الخمرُ   ولا تسقني سرًّا اذا امكن الجهرُ

وقال ايضًا يعيّن مقدار الشرب منها

رأيتُ طبائع الانسا   نِ اربعةً في الاصلِ
فاربعةٌ لاربعةٍ   لكلِّ طبيعةٍ رطلُ

وقال الاعشى يصف دواء المخمور

وكاسٍ شربتُ على لذةٍ   واخرى تداويتُ منها بها

وقال احد ارباب المجون يخصص حياته كلها للمسكرات

للبرش يومٌ ويومٌ للحشيش ولي   [illegible]

الميسر والازلام. الميسر هو القمار والازلام هي السهام قبل ان تراش وازلام الميسر هي قمار العرب بهذه الازلام ويسمونها ايضًا المغالق سميت بذلك لانها تُغلق الخطر من قولهم غلق الرهن يغلَق غلقًا اذا لم يوجد له تخلّص وكذلك يقال ان اهل الثروة من الجاهلية كانوا يشترون جزورًا[1] فيحرونه ويقسمونه ثمانية وعشرين قسمًا يتساهمون عليها بعشرة قداح يسمونها الازلام ويسمون كل واحدٍ منها باسمٍ وهي الفذّ والتوأم والرقيب والنافس والحلس والمسبل والمعلّى والنيح والمنيح والوغد ويفرضون لسبعةٍ منها انصبة مقدرة فيجعلون للفذ منها نصيبًا واحدًا والتوأم نصيبين وللرقيب ثلاثة وهكذا الى المعلّى فان له سبعة انصبة واختلف في ترتيب النافس بينها فقيل هو الرابع وقيل بل الخامس واما الثلاثة

(1) الجزور جمع جزرة وهي الشاة المعدة للذبح

الباقية فلا نصيب لها وكانوا يكتبون على كلّ قدحٍ اسمهُ وكانوا يجمعون هذه القداح في خريطةٍ يضعونهـا في يد رجلٍ عدلٍ يسمونهُ الجبل او المنيض[1] فيجعلهـا في تلك الخريطة ويخرج منها قدحًا للرجل فمن خرج له قدحٌ من ذوات الانصبة أخذ نصيبهُ ومن خرج له منهم قدح لانصيب له غرِمَ ثمن الجزور وكانوا يكثرون هذا اللعب في ايام الشتاء لتفرغهم له

وكانوا يجيلون هذه القداح عند هبل الصنم العظيم الذي كان في جوف الكعبة على النذر التي كانوا ينحرون فيها هدايا معبوداتهم

وكان لقمان بن عاد أضربَ الناس بهذه القداح ولذلك قالوا في امثالهم ايسر من لقمان وكان له ايسارٌ يضربون معهُ ايضًا وهم ثمانية واسماؤُهم بياض وحممة وطفيل ورفاعة ومالك وفرعة وثميل وعمار فضربت العرب بهم الامثال ويقولون للأيسار اذا شرفوهم كايسار لقمان قال طرفة بن العبد

وهم ايسارُ لقمانٍ اذا أغلت الشتوة ابداء الجزر

ومن امثالهم يجيل القداح والجزورُ ترتعُ يضرب لمن يتعجل في امرٍ لم يَحِن بعد فان القِدح لايجال الا بعد ان نحر الجزور

ومن امثالهم ايضًا حنَّ قِدحٌ يضرب لمن يتشبَّه بقومٍ ليس منهم لانهُ اذا كان احد القداح من غير جوهرة اخوانهِ خرج له صوتٌ يخالف اصواتهـا عند ما يجيلهُ المفيض في الخريطة فيعرَف بذلك انهُ ليس من القداح

ويضرَب المثل ايضًا بقدح ابن مقبل وهو قِدحٌ اشتهر بالاصابة وعدم الخطاء كان صاحبهُ يقدح النار قبل خروجهِ ثقةً بفوزهِ . قال بعضهم ان هذا القدح فاز سبعين مرةً لم يخب منها مرةً واحدة

ومن امثالهم ايضًا كلُّ امرءٍ أعرفُ بوسم قِدحهِ وهو يضرَب للعارف بقدر

[1] وفي محيط المحيط الحرضة امين المقامرين الذي يضرب الايسار للقداح ولا يكون الا ساقطًا برمًا والبرَمَ البخيل واللئيم ومن لا يدخل مع القوم في الميسر لبخلهِ ونحوه

نسمِ الوأق بما عدهُ وهو من قولهم ابصر وسم قدحك لانهُ كانت اعادة عندهم ان يسموا اقداحهم بعلاماتٍ يتميز بها كل واحدٍ منهم قدحهُ ويستدل به على نصيبهِ

وانواع الميسر عندهم كثيرة ومنها نوع آخر يقال لهُ القيال وهو ان يجمع التراب فيدفن فيهِ شيء ثم يجعل التراب نصفين ويسأل عن الدفين في ايهما هو فمن اصاب قَمَرَ ومن اخطأ قُمِرَ ومنهُ قولهم قابل الرجل اذا لعب بهذا اللعب قال طرفة بن العبد البكري

يشقُّ حبابَ الماء حيزومها بها كما قسم التربَ المفايلُ باليدِ

ومنها المخارجة وهي المناهدة بالاصابع فيخرج الرجل من اصابعهِ ما شاء والآخر مثل ذلك على سبيل المساهمة

ومنها المخرق عويد في طرفهِ مسمار محدَّد يكون عند بياع البسر بالنوى بطريق المبادلة وله مخارق كثيرة يأتيهِ الصبي بالنوى فياخذهُ منهُ و يشرط لهُ كذا او كذا ضربةً بالمخرق فما انتظم من البسر فيهِ فهو لهُ قلَّ او كثر. واما ان اخطأ فلا شيء لهُ وذهب نواهُ

الانصاب. هي الاوثان من حجارة وقد سبق الكلام عليها

الازلام. هي من التي سبق ذكرها تسمى ازلام الاستخارة. يحكى انهم كانوا يتخذون منها ثلاثة قداح يكتبون على احدها امرني ربي وعلى الثاني نهاني ربي ويتركون الثالث غفلاً فاذا ارادوا امرًا يجعلون هذه القداح في خريطةٍ ويخرجون منها واحدًا فان كان هو الآمرُ مضوا على الامر الذي ارادوهُ وان كان هو الناهي عدلوا عنهُ فان خرج الغفلُ اعادوها ثانيةً حتى يخرج احد المكتوبين وكانت هذه القداح توضع عند سدنة الاصنام ويقال لها قداح الاستقسام والاستخارة

وأد[1] **البنات**. وهو ان بعض العرب كان اذا وُلدت لهُ بنتٌ يدفنها

(١) الوأد في اللغة دفن الولد وهو حيٌّ

وهي حيّة واختلفوا في اسباب ذلك فمنهم من قال انهم كانوا يفعلونه ايام الجدب ومنهم من قال خوفاً من عار السبي اذا عاشت ومنهم من قال انما من زواجها . ويقولون ان اول من وأد البنات رجل يقال له قيس بن عاصم التميمي وتبعهُ الناس في ذلك الى ان ابطله الاسلام. وقال الاصبهاني ان قيساً المذكور ادرك الاسلام واسلم. اما عبارة الميداني في الامثال فهي قال حمزة ذكر الهيثم بن عدي ان الوأد كان مستعملاً في قبائل العرب قاطبةً وكان يستعمله واحدٌ ويتركهُ عشرة فجاء الاسلام وقد قلّ ذلك فيها الاّ من بني تميم فانهُ تزايد فيهم قبل الاسلام لان الريان اخا النعمان كان استاق نعمهم وسبى ذراريهم لما منعوا اخاهُ المذكور الاتاوة[1] التي كانت عليهم ثم لما وفدت وفود بني تميم على النعمان وكلموهُ في الذراري فحكم النعمان بان يكون الخيار للنساء في ذلك وكان فيهنَّ بنتٌ لقيس بن عاصم المذكور فاختارت سابيها على زوجها فنذر قيس ان يدسَّ كل بنت تولد له في التراب فوأد بضع عشرة بنتاً وصنع قيس هذا واحياؤه هذه السنة نزل القرآن في ذم وأد البنات

ويقال بانهُ يوجد بمكة جبلٌ يقال له ابو دلامة قيل ان قريشاً كانت تئد فيه البنات

وتفتخرُ بنو تميم المار ذكرهم برجلٍ يقال له محيي الوئيدات واسمهُ صعصعة ابن ناجية التميمي وهو جدُّ الفرزدق الشاعر المشهور ضُرِب به المثل لكونهِ كان على خلاف قومهِ فكان يشتري هذه البنات منهم ويربيها في ابياتهِ فكان هو اول من فداهنَّ

الرفادة[2] في الحج . وهي الخرج الذي كانت تخرجهُ قريش في كل موسم من اموالها الى قصيّ بن كلاب القرشي فيصنع به طعاماً للحجاج لياكلهُ من لم يكن له سعةٌ ولا زادٌ وكان قصيٌّ المذكور فرض ذلك على قريش كما سبقت

(١) الاتاوة المال الذي يؤخذ على الاراضي الخراجية والرشوة او تخص الرشوة على الماء

(٢) الرفادة العطاء والاعانة وقيل ما يعطونه المرفود الى الرافد

الاشارة اليهِ في آخر الفصل الثاني من المقالة الرابعة وقيل ان اول من اقام الرفادة عبد المطّلب

الرتم[1] من اوابد العرب ايضاً وهو شجرٌ معروفٌ كان اذا خرج احدهم الى سفرٍ عمد الى شجرةٍ منهُ فيعقد غصناً منها فاذا عاد من سفرهِ ووجدهُ قد انحلّ يعتقد ان امرأتهُ قد خانتهُ قال بعضهم يخاطب رجلاً من العرب اراد سفراً فاخذ يوصي امرأتهُ ويقول اياكِ ان تفعلي فاني عاقدٌ لكِ رتمة شجرة فان احدثتِ حدثاً تحلّت

هل ينفعنْكَ اليومَ ان همّتْ بهم كثرةُ ما توصي وتعقادُ الرتمْ

ومنهُ المثل المضروب عندهم احمل من تعقاد الرتم

الرتيمة . وهي من الرتم ايضاً كان اذا مات واحدٌ منهم عقلوا ناقتهُ عند قبرهِ وسدّوا عينيها حتى تموت يزعمون انهُ اذا بُعث من قبرهِ يركبها وتسمّى البلية ايضاً وعكس البلية هي ان يربطوها معكوسة الراس الى ما يلي كلكلها[2] وبطنها ويقال الى مؤخرها مما يلي ظهرها ثم يتركونها على تلك الحالة حتى تموت

التعمية والتفقية . كان الرجل اذا بلغت ابلهُ الفاً فقأ عين الفحل يزعمون ان ذلك يدفع عنها العين فاذا زادت عن الالف فقأ عينهُ الاخرى ولذلك يقولون في امثالهم عندهُ من المال عائرة[3] عين

دواء العرّ . كانوا اذا اصاب الابل داء العرّ وهو يشبه الجرب يكوون السليمة ويزعمون ان ذلك يبرئ المريضة قال النابغة

حملتَ عليَّ ذنبهُ وتركتهُ كذي العرّ يُكوى غيرهُ وهو راتعُ

(١) الرتيمة شيء يعقد في الاصبع او غيرهِ للتذكرة يقال رتم الرجل وارتم عقد الرتيمة في اصبعهِ والرتم نبات كثير من دقيق شبه بالرتم زهره كالخيري وورقهُ كالعدس الواحدة منهُ رتمة (٢) والكلكل الصدر او باطن الزور ومن الفرس ما بين محزمهِ الى ما مس الارض منهُ (٣) يقال عار عينهُ اي عورها

وشطر البيت الاخير مثلٌ يضربونهُ في خد الدري، محربرة المذنب

تسكين النوق النافرة . يزعمون ان الناقة اذا سرقت وذكر اسم امها فانها تسكن

صقي البقر . وكانوا اذا امتنعت البقر عن الشرب ضربوا الثور يزعمون ان الجنّ يركبون الثيران فيصدّون البقر عن الشرب قال ابن مدرك

اني وقتلي سليكًا ثمَّ اعقله كالثور يضربُ لما عافت البقرُ

وشطرُ البيت الاخير يُضرب كذلك في عقوبة الانسان بذنب غيره. وقال آخرون ان الثور هو الطحلب ينبتُ يكون على وجه الماء المزمن فتكره البقرُ الماء بسببه فاذا ضُرب ونحّي عن وجه الماء شرب البقرُ وفي محيط المحيط انهم كانوا لا يضربون البقر لكونها ذات لبن وانما يضربون الثيران لتفزع فتشرب

الهامة . يزعمون ان الانسان اذا قُتل ولم يُوخذ بثاره يخرج من رأسهِ طائرٌ يسمّى الهامة فلا يزال يصيح على قبره اسقوني اسقوني الى ان يُوخذ ثاره، وطائفة منهم تزعم ان هذا الطائر هو نفس الانسان تنشطّ من جسمهِ اذا مات او قتل ولا يزال متصورًا في صورة الطائر يصرخ على قبره مستوحشًا له قال الشاعر

سلّطَ الموتُ والمنونُ عليهم فلهم في صدى المقابر هامُ

وقال الاصمعي ان العرب تسمّي هذا الطائر الصدى قال طرفة

كريمٌ يروّي نفسهُ في حياتهِ ستعلم ان متنا صدىً اينا الصدي

ويزعمون ان هذا الطائر يكبر ويتوحش ويوجد في الديار المعطلة والنواويس ومصارع القتلى ويقولون ان الهامة لا تزال عند ولد الميت لتعلم ما يكون من خبره فتخبر الميت ولذلك كانت نساء العرب لا تبكي المقتول حتى يوخذ بثاره

ولا زالت العرب تعتقدُ بالهامة الى ان جاء الاسلام وورد في الحديث لاعدوى ولاطيرة ولاصفر ولاهام (العدوى سراية المرض من المريض لغيره والطيرة ما يتشاءمُ بهِ من الفال الردي وقد مرّ ذكرها والهام ما نحن بصدده)

الصفر . حيَّة تكون في بطن الانسان يزعمون بانهُ اذا جاع عضّ الصفر هذ على شُرسوفهِ[١]

الجان . يزعمون ان الجنّ تطلب بثار الجان فربما مات قاتلهُ او اصابهُ خبلٌ والجان حيَّة بيضاء كحلاء العين كثيرةٌ في الدور ولذلك يقولون في امثالهم كالارقم ان يُقتَل يَنقِم وان يُترك يلقَم ويزعمون ان الحية تموت في اول ضربة فان ثُنّيت عاشت

حفظ الاسنان . يزعمون ان الغلام اذا ثغَر فرمى سنَّهُ في عين الشمس بسبابتهِ وابهامهِ وقال ابدليني باحسن منها فانهُ يأمن على اسنانهِ من العوج والفلج

التحفظ من الوباء . يزعمون ان الرجل اذا قدِمَ قريةً فخاف وباءها فوقف على بابها قبل ان يدخلها ونهق كما تنهق الحمير لم يصبهُ وباؤها

الاهتداء . وان الرجل اذا ضلّ فقلب ثيابهُ اهتدى

دواء المقلات . وهو اذا وطئت رجلاً كريمًا قتل غدرًا عاش ولدها

الاستسقاء . كانوا اذا جدبت ارضهم من قلةِ المطر احتفوا اغصانًا من شجر السلَع والعُشَر[٢] وعلقوها باذناب ثيران الوحش وحدروها من الجبال واشعلوا في ذلك السلع والعشر النار يعتقدون ان ذلك يستنزل المطر قال الشاعر

---

(١) الشرسوف غضروف معلق بكل ضلع او مقط الضلع وهو الطرف المشرف على البطن والصفر الجوعة من الصفيرة وهي الخلاء

(٢) السلع شجر مرّ او سم او ضرب من الصبر او بقلة خبيثة الطعم والعشر شجر يقدح به

لا دَرَّ درُّ اناسٍ خابَ سعيهمُ　　يستمطرون لدى الازمات[١] بالعشرِ
أجاعلٌ انتَ بيقوراً[٢] مسلّعةً[٣]　　ذريعةً لكَ بين اللهِ والمطرِ

صدحة المطر . هي رقية تمنع المطر ان يصيب مكانًا اصاب كل ما حوله من الارض قيل كان يستعلمها اهل السكون وحضرموت والسكاسك من عرب اليمن فكان احدهم يصدَحُ عن حلتهِ او مواشيهِ فلا يصيبها شيءٌ من المطر وهو قد عمَّ كل ارضٍ في تلك البلاد

التوابع . يزعمون ان لكل انسانٍ تابع من الجن يكون مع الانسان يتبعهُ حيث ذهب ومنهُ قولهم معهُ تابعة اي جنية وان الجن تهرب من الارنب فمن عُلّق عليهِ كعب الارنب لم تصبهُ عينٌ ولا سحرٌ ولذلك كانوا يتخذونها كضربٍ من التمائم

التمائم . جمع تميمة وهي الخرز ويجمع على احراز والعامة تقول الخروزة والاصل فيها خرزة رقطاء تنظم في السير ثم يعقد في العنق وسميت تميمةً لان بها يتم امر الصبي وكان الاعراب يضعونها على اولادهم للوقاية من العين ولدفع الامراض التي تحصل الى الاولاد كالصرع المسمّى عند الاطباء بامّ الصبيان لانهم يظنون حدوثهُ من الجنّ ويسمّونهُ صرعة الخبط قال المتنبي

ظلمتَ مواهبهُ عليهِ تمائمًا　　فاعتادها فاذا سقطنَ تفزّعا

واماطة هذه التمائم اي ازالتهـا عند العرب رديف الكِبَر لانهم كانوا لا يزيلونهـا الّا متى بلغ الصبي الحلم وحينئذٍ يلبسونهُ العمامة والازار ويقلدونهُ السيف وذلك جميعهُ عندهم من لوازم البلوغ لانهم كانوا لا يبالون باستتار الغلام قبل بلوغهِ فاذا بلغ يلبسونهُ الازار ليستتر بهِ ولما جاء الاسلام نهى عن لبس هذه التمائم وقد ورد في الحديث من علّق تميمةً فلا اتم الله لهُ وايضًا من علّق تميمةً فقد اشرك

(١) الازمات جمع ازمة اي شديدة توصف بها السنة المجدبة
(٢) البيقور اسم جمع للبقر　(٣) المسلع المذيل

التولة. هو خرزٌ يسمونه بهذا الاسم ويجمع على تولات تلبسهُ النساء يزعمن انه يحبب المرأة الى زوجها

التنجر بالحزى. وهو بالقصر والمد نباتٌ يشبه الكرفس الواحدة حزاة وحزاءة كانوا يتدخنون به للارواح يزعمون ان الجنّ لا تقرب بيتًا هو فيه فيؤمنون بذلك من غوائلها

السعلاة. هي حيوانٌ من المتشيطنة يتراءى للناس بالنهار ويغول بالليل واكثر ما توجد بالغياض فاذا انفردت بانسانٍ امسكتهُ ترقصهُ وتلعب به كما يلعب القط بالفار ويقولون ربما صادها الذئب واكلها وهي حينئذٍ ترفع صوتها وتقول ادركوني فقد اخذني الذئب وربما قالت من ينقذني ومعهُ معهُ الف دينار فيسمعها من يجاورها ولا يلتفت لكلامها لمعرفة الناس بها

القطرب. زعم بعض المؤلفين بانهُ ذكر السعالى المارّ ذكرها وانهُ يظهر في اكناف اليمن وصعيد مصر

الغول. هي ساحرة الجنّ تتلوّن للناس في الخلوات بصورٍ شتّى لتضلهم في الطريق وتهلكهم فتخاطبهم ويخاطبونها ويروون عنها احاديث ومساجلات واحاجي ادبية يطول شرحها وقالوا انها تشبه الانسان والبهيمة وقالوا هي ذكر وانثى قال كعب ابن زهير

فما تدوم على حالٍ تكون بها كما تلوّن في اثوابها الغولُ

ولذلك يقولون في امثالهم كتلوّن الغول يُضرَب للمتلوّن في سلوكهِ ويقولون ايضًا تغوّلت المرأة اذا تشبهت بالغول في تلونها وفي بعض المؤلفات الغول سبعٌ من سباع الجن وبعضهم لا يفرق بين الغول والسعلاة التي مرّ ذكرها قال بعض الادباء

لما فحصتُ بني الزمان ولم أجدْ خلًا وفيًا لشدائد اصطفي
ايقنت ان المستحيل ثلاثةٌ الغول والعنقاء والخلُّ الوفي

العنقاء . يقال لها عنقاء مغرب يزعمون انها طائرٌ عظيمٌ معروف الاسم مجهول الجسم وانها سميت بذلك لبياضٍ في عنقها كالطوق قال الجاحظ الامم كلها تضرب المثل بعنقاء في الشيء يُسمع ولا يُرى ومن امثالهم حلقت به في الجوّ عنقاء مغرب قال الشاعر

اذا ما ابن عبد الله خلّى مكانهُ وقد حلّقت بالجوّ عنقاء مغربِ

الخيلان . وحشٌ من نظائر العنقاء يزعمون انه في الجز صفة انسانٍ والباقي سمك قال بعض الادباء

ولا الببغاء بالنطق يعدُّ عاقلاً ولا الخيلانُ بالجسم يعدُّ انسانا

الحرقوص . دويبة صغيرة اكبر من البرغوث تاتي الابكار فتفتض بكارتهن

الهواتف . في تهتف بصوتٍ مسموعٍ وجسمٍ غير مرئيّ تجاوب من يخاطب نفسه وخاصة في ظلام الليل

اكلة الشيطان . حيةٌ كانت في الجاهلية كان يأتي البيتَ الحرامَ في كل حين ويضرب بنفسه الارض فلا يمرُّ بواحدٍ الاّ اهلكهُ وبهِ يُضرب المثل في كل شيء ذهب فلم يوجد له اثرٌ

المقالة الخامسة

في مساكن العرب وابنيتهم وملابسهم ومآكلهم واداب مخاطباتهم وتحياتهم وفيها اربعة فصول

الفصل الاول

في مساكن العرب

كانت مساكن العرب في الجاهلية تنقسم الى نوعين حضرية ووبرية

الكلام على مباني الحضر في الجاهلية

مساكن الحضر اي سكان المدن كانت ابنية ذات هياكل وقصور في مدنهم وكانوا يزينونها بالمعادن النفيسة التي كانوا ياخذونها بالمبادلة من الروم والعجم كما ياتي الكلام على ذلك في محلهِ ومنها

مدينة مأرب . ذكر المؤرخون وغيرهم في كتب الآداب العربية ان هذه المدينة التي تعرف بمدينة سبا سماها عبد شمس الملقب بسبا فصارت دار مملكة اليمن وكان من ملوكها الملكة التي جاءت لتسمع حكمة سليمان ملك اسرائيل (امل ص١٠ : ١ ١٣) وتُسمى في الكتب العربية بلقيس روى بعضهم بانها

هي التي ضربت في هذه المدينة السدّ المشهور بسدّ مأرب وهو سورٌ غليظ في فرجة وادٍ بين جبلين عرضها خمس اوست دقائق حقنت بهِ ماء العيون والامطار لكي تتوزع في وقت الحاجة على المزارع والبساتين وقيل بل الذي ضربهُ هو عبد شمس المذكور وقيل لقمان بن عاد وكان هذا السد معدودًا عند العرب من عجائب الدنيا وقد تكلم مؤلفوهم على ما ترتب من هدم هذا السدّ من المكاره وأرخوا زمنهُ وعيّنوهُ بتاريخ غير مجمع عليهِ عند العلماء

قصر الخورنق . بناهُ رجلٌ من الروم يقال لهُ سنمار في ظهر الكوفة للملك النعمان الاكبر ابن امرء القيس اللخميّ الملقّب بالمحرّق . يحكى انهُ لما فرغ من بنائهِ القاهُ الملك المذكور من اعلاهُ الى الارض فقتلهُ لئلاَّ يبني مثلهُ لغيرهِ فذهب ذلك مثلاً عند العرب يقال جوزي جزاء سنمار قال الشاعر

جزى بنوهُ ابا الغيلان عن كبرٍ وحسنِ فعلٍ كما جوزي سنّمارُ

على ان هذا الملك بعد ان مكث في الملك ثلاثين سنة كان جالسًا يومًا في هذا القصر فتأمل في الملك الذي لهُ والاموال والذخائر التي عندهُ وكانت على جانب عظيم فقال لاخيرَ في هذا الذي ملكتهُ اليوم ويملكهُ غيري غدًا ومن ثمّ زهِدَ في الملك وامر حجابهُ ان يعتزلوا عن بابهِ ولما جنّ الليل التحف بكساء وخرج سائحًا في الارض فلم يرهُ احدٌ بعد ذلك

السدير . قصرٌ آخر في العراق للنعمان المذكور

حصن الصِنّبر . لامرء القيس بن النعمان الاعور وقيل ان ما وقع لسنمار المارّ ذكرهُ كان مع هذا الملك بعد ان بنى لهُ هذا الحصن

قصر غمدان . هو بظاهر صنعاء اليمن ولهُ غرفٌ شهيرة يسمّونها المحاريب وهو محكم البناء عجيب الارتفاع لانهُ سبع طبقات وفيهِ ما لا يوصف من الزخارف والصنائع الغريبة بناهُ الملك شرحبيل بن عمرو بن غالب بن المنتاب بن زيد ابن يعفر بن السكسك بن وائل بن حِميَر واقام فيهِ مدة ملكهِ ثم صار بعد ذلك

دار امدت للنابغة وفي محيط المحيط لغُمدان قصرٌ باليمن بناه يشرح باربعة وجوه احمر واصفر وابيض واخضر وبنى داخلهُ قصرًا بسبعة سقوف بين كل سقفين اربعون ذراعًا اه . وهذا القصر هو الذي اخذهُ سيف بن ذي يزن الحميري من الحبشة كما سبقت الاشارة الى ذلك في الفصل الاول من المقالة الرابعة

مارد والابلق . حصنان للسموأل بن عاديا اليهودي الغساني وكان مارد في دومة الجندل وهو مبنيٌّ من حجارة سود والابلق كان في ارض تيماء مبنيٌّ من حجارة سود وبيض وكانت قصدتهما هند ملكة الجزيرة المعروفة بالزبّاء وعجزت عنهما فقالت تمرَّدَ ماردُ وعزَّ الابلق فذهبت مثلاً

صرح الغدير . من ابنية ملوك غسّان في اطراف حوران مما يلي البلقاء بناهُ ثعلبة بن عمرو بن جفنة الغسّاني

القناطر واذرح والقسطل . من ابنية جبلة بن الحرث بن ثعلبة المذكور

الحفير ومصنعهُ وقصر ابير ومعان . من ابنية الحرث بن جبلة المذكور وكان يسكن في البلقاء

قصر الفضا وصفات العجلات وقصر منار . من بناء عمرو بن الحرث المذكور فانهُ انشأ في دمشق وضواحيها عدةً من القصور الشامخة منها هذه الابنية

قصر السويداء وقصر حارب . بناها النعمان بن عمرو المار ذكرهُ

قصر برقع . بني في البرية لجبلة بن الحرث اخي عمرو الذي تقدم ذكرهُ وكان صاحب تدمر وقصر بركة وذات اعمار بناهُ لهُ عامهُ القين

جبلة الادهمية . بلدةٌ بناها جبلة بن الأيهم آخر ملوك غسّان الذي كان أسلم في ايام الخليفة عمر بن الخطاب ثم لحق بقيصر ملك الروم فتنصَّر واقام عندهُ وبهِ يضربون المثل في عزّة الملك فيقولون اعزُّ ملكًا من جبلة بن الأيهم وجبلة هذه تُنسبُ الآن الى السلطان ابرهيم ادهم الزاهد المدفون فيها

هذا ما وقفنا عليهِ من الابنية التي انشأها العرب في زمن الجاهلية واما التي انشأوها في العصر الاسلامي فقد سبق ذكر اكثرها في الفصل الثالث من المقالة

الاولى من هذا الكتاب عبارة احتراز ان نذكرها هنا تكرارًا لفوائدها وما كان لتقصد في بابها وما آل اليه امرها بحسب ازمنة حدوثها ومنها

البُصرة . اول مدينة شُرع في بنائها في العصر الاسلامي بناها عمر بن الخطاب الذي تولى الخلافة بعد ابي بكر الصديق سنة ١٣ للهجرة (سنة ٦٣٤ م) وكان بذلك هو اول من بدّد الابنية ومصّر الامصار في ذلك العصر الجديد وكان بناؤها سنة ١٤ للهجرة (سنة ٦٣٥ م) في العراق تحت مجتمع نهري دجلة والفرات على شط نهر العرب وسبب ذلك على ما قيل هو لكي يقطع عن الفُرس مواصلة مع اعالي الهند بواسطة الخليج الفارسي عمرت هذه المدينة وازهرت وكان بها السوق المشهور بمربد البصرة تجتمع فيه شعراء العرب ويتناشدون ما نظموهُ من الاشعار ولذلك كان بها العلماء والادباء والفصحاء في اللغة العربية وعلماؤها مجتهدون في النحو وبينهم وبين علماء الكوفة خلافٌ مذهبيٌ في ذلك العلم ولم تفضّل الكوفة عليها الاّ بكونها صارت دارًا للخلافة قبل بغداد ولم تصر هي دارًا للخلافة اصلاً وانما كانت قاعدة لحاكم السواد[1] ومن العجب ان الخلفاء كانوا يبعثون اليهــا دائمًا احذق العمال كزياد بن أُمية والحجاج ونحو القرن الثاني عشر للهجرة المقابل للقرن الثامن عشر من الميلاد بلغت سكانها نحو اربع مئة الف نفس لكنها خربت اخيرًا فلا يوجد بها الآن اكثر من ستين الفًا

الكوفة . بناها كذلك الخليفة المشار اليه سنة ١٧ للهجرة (سنة ٦٣٨ م) ونقل كرسي الخلافة اليها بعد ان كان في الانبار وتُسمّى خدّ العذراء لان ارضها رملة حمراء ومن ثمّ صارت هذه المدينة مدينة العراق الكبرى ويصفونها بانها قبّة الاسلام ودار هجرتهم واليها يُنسب الخط الكوفي وفيها كانت خطط العرب في ايام عثمان بن عفان ولى هاتين المدينتين اي البصرة والكوفة يُنسب جماعة من العلماء والنحاة والشعراء ويقال لهما العراقان وصار اهلها ممن يوثق بعربيتهم بعد الاسلام ويستشهد بكلامهم قال بعض الفضلاء حيثما وجد خلافٌ بينهم لمذهب

(١) سواد قرى البلاد

البصريين اصحُّ من جهة اللفظ ومذهب الكوفيين اصحُّ من جهة المعنى

الجامع الاقصى . بناهُ الخليفة المشار اليهِ في مدينة اورشليم المعروفة بالقدس الشريف في المحل الذي كان مبنيًّا فيهِ هيكل سليمان وهو احد الجوامع الثلاثة التي مرَّ ذكرها في الفصل الثاني من المقالة الرابعة من هذا الكتاب

واسط . مدينةٌ بناها الحجاج بن يوسف الثقفيُّ في ايام خلافة عبد الملك بن مروان وذلك في سنة ٧٨ للهجرة (سنة ٦٩٦م) قيل سماها بهذا الاسم لكونها متوسطةً بين البصرة والكوفة

الجامع الاموي . وكان لما تولَّى الخلافة معاوية بعد علي بن ابي طالب اتخذ الشام دارًا للخلافة ولازالت كذلك مدة الامويين كلها وكانت هذه المدينة المدينة شهيرة بمعامل السيوف المصنوعة من خليط اوراق رهيفة من الحديد والفولاذ فكانت تثني الى المقبض وتؤثر في الاشياء الصلبة غير انهُ افتقد منها سرُّ هذه الصناعة الآن ويقال ان تيمورلنك ملك المغول لما ملك هذه المدينة في اواخر القرن الثامن للهجرة (الرابع عشر من الميلاد) اخذ منها الى بلاد العجم اصحاب معرفة هذه الصناعة فاشتغلوا له السيوف وصنعت غير انها جاءت دون سيوف دمشق في الجودة ولم يزل بها الى الآن شغل الابنوس المزيَّن بالعاج والصدف ويعبِّرون عن هذه الصناعة بالتطعيم ويصنع فيها كثيرٌ من اقمشة الحرير وادوات الخيل واصاغها صناعةٌ في صياغة الذهب لا يقدر عليها غيرهم ثم لما تولَّى الخلافة فيها الوليد ابن عبد الملك بن مروان الذي تقدَّم ذكرهُ بنى فيها الجامع الاموي الذي يقال عنهُ بانهُ اعظم ابنية العرب وليس لهُ نظير في جوامع الاسلام طولهُ يبلغ خمس مئة وخمسين قدمًا وعرضهُ مئة وخمسين قدمًا وهو مبنيٌّ على اعمدة عظيمة من الحجر السماقي والرخام المختلف الالوان وفي قبتهِ ست مئة قنديل معلقة بسلاسل من الذهب والفضة واما في شهر رمضان فكان يُشعَلُ فيهِ اثنا عشر الف قنديل وفيهِ اربعة محاريب لاصحاب المذاهب الاربعة وفيهِ خمسة وسبعون مؤذنًا يؤدون في منارتهِ الثلاث

وقال بعضهم انهُ صرف عليهِ ثلاثة آلاف الف دينار وبنى الجامع الاقصى بالقدس ومسجد المدينة ايضًا وانشأ دور الضيافات وغيرها فكان هو اول من فعل ذلك في البلاد الاسلامية سنة ٨٨ للهجرة (سنة ٧٠٦ م)

الرملة. مدينةٌ بينها وبين القدس مسافة يوم واحد بنيت في مدّة خلافة سليمان بن عبد الملك الذي سبق ذكرهُ

رصافة هشام. مشهورة في اراضي الشام سميت في ايام خلافة هشام بن عبد الملك المشار اليهِ

الهاشمية. مدينةٌ عند الانبار بناها عبد الله السفّاح العباسي بعد انقراض دولة بني أُمية المذكورين من المشرق وقيامهِ هو بالامر وكان اقام اولاً في الحيرة ثم لما بنى هذه المدينة نقل كرسي الخلافة اليها

بغداد. ويقال بغداذ وبغداذ وبغدين وبغدان ومغدان مدينةٌ شهيرةٌ في العراق العربي على الشاطئ الشرقي من نهر دجلة وسمّيت مدينة السلام لان دجلة كان يقال له وادي السلام ولذلك يقال له نهر السلام ايضًا بناها ابو جعفر المنصور اخو السفّاح المشار اليهِ في سنة ١٤٥ للهجرة (٧٦٢م) ولُقبت الزوراء لانهُ جعل ابواب المدينة الداخلة مزوَّرةً عن الابواب الخارجة وقيل الزوراء اسمٌ لدجلة سمّيت بهِ ميلها واعوجاجها قال الشاعر

ارحْ النسيم سرى من الزوراء سحرًا فاحيى ميّتَ الاحياء

ومعنى بغداذ على ما ذكروا عطية الصنم لان كسرى كان اقطعها الخصيّ له وكان لهم صنمٌ يعبدونهُ في المشرق يقال له بغ فقال ذلك الخصي بغ داذ اي اعطاني الصنم ولذلك يكرهُ الفقهاء هذا الاسم وكان ابن المبارك يقول لا يقال بغداذ بالذال المعجمة فان بغ صنمٌ وداذ عطية وانما يقال بغداد بالمهملتين وبغدان ايضًا وقال بعضهم ان بغ بالعجمية بستانٌ وداد اسم رجل يعني بستان داد

ثم امر المنصور بنقل كرسي الخلافة اليها من الهاشمية وامر ببناء الرصافة(١) الشهيرة لولده المهدي فصارت هذه المدينة من ذلك الوقت مركز شوكة الخلافة المشرقية وللعلوم ايضاً لانها اخذت في التعاظم الى ان جمع فيها ما كان باقياً من علوم المشرق كما يتضح ذلك مما يأتي في محلهِ

والى الجانب الغربي منها محل يسمى الكرخ كان يسكن به ابو جعفر المذكور وفيهِ يقول ابن زريق البغدادي

استودع الله في بغداد لي قمراً بالكرخ من فلك الازرار مطلعهُ

وكانت الرصافة التي مرَّ ذكرها في الجانب الشرقي من بغداد فلما تولَّى الخلافة هرون الرشيد خامس الخلفاء العباسيين المشار اليهم بنى فيها قصراً وكانت يومئذٍ الرصافة ذات بهجةٍ عظيمة وفيها يقول علي بن الجهم

عيون المها بين الرصافةِ والجسرِ
جلبنَ الهوى من حيثُ ادري ولا ادري

وما زالت الرصافة كذلك في عصر الخلفاء العباسيين حتى انقرضت دولتهم فانحطت عن عظمتها

وذكر الخطيب البغدادي في تاريخهِ ان الحمامات في بغداد بلغ عددها لعهد المأمون بن الرشيد المشار اليهِ خمسة وستين الف حمامٍ وكانت مشتملة على مدن وامصار متلاصقة ومتقاربة تجاوز الاربعين وقال غيرهُ انها كانت اجل مدن الدنيا في عصرها اقامت نحو خمس مئة سنة دار مملكة الخلفاء الى ان خربت بفتنة التتار وكانت معدن العلماء والشعراء والفقهاء والمشاهير في كل علمٍ وفنّ واما الآن فان سكانها نحو ستين الف نفس وفي ايام الصيف يسكنون في سراديب تحت الارض في النهار لشدة الحرّ ويرقدون ليلاً على السطوح وبناؤُها

(١) الرصافة معناهُ المتانة

من الحرف المعروف بالقرميد وفيها بقايا من دور الخلفاء وقصورهم التي منها قصر زبيدة بنت جعفر المتوكل العباسيّ زوج هرون الرشيد وكثيرٌ من الجوامع والحامات والحمامات وهي مجتمع للقواطن وبها يشتغل السخيان والسكاكين مع الجودة وتصطنع اقمشة القطن والحرير ايضاً

مدن اخرى . ولما تولّى الخلافة هرون الرشيد المشار اليهِ أمر بتجديد مدينتي أدنة وطرسوس فاصلحتا وأُعيد عمارها وشرع ببناء مدينة القاطون ايضاً لكن لم يتمها فخربت ولما تولّى الخلافة ابنهُ المعتصم بالله شرع في تجديدها وبناها في سنة ٢٢٠ للهجرة (سنة ٨٣٥ م) وسماها سرَّ من رأى فرخّمها الناس سامرّا وجعلها دارًا للخلافة واستخف ببغداد الى ان تولّى الخلافة ابنهُ الواثق فانتقل منها الى بغداد وردَّ اليهـا كرسي الخلافة فخربت سامرا وهي الآن خراب ليس فيها غير القليل من البناء العامر

هذا ما كان من امر المدن وكراسي الخلافة التي كان اسسها العرب بالمشرق واما ما كان من ذلك بالمغرب فيلزم ان تمهد لهُ اولاً طريقًا لايضاح اسباب قيام باقي الخلافات العربية ودولها الثانوية التي استبدَّت باحكامها وانشأتها هناك

الخلافة الاموية بالاندلس

لا يخفى انهُ بعد انقراض دولة الامويين من بلاد المشرق باستيلاء العباسيين على منصب الخلافة وتقررها على السفاح اول ملوك هذه العائلة في سنة ١٣٢ للهجرة (سنة ٧٤٩ م) اخذ هذا الخليفة ومن تولى بعدهُ من عائلتهِ المتقدّم ذكرها في استئصال الامويين وابادتهم قتلاً وتشريدًا انتقامًا لاهل البيت من الطالبيين وما فعلوهُ بهم منذ قتل عليّ بن ابي طالب الى آخر مدّة خلافتهم فهرب منهم رجل يقال لهُ عبد الرحمن الاول الملقب بالداخل لكونهِ اول من دخل بلاد الاندلس وامتلكها على ما يأتي وهو ابن معاوية الاموي واسس فيها خلافة ثانية سنة ١٣٩ للهجرة (سنة ٧٥٦) لكنهُ لم يلقب نفسهُ بامير المؤمنين

لكونه كان بايع الخلافة بمقرّ الاسلام ومنشإ العرب بل كان يُلقَّبُ بالامير وعليه جرى بنوهُ من بعدهِ حتى كان عبد الرحمن الناصر الثامن من هولاء الامراء فتلقّب بامير المؤمنين وتوارث هذا اللقب بنوهُ من بعدهِ

قال بعض مؤلفي الافرنج ان العرب يسمّون جميع بلاد سبانيا بلاد الاندلس باسم اقليم من اقاليمها وهو اقليم الاندلس . وسبب ذلك ان هذا الاقليم هو اول ما عرفوهُ وفتحوهُ من بلاد سبانيا ويسمّونها ايضاً جزيرة الاندلس لانهم لا يفرقون بين الجزيرة وشبه الجزيرة مع انهــا شبه جزيرة ويقال ايضاً بجزيرة لا جزيرة منفصلة عن البرّ وربما شملهـا عندهم ايضاً لفظ المغرب لانهم يقولون للاندلسي مغربيّاً كما يقولون لمن كان من بلاد افريقية مغربيّاً ايضاً

وكان منذ استولى عبد الرحمن الداخل المذكور على تلك البلاد انقطعت العلاقة والمواصلة التي كانت بين العرب المتوطنين بالمغرب وبين اهل المركز الذين هم العرب المستولون على بلاد المشرق حتى ان ملوك بني أُميَّة المشار اليهم خلفاء هذا الامير منعوا اهل دولتهم من السفر لفريضة الحج التي هي احدى شعائر الدين الاسلامي كما فعل ملوك اسرائيل (امل ص ١٢ :٢٦-٣٣) فلم يحجّ في ايام حكومتهم احدٌ من بلادهم ودام ذلك الى ان انقرضوا من هناك بملوك الطوائف سنة ٤٢٢ للهجرة (سنة ١٠٣٠ م)

مدينة قرطبة . ولما بويع عبد الرحمن المذكور بمدينة قرطبة وصارت هذه المدينة كرسيّاً لملكتهِ بنى فيها قصراً ومسجداً أنفق عليها على ما قيل ثمانين الف دينار ومات قبل اتمامها

ثم لما استعمل الملك الناصر بعدهُ صارت هذه المدينة مركزاً للعلوم ايضاً نظير مدينة بغداد كما يتضح ذلك ما يأتي في محلّهِ وصرف نظرهُ الى تشييد المباني والقصور وكان جدّهُ الامير محمد وابوهُ عبد الرحمن احتفلوا في ذلك وبنوا قصورهم على أكمل الاتقان والضخامة وكان منها المجلس الزاهر والبهو [1] والكامل

(١) البهو الرواق امام البيت والواسع من الارض وابهاء الحسن وفطنة بهو ايضاً

والقصر المنيف فيي هو الى جانب الزاهر قصرهُ العظيم وسمّاهُ الروضة وجلب الماء الى قصورهم من الجبل واستدعى عرفاء المهندسين والبنائين من كل قطرٍ فوفدوا عليهِ حتى من بغداد والقسطنطينية ثم اخذ في بناء المتنزهات فاتخذ مياه الناعورة خارج القصور وساق لها الماء من اعلى الجبل على بعد المسافة وجرّها في اقنية غريبة الصنعة عدّها ابن خلدون المغربي بجملة الابنية العظيمة والآثار الباهرة التي تحتاج في عملها الى بذل الاموال وتكاتف الرجال قال المقري في كتاب نفح الطيب وكمّل الناصر بنيان القناة الغريبة الصنعة التي اجراها وجرى فيها الماء العذب من جبل قرطبة في المناهر المهندسة وعلى الحنايا المعقودة يجري ماؤُها بتدبيرٍ عجيب وصنعة محكمة من جبل قرطبة الى قصر الناعورة غربي قرطبة ويصبُّ في بركةٍ عظيمة عليها اسدٌ عظيم الصورة بديع الصنعة شديد الروعة لم يُشاهد ابهى منهُ في ما صوّر الملوك في غابر الدهر مطلي بذهب ابريز وعيناهُ جوهرتان لهما وبيص[1] شديد يجوز هذا الماء الى عجز هذا الاسد فيمجّهُ[2] في تلك البركة من فيهِ فيبهر الناظر بحسنهِ وروعة منظرهِ وثجاجة[3] صبّهِ فتسقى من مجاجهِ جنّات هذا القصر على سعتها ويستفيض على ساحاتهِ وجنّاتهِ ويمدُّ النهر الاعظم بما فضل منهُ فكانت هذه القناة وبركتها والتمثال الذي يصبُّ فيها من اعظم آثار الملوك في غابر الدهر لبعد مسافتها واختلاف مسالكها وفخامة بنيانها وسموّ ابراجها التي يُرقَى الماء منها ويتصوّب من اعاليها . ثم امر الناصر ايضاً بعمل الظلة على صحن الجامع بقرطبة وقاية للناس من حرّ الشمس

وقد ذُكر في بعض المؤَلفات الجغرافية ان هذه المدينة بلغ فيها عدد الجوامع ١٦٠٠ وكان بها ايضاً ٩٠٠ حمام و٨٠٤٥٥ حانوتاً و٢٦٣٣٠٠ بيت و١٠٠٠٠٠٠ من السكان ولم يزل بها بقايا دور الخلفاء التي مرّ ذكرها وقد قال فيها بعض علماء الاندلس

(١) الوبيص اللمع والبروق (٢) المجّ الرمي (٣) الثج السيلان

ومن الجبال المشهورة ايضاً جبل شلير الذي يقول فيه بعض المغاربة وقد مرَّ به فوجد ألم البرد

يحلُّ لنا ترك الصلاة بأرضهم وشربُ الحميّا وهي شيءٌ محرَّمُ
فرارًا الى نار الجحيم لأنها اخفُّ علينا من شلير وارحمُ

مدينة الزهراء . اختطّها الملك الناصر بعد ان اكمل ابنيةً بمدينة قرطبة التي تقدم ذكرها واتخذها منزلهُ وكرسيًا له وانشأ بهما من القصور والمباني والبساتين ما علا على مباني اجدادهِ واتخذ فيها مجالات للوحش فسيحة الفناء متباعدة السياج ومسارح للطيور مظللةً بالشباك واتخذ فيها دار الصناعة وآلات للسلاح وللحرب والحلى للزينة وغير ذلك من المهن . قال بعض المؤلفين كان الناصر كلفًا بعمارة الارض واقامة معالمها وانبساط مجاهلها واستجلابها من ابعد مقامها وتخليد الآثار الدالة على قوة الملك واستنام السلم والعدل في ايامهِ واتسع نطاق الحضارة وامتدَّ العمران وراجت سوق الزراعة والتجارة ففاضت على الاندلس ينابيع النعم واحدقت بها مجاري الثروة فكانت جبايتها ستة آلاف الف دينار وكان عدد مدنها ثمانين مدينة كبيرة وثلاث مئة مدينة صغيرة وعدد قراها ومزارعها اثني عشر الف قرية ومزرعة على ضفتي النهر الاكبر وقال ابن سعيد حسبما ذكرهُ الشقندي ان العمارة اتصلت في مباني قرطبة والزهراء والزاهرة بحيث انهُ كان يُمشى فيها لضوء السرج الممتدة عشرة اميال واشهر ما بناهُ الناصر مدينة الزهراء اعجوبة زمانها وفريدة هذه الايام لو بقيت

وكان السبب في بنائهِ هذه المدينة جارية كانت له تسمَّى الزهراء وكان يحبها حبًا شديدًا فطلبت منه ان يبني مدينةً باسمها تكون خاصةً لها فبنى اولاً قصر الزهراء الشهير الآتي ذكرهُ ثم بنى الزهراء حولهُ على بعد ما بين اربعة او خمسة اميال من قرطبة والى الشمال منها تحت جبل يسمَّى جبل العروس وقطع اشجار الجبل وغرسهُ تينًا ولوزًا ولم يكن منظرٌ احسن من منظر الزهراء ولاسيما في

والقصر المنيف فهو الى جانب الزاهر قصرهُ العظيم وسمّاهُ الروضة وجلب الماء الى قصورهم من الجبل واستدعى عرفاء المهندسين والبنائين من كل قطرٍ فوفدوا عليهِ حتى من بغداد والقسطنطينية ثم اخذ في بناء المتنزهات فاتخذ مياه الناعورة خارج القصور وساق لها الماء من اعلى الجبل على بعد المسافة وجرّها في اقنية غريبة الصنعة عدّها ابن خلدون المغربي بجملة الابنية العظيمة والآثار الباهرة التي تحتاج في عملها الى بذل الاموال وتكاثف الرجال قال المقري في كتاب نفح الطيب وكمّل الناصر بيان القناة الغريبة الصنعة التي اجراها وجرى فيها الماء العذب من جبل قرطبة في المناهر المهندسة وعلى الحنايا المعقودة يجري ماؤُها بتدبيرٍ عجيب وصنعة محكمة من جبل قرطبة الى قصر الناعورة غربي قرطبة ويصبُّ في بركةٍ عظيمة عليها اسدٌ عظيم الصورة بديع الصنعة شديد الروعة لم يُشاهد ابهى منهُ في ما صوّر الملوك في غابر الدهر مطلي بذهب ابريز وعيناهُ جوهرتان لهما وبيص[1] شديد يجوز هذا الماء الى عجز هذا الاسد فيمجّهُ[2] في تلك البركة من فيهِ فيبهر الناظر بحسنهِ وروعة منظرهِ وثجاجته[3] فتسقي من مجاجهِ جنّات هذا القصر على سعتها ويستفيض على ساحاتهِ وجنّاتهِ ويمدُّ النهر الاعظم بما فضل منهُ فكانت هذه القناة وبركتها والتمثال الذي يصبُّ فيها من اعظم آثار الملوك في غابر الدهر لبعد مسافتها واختلاف مسالكها وفخامة بنيانها وسموّ ابراجها التي يُرقَى الماء منها ويتصوّب من اعاليها . ثم امر الناصر ايضاً بعمل الظلة على صحن الجامع بقرطبة وقاية للناس من حرّ الشمس

وقد ذُكر في بعض المؤلفات الجغرافية ان هذه المدينة بلغ فيها عدد الجوامع ١٦٠٠ وكان بها ايضاً ٩٠٠ حمام و٨٠٤٥٥ حانوتاً و٢٦٣٣٠٠ بيت و١٠٠٠٠٠٠ من السكان ولم يزل بها بقايا دور الخلفاء التي مرّ ذكرها وقد قال فيها بعض علماء الاندلس

(١) الومض اللميع والبريق (٢) المج الرمي (٣) الثج السيلان

ومن الجبال المشهورة ايضاً جبل شلير الذي يقول فيهِ بعض المغاربة وقد مرّ به فوجد ألم البرد

يحلُّ لنا ترك الصلاة بارضهم وشربُ الحميّا وهي شيءٌ محرَّمُ
فرارًا الى نار الجحيم لأنّها اخفُّ علينا من شلير وارحمُ

مدينة الزهراء. احتفلها الملك الناصر بعد ان اكمل ابنيته بمدينة غرناطة التي تقدم ذكرها واتخذها منزلهُ وكرسيًا لهُ وانشأ بها من القصور والمباني والبساتين ما علا على مباني اجداده واتخذ فيها محالاتٍ للوحش فسيحة الفناء متباعدة السياج ومسارح للطيور مظللة بالشباك واتخذ فيها دار الصناعة وآلات للسلاح والحرب والحلى للزينة وغير ذلك من المهن. قال بعض المؤلفين كان الناصر كلفًا بعمارة الارض واقامة معالمها وانباط مياهها واستجلابها من ابعد مقامها وتخليد الآثار الدالة على قوة الملك واستقام السلم والعدل في ايامهِ واتسع نطاق الحضارة وامتدَّ العمران وراجت سوق الزراعة والتجارة ففاضت على الاندلس ينابيع النعم واحدقت بها مجاري الثروة فكانت جبايتها ستة آلاف الف دينار وكان عدد مدنها ثمانين مدينة كبيرة وثلاث مئة مدينة صغيرة وعدد قراها ومزارعها اثني عشر الف قرية ومزرعة على ضفتي النهر الاكبر وقال ابن سعيد حسبما ذكرهُ الشقندي ان العمارة اتصلت في مباني قرطبة والزهراء والزاهرة بحيث انه كان يُمشى فيها لضوء السرج الممتدة عشرة اميال واشهر ما بناهُ الناصر مدينة الزهراء اعجوبة زمانها وفريدة هذه الايام لو بقيت

وكان السبب في بنائهِ هذه المدينة جارية كانت له تسمَّى الزهراء وكان يحبها حبًا شديدًا فطلبت منهُ ان يبني مدينةً باسمها تكون خاصةً لها فبنى اولاً قصر الزهراء الشهير الآتي ذكرهُ ثم بنى الزهراء حولهُ على بعد ما بين اربعة او خمسة اميال من قرطبة والى الشمال منها تحت جبل يسمَّى جبل العروس وقطع اشجار الجبل وغرسهُ تينًا ولوزًا ولم يكن منظرٌ احسن من منظر الزهراء ولاسيما في

زمن الازهار ونفح الاشجار وكان طولها على قول ابن خلكان الفين وسبع مئة ذراع من الشرق للغرب وعرضها الف وخمس مئة ذراع من الشمال الى الجنوب ونصب فيها ثلاث مئة سارية من الرخام النفيس وجعل بها اكثر من خمسة عشر الف باب ملبسة بالحديد والنحاس المموّه وقال ابن حيّان نقلاً عن ابن دجون الفقيه عن مسلمة بن عبد الله العريف المهندس العربي الشهير كان مبلغ ما ينفق في الزهراء كل يوم الفًا واربع مئة نعل وقيل اكثر منها اربع مئة زوامل الناصر لدين الله ومن دواب الاكرية الراتبة لخدمة الف نعل وكان يرد الزهراء من الجير والجصّ في كل ثالث من الايام الف ومئة حمل وقدّر بعضهم النفقة فيها كل عام ثلاث مئة الف دينار مدّة خمسة وعشرين عامًا وفي بناؤها اربعين عامًا. ما رخامها ورخام السواري فبعث عرفاء بانيه الى سائر الآفاق يجلبونه له فجلبوا الابيض والمجزّع من الاندلس والوردي والاخضر من افريقية من اسفاقس وقرطاجنة ونصب بها حوضًا منقوشًا مذهبًا غريب الشكل عالي القيمة جلبه اليه احمد اليوناني من القسطنطينية وحوضًا صغيرًا اخضر منقوشًا بتماثيل الانسان جلبه من الشام وقالوا ان لا قيمة له لفرط غرابته وجماله قال المقري ونصبه الناصر في بيت المنام في مجلسه الشرقي المعروف بالمؤنس وجعل عليه اثني عشر تمثالاً من الذهب الاحمر مرصعة بالدرّ النفيس العالي ما عُمل بدار الصناعة بقرطبة صورة اسد الى جانبه غزال الى جانبه تمساح وفي ما يقابله ثعبان وعقاب وفيل وفي الجنبتين حمامة وشاهين وطاوس ودجاجة وديك وحدأة ونسر وكل ذلك من ذهب مرصع بالجوهر النفيس ويخرج الماء من افواهها اه. وصنع في الزهراء بحيرة وضع فيها الحيتان انواعًا انواعًا وكان يخبز لها كل يوم ثمان مئة خبزة وقيل اثنا عشر الف خبزة ويُنقع لها من الحمّص الاسود ستة اقفزة

واما قصر الزهراء فكان متناهيًا في الجلالة والفخامة والرواة يقولون لم يدخل اليه احدٌ من سائر البلاد النائية والنحل المختلفة الّا وكلهم قطع انه لم يرَ له شبهًا بل لم يسمع به بل لم يتوهم كون مثله حتى انه كان من اعجب ما يؤمله

الناظر الى الاندلس في تلك العصور النظر اليهِ والتحدث عنهُ وكانت مجالسهُ مبلطة بافخر انواع الرخام وسقوفها مغشاةً بالذهب الابريز وابوابها من خشب الارز منقوشاً نقشاً يحير الالباب وعمدها غاية في الاحكام والاتقان كانها أُفرغت في قوالب وكان بها برك عظيمة يجري منها الماء الصافي الى ابدان تماثيل غريبة الشكل والصنعة تكاد الحيلة تعجز عن تصورها فكيف يجد القلم سبيلاً الى وصفها

واشرف هذه المجالس واجلها المجلس الذي كان يسمّى قصر الخلافة وصفهُ المقريزي فقال وكان سمكهُ (اي سقفهُ) من الذهب والرخام الغليظ الصافي لونهُ المتلونة اجناسهُ وكانت حيطان هذا المجلس مثل ذلك وجُعلت في وسطهِ اليتيمة التي أتحف الناصر بها ليون ملك القسطنطينية وكانت قرامد هذا القصر من الذهب والفضة وفي وسطهِ صهريج عظيم مملوءٌ بالزئبق وكان في كل جانب من هذا المجلس ثمانية ابواب قد انعقدت على حنايا من العاج والابنوس المرصع بالذهب واصناف الجواهر قامت على سوارٍ من الرخام الملوّن والبلور الصافي وكانت الشمس تدخل على تلك الابواب فيضرب شعاعها في صدر المجلس وحيطانهِ فيصير من ذلك نورٌ ياخذ الابصار وكان الناصر اذا اراد ان يفزع احداً من اهل مجلسهِ اومأ الى احد صقالبتهِ فيحرّك ذلك الزئبق فيظهر في المجلس كلمعان البرق من النور وياخذ بمجامع القلوب حتى يخيل لكل من في المجلس ان المحل قد طار بهم ما دام الزئبق يتحرك

ولنكتفِ بما ذُكر اذ لا يمكن استيفاء وصف كل ما كان بالاندلس من الاثاث النفيس والمصنوعات الفاخرة والزخارف الزاهرة والنقوش الباهرة والمساجد المحكمة الشامخة والقصور المزوّقة الباذخة والصور والتماثيل والمحوكات والحياض والنواعير والدوارات الى غير ذلك من غرائبها

وكما ظهر كثيرون من اهل الادب اصحاب مؤلفاتٍ شهيرة في بلاد الخلافة الشرقية كذلك ظهر كثيرون من اهالي الاندلس لا يحصون عداً من المؤلفين العظام واكابر الادباء والشعراء منهم من مدينة قرطبة ابو الحسن القرطبي ومن

غرناطة يوسف بن العرناطي صاحب ايجاز الطب وعبد المنعم بن محمد بن عرس الغرناطي صاحب احكام القرآن ومن اشبيلية احمد بن عمر الاشبيلي صاحب الاستيعاب في فقه مالك المتوفي سنة ٤٠١ للهجرة (سنة ١٠١٠ م) وابن عصفور وابن فرح وابن زيدون صاحب الرسالة الزيدونية الشهيرة والشيخ علي الاشبيلي صاحب الديوان المشهور في الغزل ومن بلنسية ابو حفص عمر البلنسي صاحب شرح الاربعين المختارة وابن الجوزي صاحب طبقات الحديث واسماعيل بن ابرهيم البلنسي شارح كتاب اقتباس الانوار وغيرهم مما ينسبون الى الاندلس كالشيخ محمد بن مالك الجياني صاحب الالفية المشهورة في علم النحو والتصريف والشيخ ابي حيّان الاندلسي صاحب اللمحة البدرية في النحو وابن هاني الاندلسي الشهير بمتنبي المغرب تشبيهاً له بابي الطيب احمد المتنبي الشاعر المشهور وفي ابن هاني المذكور يقول بعضهم

ان تكن زاهدًا فكن كأُويسٍ — او تكن شاعرًا فكن كابن هاني

انّ من يدّعي بما ليس فيهِ — كذّبتهُ شواهد الامتحانِ

واليهم يُنسب اختراع نظم الموشحات التي منها السبع الشهيرات واصحابها هم ابن خلوف المغربي صاحب الديوان المشهور والسلطان ابو العباس المنصور وابن لسان الدين الخطيب وابرهيم بن سهل الاشبيلي وابو الحسن بن حودي الاندلسي وابو القاسم الاشبيلي وسوف يأتي الكلام على محصولات هذه البلاد وتجارتها

الخلافة الفاطمية بافريقية

هي خلافةٌ شيعيةٌ نشأت لآل ابي طالب بافريقية في القسم المعروف الآن ببلاد المغرب والصحراء حيثما بنى الصوريون قديمًا مدينة قرطاجنة التي بالقرب من موقعها الآن مدينة تونس ويقسمهُ الجغرافيون الآن الى سبعة اقسام وهي .

برقة المسماة عند اليونانيين قديمًا بنطابولس اي المدن الخمس ولما افتتحها العرب في صدر الاسلام سموها بُرقة لكثرة حجارها المختلطة بالرمل والستة الباقية في فزّان وطرابلس وتونس والجزائر التي استولت عليها الفرنسوية في النصف الاول من هذا القرن ومراكش وفاس

وسبب ذلك على ما يتخلص من كلام ابن خلدون وغيره من المؤرخين ان بني العباس كانوا من فرقةٍ من الشيعة تُعرَف بالكيسانية تقول بامامة محمد بن الحنفية بعد عليّ ابيه ثم الى ابنه ابي هشام عبد الله فلما شرع السفاح في قتال الامويين ليسلب الملك من ايديهم كان يظهر منه انه يريد بذلك الانتقام منهم وارجاع الامر لبني عليٍّ على ما سبقت الاشارة اليه لكن لما ظفر بقصدهِ وقتل مروان بن محمد بن مروان آخر خلفائهم استولى على كرسي الخلافة وخطب خطبةً في الناس قال في آخرها ان هذا الامر يبقى في يدهِ وينتقل الى اولادهِ واحفادهِ من بعدهِ يتداولونه الواحد بعد الآخر الى ان يسلّمه منهم المهدي وكانت دعاتهُ في البلاد كابي مسلم امير خراسان وغيرهِ يؤيدون هذا القول ويذيعونه بين الناس بالاحاديث الواردة في حق المهدي وهي احاديث ذات تأويلاتٍ متنوعة على ما ذكرهُ الفاضل العلامة خير الله افندي المؤرخ العثماني ومن جملتها لا مهديّ الاّ عيسى

وكانت شيعة بني العباس من اهل خراسان المذكورة يسمّون الراوندية ويعتقدون بان احقّ الناس بالامامة بعد صاحب الشريعة الاسلامية هو عمّهُ العباس جدّ العباسيين فانه وارثهُ لكونهِ كان حيًّا حين وفاتهِ ويستندون في ذلك على الآية واولوا الارحام بعضهم اولى ببعضٍ وان الناس منعوهُ ما هو حقّهُ وظلموهُ الى ان ردّهُ الله الى ولدهِ ويتبرأون من ابي بكر وعمر وعثمان ويجيزون بيعة عليٍّ لان العباس قال له يا ابن اخي هلمّ ابايعك فلا يختلف عليك اثنان

اما العباسيون انفسهم فكانوا يدّعون على ما ذكرهُ ابن خلدون المغربي

بان الخلافة انتقلت من ابي هشام بن محمد الذي مرّ ذكرهُ بوصيتهِ الى محمد بن علي بن عبد الله بن عباس ثم بعدهُ الى ابنهِ ابرهيم الامام بن محمد ثم بعدهُ الى اخيهِ ابي العباس السفاح المشار اليهِ وامهُ عبد الله بن الحارثية

لكن باقي الفرق العلوية كانوا ينكرون عليهم خروج الامر عن سلسلة عليّ لا بوصاية ابي هشام المذكور ولا بغيرها ولا زالوا يقيمون حججهم حتى ان المأمون سابع الخلفاء العباسيين المذكورين كان مال الى رأيهم واوصى بالخلافة من بعدهِ لرجلٍ منهم يقال لهُ علي بن موسى الرضا على ما ذكر ذلك في الفصل الرابع من المقالة الرابعة من هذا الكتاب وزوّج ابنتهُ ام الفضل محمد بن علي المذكور واولادهُ علي هذا في حياة الموصي الذي هو المأمون المشار اليهِ لكان خرج الامر عن بني العباس وعاد الى العلويين ولم تجدِ نفعًا اجتهادات عصابة بني العباس في مقاومة المأمون وخلعهِ من الخلافة وتولية عمهِ ابرهيم بن المهدي لانهُ بدّد جمعهُ اخيرًا وظفر بهِ وعفى عن قتلهِ لكن لما أسعف العباسيين حسن حظهم وقضي بموت علي المذكور عدل المأمون عن لون الخضرة الذي كان تظاهر بلبسهِ ورجع الى لبس السواد شعار العباسيين وكان قد نزعهُ فردَّ الامر الى بني العباس وسوف يأتي ذكر السبب الذي لاجلهِ اختار العباسيون لبس السواد حتى انهم جعلوا راياتهم ايضًا سودًا وكان ذلك في ايام ابي جعفر المنصور ثاني خليفةٍ منهم (راجع الفصل الاول من المقالة الثامنة)

وكان في الوقت الذي نال فيهِ السفاح العباسي حظ الخلافة كان اغلب الجيش الاسلامي يرى ان هذا المسند العظيم هو حقُّ عليٍّ ونسلهِ وبصرف النظر عن الغلوّ الذي أحدثهُ بعض فرق شيعتهِ فيهِ ولذلك كي ان هذا الخليفة اراد ان يهد سلطنة ويقوي شوكة تلك الحطبة التي اشرنا اليها وفي ان الامر لا يخرج عن عائلتهِ الاّ ليد المهدي تحولت كذلك عزائم اخيهِ ابي جعفر المنصور المشار اليهِ بعد ان تولّى الخلافة بعدهُ الى اذلالِ العلويين وابادة كل من كانت تُحط فيهِ الكفاءة لمزاحمتهِ على منصبهِ وذلك لما ان ظهرت في ايامهِ ادعاءة عصر لمحمد

ابن عبد الله بن الحسن بن الحسين بن علي بن ابي طالب ولاخيهِ وكان الداعي علي بن محمد المشار اليهِ واتبع امر ابي جعفر المذكور في ذلك خلفاؤهُ من بعدهِ الى ان قام بالخلافة محمد المستنصر العباسي فكتب الى عاملهِ بمصر ان لا يقبل علويٌ ضيعةً ولا يركب فرساً ولا يسافر من الفسطاط الى طرف من اطرافها وان يمنعوا من اتخاذ العبيد الا العبد الواحد ومن كان بينهُ وبين احد الطالبين خصومةٌ من سائر الناس قُبل قول خصمهِ فيهِ ولم يُطالب ببينةٍ وكتب الى العمّال بذلك وكان كل من استغاث بالحسن والحسين يزيدون في قصاصهِ وتعذيبهِ

ثم لما تولّى الخلافة المعتضد بالله العباسي كتب الى ابن مدرار عاملهِ على سنة من بلاد المغرب ان يقبض على رجل من ذرية الحسن بن علي بن ابي طالب يقال لهُ عُبَيد الله فأُخِذَ وحُبِس الى ان اخرجهُ رجلٌ يقال لهُ ابو عبد الله الشيعي من محبسهِ بدعوى انهُ هذا هو المهدي المشار اليهِ في ما مرّ ومن ثمّ تمكّن هذا الاسير المنوق بسيف ابي عبد الله المذكور بابي محمد وتلقب بالمهدي وتسمّة مسلمو المغرب فاطمية فأسس خلافةً جديدةً للعلويين في بلاد افريقية الماز ذكرها كان هو اول خلفائها وذلك في سنة ٢٩٧ للهجرة (سنة ٩٠٩ م)

وجعل هذا الخليفة دار اقامتهِ اولاً مدينة يقال لها رقّادة وهي بالقرب من مدينة مستحدثة يقال لها القيروان بنيت في صدر الاسلام وكانت يومئذٍ قاعدة تلك البلاد وحيث كان يدّعي الالوهية قال في ذلك بعض تابعيهِ

حلَّ برقادة المسيحُ حلَّ بها آدمٌ ونوحُ
حلَّ بها الله ذو المعالي وما سوى ذاك فهو ريحُ

وقوي امر هذه الدولة بالمغرب وافريقية وجهروا بمذهب الاسماعيلية وشملت دعاويهم في ارض مصر وامتلكوها في سنة ٣٥٨ للهجرة (سنة ٩٦٨ م) ولما لم تستطع الخلفاء العباسيون ان يقاوموها بقوّة الاسلحة عمدوا الى الاستعانة عليها

بالطعن على نسب عبد الله المذكور فقالوا ان جدهُ كان اما يهوديًا او مجوسيًا وساعدهم على ذلك بعض العلماء بانشائهِ لكنهم لم يأتوا بطائل فقد حامى عنهُ علماء آخرون ودامت سلطة ذريتهِ التي كان منها الحاكم بامر الله صاحب ديانة الدروز التي انتشرت في ايامهِ ببلاد مصر والشام الى ان انقرضت دولتهم بدولة الاكراد الايوبية التي انشأها في مصر السلطان صلاح الدين يوسف بن ايوب الملقب بالناصر قبل انقراض الخلافة العباسية من بغداد بنحو تسعين سنة

المهدية . وكان اول مشروعات المهدي المذكور هو بناء مدينةٍ في القيروان سماها المهدية نسبةً لهُ وذلك بعد ان كافأ ابا عبد الله الشيعيّ واخاهُ بالقتل كما فعل قبلهُ السفاح العباسي ايضًا بابي مسلم الخراساني واختار لهذه المدينة جزيرةً متصلةً بالبر كصورة كفٍّ اتصلت بزندٍ وجعلها دار ملكهِ وادار بها سورًا محكمًا وجعل لها ابوابًا من الحديد وزن كل مصراعٍ مئة قنطار وكان شروعهُ في بنائها سنة ٣٠٣ للهجرة (سنة ٩١٥ م) وانشأ بالقرب منها في الجبل دارًا لانشاء السفن تسعُ مئة سفين ونحت في ارضها اهراء للطعام ومصانع للماء وبنى فيها القصور والدور ودوَّن الدواوين وجبى الاموال وبعث العمَّال الى البلاد

المسيلة او المحمدية . مدينةٌ بناها الخليفة المشار اليهِ في ارض بني كملان من هوارة وكان اسمها المسيلة فسماها المحمديةَ وحصّنها وجعلها مخزنًا للاقوات

القاهرة . ثم لما استولى حفيدهُ المعزّ لدين الله على بلاد مصر بعد موت كافور الاخشيدي شرع وزيرهُ جوهر القائد الذي كان قائد جيوشهِ في ذلك الفتوح ببناء قاهرة مصر واسس مدرستها الكبرى الشهيرة بالجامع الازهر فنقل اليها المعزّ المذكور ما كان في قصرهِ بالمهدية من الاموال والامتعة وسار اليها في سنة ٣٦٢ للهجرة (سنة ٩٧٢ م) بعد الشروع في بنائها باربع سنوات واتخذها منزلًا لهُ ولخلفائهِ الى آخر دولتهم ولما تولى الخلافة الفائز بنصر الله عيسى بنى فيها وزيرهُ الصالح بن رزيك المشهد الحسيني ثم لما تولّى سلطنتها الملك الناصر

صلاح الدين يوسف بن ايوب تحت الراية العباسية بنى فيها قلعة الجبل والبئر المشهورة بها المعروفة ببئر يوسف وعمقها ثلاث مئة قدم ومع ذلك يمكن النزول فيها الى العمق ولو لمن نزل راكبًا على حمارٍ لما فيها من الدرج الدوار

سلطنة مراكش

وكان بعد ان انقرضت دولة الفاطميين على ما ذكرنا في ما مرَّ استقلت عمّال البلاد في اقسام هذه المملكة فكانت مصر نصيبًا للسلطان صلاح الدين الايوبي المارّ ذكرهُ وكان من اهل السنَّة فتسلطنَ عليها تحت راية الخلافة العباسية وكذلك بلاد افريقية التي كانت منشأً لتلك الخلافة استقلت بها عمالها على ما تقدم وهي الآن تحت سيادة الدولة العلية العثمانية وتسمّى بالوجاقات ولم يفقد منها الاَّ الجزائر التي استولى عليها الفرنسويون على ما تقدم

واما بلاد مراكش التي هي احدى الاقسام المذكورة فان الافرنج تعتبرها والحالة هذه امبراطورية يعني ان صاحبها الذي استقل بها ملك ملوكٍ لكن العرب تطلق عليها اسم سلطنة المغرب ونسبة سكان هذا القسم للعرب على ما ذكرهُ ابن خلدون وغيرهُ من المؤرخين كنسبة سكان باقي الاقسام المذكورة في افريقية فان اصلهم من البربر سكان القفار الكائنة وراء صحاري الرمال الممتدة في تلك الاراضي ثم تدينوا بدين الاسلام بعد استيلاء العرب على بلاد الاندلس واختلطوا بهم اختلاطًا كليًا حتى انهم لم يعودوا يمتازون عنهم في شيء اصلاً وكانت الرياسة فيهم لقبيلةٍ يقال لها لمتونة وكانوا يغيرون على بلاد السودان المجاورة لهم منذ استيلاء عبد الرحمن الداخل الاموي على بلاد الاندلس واستولوا على عدة مواضع منهـــا الى ان صار لهم مملكة واسعة وتعاظم امرهم على عهد عبد الرحمن الناصر بالاندلس وعُبيد الله المهدي بافريقية

وكانت خرجت طائفةٌ من قبيلة لمتونة المذكورة في اثناء تلك الغارات

هاجمة على جماعة من اعدائها فجالها العدوّ الى بيوتها ولم يكن باقيًا بها الّا المشائخ والصبيان فامروا النساء ان تلبسن ثياب الرجال وتتلثمن وتحملن السلاح ففعلنَ ذلك وطردنَ بالعدوّ فمن ثمّ جعلوا اللثامَ سنّةً يلازمونهُ فلا يُعرف الشيخ من الشاب فسُمّوا من ذلك الوقت بالملثمين ولما ان استفحل ملكهم في عصر الخليفتين المشار اليهما قام بالملك عليهم رجل من امرائهم يقال لهُ يوسف بن تاشفين اللمتوني وسمّى نفسهُ امير المسلمين

مراكش . فاختط هذا الامير مدينةً في بلاد افريقية سنة ٤٥٤ للهجرة (سنة ١٠٦٢ م) وهو انهُ ادار سورًا على مسجدٍ وقريةٍ صغيرة ليجعلها محرزًا لاموالهِ وسلاحهِ وكانت تلك القرية في غابة من الشجر تاوي اليها اللصوص قبل ذلك فكان سكان تلك البلاد عند ما يمرون بها يقولون بعضهم الى بعض مرّاكش ومعنى ذلك في لغتهم امشِ مسرعًا فصار هذا اسمًا لذلك الموضع وبهِ سُمّيت تلك المدينة ثم لما تولّى المملكة بعده ابنهُ علي تمّم اسوارها واكمل تشييدها في سنة ٥٢٦ للهجرة (سنة ١١٣١م)

واستمرّت هذه المدينة كرسي مملكةٍ للملثمين الى ان زالت دولتهم وقام بعدها حكامٌ غيرهم ثم استقر حالها على الملوك المتسلطين عليها الآن. قال بعض المؤلفين ان هذه البلاد كانت تابعة لخلفاء العباسيين في القديم ثم أُضيفت الى الدولة الفاطمية ثم استقلت بنفسها ومنذ نحو ثلاث مئة سنة اعني في اثناء القرن العاشر للهجرة والسادس عشر للميلاد تولّى عليها احد شرفاء البلاد ولم يزل الملك بيد نسلهِ الى الآن ومدينة مراكش المذكورة قصبة لمملكتهم واهلها نحو مئتين وسبعين الف نفس والديانة المحكمة في الدين الاسلامي ويوجد بينهم كثيرٌ من اليهود

مغادور . وفي سنة ١١٧٤ للهجرة (سنة ١٧٦٠ م) عمروا مدينةً سموها مغادور وهي فرضةٌ عظيمة

مكناسة . ويلي مدينة مراكش مدينة مكناسة ويقال لها مكناسة الزيتون

وهي على نهر فلفل يقيم بها سلاطين مراكش غالب اوقاتهم وفيها يقول بعض الشعراء

انظر الى مكناسة الزيتون بين الاباطح والجبال الجون
وكأن فلفل بينهن مهند يهتز بين تعطف وسكون

ويقال انه كان بالقرب من مدينة سبتة المحاذية لجبل طارق منتزهات كثيرة اشهرها مكان يقال له بليونش بينه وبين سبتة جبل ممنوع وفي ذلك يقول بعضهم

بليونش جنة ولكن طريقها يقطع النياطا
كجنة الخلد لا يراها الا الذي جاوز الصراطا

وقد اشتهر في هذه البلاد بعد ان ازهرت الآداب والمعارف في مدينتي القيروان وتونس في عصر الخلفاء الفاطميين جماعة منهم ابو الحسن عليّ الودّاني نسبة الى مدينة تسمى ودّان وهو شاعر ومن قوله

من يشتري مني النهار بليلة لا فرق بين نجومها وصحابي

والشيخ الصفاقسي نسبة الى صفاقس وهو صاحب المصنفات في العروض والشيخ عفيف الدين التلمساني نسبة الى مدينة تلمسان وهو صاحب الديوان المشهور

وسوف يأتي الكلام على محصولات هذه البلاد وتجارتها

مساكن الوبر اي اهل البادية

واما عرب البادية الرحالة النزالة فكانوا يسكنون الخيام ويشعبون في نزولهم الاراضي الممطورة طلبًا لمراعي مواشيهم وكانوا قبل رحيلهم لا بدّ من ان يرسلوا رائدًا ليتفقد لهم مواقع المطر ومنابت الكلإ التي تصلح لنزولهم فيها ولما

كانوا لا يرتابون في ما يخبرهم به رائدهم لما ان النفع مشتركٌ بينهُ وبينهم ضربوا المثل بصدقهِ فقالوا لا يكذب الرائد اهلهُ

وكانوا يسمون الخيمة التي يسكنونها بستارةٍ تحتجب فيها النساء وهي عادةٌ قديمة جدًّا عند سكان الخيام[1] قال بعض المؤلفين حيث اقتضت غيرة العرب ان تكون مساكن النساء في ظهر الدار كانت المساكن التي في مقدَّم الدار للرجال وجعلوا البيت الذي يضرَب في مقدَّم البيوت منزلاً للغرباء فلا تكون فيهِ المخدرات ويسمّونهُ البَهو والذي يُضرَبُ للنساء في المؤخر يسمّونهُ الخدر قال معمر بن مثنى البصري لا يكون خدرًا الاَّ اذا كان خلفهُ امرأةٌ والاَّ فصلٌ

ومن انواع هذه البيوت ما يسمّونهُ بالسرادق وهو خيمةٌ من نسج القطن والفسطاط[2] وهو بيتٌ كبير من الشعر والخباء بيتٌ من الصوف قال الاصبهاني هو ما يكون على عمودين او ثلاثة والبجاد من الوبر والقشع من جلدٍ والسترة من طين يابس والخيمة من غزلٍ والقبة من اللبن والحظيرة من الشجر والطراف من الادم

وقال ابن خلدون وكان العرب لعهد الخلفاء الاولين من بني أُميَّة انما يسكنون في بيوتهم التي جرت عادتهم باتخاذها قبل الملك وهي خيامٌ من الوبر والصوف فكانت اسعارهم لغزواتهم وحروبهم بظعونهم وسائر حللهم واحيائهم من الاهل والولد كما هو شأن العرب لهذا العهد فلما نزلوا المدن والامصار وانتقلوا من سكنى الخيام الى سكنى القصور ومن ظهر الخفّ الى ظهر الحافر[3]

---

(1) انظر تك ص ٢٠٨

(2) الفُسطاط والفُسّاط والفستات والفسّاط وتكسر السرادق من الابنية ج فساطيط والفُسطاط بالضم مجتمع اهل الكورة وعلم لمصر القديمة وبعضهم يقول كل مدينة فِسطاط بالكسر

(3) يريد بذلك من الركوب على ظهر الابل الى الركوب على ظهر الخيل

اتخذوا للسكنى في اسفارهم الاخبية والفساطيط والفازات[1] من ثياب الكتان والصوف والقطن بجدل الكتان والقطن فيباهى بها في الاسفار وتنوّع منها الالوان ما بين كبير وصغير على نسبة الدولة في الثروة واليسار حتى ان السياج الذي يُضرب مستديرًا على فساطيط الامير وفازاته ويسمّى بلسان البربر من اهل المغرب افراك اختص به السلطان في ذلك القطر فلا يكون لغيره وصاروا يحتفلون في ذلك بابلغ مذاهب الزينة والاحتفال

وكان الملك في الجاهلية اذا ضرب على رجل قبة من ادم حمراء عُرف قدرهُ منه ومكانه عندهُ

وعندهم البيت اسمٌ لمسقف واحد له دهليزٌ واصلهُ من بيت الشعر او الصوف سمّي به لانه يبات فيه وقال الاصبهاني هو ما كان على ستة اعمدة الى تسعة وقيل ما كان من مدرٍ فهو بيتٌ ومن كرسفٍ فهو سرداقٌ ومن صوفٍ او وبرٍ فهو خباء ومن عيدان فهو خيمة ومن جلود فهو طرافٌ ومن حجارة فهو اقنيةٌ اما الجُرْموز فهو البيت الصغير والحوض الصغير والخُنّ البيت الصغير من الطين والحجرة الغرفة والحجلة كالقبة وهي موضع يزين بالثياب والاسرّة والستور للعروس او سترٌ للعروس في جوف البيت والمنزل اسمٌ لما يشتمل على بيوت وصحن مسقفٍ ومطبخ ويسكنهُ الرجل بعياله والدار اسمٌ لما اشتمل على بيوت ومنازل وصحن غير مسقفٍ والبيت يُجمع على ابيات وبيوت وجمع الجمع ابابيت وبيوتات وهذا الاخير يختص بالاشراف يقال هو من اهل البيوتات اي الشرف وهم اصحاب الحسب والنسب والجدل والأُطُم القصر والأُجم الحصن

وكل بناء عالٍ فهو صرحٌ وكل بناء مربع كعبةٌ وكل بناء مربع مسطح أُجم

(١) الفازة مظلة ذات عمودين ومنهُ قولهم ضرب الفازة بالمفازة يعني نصب المظلة المذكورة في المفازة

وكل بناء مرتفع وكل حصن مبني بحجارة وكل بيت مربع مسطح أُطُم وأُطْم
والبيوت المتقاربة أُصيصة والبيت المبني من حجر أَزَج أو أُزُج والبيت يبنى طولا
أَزَج والصغير من البيوت حِشّ اما الخزانة اي البيت الصغير توضع فيه
الامتعة فهي مَخدع من الخدع اي الاخفاء والعظيم من الابواب رِتاج ورحبة
المكان ساحته والدار الخاوية هي التي ليس بها ساكن وبئر نَزَح ليس فيها ماء

والوطن للناس واما المألف والمراح فهو للابل والاصطبل للدواب
والزريبة للغنم والعرين للاسد والوجار للذئب والضبع والحمل للارنب وفي
محيط المحيط الحجرة موضع الارانب ومنه اشتق اسم الخز للثوب باعتبار نعومته
كوبارها والمكو للارنب والثعلب والجُحْر للضبع والثعلب والكناس للوحش
والادحي للنعامة والافحوص للقطا والوكن للطير والقرية للنمل والنافقاء لليربوع
والخلية للنحل والجُحر للضب والحية وقيل الجحر كل مكان تحتفره الهوام والسباع
لانفسها جمعه جِحَرة واجحار واجحرة

اما البلدة فهي محلة لا سور لها فان كانت ذات سور فهي المدينة وكل
مدينة جامعة فسطاط والعظيم من المدن قصبة وقاعدة وعاصمة واما موضع
المخافة من فروج البلدان وما يلي دار الحرب فهو ثغر والصغير من القرى كَفْر
والعظيم من الحائط سور وكل بقعة ليس فيها بناء عرصة والواسع من كل شيء
رَحب والعظيم من الطُرق شارع ومَنْهَب والواضح منها خَيْدَب ومرصاد
ووسط الطريق ومعظمه مَنْهَج ومَحَجّة وجادّة والطريق الواسع مَهْيَع والطريق
المستقيم سبيل والطريق في الجبل شِعب والطريق في الاشجار مَخْرَف والطريق
الواسع بين جبلين فجّ والطريق الضيق زقاق والطريق المنفذ درب والطريق
غير النافذ الرَّدب والطرق المحدثة نُجُج والطريق يستقيم مرة ويعوج اخرى
مُحَوَّج والمحجة المكدودة بالحوافر الحَرْث وكل محلة دنت منازلها حارة وكل
محلة لا يسكنها اهل الاسلام عدية وربما عُبّر عنها بالخراب ايضا والمحجر ما
حول المدينة وباحة الدار ساحتها والجَنَل ساحة البيت

وطلال الديار هو عمد خيامها وحجارة نؤيها(١) وقيام اثافيهـا(٢) وتراكم كرسها(٣) ورسوم الديار آثارها من الارض من حجر نؤي(٤) او حجر وتد أخرج منها او رماد او بعر او ابوال او اثر لعب صبيان فاذا كانت اطلال الديار قائمة ورسومها دارسة فهي الدمن والأمحاج وهي التي تعفي الآثار وتدفنها

ويسمون فناء الدار العذرة لأن ما كانوا يطرحون فيها الغائط فكانوا يكنون بها عنه ثم كثر حتى سمي الغائط بعينه عذرة

اما معروف الدار فهي التنور وهو ما لا شرب فيه والمدعة والنير من محقرات متاع البيت وكذا الخاش ماش في امتعة لا خير فيها ناغنا والخباء والجناة او الجوازة وهو وعاء القدر او شيء لا توضع عليه من جلد او حصير ونحوه والحمال خرقة تنزل بها القدر عن الاثافي والحرش والسفاق سقط متاع البيت والخشب الجرة او الصحفة من الجرار او الخشبات الاربع توضع عليها الجرة ذات العروتين والكرامة غطاء الجرة والمحش والمحشة حديدة تحش بها النار اي تحرك والمحنع والمحضأ والمحضاء عود تحرك به النار والمحوش والمحتهة حديدة تحرك بها الجمر والثفال الاديم وحذف بسط فتوضع فوقه الرحى ثم يطحن باليد يسقط عليه الدقيق والثفل الحجر الاسفل من الرحى والمشة رحاة يشب بها البساط والخيش البسط والاكسية . والاريكة سرير في حجلة او كل ما يتكأ عليه من سرير ومنصة وفراش او سرير منجد مزين في قبة او بيت فاذا لم يكن فيه سرير فهو حجلة والأيصر حبل قصير يشد به اسفل الخباء الى وتد وكساء

(١) النؤي حاجز حول الخباء [illegible]

(٢) الاثافي حجارة يوضعون [illegible] في [illegible] الحجارة [illegible] وإذا كانوا في ذيل جبل وضعوا اثنتين و[illegible] فيكون الجبل [illegible] في ولذلك يقولون في المثل [illegible] الاثافي [illegible]

(٣) الكرس بالكسر الابوال والابعار [illegible] بعضها بعضا [illegible] على [illegible] من الناس [illegible] والاصل [illegible] كرس

يُحَشُّ فيهِ والارائضُ بساط ضخم من صوف او وبر والأهَرَة متاع البيت والقَفَط قمش البيت والمثرة ايضاً ومنهُ القرد وهو الكثير من اثاث البيت وما لا يحمل من الامتعة عند الرحيل والنَّسيُّ ما سقط من منازل المرتحلين من رذال امتعتهم واحاش البيت قمشه ورذل متاعهِ والماعون ما يستعار من اثاث يوجد في البيوت

الفصل الثاني

في ملابس العرب وحليها

يقال ان ملابس العرب حتى الآن لم يتغير نموذجها عما كانت عليهِ في الزمان القديم وفي الاعصر الصاعدة جداً لجهة الاولية وهي طويلة كملابس الاتراك والعجم وقد يلبسون ايضاً سراويل واسعة ويشطفون بحزام من الجلد وغيرهِ خمرٌ ونحوهُ ويغطون رؤوسهم بالكوافي والعامة تقول الكفافي وهي اشبه بمنديل كبير منسوج من الصوف الحشنيّ وغيرهِ ويلوون عليها عصائب من غزل الصوف المبروم ايضاً وتُسمّى بالعقالات واحدها عقال وكثيرٌ منهم من يلبس الطواقي واحدها طاقية وهي العراقية وفوقها الطرابيش المعروفة ثم يضعون فوقها الكوافي والعقالات المذكورة او يتعممون عليها بالعمائم وتسمّى العَصْب ايضاً عوضاً عن العقالات

والعمائم تيجان العرب وعُمّم فلان على المجهول سُوِّد كما قيل في العجم تُوِّج وهي انواعٌ منها نوعٌ يقال لهُ الحونكية نسبة الى رجل يقال لهُ حونك[1] ونوع آخر

---

(١) وفي اللغة يقال لكل صغير حونكى

يقال له اعتمام الميلاء وهو تكوير العمامة منعطفة الى احد الجانبين ونوعٌ ثالثٌ يقال له الصماء وهو ما ليس له عذبةٌ اي لا يُسدَل من العمامة طرفها ونوعٌ رابع يقال له الطابقية وهو الاقتعاط يقال اعتم فلانٌ العمة الطابقية اي اقتعط يعني تعمَّم ولم يَدِرْ تحت الحنك قال ابن خلدون ان العرب يرسلون من اطراف عمائمهم عذبات يستر قومٌ منهم بفضلها وهم عرب المشرق وقومٌ يلفّون منها الليتَ والاخدعَ[1] قبل لبسها ثم يتلثمون بما تحت اذقانهم من فضلها وهم عرب المغرب وقال الاصبهاني كانت العادة في صدر الاسلام بان الخلفاء لا تُعرَّى في العمائم فكان من يدخل اليوم معزيًا ينبذ عمامته وراء ظهره وقال آخرون ان في عصرنا هذا يمتاز المسلمون بلون العمائم وصورتها الدارجة وطرق الفقراء الخ فيتميّز الشريف بالاخضر والرفاعي بالاسود

وكل رجال البادية تلبس الكساء والعباآت المنسوجة من شعور المعز والابل والعباآت جمع عباءة وهي كساء من صوف بلا كمّين او ثوب مربع مضلع مشقوق من الوسط وله تنورةٌ في محل الرقبة وفتحان من الجهتين يخرج منها الذراعان وذكر ملطبرون بان امتحانها قبل الشراء لمعرفة جودتها يكون باراقة دلو ماء عليها فان كانت جيدةً لا يذهب من الماء شيء وقد يقع ان الماء يبقى عليها نحو ثلاثة ارباع الساعة ولا يذهب منه قطرةٌ واحدة

ولهم لبسةٌ يقال لها اشتمال الصماء وهي ان يرد الرجل كساءهُ من قبل يمينه على يده اليسرى وعاتقه الايسر ثم يردّهُ ثانيةً من خلفه على يده اليمنى وعاتقه الايمن فيغطيهما جميعًا

واغلبهم لا يلبسون النعال فتصلب بطون ارجلهم حتى تقوى على تحمل الرمال المحرقة ولكن في الجبال يسترونها بجلود النعم

[1] الاخدع احد عرقين يقال لهما الاخدعان يكونان في العنق في موضع الحجامة وهما شعبتان من حبل الوريد

ونساء الفقراء منهم يلبسنَ قميصاً وسربالاً[1] لا غير والحديثة السنّ من النساء تلبس التوذر وهو الحجنة فارسي معرّب او بُردًا يُشقّ من غير جيب ولا اكمام

وهنا نذكر ما امكنا جمعهُ من بعض كتب اللغة من اسماء انواع الملابس المعروفة عند العرب

ا الاتب بُردٌ يُشَقّ في وسطهِ فتلبسهُ المرأة في عنقها من غير جيب ولا كمين . والاتحميُّ والاتحمية والمتحمة بُردٌ تُنسج في بلاد العرب . والاخصاب ثياب للعرب معروفة عندهم والاخيّ ثوب مخطط . والأرْدَن ضربٌ من الخزّ الاحمر . والاستبرق الديباج الغليظ او ديباجٌ يُعمل بالذهب او ثياب حرير صفاق . والاصدة قميص صغير يُلبس تحت الثوب وابو قلمون ثوبٌ روميٌّ من ابريسم يتلوّن للعيون الواناً . والاندرود والاندرودية اسم لنوع من السراويل مشمّر فوق التبّان او هي التبان . والانماط جمع نُمط وهو ما يبسط من صوف الثياب والاسْديّ ضرب من الثياب او من الحوخ

ب الباغزية ثيابٌ من الخزّ او كالحرير . والبتّ وهو كساء غليظ من وبر او صوف وقيل طيلسان من خزّ والبجاد ثوب مخطّط . والبخنق والبخنك والبخنق خرقة تتقنع بها الجارية فتشدّ طرفيها تحت حنكها تقي الخمار من الدهن والبُرْجُد كساء غليظ مخطط . والبُرد كساء اسود من الصوف يلتحفُ بهِ والثوب المخطط ج برود . ومنها البرود السديرية نسبةً الى السدير ارض باليمن والبرود السعيدية ضربٌ من برود اليمن منسوب الى سعيد بن العاص . والبرود المسهّمة هي ثيابٌ مخططة من نسج اليمن . والبرنس قلنسوة طويلة كان النسّاك يلبسونها في صدر الاسلام وكل ثوب رأسهُ منهُ درّاعةً كان او جبّةً او ممطرًا . والبرقع خريقة تثقب للعينين تلبسها نساء الاعراب فتستر الوجه فقط . والبريم خيطان مختلفان احمر وابيض تشدُّهُ الجارية على وسطها وعضدها

(١) السربال القميص او الدرع او كل ما يلبس ج سرابيل

وحلّ المرأة فيهِ لونان مزينٌ مجوهر . والبَزّ ثياب الكتان والقطن والبركان او البرنكان الكساء الاسود . والطاق ما كان احد طرفيهِ مخملًا او وسطهُ مخمل وطرفاهُ ميزان . والبقيرة كالاتب بمعنى قميص لا كمين له تلبسهُ النساء . والبنائك بنائق القميص

ت التحبيّة البرود المخطّطة بالصفرة وثياب التحمة ما يُلبس المصنّق امرتهُ اذا متّعها . والتبّان كالعِبان شداد السراويل او تكّة لها او ما يجعل فيهِ الدراهم ويُشدّ على الحقو

ث الثِّنايات شمام البرقع وسير يُشدّ بهِ الرحل والثوب يجمع على الثياب ومنها الثوب المعرج وهو المخطّط في التواء وثوب وارش او ورش احمر والثياب الموشّجة الرخوة الغزل والثنّج وثوب برود ليس له زئبر

ج الجبّة ثوب مقطوع الكم طويل يُلبس فوق الثياب او الدروع والجدملة شيءٌ لهُ انبر من ادم تدرر بهِ النساء الحوائض والصبيان والجرز لباس للنساء من الوبر وجلود الشاء . والجرمقي ضربٌ من الاكسية . والجرموق ما يُلبس فوق الخف لحفظهِ من الطين والجلباب والجِلبّاب قميص وثوب واسع للمرأة دون الملحفة او هو ما تغطي بهِ ثيابها من فوق كالملحفة او هو الخمار والجماد ضربٌ من الثياب والجُنّة خرقة تلبسها المرأة تغطي من راسها ما اقبل وادبر غير وسطهِ وتغطي الوجه وحلي الصدر وفيها عينان مجوبتان كالبرقع والجهرمية ثياب من نحو البسط او هي من الكتان منسوبة الى جهرم بلد بفارس والجوديّ اسم الكساء . والجُودياء مدرعة من صوف الملّاحين . والجيد المدرعة الصغيرة والجمازة دراعة من صوف قصيرة الكمين

ح الحُبَر البُرد الموشّى والثوب الجديد الناعم والحِبَر الوشي والحبير الناعم الجديد والبُرد الموشّى والثوب الجديد ج حُبَر والحِبَرة ضرب من برود يمن . والحبس نطاق الهودج والمقرمة وثوب يطرح على ظهر الفراش للنوم عليهِ . والحُجزة معقد الازار وموضع التكة من السراويل . والحِذاء ما يُلبس في

الارجل من النعال والجرج اثوابٌ تُبسط على حبلٍ لتجف ج حراجٌ . والحرض من الثوب حاشيته وطرته وصنفته . والحشيب الثوب الغليظ . والحِقاه الازار ومعقدُهُ . والحقو والحقوة الكشح والازار ومعقدهُ ايضاً . والحِيفة الخرقة يُرقّع بها ذيل القميص من خلف . والحُلّة ثوبٌ من جنس واحد ساتر لجميع البدن . والحوف جلدٌ يشقّ كهيئة الازار تلبسه الحيض والصبيان او اديمٌ احمر يقدّ امثال السيور شذراً تلبسه الجارية فوق ثيابها او بنيقة من ادم تقدّ سيوراً عرض السير اربع اصابع تلبسها الصغيرة قبل ادراكها والحقب وشيٌ تعلق المرأة به الحلي وتشدّه في وسطها

خ الخبيّة رداء من خزّ والخُدافِر الخلقان من الثياب والخَداوِلُ الثياب البالية والخذعل ثيابٌ من ادم تلبسها الحوائض والرُعْنُ والخَذفرة القطعة من الثوب والخُزرانق ثوب او ثياب بيض والخُسرُوانيُّ نوع من الثياب منسوب الى خسرو بن انوشروان ملك من ملوك العجم والخصاص الثوب الصغير والخِصار الازار والخَصْف النعل ذات الطرق وكل طراقٍ منها خصفة والخايع قميص بلا كم والخمس ضرب من برود اليمن زعموا ان اول مَن عملها ملك يقال له خُمس وقال بعضهم بردة اخماس في بردة تكون خمسة اشبار ومن ذلك المثل المضروب ما في بردة اخماس يضرب للرجلين تحابّا وتقاربا او عملا فعلاً واحداً او يشبه احدهما الآخر كانهما في ثوب واحد . والخيعل قيل قميص لا كمين له وقيل الفرو او ثوب غير مخيط الفرجين او درع يخاط احد شقيهِ ويترك الآخر تلبسه المرأة كالقميص والخَزِي العمامة من نكث الخزّ

د الدخدار الثوب المصون وهو فارسيٌّ معرّب اصله تحت دار والدرع قميص تلبسه المرأة(١) والدفنيّ ثوب مخطط . والدمقس الابريسم او القزّ او الديباج او الكتان او الحرير الابيض

ر الرداء الملحفة يشتمل بها والثوب . والردن اصل الكم كانت العرب

(١) الدرع هنا مذكر واما درع الحديد فهي مؤنثة

تصع فيهِ الدراهم والدنانير والزازفية ثياب كتان بيض . والرفرف الرقيق من ثياب الديباج وكل ثوب عريض والبسط وخرقة تخاط في اسفل السرادق والريطة ثوب يُلبس على الفخذين

ز الزبني ضرب من البرود

س السابرية نوع من الثياب الرفيعة يُنسب الى سابور كورة ببلاد فارس . والسحيل ثوب لا يُبرم غزلهُ وثوب ابيض او من القطن. والسحل الثوب الابيض من القطن ايضاً. والسدوس الطيلسان الاخضر والسدس ضرب من نسج البزّ او من رقيق الديباج

ش الشملة نوع من الاثواب

ط الطمر الكساء البالي من غير الصوف ج اطمار والطيلسان ثوب ليس له بطانة او كان من قطن وقيل المدبة اي طرف العمامة يُسدل على الكتف وقيل الطيلسان كساء مدور اخضر لا اسفل له لحمته او سداه صوف يلبسهُ الخواص من العلماء والمشائخ

ع العصب ضرب من برود اليمن . والعِقَب خمارٌ للمرأة . والعقل ضرب من البرود وقيل ثوب احمر يجلل بهِ الهودج. والعمنة كل ثوب احمر او المرقط الاحمر. والعياب جمع عيبة الثياب

غ الغلطاق ثوب يُلبس فوق الثياب بلا كمين

ف الفرند ضرب من الثياب . والفصلة ثوب واحد يلبس لحمة في العمل والفوط ثياب تجلب من السند او مآزر مخططة . والفوف نوع من برود اليمن

ق القباء النساز والقباطي ثياب بيض رقاق من كتان تُنسج بمصر والقِدم ثوب احمر والقرط ضرب من البرود وقيل ثوب احمر يجلل به الهودج او ضرب من الوشي وهو ما كان نقشهُ طولاً واما ما كان نقشهُ مستديراً فهو الرقم والقسطلانية ثوب يُنسب غالباً الى قسطلة بلد بالاندلس والقطر ثوب مخطط مثل الجاد . والقُفّار شيءٌ يعمل لليدين يُحشى بقطن ويكون له ازرار تُزرُّ على

الساعدين وهما قفازان تلبسها المرأة للبرد او ضرب من الحلى لليدين والرجلين والتُبّان وأسمان كم القميص . والقُبَعَة خرقة تخاط شبيهة بالبرنس يلبسها الصبيان .

ك الكرباس ثوب من القطن الابيض وقيل الثوب الخشن والكساء قد مرَّ ذكرهُ وهو ثوبٌ ويسمَّى الجوذي ايضاً . والكيفة الكسفة من الثوب وخرقة ترقع ذيل القميص من قدام وما كان من خلف فَحِيفة

ل اللادة ثوب حرير احمر صيني واللحاف كل ثوب يُلتحف به

م الماري كساء صغير له خطوط وازرار للسفي من الصوف المخطط والمنجمة ضرب من البرود تُنسج ببلاد العرب والمناقد نطاق من الثياب مفردها منقد . والمِشأ والمشاء كساء غليظ او ابيض صغير يستعمل بالحج محاشي والمحسد من الاكسية ما كان فيه خطوط محشاة والمُجَسَّد الثوب المصبوغ بالجساد وهو الزعفران وقيل غير ذلك والمِجْوَل الوشاح ومنه قولهم قلَب ملان مجنهُ اي اسقط الحياء وفعل ما شاء والمِجول ثوب تلبسه الجارية الصغيرة والمِرحَل هو المنقوش بنقوش تشبه رحال الابل والمرط قد يكون من خزّ او من صوف وقد تسمى المُلاة مرطاً وهي الازار والمطير ضرب من البرود . والمقرمة محبس الفراش . والملاءة ثوب يلبس على الخدين كالريطة . والمدية ثياب من البز والمتطعة والمقطعات برود عليها وشيٌ او شبه الجباب وغيرها من الخزّ وغيره والقصار من الثياب . والمكعب الموشّى من البرود والاثواب والثوب المطوي الشديد الادراج . والمعوز والمعوزة الثوب الخلق المبتذل سمي بذلك لانه من لباس المعوزين . والمِدع والمِدعة والمِداعة الثوب الخلق المبتذل ايضاً . والمهاصري بردٌ يمني

ن النزيدية برودٌ فيها خطوط حمر نسبة الى نزيد اي قبيلة من العرب . والنقاص ازار للصبيان يقال في المثل ما عليه نقاضرٌ اي ما عليه شيءٌ من الثياب . والنمرة شملة فيها خطوط بيض وسود او بردة من صوف . والنوطلة شيءٌ من صوف تختمر عليه نساء العرب . والنير علم الثوب

« الهدم الكساء الطاهر الرقاع والهدم الكساء البالي من صوف والمرقّع منهُ ايضاً والهدمل الثوب الخلق القبل والتبان شداد السراويل وتكته او ما يجعل فيهِ الدراهم ويشدّ على الحقو

و الوتر شقة من ادم تقدّ سيوراً عرض السير منها اربعة اصابع او شبر او سيور عريضة تلبسها الجارية الصغيرة او ثوب كالسراويل لاساقين لهُ وشبه صدار والوترُ الثوب الذي تحلّل بهِ الثياب فيعلوها . والوصائل برود القصب سُميت بذلك لانها كانت توصل بعضها ببعض والوليج ثوب من كتان

ولما كان من اخلاق العرب الميل الى التفرد والاستقلال كانوا يرغبون ايضاً في الانفراد ببعض الملابس فكان سعيد بن العاص بمكة ويقال لهُ ذو العمامة اذا وضع على راسهِ عمامة لم يعتمّ احدٌ بمثلها ما دامت على راسهِ وكذلك كان الحجاج بن يوسف اذا اعتمّ بعمامة لم يجسر احدٌ من خلق الله ان يدخل عليهِ بمثل عمامتهِ وكان عبد الملك بن مروان اذا لبس الخفّ الاصفر لم يلبس احدٌ مثلهُ حتى ينزعهُ وفي زمن العباسيين كان اللون الاسود من خصائصهم فلذلك لُقبوا بالسود واما اللون الابيض فكان من خصائص الشيعة ولذلك اسباب سوف يأتي ذكرها اما في زماننا هذا فاللون الاخضر من خصائص الاشراف الذين يتصل نسبهم باهل البيت على ما مرّ والاسود من خصائص الرفاعية وهم من اهل الطريق[1] والابيض للعامة

وسئل بعض العرب عن الثياب فقال الصفر اشكل والحمر اجمل والخضر اقبل والسود اهول والبيض افضل وقال ابو عبيدة ان العرب تلحق لون الخضرة بالسواد فتضع احدهما موضع الآخر قال ذو الرمة

قد اقطع النازح المجهود معسفة[2] في ظل اخضر يدعو هامهُ البوم

(١) يُراد بالطريق السيرة الخاصة بالمنتمين الى الله تعالى من قطع المنازل والترقي في المقامات وتعرف خصيصاً باصحاب الصوفية واهل الطريق

(٢) النازح المتباعد عن دياره غيبة بعيدة والمجهود المكلف لاسراع وسعي في

يريد بالاخضر الليل فسماهُ بهذا لظلمة سوادهِ وقال آخر

ما ابصرت عيناي احسن منظرًا ممّا ارى من سائر الاشياء
كالشامة الخضراء فوق الوجنة ال حمراء تحت المقلة السوداء

وصف الشامة بالخضراء مع انها سوداء اللون ويلقبون ايضًا الابيض بالاحمر ويسمّون الموالي من عجم الفرس والروم الحمر لغلبة البياض على الوانهم وكانت عائشة ام المؤمنين تسمّى الحمراء لغلبة البياض على لونها ومن امثالهم الحسن احمر

ويبعتون الالوان بنعوت المبالغة في وصفها ومن ذلك النضرة لكل لون نحو اخضر ناضر واحمر ناضر واما الناصع فهو الخالص من كل شيء وقيل يختصّ بالابيض مثل يقق فانهُ يقال ابيض يقق كما يقال احمر قاني واصفر فاقع واسود حالك وفي محيط المحيط احمر او اصفر فاقع اي شديد مشبع اللون وكل ناصع اللون فاقع من بياض وغيره كذا قيل والمشهور انهُ صفة للاصفر يقال اصفر فاقع كما يقال احمر قرّاص واخضر حانر وابيض يقق واسود حالك

ويعبّرون ايضًا عن العدو الشديد العداوة بالازرق وعن الموت بالاحمر وعن نعومة العيش بالاخضر ويستعملونهُ مدحًا ايضًا بمعنى مخصب رحب الجانب وعكسهُ الاغبر وعن الدينار بالاصفر واليوم المشوم بالاسود وعكسهُ بالابيض ومن كلامهم هو ازرق العين يشهدون بهِ على البغض وكذلك قولهم هو اسود الكبد وهم سود الاكباد وصهب السبال

وقد جرت عادة رجال العرب ان تختم بيمينها لكن يستبين ان نقش الاسماء على الخواتم لم يكن مستعملًا في الجاهلية واول من اتخذهُ في الاسلام صاحب الشريعة الاسلامية وذلك لما اراد ان يكتب كتابًا لملك فارس قيل له ان العجم

تحصيل امر مستلزم للكلفة والمشقة واعسف من الاعتساف وهو الميل عن الطريق والعدول عنهُ او اخذ الطريق على غير دراية وهداية

لا يقبلون كتابًا بغير ختم فاتخذهُ من الفضة كتب عليهِ محمد رسول الله ثم امتد ذلك ان الى صار الخاتم للاصبع من علامات الملك وشاراتهِ في الدول العربية بالمغرب قال ابن خلدون انهم كانوا يتخذون صوغهُ من الذهب ويرصعونهُ بالفصوص من الياقوت والفيروزج وبلبسهُ السلطان شارةً في عرفهم كما كانت البردة والقضيب في الدولة العباسية بالمشرق والمظلة في الدولة العبيدية بالمشرق ايضًا

وكانت الخلفاء من الصحابة تختم باليمين فحمل ذلك معاوية بن ابي سفيان في اليسار واخذ الاموية في ذلك الى ان نقله السفاح العباسي في اليمين فبقي الى ايام الرشيد فنقله الى اليسار واخذ الناس في ذلك

ويرون ان الخواتم اربعة الياقوت للعطش والفيروزج للمال والعقيق للسنة والحديد الصيني للحرز وقيل للخوف ومن كلام المتأخرين من تختم بالعقيق وقرأ لابي عمرو بن العلاء وتفقه للشافعي وحفظ قصيدة ابن زريق فقد استكمل ظرفهُ وابن زريق هو ابو الحسن علي بن زريق البغدادي واما قصيدتهُ فهي التي يقول في مطلعها

لا تعذليهِ فان العذل يولعهُ   قد قلت حقًا ولكن ليس يسمعهُ

ويقال ان ملوك العرب في الجاهلية كانت تلبس تيجانًا واول من توّج بالذهب منهم كان حمير بن سبا وكانت الملوك من بعدهِ تضع في تيجانها خرزًا وكان الملك يزيد خرزةً كل سنة في تاجهِ ليعلم سني ملكهِ ويسمونها خرزات الملك واما الخلفاء في الاسلام من بني أُميَّة وبني العباس فكانوا في احتفالاتهم التشريفية يجلسون في قبة التاج على سدتهم وعلى اكتافهم بردة صاحب الشريعة الاسلامية وعلى رؤوسهم العمامة وبين ايديهم القضيب فكانت العمامة لهم موضع التاج واول من اتخذ سرير الملك وجلس فوقهُ كان معاوية بن ابي سفيان وتبعهُ في ذلك الملوك من بعدهِ

وكانوا يركبون بالحلية الخفيفة من الفضة بالمناطق والسيوف واللجم والسروج ولم يحدث الركوب بحلية الذهب الا المعتز العباسي ثم آل الامر اخيرًا ان جعلوا نعال خيولهم من الفضة والذهب وكانوا قبل ذلك استعملوا الطراز ايضًا وهو اسماء الملوك وعلاماتهم مكتوبة في نسج اثوابهم لحامًا وسدى بخيط الذهب وما يخالف لون الثوب من الخيوط الملونة قصدًا لتنويه ملابسها اذا كان هو من السلطان او غيره ممن يريد السلطان تشريفه بلبوسه اخذًا عن ملوك العجم الذين كانوا يجعلون صورهم واشكالهم طرازًا لملابسهم وكان لهذه الطرازات معامل مخصوصة تسمّى دور الطراز والقائم على النظر فيها يسمّى صاحب الطراز

وكانوا يخلعون على من ارادوا تشريفه بولاية السلطنة سبعة خلع ويلبسونه الطوق والتاج والسوارين ويعقدون له لواء ويقلدونه سيفين ويأمرون باقامة الخطبة له ايضًا والخلع واحدها خلعة وهو الثوب الذي يخلعه الخليفة عن جسمه لالباسه من اراد تشريفه وتلبيسه كما ذكرنا في ما مرّ وقد توسع في ذلك حتى صار ما يهديه العامة لبعضهم من الاثواب يسمّى خلعةً ايضًا قال الشاعر

أمبشري بقدوم من احببته — ولك البشارة بالمسرّة والهنا
ما كان اسخي بذلك مخبري — لو كان عندي خلعة غير الضنا

وكانت نساء العرب يتزيّن بالخواتم كالرجال ايضًا وربما يتخذنَ في اصابعهنّ العشر ويلبسنَ في سواعدهنّ الاساور وقد جاء في المثل ما قاله حاتم الطائي وقد لطمته أمة وهو اسيرٌ في عنزة لو ذات سوار لطمتني قال الميداني ان المراد به لو لطمتني حرة جعل السوار علامةً للحرية لان العرب قلما تلبس الاماء السوار فهو يقول لو كانت اللاطمة حرة لكان اخفّ عليّ وقيل بل قال لو غير ذات سوار لطمتني يعني انه لا ينتصفُ من النساء

ويتزيّنّ كذلك بالحجول وتسمّى ايضًا الاحجال والحجول واحدها حجلٌ وهو

الخلخال حلية من فضة كسوار كبير تلبسها نساء العرب في ارجلهنّ

والدملج او الدملوج هو المعضد وهو حلية كالسوار تُلبس في العضد او في المعصم ويتقلدون بالعقود في اعناقهنّ والاقراط في آذانهنّ ومنهنّ من لها خزام في الانف ويسمون حلي المرأة من الجواهر والحجارة الكريمة البهرمان وقيل ان البرّة واحدة البُرَى هي نوع من الحليّ يُلبس في الرجلين وان الحابك هو القلادة وقيل هو السوار والحُبلة حلية تجعل في القلائد والحبس حلقة تُلبس في الاصبع والخُوق حلقة القرط والشنف كالدملج يُلبس في المعصم والحِقاب شيء تعلق المرأة به الحليّ وتشدهُ في وسطها والحرص صيصة القطعة من الحليّ واما قولهم ما عليها خصاص فيريدون به الشيء اليسير من الحليّ يُضرَب سيف نفي الحيّ عن امرأة قال الشاعر

ولو اشرفت من كفة الستر عاطلاً   لقلتُ غزالٌ ما عليهِ خصاصُ

والحَوْط خيط مفتول من لونين اسود واحمر فيهِ خرزات وهلال من فضة تشدهُ المرأة في وسطها لئلاَّ تصيبها العين ويُربَط بهِ الصبي ولعلهُ ما يسمّى بالعوذة قال بعض اللغويين التعاويذ جمع عوذة وهي شكلٌ من فضة يُعمل مستديرًا استدارة القمر او بعض الدائرة فارغ على صورة نعل الدابة تُنقش عليهِ كتابةٌ وتُعلَّق في اعناق الاطفال قال عكاشة بن عبد الصمد

وجاءوا اليهِ بالتعاويذ والرقى   وصبّوا عليهِ الماء من شدّة النكس
وقالوا بهِ من اعين الجنّ نظرةٌ   ولو صدقوا قالوا من اعين الانس

وممّن اشتهر بعمل هذه التعاويذ في الاسلام ابو محمد المبارك بن المبارك بن السراج التعاويذي البغدادي الزاهد المشهور توفي في سنة ٥٥٣ للهجرة (سنة ١١٥٨م)

وما يوضعونهُ للتحلي سيف اعناق الاطفال ايضًا الطوق وربما تذروهُ الجهة

زمتى شبَّ الولد وكبر ويرون ان اول مَن وضع الطوق في عنقهِ من الصغار هو عمرو بن عديّ بن نصر حلاهُ بهِ خالهُ جذيمة الابرش اوّل ملوك العرب لما ادخلتهُ عليهِ اختهُ رقاش امُّ عمرو المذكور ثم لما كبر الغلام أُدخِل على خالهِ مرّة اخرى بعد غيبةٍ طويلة اختطفتهُ بهـا الجنُّ فلما رآهُ خالهُ فرح بهِ وقال شبَّ عمرو عن الطوق فذهبت مثلاً

وما يتحلَّى بهِ الصبيان ايضاً السخاب وهو قلادة من سُكٍّ وقرنفل ومحلب ليس فيها لؤلؤٌ ولا جوهر قال المتنبي

عفا عنهم واطلقهم صغارًا وفي اعناق اكثرهم سخابُ

ومن عادة النساء ان يخضبن اظافر اليدين بالحنا خلاف اليدين والرجلين فان خضابهنَّ يكون بلون احمر مصفرّ وان يكتحلنَ بالاثمد ويقال ان اول من اكتحلت بهِ من العرب زرقاء اليمامة وهي امرأة من جديس يزعمون انها كانت تبصر الشيء من مسيرة ثلاثة ايام واسمها عنز وفيها يقول المتنبي

وأبصرُ من زرقاء جوٍّ لانني متى نظرتْ عيناي ساواهما علمي[1]

والزرقاء اسمٌ لثلاث من نساء العرب احداهنَّ هذه التي نحن بصددها ويضرَب المثل بحدّة نظرها فيقال أبصرُ من الزرقاء كما يقولون ايضاً أبصرُ من عقاب ملاع والملاع الصحراء وأبصرُ من غراب وأبصرُ من الوطواط بالليل

(١) يريد تفضيل نظره على نظر الزرقاء المذكورة هو لكونهِ متى وقع نظرهُ على الشيء ادرك حقيقتهُ حالاً خلافاً لهذه المرأة التي مع كونها رأت رجال حسان بن تبع الحميري وهم حاملون اشجارًا ليخدعوها بها كيلا تراهم فتنذر قومها لم تدرك الحقيقة كما هي بل ارتابت في الامر وقالت

اقسمُ بالله لقد دبَّ الشجر او حميرٌ قد اخذت شيئاً يجر

ولذلك لم يصدقها قومها فنفذت فيهم حيلة حسان الى ان فتك بهم فتكاً ذريعاً والقصة معروفة

وأنصرُ من كنب . والثانية الزباء ملكة الجزيرة وابنها سد . والثالثة البسوس بنت منقذ التميمية التي تُنسب اليها الحرب الشهيرة بحرب البسوس ويضرب بها المثل في الشؤم فيقال أشأم من ناقة البسوس

ومن عادة نساء العرب ايضاً ان يذررنَ هذا الاثمد على شفاههنَّ واللثات وفي مغارز الاسنان ليشتدَّ لمعان اسنانهنَّ وبهِ يحصل لهنَّ الوشم الذي يختص به وهو تخطيط البشرة بصور حيوانات وازهار ونجوم وقد جاء تحريمهُ في الاسلام

ومن عاداتهنَّ اجزاز الشعر وترجيلهُ يقال حرثت المرأة شعرها اذا جمعتهُ وعقدتهُ في قفاها وتحبير الشعر والترجيل تسريح الشعر والمرجل والمسرح المشط اما الغدائر فهنَّ جمع الغديرة وهي الخصلة من الشعر والعقيصة الخصلة المجموعة منهُ والذوائب السوالف وتقبيب الشعر تجعيدهُ والسعفات الشعر في اعلى الراس والعُرْف شعر الناصية والمسربة شعر الصدر والعانة شعر العورة والعبرية شعر قفا الانسان واللمة ما ألمَّ بالمنكب والمسانح الشعر ما بين الاذن الى الحاجب والوفرة ما بلغ شحمة اذن الانسان والطرة ما غشي الجبهة والجُمّة ما غطّى الراس والهدب شعر اشفار العين والعنفقة شعر الشفة السفلى والشارب شعر الشفة العليا والحاف شعر المحرمين والعقيقة شعر كل مولود من الناس والبهائم وصوف الجذع وفي حديث قولوا نسيكة ولا تقولوا عقيقة لانهم كانوا يتطيرون بهذه الكلمة والشعر للانسان وغيره والمرعزاء للمعز والوبر للابل والصوف للغنم والسفاه للجمير والريش للطائر والزغب للفرخ والزف للنعام والهلب للخنزير والحرشف للسمك

ومن اوصاف الشعر اذا كان كثيراً فهو حُفال واذا كان متصلاً اسود فهو وحف واذا كان كثيراً فهو كث او كان كثيراً في الذقن فهو رب ومنهُ قولهم رجلٌ أزبّ وامرأة زباء واذا كان منبسطاً فهو سبط واذا كان عكس ذلك فهو جَعدٌ واذا كان بين بين فهو رَجِل واذا كان ناعماً طويلاً فهو مُعَدْودَن

واذا كان الرأس ليس به شعر فهو اصلع واذا كان الحاجب ليس به شعر فهو أمرط او كان الجفن فهو أمعط او كان الخدّ فهو أمرد او كان الذقن فهو أملط

وللنساء الحضريات تمهن في اصلاح وجوههنّ وتزيينها ومن ذلك الحفّ والحفاف يقال حفّت المرأة وجهها ازالت ما عليه من الشعر تحسيناً والتزجيج يقال زججت المرأة حاجبها دققته وطولته الى ذنابي عينيهـا والصبغ هو تلوين الوجه بالطلي الابيض والاحمر الى غير ذلك مما لا يشتركن معهنّ فيه النساء البدويات اصلاً قال المتنبي

حسن الحضارة مجلوبٌ بتطريةٍ وفي البداوة حسنٌ غير مجلوبِ

واما التطيب بانواع الاطياب فهو من عادة نساء البدويات في الجاهلية فانهنّ كنّ يتطيّبنَ ولكل واحدةٍ منهنّ فشوة طيب والفشوة هي قفة من خوص تجمع المرأة فيها اداتها وقيل في اصدقُ الطايب عنه وصة بالمرأة لا تفارقها فاذا رحلت من مكان الى آخر تكون بين اياديها وجاء في المثل لا عطر بعد عروس يُضرَب في ذمّ ادخار الشيء وقت الحاجة قائلة امرأة من بني عذرة يقال لها اسما بنت عبد الله مات زوجها وكان ابن عمهـا واسمه عروس فتزوجها آخر وكان اعمر بخيلاً ذميماً واراد ان يظعن بها فقال لها ضمّي اليك عطركِ فقالت لا عطرَ بعدَ عروس فذهبت مثلاً

وهكذا التطيب عند الحضريات ورجالهنّ ايضاً وخاصةً بعد الاسلام هو من احسن ما تصبو اليه نفوسهم فكانت الرجال والنساء جميعاً يتطيبون بالمسك والطيب المصنوع من المسك والعنبر . حكي عن ابن عباس انه كان يضع الغالية على صدعه حتى يظن الناس انها لرقة وكانت العامة تطيب لحاها وتطلي اجسادها بالاطياب فكانت تتلى ازقة المدينة من روائح الطيب ولذلك سميت طيبة

والغالية المذكورة هنا في اخلاطٌ من الطيب قيل ان اول مَن سماها بهذ الاسم سليمان بن عبد الملك الاموي وهناك نوعٌ آخر يعرف بالندّ يصنعونهُ من العود والعنبر واللبان ويسمّونهُ مثلثاً لاتخاذهِ من ثلاثة انواع من الطيب. وفي درّة الغواص الصواب فيهِ مثلوث واما الكافور فاكثر ما يطيّبون بهِ الآن اجساد الموتى والأدوية في كل ما يعالجون بهِ الطيب ويوجد نوع من العطر يسمّونهُ الناردين يؤخذ من شجر يسمى بهذا الاسم منسوب اليهِ وفي محيط المحيط القاردين والناردين هو السنبل الرومي معرَّب نَرْدُس باليونانية

الفصل الثالث

في انواع المآكل وآداب الطعام عند العرب

قال بعض المؤلفين انهُ نظرًا الى محولة بلاد العرب جرت عادتهم بالقناعة في المآكل وان رعاعهم لا ياكلون الاَّ مرة واحدة من خبز رديء مصطنع من الذرة ويأتدمون بالتمر ونحوهِ وبالاكهم اللحوم. قال ابن خلدون لم تكن امة من الامم اسغب[1] عيشاً من مُضَر لما كانوا بالحجاز فكانوا كثيرًا ما ياكلون العقارب والخنافس ويفخرون باكل العلهز وهو وبر الابل يموهونهُ بالحجارة في الدم ويطبخونهُ وهكذا كانت حالة قريش وبالاجمال يقال ان اصول اغذية عامة العرب واقواتهم تحصل من ثلاثة انواع وهي الالبان واللحوم وبعض الحبوب

(١) السغب الجوع مع التعب

اما الالبان فهي انواع منها الضريب اي اللبن ساعة يُحلب والزبد وهو ما
يُستخرج من لبن البقر والغنم ونحوها وهو ما يستخرج من لبن الابل ولما كانت
هي الاصل المعوَّل عليه في الغذاء العام عند العرب كانوا يعبّرون عن اللبن بانه
احد الاسودين يقولون اطعمها الاثم اسقيها اللبن وجعلوا له في كل ظرف من ظروف
استعماله اسما يعرّفونه به

ومن تلك الاسماء القيل وهو اللبن يشرب في القايلة يعني نصف النهار
والفيقة بالكسر اللبن يجتمع في ضرع الناقة بين الحلبتين ومنه قولهم في المثل مهلاً
فواق . فق اي امهلني قدر ما يجتمع اللبن في ضرع الناقة بين الحلبتين والصريف
والضريب اللبن الذي يحقن بعض الذي يجمع في السقاء[1] ويُصَبّ حليبه على رائبه
ثم يشرب قبل ان يروب والحرعكوك والخاملطابط والجلعطوط
اللبن الرائب الخاثر والمديد اللبن الخاثر جدا والصبح والصباح اللبن الخاثر
رُقِّق بالماء صُبَّ عليه وهو اسرع اللبن روبا والاحلابة وهو ان يحلب الرجل
ويبعث الى اهله من المرعى فان الشاء لا يحبس بالبادية لانه عارٌ عندهم
والحطاط اللبن رائب ومحض صُبَّ عليه حليب والدخوس من الضأن يحلب
عليه لبن المعز والنفش القليل من اللبن والمذقة اللبن يخلط بالماء ويسمى بالسمار
ايضا والرثيئة اللبن الحامض يخلط بحلو والصرام آخر اللبن بعد التغريز يعني ان
تدع حلبة بين حلبتين اذا احتاج اليه صاحبه حلبه ضرورة والنخب هو ما
امتد من لبن اذا خرج من الضرع والارتجان اختلاط الزبدة باللبن والراح
اللبن يؤخذ في الضرع بان يرش الماء على الضرع ليرتفع اللبن فتسمى الدفقة
والعذر بقية اللبن والرمث بقية قليلة من اللبن تبقى في الضرع والنجيجة زبدة اللبن
تحصل في اليد وفي السقاء والقارص اللبن يحذي اللسان والحاذر اللبن
الحامض جدا وسوارة الرضف لبن يُغلى بالرضفة فيبقى منه شيء يسير قد
انشوى على الرضفة

(١) السقاء هو القربة وتعرف بالظرف ايضا

واما اللحوم فيسمون المشاوي منها الحنائذ قال الحريري في مقامته الاولى المعروفة بالصنعانية فوجدته محاذياً لتلميذ على خبز سميذ وجدي حنيذ ويسمون ما يجزر من الابل من النهب قبل القسم النشيطة وشر الاطعمة من اللحوم عندهم القديد ولذلك يقولون في امثالهم لمن تطهر الصحاء ولا يرى منه الا قليل خير شريف قوم يطعم القديد بل كانوا اذا لم يجدوا عند لحومهم دقوا اعظم اليابس واطعموها اياه قال النمر بن تولب لصاحب الشريعة الاسلامية

انا اتيناك وقد طال السفر   اقود خيلاً رجعاً فيها ضرر
اطعمها اللحم اذا عز الشجر

وكانوا يرون بان اطيب اللحم الكتف ويتباهون بمعرفة اكلها ويضربون بذلك المثل فيقولون للدهي الذي يأتي الامور من مأتاها انه ليعلم من اين تؤكل الكتف. لانهم يزعمون بان اكلها أعسر من غيرها ويرون بانه يجب ان يكون اكلها من اسفلها لانه يسهل انحدار لحمها واما من اعلاها فيكون متعسراً ملتوياً وبعضهم يقول ان المرقة تجري بين لحم الكتف والعظم فاذا أخذت من اسفلها انقشرت من عظمها وبقيت المرقة مكانها ثابتة ويقولون لضعيف الراي انه لا يحسن اكل الكتف قال الاصمعي

اني على ما ترين من كبري   اعلم من حيث تؤكل الكتف

وفي قبائل قضاعة قبيلة يقال لها بنو اهلها لا يأكلون الالية لانها من الجواعر ولانها طبق الاست

ويقولون في امثالهم لا تطعم العبد الكراع فيطمع في الذراع ويستنتج من ذلك انهم لا يشركون عبيدهم معهم في اكل اطايب اللحوم كما ان التفاخر بمعرفة صيغة اكل الكتف يدل على انهم كانوا يأكلونها نيئاً

والصالح الطعام عند العرب يشتمل على طبخ اللحم وشيه وهو على انواع منها

الصفيف وهو المصفوف على الحجارة لينضج والقدير وهو المطبوخ في القِدْر والمراجل التي يوضعونها على الاثافي واما ان كان ما يصنعونها عليه من الحديد فيسمى مِصاً ولا يسمى اثفية وكانوا اذا اعوزهم قِدْرٌ يطبخون فيها عملوا شيئاً كهيئة القِدْر من الجلود وجعلوا فيها الماء واللبن وما ارادوا من ودك ثم القوا فيها الرضف لتنضج ما في ذلك الوعاء ويراد بالرضف حجارة محماة بالنار والودك الدسم من اللحم والشحم وهو ما يتحلّب من ذلك كما ان الدسم يكون من كل ذي دهن . واما التوابل فهي ما تعالج به الاطعمة فيطيب الغذاء والابزار ايضاً التابل جمعه ابزار وابازير وقيل الأبزار تستعمل في الاشياء الرطبة والتوابل في اليابسة

واما الاطعمة من اللحم واللبن والخبز فيسمّونها الثرائد ويقولون ان اوّل من ثرد الثريد وهشمه من العرب هو هاشم جدُّ صاحب الشريعة الاسلامية واطعمه الى الحجاج ولذلك سمّي هاشماً

ومن انواع الاطعمة الرغيدة وهي طعامٌ من اللبن الحليب يُغلى ويُذَرّ عليه الدقيق

والرهيدة هي حنطة تُدَقّ ويُصَبُّ عليها الماء

والهيدة هي العصيدة الرخوة

والهبيدة هي حب الحنظل الحلّ يُطبخ ويضاف اليه شيء من الدقيق

والبكيلة هي أقط[1] يُلتُّ بسمن وقيل هي الاقط المطحون تبكله بالماء فتثريه كانك تريد ان تعجنه

والبكالة الدقيق بالرُبّ[2] او بالسمن او بالتمر او بالسويق وهو الناعم من دقيق الحنطة يبلّ بلاً او سويق بتمر ولبن او دقيق يخلط بسويق ويبلّ بماء وسمن او زيت او الاقط الجاف يخلط به الرطب او طحين وتمر يخلطان بزيت

(١) الاقط الجبن اتخذ من اللبن الحامض

(٢) الرب هو سلافة خثارة كل ثمرة بعد اعتصارها وثقل السمن

والربيكة شيء من حسا واقط والحسا دقيق يطبخ بالماء والسمن

والوضيعة طعامٌ من السويق والعسل

والحريقة والحروقة طعامٌ اغلظ من الحسا

والسهيكة طعامٌ رديء يعملونهُ في المجاعة

والوديكة طعامٌ من الدقيق والشحم

والوريقة طعام من لحم الضباب

والحريرة دقيق يطبخ باللبن

والخزيرة ويقال الخَزِيرة طعام يطبخ بلحم والدقيق

والمضيرة طعام يطبخ باللبن الحامض

والعبيثة طعام يجعل فيهِ الجراد

والثميمة ما رقَّ من الطعام واختلط بالودك

والثوباءُ دقيق يرش تحت الفرزدق[1] اذ طُلَّ

والجبيز الخبز الفطير واليابس

والحوذابة ملة تخبز في التنور معلقًا فوقها طائرٌ او لحمٌ فيقطر ودكهُ عليها فتخرج عنك قم الادام

والوحيئة تمر او جراد يدقّ ويلتُّ بسمن او زيت

والوهيسة جراد يطبخ ويجفّف ويدق ويخلط بدسم

والدَّريقة لبن يُصبُّ عليهِ اهالة[2] او سمن قليل

والبربك الرطب يؤكل بالزبد

والبروك الخبيص تعملهُ العرب من التمر والسمن

والبسيسة سويق او دقيق او اقط مطحون يلتّ بالسمن والزيت

(١) الفرزدق القطعة من العجين التي تبسط فيخبز منها الرغيف او الرغيف الضخم الذي تجعلهُ النساء بالفتوت

(٢) الاهالة الشحم او ما أذيب منهُ او الزيت وكل ما أُوتُدِمَ بهِ

والحجية كرش البعير المحشو

والحشيش السويق وحنطة تطحن قليلاً وتجعل في قدر ويلقى عليها لحم او تمر

والحيص نوع من الحلوى تعملهُ العرب من التمر والسمن

والجمرة ما يتخذ من العجين كالتماثيل فيجعلونهُ في الربّ اذا طبخوهُ

والخليجة طعام يصطنع من الحليب والسمن يخلطان معاً

والخبيص تمر يخلط بسمن او اقط فيعجن ويدلك شديداً حتى يمتزج ثم يندر منهُ نواهُ وربما جُعل فيهِ سويق

والدوامة جُلَيدة تعلو الهريسة واللبن ونحوهُ اذا ضربتهُ الريح

والهريسة الحب المدقوق بالمهراس فيطبخ

والزُرَيقاء الثريدة بلبن وزيت

والماعجة طعام جاهلي يخاض الوبر باللبن فيجدح[1]

والرصيعة البرّ[2] يدق بالفهر[3] ويبلّ ويطبخ بالسمن

والفيهاء طعام من الحسا والتوابل

والمجع اللبن ينقع فيهِ التمر

والحبرة حساء من دقيق يجعل عليهِ سمن

والوليقة طعام يتخذ من دقيق ولبن وسمن

والسخينة طعام ارق من العصيدة وبها كانت تُعيَّر قريش لانها كانت مولعة باكلها كما كانت تُعيَّر تميم بشدة الحرص على الاكل قيل انهم كانوا يلفون الوطب وهو سقاء اللبن في النجاد وفي احسن ثياب العرب . يحكى ان معاوية ابن ابي سفيان اول الخلفاء الامويين وهو كما لا يخفى من بني قريش المذكورة

(١) الجدح اللت والخلط (٢) البر جمع برة من القمح

(٣) الفهر حجر قدر ما يدق بهِ الجوز او يملأ الكف ويستعمل عند الاطباء لحجر الرخام الذي تسحق بهِ الادوية على الصلاية

مازح الأحنف بن قيس وكان تميميًا فقال له ما الشيء الملفف في البجاد يريد قول الشاعر

اذا ما مات ميتٌ من تميمٍ   وسرّك ان يعيش فجئ بزادِ
بخبزٍ او بتمرٍ او بسمنٍ   او الشيء الملفف في البجادِ

فاجابه الأحنف هو السخينة يا امير المؤمنين فافحمه وكان قصد معاوية ما يُعاب به بنو تميم فاجابه الاحنف بما يُعاب به القريشيون

وكانوا يسمّون المرقة المحمّة بنت مارب والخبز ابن حبّة قال الشاعر

في حبّة القلب مني   زرعتُ حبَّ ابن حبّة

ويسمّون الشحم ملحًا لبياضهِ ويقولون امحِ القِدرَ اذا جعلت السماء فيها شيئًا من شحمٍ وعليهِ فسّرابن فارس قول مسكين الدارمي في امرأتهِ

لا تلمها انها من نسوةٍ   ملحها موضوعةٌ فوق الركب

يعني ان همّها الحسن والشحم وشطر البيت الثاني مأخوذ من قولهم في المثل ملحه على ركبتهِ قال الميدني ان هذا المثل يضرب للذي يغضب من كل شيء سريعًا ويكون سيئ الخلق ادنى شيء يبدّدهُ اي يفرّقهُ كما ان الملح اذا كان على الركبة ادنى شيء يبددهُ ويفرّقهُ ويقال هما اللبن والملح والرضاع اي لا يلاحظ حرمةً ولا يراعي حقًا

ومن الكنى الموضوعة للاطعمة ما ذكرهُ الحريري في مقامتهِ الصيبية وهو ان ابا مالك وابا عمرة كنية الجوع وابا جامع الخوان وهو المائدة وابا نعيم الخبز الحواري وابا حبيب الجدي وابا ثقيف الخل وابا عون الملح وابا جميل البقل وام القرى السكباج وام جابر الهريسة وام الفرج الجوذابة وابا رزين الخبيص وابا العلاء الفالوذج وابا الاس العسول والمرحان الطست والابريق وابا السرور الجوز وفي بعض المؤلفات ابو الخصيب اللحم وابو العباث وابو الحيان

المائدة وابو المسافر الجبن وابو نافع الخل وابو جابر الخبز وابو عاصم السكباج

ومن المعلوم ان هذه الكنى في من بدع المولدين لان العرب في الجاهلية لا تعرف اكثر هذه الالوان وانما كان طعامهم من اللحم يطبخ بالماء والملح او غير ذلك مما سبقت الاشارة اليه قال ابن خلدون ان في زمن الصحابة لم تكن العرب ساحل فكانوا يأكلون الحنطة بخالها ولما ملكوا فارس والروم قدم لهم المرقق فكانوا يحسبونه رقاعاً اي ما يكتب عليه وعثروا في خزائن كسرى على الكافور فاستعملوهُ في عجينهم ملحاً ولم يأخذوا في التأنق في الاطعمة واختراع الالوان الّا منذ زمن معاوية لانهُ كان اكولاً وبهِ يُضرَب المثل في ذلك فيقال آكلُ من معاوية قال الشاعر

وصاحبٌ لي بطنهُ كالهاويه كأنّ في امعائهِ معاويه

وقال آخر

ومعدةٌ ماضيةٌ للصخرِ كأنما في جوفها ابن صخرِ

وصخر المذكور في آخر الشطر الاخير هو ابو سفيان والد معاوية المشار اليهِ

ومن امثالهم ايضاً آكلُ من حوت ومن السوس ومن ضرس ومن الفيل ومن النار

وكانوا يضربون المثل في الجاهلية بهمان العادي زعموا انهُ كان يتغدى بجزور ويتعشى بجزور قال بعض المؤلفين ان هذا من اكاذيب العرب لان ذلك سنةٌ لهذه الطائفة لا يبكرهُ بعضها على بعضٍ وامثال ذلك كثيرة

واكثر اسماء الاطعمة التي استعملتها العرب منذ ظهور الاسلام حتى الآن ماخوذ من لغتي الفرس والترك كالسكباج الذي مرّ ذكرهُ فانهُ نوع من اطعمة الفرس معرّب سِكبا ومعناهُ طعام بخلٍ وقد بالغ العرب في مدحهِ مع انهُ لم يكن مجهزاً الا من مرق اللحم والخل وربما جُعل فيهِ زعفران وكانوا يسمونهُ سيد المرق

وشيخ الاطعمة وزين الموائد وكان عبد الله بن طاهر يقول لو خيرت لونًا من الطعام لا ازيد عليه لاخترت الدرّاجة[1] لاني ان زدت في خلّها صارت سكباجة وان زدت ماءها صارت اسفيداجة[2] وان زدت في تصبيرها بل في تشبيطها صارت مطجّنة

وكذلك الفالوذج هو نوع من الحلوى تسميه العامة بالوطة يقال ان اول من استعمله من العرب كان عبد الله بن جدعان الذي اشترى النابغة بنت حرملة بن غزّة ام عمرو بن العاص من العرب في سوق عكاظ ووهبها للعاص ابن وائل ابي عمرو المذكور قال الاصبهاني ان عبد الله هذا كان وفد على كسرى واكل عنده الفالوذ فسأل عنه فقيل هذا فالوذ قال وما الفالوذ قالوا لباب البرّ[3] يُلبك مع عسل النحل قال ابغوني غلامًا يصنعه فأتوهُ بغلامٍ فابتاعهُ ثم قدم به مكة فكان يصنع له الفالوذ

واللوزينج معرّب لوزينه وهو نوع من الحلوى ايضًا يُحشى باللوز والسكر وقيل شبه القطائف يؤتدمُ بدهن اللوز

والجُوذاب معرّب كوذاب يتخذ من سكر وارز ولحم

وغير ذلك من الاطعمة الشائعة الآن كالكباب والكوفتة والششبرك والرشته والخشكنانج والقليه والجاورما والبورق والعبا وهكذا كل طعامٍ دلّنا اسمه الاعجمي انه ليس من صنع العرب بخلاف المهلبية فانها من صنع الوزير المهلبي والرشيدية طعامٌ من الحلويات كالمهلبية منسوبٌ الى هرون الرشيد والمأمونية لابنه المأمون والمتوكلية للمتوكل العباسيّ والقدور الابرهيمية لابرهيم بن العباس الصوليّ واما اصابع زينب فقد ذكروا انها من صنع اهل بغداد

ثم لما ظهر ذوو البراعة من العرب في زمن الخلفاء العباسيين المشار اليهم

(١) الدراجة مؤنث الدراج وهو طائر جميل المنظر ملوّن الريش قيل ان لحمه يزيد في الدماغ والفطنة

(٢) لعله من سفيد . لحم يطبخ في السفود للاشتواء

(٣) لب البرّ مثلًا

بحث البعض منهم في فن الاطعمة وألّفوا فيه كتباً ومنهم ابو الحسن بن يحيى بن ابي منصور المنجم النديم كان نديم الخليفة المتوكل ومن خواصه وجلسائه وكان قبل ذلك متصلاً بالفتح بن خاقان وكان حاذقاً ايضاً في صناعة الغناء وله عدة مؤلفات منها كتاب الشعراء القدماء والاسلاميين وكتاب في اخبار اسحاق بن ابرهيم الموصلي وكان أخذ الغناء عنه وغير ذلك ألّف كتاباً في الطبخ توفي بسرّمن رأى سنة ٢١٥ للهجرة (سنة ٨٨٩ م) ومنهم الامير المختار عزّ الملك صاحب التاريخ المشهور في مصر المعروف بالمسبحي ألّف كتاباً في الطعام والادام توفي في سنة ٤٢٠ للهجرة (سنة ١٠٢٩ م)

وكانت العرب تولم الولائم وتسمّيها باسماء متنوعة بحسب ظروفها ودواعيها ومن ذلك الخُرس للنفساء ومنه المثل تخرّسي يا نفس لا مُخرّسة لكِ قالته امرأة ولدت ولم يكن لها من يهتمّ بامرها يضرب في قيام المرء بحاجته نفسه اذا لم يكن له من يقوم بها . والعقيقة للطفل والإعذار للختان والملاك للخطبة والوليمة للعرس والوضيمة للميت والوكيرة للبناء والعتيرة لهلال رجب والتحفة للزائر والشُّندُخ لضالّ اذا وُجد والنقيعة للقادم من سفر والقرى للضيف والمأدبة هي التي تُعمل حيثما لم يكن هناك سبب يوجب عملها والجَفَلى او الحفلى هي الضيافة العامة والنقرى الضيافة الخاصة بالافراد والحِذاق لحافظ القرآن في الاسلام

ويقولون اوّل من سنّ القرى هو ابرهيم الخليل واول من اقعد جيرانه على طعامه في الاسلام هو عبد الله بن عباس الذي كان اوّل من وضع موائده على الطريق ايضاً

ويسمّون الاكلة الواحدة البزمة وهي وزن ثلاثين درهماً والقليل من الطعام البَسيس وما بقي على المائدة نُخار وما بقي عليها مما لا خير فيه الخُشار وما فضل من الطعام او الادام في الاناء او خاص بالصحفة الأُرْشُم قال الشاعر

لا تحسبنّ طعام قيس بالقنا وخبزاهم بالبيض حشو الأُرْشُم

واما السُّلفة واللُّهنة فهما طعام الاعجال قبل الغداء والعجالة طعام المستعجل قبل اوان الغداء والسَّحور طعام السحر والصَّبوح طعام الصبح والغداء طعام الظهر والعشاء طعام المساء والزاد طعام السفر والجائزة ما يُعطى الضيف بعد اكرامه ثلاثة ايام فيجوز به مسافة يوم وليلة ومنه الحديث الضيافة ثلاثة وجائزته يوم وليلة

وكانت اوفى الاطعمة عند العرب في الجاهلية تسمّى الدسيعة والجفنة والقصعة والصحفة والمئكلة والصحيفة . فالصحيفة تكفي رجلاً واحداً والدسيعة وهي اعظم هذه الآنية كانت تكفي عشرة وما بينهما ما بينهما وفي محيط المحيط الجفنة القصعة قالوا اعظم القصاع الجفنة ثم القصعة تشبع العشرة ثم الصحفة تشبع الخمسة ثم المئكلة تشبع الرجلين والثلاثة ثم الصحيفة تشبع الرجل

اما اواني الشرب فمنها التبن وهو اعظم الاقداح يكاد يروي العشرين ثم الصحن مقارب له ثم العُسّ يروي الثلاثة والاربعة ثم القدح يروي الرجلين ثم القعب يروي الرجل ثم الغمر

وكانوا يأكلون على الخوان وهي المائدة قبل ان يوضع عليها الطعام ثم أُستعمل لها مطلقاً وخدام المائدة يسمونهم النُّدُل ويسمون الطباخ الطاهي من الطهو وهو الانضاج ومن يأكل كل يوم وزمة من الطعام الوزّام ومن يسيء الادب في الاكل الناعط والذي قد شبع حتى بَشِم السنق ومن يضع شماله على شيء يكون على الخوان كي لا يتناوله غيره خردبان وهو فارسي معرّب خوان كرده بان اي حافظ الرغيف ومنه جردب في الطعام وجردم قال الشاعر

اذا ما كنت في قوم شهاوى … فلا تجعل شمالك جردبانا

والجيء الدعاء الى الطعام والشراب قال الشاعر

وما كان على الجيء … ولا الهيء امتداحيكا

قال ابو عمرو الهيء الطعام والجيء الشراب ويسمون الاكل بمقدم اللسان

القصم والمتصدي على الطعام الوارش والمطفل على الشراب الواغل والحُضُر الذي يتحيّن طعام الناس حتى يحضرهُ والحُضُر الواغل اي الداخل على القوم في طعامهم وشرابهم والحرّاف الاكول جدًّا والملع الذي يجوع سريعًا واما قول المولد بن طفلي ومتصل فهو نسبٌ الى طفيل بن زلال الداري رجل من الكوفة كان يأتي الولائم من غير ان يُدعى اليها فقيل له طفيل الاعراس وضُرب به المثل في ذلك قال بعض الطفيليين

نحن قومٌ اذا دُعينا اجبنا ومتى نُدعَ ما يدعُنا الطفيل
ونقل عنّا دُعينا فعسى واذا لم يجدنا الرسولُ

وقد عدّ المؤلفون عيوبًا كثيرة في قبح المؤاكلة وضعوا لكل منها اسمًا ومنها المتشاوف وهو الذي يتحكم رجوعهُ قبل فراغ الطعام فلا تراهُ الا متطلعًا ناحية الباب يظن ان كل ما دخل هو الطعام

والمداد هو الذي يستغرق في عد الزبادي ويمدّ على اصابعهِ ويشير اليها ويشهي نفسه

والجرّاف هو الذي يجعل اللقمة في جانب الزبدية ويجرف منها الى الجانب الآخر

والرشّاف وهو الذي يحمل اللقمة في فيهِ ويرشفها فيسمع لها حين البلع صوت لا يخفى على جلسائهِ وهو يلذّ بذلك

والنفّاض وهو الذي يجعل اللقمة في فيهِ وبعض اصابعهِ في الزبدية

والقرّاض وهو الذي يقرض اللقمة باطراف اسنانهِ حتى يأخذها ويضعها بعد ذلك في الطعام

والنهّات وهو الذي ينهت في وجوه الآكلين حتى يبهتهم ويأخذ اللحم من بين ايديهم

والنتّات وهو الذي ينتُّ اللقمة باطراف اصابعهِ قبل وضعها في الطعام

والعوّام وهو الذي يجعل ذراعيهِ يمنة ويسرى لأخذ الزبادي

والقسّام وهو الذي يأكل نصف اللقمة ويعيد باقيها الى الطعام من فيهِ

والمخلّل وهو الذي يخلّل اسنانهُ باظفارهِ

والمزبد وهو الذي يجعل معهُ الطعام

والمرتّخ وهو الذي يرتّخ اللقمة في الامراق فلا يبلع الاولى حتى تلين الثانية

والمنتّش وهو الذي ينتّش على اللحم باصابعهِ

والمرشّش وهو الذي يفسخ الدجاج بغير خبرة فيرشّ على مواكليهِ

والمنشّف وهو الذي ينشّف يديهِ من الدهن باللقم ثم يأكلها

والمتبّب وهو الذي يملأ الطعام لباباً

والصبّاغ وهو الذي ينقل الطعام من زبدية الى زبدية أُخرى ليبرّدهُ

والنافخ وهو الذي ينفخ في الطعام

والحامي وهو الذي يجمل اللحم بين يديهِ ويحميهِ عن مواكليهِ

والمنحّح وهو الذي يزاحم مواكليهِ بجناحيهِ حتى ينحّح لهُ من في احسن فلا يذق عليهِ الاكل

والشطرنجي وهو الذي يرفع زبدية ويضع اخرى مكانها

والمهندس وهو الذي يقول لمن يضع الزبادي ضع هذه هنا وهذه هنا حتى يضع قدامهُ ما يحب

والمتمني وهو الذي يقول لصاحب المنزل عند فراغ الطعام ان كان بقي عندك في القدور شيءٌ فاطعم الناس فان فيهم من لم يأكل

ومع ان غسل الايادي قبل الطعام هو سنّة في الاسلام قد يعتبين بان العرب ليس في الجاهلية فقط بل في صدر الاسلام ايضاً لم يعتبروا كما يجب غسل الايادي بعد الطعام فكانوا يمحون عنها الزفر اما بأثوابهم او بشيء آخر كالتراب ونحوهِ والاصل في التطهير عندهم هو الماء فقط واما الصابون الذي من شأنهِ قلع اثر المادة الدهنية وغيرها فلا يعوّل عليهِ في النظافة الاّ قليلاً

وكانت الاطعمة الحارة كاللحوم والدجاج تحملهم بان يقبضوا عليها لاجل الفسح وقت الاكل بمناديل ونحوها لوقاية ايديهم من حرارتها . حكى الاصمعي ان سليمان بن عبد الملك احد الخلفاء الامويين كان شرهاً نهماً وكان من شرهو اذا أُتي بالسفود وعليه الدجاج السمين المشوي لا يصبر الى ان يؤتى بمنديل او ببرد فكان يأخذ بكمهِ فيأكل واحدة حتى يأتي عليها وان الخليفة هرون الرشيد ظن ما كان يراهُ من آثار الدهن على جباب سليمان المذكور طيباً انتهى . لكن لم تطل المدة بعد الاسلام حتى صار الغسل عند الحضر قبل الطعام وبعدهُ من الضروريات التي لا بد منها وقد اعابوا بعض الاضياف الذين يبدلهم الحديث وقت غسل ايديهم فيبقى الغلام واقفاً والابريق في يدهِ والناس ينتظرونهُ

ونهى الاسلام عن الاكل في السوق لانهُ دناءة وعن الاكل والشرب في حالة الوقوف وعن النفخ في الطعام والشراب وان لا يؤكل الطعام حاراً وان يؤكل من ياكل من سقط المائدة ونهوا عن ان يتبع الرجل نظرهُ لقمة جيو وعن الاكثار من الاكل فان كثرة الطعام تميت القلوب واوجبوا الاكل والشرب باليد اليمنى وضمّ الشفتين عند الاكل وان لا يلتفت يميناً ولا شمالاً ولا يأتلم بسكين ولا يجلس الانسان فوق من هو اشرف منهُ ولا يبصق في الاماكن النظيفة وان يباكر الغداء ويقولون في امثالهم خير الغداء بواكرهُ وخير العشاء سوافرهُ وفي بعض المؤمنات بواصرهُ اي ما يبصر من الطعام قبل هجوم الظلام

وكان الحرث بن كِلدة طبيب العرب في الجاهلية يقول اذا تغدّى احدكم فلينم على غدائهِ واذا تعشى فليخطُ اربعين خطوة

ومن نهي الاسلام ايضاً ان لا يُعاب الطعام فان اشتهاهُ الرجل اكلهُ والاّ تركهُ ولكنهم اباحوا المهازلة عليهِ واعابوا على الضيف كثرة الاكل المفرط (الاّ ان يكون بدوياً فانها عادتهُ) واتخاذ خريطةٍ ليقلب بها الزبادي والامراق والحلوى واتخاذ الولد الصغير الذي يبكي وقت الانصراف من الطعام ليعطى لهُ منهُ شيء على اسمهِ

وقد ذمّت امرأة من العرب زوجها فقالت ان اكل لفّ وان شرب اشتفّ يعني ان اكل ضمّ الشيء بالشيء وان شرب تناهى في الشرب حتى يستأصل الشفافة وهي ما بقي من الشراب في الاناء فذهب قولها مثلاً

وجرت العادة عند العرب اهل الخيام باكرام الضيوف فانهُ متى دخل عليهم انسان لابدّ انهم يعزمون عليهِ ويشدّدون في العزومة ومن كل طعام انسان فقد دخل تحت حمايتهِ وحصل في امانٍ منهُ فيبعد ان يرجع للغدر بهِ ويقال ان المسافر متى اكل مع شيخ من مشائخ العرب فان عند الشيخ يحميهِ عند الحاجة على قدر الامكان وفي بعض المواضع لهم مضائف ينزل بها المسافرون ويأكلون ويشربون بدون مقابل وقال آخرون ان اهل البدو حيث ينزل عندهم الضيف يذبحون لهُ ذبيحة ومنهم من يغسل لهُ رجليهِ ويتناول معهُ خبزًا وملحًا ومن هذا الوقت يكون حرمًا مدّة اقامتهِ عندهم فهم مع كونهم يضرّون المسافر في المغارة ويسلبون جميع ما عليهِ من الثياب ولا يرقّ قلبهم لشكواهُ ولا بكائهِ ولكن متى وصل الانسان الى اعتابهم وجب عليهم اكرامهُ واحترامهُ واطعامهُ ما تيسّر عندهم

وقد اشتهر بنو غسّان في زمن الجاهلية باكرام الضيوف وضُرب بهم المثل في ذلك فقيل أقرى للضيف من بني غسّان وكانت العادة في الجاهلية ايضًا اذا نزل بهم ضيف حطّوا اليهم رحلهُ ولم يأخذ معهُ [illegible] من الماء في السمت ولذلك قال مرّة بن محكان يخاطب امرأتهُ

يا ربّة الدار قومي غير صاغرةٍ ضمّي اليك رحال القوم والقُرُبا

[illegible] العرب [illegible] لانهم عنده في امان من الغارات ولا يحتاجون الى السلاح

واما في بلاد الاسلام متى استضافوا احدًا فمن الآداب عندهم ان المضيف يخدم ضيفهُ وان يظهر لهُ الفرح وبسط الوجه ويقولون تمام الضيافة الطلاقة

عند اول وهلة واطالة الحديث عند المؤاكلة قال عاصم بن وائل

وانّا لنقري الضيف قبل نزوله ونشبعه بالبشر من وجه ضاحك

وانه يجب على المضيف ان يسقي دابة الضيف ويكرمها قبل اكرامه وان يحدث اضيافه بما يميل نفوسهم اليه ولا ينام قبلهم ولا يشكو الزمان بحضورهم ويبشّ عند قدومهم ولا يحدثهم بما يروعهم به وان يامر غلمانه بحفظ نعالهم وتفقد غلمانهم بما يكفيهم وان يمنع جماعة عن الوقوف ببابه عند حضور الطعام وان يسهر مع اضيافه ويؤانسهم بلذيذ المحادثة ويريهم مكان الخلاء ويشيعهم وقت الانصراف الى باب الدار

ويراد بالحاجب المذكور هنا بواب الدار فان من العادة عند المسلمين ان لا يدخل دُورهم احدٌ قريبًا كان او غريبًا بدون استئذان فان لم يكن الزائر معروفًا عند هذا الحاجب عرّفه باسمه ليدخل على صاحب الدار ويستأذنه بدخوله عليه فان لم ينشرح لذاك صدرهُ رجع الحاجب واعتذر لذلك الزائر بما يرضيه والّا قال له ادخل على الرحب والسعة او اهلاً وسهلاً تفضّل وفي كتب اللغة اهلاً وسهلاً بالنصب على المفعولية اي صادفت اهلاً لا غرباء ووطئت سهلاً لا حزنًا وهو ترحيب

واما ما يجب على الضيوف في مقابل ذلك فهو موافقة المضيف في امور منها الاكل مما يقدّمه لهم من الطعام وان لا يعتذروا بالشبع بل ياكلون كما امكن ولا يسألوا صاحب المنزل عن شيء من داره سوى [illegible] مدخل [illegible] وموضع قضاء الحاجة وان لا يسمعوا من [illegible] ولا [illegible] احد المنزل عن حركة كما يفعل شيء او احضر شيء [illegible] حريم وقد [illegible] المذكورة [illegible] شرحها [illegible] الاشراف باظهار ما عندهم من [illegible] وثم مرتفع تدل الى داخل الدار تحت حجاب [illegible] الرجل

بيت صديقهِ ويأكل وهو غائب لان ذلك من باب فعل الخير كما انهم يكثرون في مدنهم بناء المقاعد والسبل لابناء السبيل لاجل هذه الغاية ايضاً

الفصل الرابع

في آداب التحية وانواع المخاطبات

النداء . ادواتهُ في اللغة العربية الالف للقريب دون البعيد تقول أزيد والياء للقريب والبعيد تقول يا زيد وايْ وأيا وهيا لنداء البعيد دون القريب ومن عادتهم وصف المنادى ابداً فكان الرجل في الجاهلية اذا اراد ان ينادي من جهل اسمهُ او يريد ملاطفتهُ فيقول له يا وجه العرب او يا اخا العرب او يا اخا طيء اذا كان طائياً او عبس اذا كان عبسياً مثلاً . كأن نسبتهُ الى تلك القبيلة تحقق له عدم المباهاة وتوجب له الفخر او ينادي من كان عارفاً به بكنيتهِ او يريد ان يعظمهُ ويرفع قدرهُ فيقول له يا ابا الفوارس او يا حامية القبيلة الفلانية او ينادي من كان اعظم قدراً منهُ فيقول له يا مولاي وسيدي فيجاوبهُ المنادي بقولهِ لبيك وسعديك ومعنى لبيك انا مقيم على طاعتك واخلاصي لك لباباً خاص واما سعديك فمعناهُ اسعاداً بعد اسعادٍ ولذلك كان لابد للاعراب ان تقرن الاسماء بالالقاب والكنى

الالقاب . هي على ثلاثة انواع لقب تشريف ولقب تعريف ولقب تعييب

وهذا الثالث قد نُهي عنهُ في الاسلام وقد يجعل اللقب علمًا من غير نبز(1) فلا يُعبّر عن شيء وفي اصطلاح اهل العربية علمٌ يُشعر بمدحٍ او ذمٍّ باعتبار معناهُ الاصلي ولذلك كما انهُ يوجد من اسمائها ما هو مليحٌ كالحارث وهمام وما هو قبيح كحرب ومرّة كذلك الالقاب . يُحكى ان ابا صفرة وهو ابو المهلب المشهور كان اسمهُ ظالم بن سرّاق وقيل سارق الازديّ جاء الى الامام عمر بن الخطاب وطلب منهُ ان يوليهُ عملاً فقال له ما اسمك فقال ظالم فقال ابن من قال ابن السرّاق فقال له انت تظلم وابوك يسرق ولم يولِّهِ شيئًا تطيُّرًا باسمهِ واسم ابيه

وكانت ملوك العرب في اليمن يُلقَّبون بالاذواء كذي سدَر وذي رياش وذي منار وذي الاذعار وذي القرنين وذي جيشان وذي رُعين وذي الاعواد وذي الشناتر وذي حَدَن وذي يزن وذي نفر وذي ظليم وذي كلاع وذي فائش وذي أصبح وذي نواس وذي يزن وذي مروان وذي قيفان وذي عل وكان هذا اول ملك غزا الروم من ملوك اليمن واول من ادخل الديباج والحرير اليها ايضًا وذي الملك الذي كان اول من رتب الرواتب واقام الحرس بالرباط وكان لقب الاذواء هذا مختصًّا بالذين يملكون اليمن وحدها فقط

واما الذين كانوا يملكون في اليمن ولهم حمير وحضرموت ايضًا فكانوا يلقَّبون تُبَّعًا كما كانوا يلقّبون ملوك الحيرة بالمنذر او النعمان وملوك الخزر بالشاد وملوك الصين بالفغفور او البغبور وملوك فرغانة بالاخشيد وذكر ابن خلكان ان تسميتهُ ملك الملوك وكذلك كل من ملك فارس كسرى معرّب خسرو وقيل ان معناهُ واسع الملك ومن ملك الترك خاقانًا ومن ملك الروم قيصرًا قال ابن خلدون ان معناه بالعربية شُقَّ عنهُ وسببهُ ان امّهُ ماتت في المخاض فشُقَّ بطنها وخرج فسُمّي قيصرًا واول من تسمّى بهِ اغسطس ملك رومية وقال آخرون قيصر ملك الرومانيين معرَّبة جيسر وهو اشقّ لان اول

(1) النبز لقب قيل هو شائع في الادب المشتهرة قبيحة

من لُقب به من القياصرة كان حوذة مثنوقاً ويسمّون مَن ملك الشام هرقلاً ومَن ملك الحبشة نجاشياً ومَن ملك مصر مع الاسكندرية عزيزاً والقبط فرعوناً ومعناهُ التمساح

وكانوا يسمّون قواد البعوث بالامير وهو فعيل من الامارة (فسمّت الجاهلية صاحب الشريعة الاسلامية امير مكة وامير الحجاز) ثم تسمَّى خليفة ابو بكر بالخليفة ولقب الخليفة بعدهُ وهو عمر بامير المؤمنين وتوارث هذا اللقب الخلفاء من بعدهِ وصار ذلك علماً لهم

وكانت الشيعة تخصُّ الامام عليًّا ومن يسوقون اليهِ الخلافة بعدهُ بالامام الى ان استحدث الخلفاء العباسيون الاعلام تمييزاً لاسمائهم عن امتهانها في الدين السوقة وصوناً لها من الابتذال فتسمّوا بالسفاح والمنصور والمهدي والهادي والرشيد الى آخر الدولة واقتفى اثرهم في ذلك العبيديون بافريقية ومصر ومع ان بني أُمية كانوا تجافوا عن مثل ذلك بالمشرق حيث كان لا يزال لم يتحوّل عنهم شعار البداوة الى شعار الحضارة ذهبوا اخيرًا في بلاد الاندلس مذهب العباسيين بالمشرق وتسمَّى عبد الرحمن الآخر بامير المؤمنين ولقب بالناصر لدين الله (راجع الفصل الاول من هذه المقالة)

وكان الخلفاء يخصون الملوك الذين تحت رياستهم بالقاب تشريفية يُستشعر منها انقيادهم لها وطاعتهم مثل شرف الدولة وركن الدولة وعضد الدولة ونظام الملك وذخيرة الملك ومن الملوك ايضاً الناصر والمنصور وصلاح الدين واسد الدين ونور الدين الخ . ويخاطبونهم في المراسيم التي يبعثون بها اليهم بالجناب الرفيع الخاقاني او الجناب العالي الشاهنشاني واما السلاطين فكانوا يكتبون في الامضاء على معروضاتهم للخلفاء خادمك المطواع فلان او عبدك فلان والخطاب بعد ذلك سيدنا ومولانا امير المؤمنين وامام المسلمين وخليفة رب العالمين قدوة المشارق والمغارب المنيف على الذروة العلياء ابن لوي بن غالب

وكان من اشراف العرب قومٌ يقال لهم المطيّبون وهم بنو عبد مناف شريف العرب الذي تقدّم ذكرهُ في الفصل الثالث من المقالة الثانية وبنو اسد ابن عبد العزّى وزهرة بن كلاب وتيم بن مرّة والحارث بن فهر تلقبوا بذلك لانهم غمسوا ايديهم في خلوق[1] وتحالفوا على الحرب من اجل سدانة الكعبة ثم تداعوا للصلح على ان يسلموا لبني عبد مناف السقاية والرفادة ويختص بنو عبد الدار بالحجابة واللواء

وقومٌ آخرون يقال لهم الرباب وهم بنو عبد مناة بن اد بن طابخة ومنهم تيم وعدي وعوف وثور تلقبوا بذلك لانهم غمسوا ايديهم في الرب[2] في حلف على بني ضبّة

واما شيبة الحمد فهو عبد المطلب لُقّب بذلك لشيبة في رأسهِ حين وُلد قال حذافة بن غانم

بنو شيبة الحمد الذي كان وجههُ يضيء ظلامَ الليل كالقمر البدرِ

ولُقّب امرؤ القيس بذي القروح لان ملك الروم كان كساهُ حلّةً مسمومة متقرّحة ومعنى امرئ القيس رجل الشدة وهو لقب له ايضًا قيل لُقّب به حين قتل اباهُ علباء بن الحرث الكاهلي فحلف انهُ لا يشرب خمرًا ولا يقرب امرأة ولا يغسل رأسهُ حتى يدرك ثارهُ اما اسمهُ الحقيقي فهو جُنْدُح

وذو الأنف النعمان بن عبد الله قائد خيل خثعم يوم الطائف[3]

وكان جعفر بن عوف من بني قُريع من ولد تميم يُلقّب انف الناقة وهو ابو بطن من سعد بن زيد مناة لان اباهُ نحر جزورًا فقسم بين نسائهِ فبعثت جعفرًا امهُ فاتاهُ وقد قسم الجزور ولم يبقَ الّا رأسها وعنقها فقال له شأنك بهِ فادخل يدهُ في انفها وجعل يجرّها فلُقّب بهِ وكان ولدهُ يغضبون من هذا اللقب

---

(١) الخلوق الطيب (٢) راجع الكلام عليه في الفصل الثالث من هذه المقالة

(٣) ثالث غزوة من غزوات صاحب الشريعة الاسلامية

الى ان مدحهم الحطيئة بقوله

قوم هم الانف والاذناب غيرهم ومن يساوي بأنف الناقة الذنبا

وجران العود لقب عامر بن الحرث النمري لُقّب به لقوله يخاطب امرأتيه

خذا حذرًا يا جارتيّ فانني رأيتُ جران العود قد كاد يصلحُ

وذلك انه اتخذ لزوجتيه اللتين كانتا تعصيانه سوطًا من الجران ووضعه في الشمس فانذرهما بجفافه وقرب ضربهما به

ولُقّب خزيمة بن سعد الخزاعي بالمصطلق لحسن صوته وشدته

وهكذا بعد الاسلام ايضًا فان ابا بكر اول الخلفاء لُقّب بالصديق لشدة صدقه

ولُقّب عمر الخليفة الثاني بالفاروق لفرقه بين الحق والباطل

ولُقّب عثمان بن عفان الخليفة الثالث بذي النورين لانه تزوج بنتي صاحب الشريعة الاسلامية

ولُقّب علي بن ابي طالب الخليفة الرابع حيدرة لقول امه له ذلك ومنه الحديث انا مدينة العلم وحيدرة بابها

ولُقّب مروان بن الحكم خامس الخلفاء الامويين بخيط باطل وذلك انه كان طويلاً مضطربًا فلُقّب به لدقته لان الخيط الباطل هو الهباء الذي يكون في ضوء الشمس وقيل هو الخيط الذي يخرج من فم العنكبوت وفيه يقول الشاعر

لحى الله قومًا ملّكوا خيط باطلٍ على الناس يعطي من يشاء ويمنعُ

ولُقّب ابنه عبد الملك بن مروان سادس الخلفاء المذكورين برشح الحجر وابي ذبان لبخله وبخره

ولُقّب مروان بن محمد بن مروان آخر الخلفاء منهم بالحمار وذلك لان

ملك بني أمية في زمن خلافته كان قارب المئة سنة والعرب يعبّرون عن كل قرن من السنين بالحمار كما يعبّرون بالحقب عن الدهر ومجموعه على احقاب وقيل الحقب ثمانون سنة وقيل سبعون اما الحقبة من الدهر فهي مدّة لا وقت لها

ولُقب سعيد بن العاص بعكة العسل لحلاوته

ولُقب الفضل بن سهل بذي الرئاستين لانهُ دبَّر امر السيف والقلم يعني رياسة الجيوش ورياسة الدواوين

ولُقب سعيد بن عبادة بالكامل لانهُ كان يكتب ويحسن الرمي والعوم قال الاصمعي كان الرجل في الجاهلية اذا كان شاعرًا كاتبًا سابحًا راميًا سمّوهُ الكامل وقد شاع على الالسنة قولهم من خطّ وعام وضرب بالسهام فقد استكمل كل الفضل

ولُقب عبد الله بن صفية طلحة الخير وطلحة الفياض وطلحة الطلحات لسخائهِ

وعكرمة بن ربعي دُعي ايضًا بالفياض لكرمهِ وجودهِ

ولُقب عبد الله بن عباس بالحبر لعلمهِ

ومن الالقاب الدارجة ايضًا الاعمش والاعمى والاعرج والاحول والاوطس والاقرع ونحو ذلك وقل من وجِدَ في الجاهلية والاسلام وليس له لقب ومن العامة ايضًا من يُلقب بشرف الدين وعزّ الدين وتاج الدين وسيف الدين وامثال ذلك مع انهُ لم يكن من اهل الديانة وربما كان محتويًا على ما يضادّ ذلك

الكنى. وكذلك الكنى هي نظير الالقاب عند العرب ايضًا وربما امتازت عنها اذ لا يجوز لاحد من الناس ان يكني بحضرة من هو اعظم منهُ وخاصة بحضرة الخلفاء فلا يقول انا ابو فلان فان وقع ذلك عدّ من سوء الادب وربما طرد من مجلس الخلفاء وانما الاكابر يخاصون من هم دونهم بكنيتهم اذا ارادوا فان وقع ذلك منهم لاحد عدّ تشريفًا رائعًا وكرامًا لا مزيد عليهِ

وكيفية هذه الكنى هي ان يكنى الرجل باسم ولدهِ والمرأة كذلك فيقال

للرجل ابو فلان وللمرأة ام فلان واذا كنّوا من لم يكن له ولد فيكون على جهة التفاؤل وبناء الامر على ان يعيش فيولد له وقد يكون بما يلائم المكنّى من غير الاولاد كقولهم ابو لهب لحمرة في خديه وكنّي الامام عليٌّ ابا تراب لانه نام في غزوة ذي العشيرة متمرغًا في التراب وكنّي ابو هريرة بهذه الكنية لانه كان وهو صغير يلعب بهرة صغيرة فغلب لسه هذا على اسمه حتى لم تعد تعرف صحته ويكنى الكبير الراس بابي الراس والكبير العمة بابي العمة ومنهم من يكنّى باسم ابنته ولا حرج في ذلك لان الامام عثمان بن عفان كنّي بابي ليلى ومنهم الدري بابي امامة وابي رقية والمقداد بن معد يكنى بابي كريمة ومسروق بن الأجدع بابي عائشة

ولا يحصرون الكنى في الناس فقط بل قد مرّ عنك في الفصل الثالث من هذه المقالة كنى الاطعمة وسوف يأتي بعد ما وقفنا عليه من كنى الحيوانات وغيرها في محلهِ

ويقال انه لم تكن الكنى لاحد من الامم غير العرب ويعدّونها من مفاخرهم قال الشاعر

اكنيه حين اناديه لاكرمه ... ولا القّبه والسوءة اللقبُ

التحية . ويتحصل من كتب الآداب العربية ان العرب في الجاهلية كانوا اذا دخلوا على الملوك قبّلوا الارض بين ايديهم وبل الرجل يقبّل يد من هو فوقه تعظيمًا له واذا اعجب بمن هو دونه او اصغر منه سنًا قبّله بين عينيه وكانوا يقولون للملوك في التحية ابيتَ اللعن ومعناهُ ابيتَ ان تفعل ما تستوجب به اللعن وهو عندهم ما لا يخاطب به الّا الملوك حتى اذا تولّى احدهم الامارة قيل فلان نال التحية اي نال الملك الذي يستدعي له هذه التحية واما في التحيات المعتادة بين بعضهم فيقولون صبحك الله بالخير وكل خير صالح او صبحك بالانعمة وطيب الاطعمة او يقولون انعم صباحًا او عم صباحًا اي طاب عيشك في صباحك من النعمة وهي طيب العيش وخص الصباح بهذا الدعاء

لان الغارات والكرات تقع عندهم صباحاً ومن عادتهم في اشعارهم ان يحيّوا اطلال الديار بهذه التحية ايضاً فيقولون انعم صباحاً ايها الطللُ ويخصّون بها الغيث كما يخصّونه لمراقد الاموات ايضاً لان الغيث اعظم رحمة يتوقعونها لتوقف معيشتهم وحياة مواشيهم عليه ويسلّمون عليها كما يسلّم الرجل منهم على صاحبه في اي وقت زارهُ او لقيهُ ويكون افتتاح مخاطبتهم بهذه العبارة وهي السلام عليكم

قال الشاعر

أَلا يا نخلةً من ذات عرقٍ [1]   عليكِ ورحمةُ الله السلامُ

اما المخاطَب فيجاوب من حيّاهُ بهذه التحية بهذه الالفاظ عينها فيقول وعليكم السلام لان مخاطبة المفرد بصيغة الجمع للتعظيم هي من عادات العرب واصطلاحاتهم ومن امثلة الحمل من تقديم على طالب وهو من قول الشاعر

قالوا السلامُ عليكِ يا اطلالُ   قلتُ السلامُ على اهول محالُ

ومن مكاتهم انه قيل لاعرابيّ السلامُ عليكَ فقال وعليك الحجارات قيل له ما هذا جواب فقال هذان حجران وزان وحملتَ ثقليَّ واحداً منهما حملتُ عليك الآخر

وقد ورث المسلمون عن سلفائهم التحية بهذا السلام عينه ويعتبرونه سنّة وبه يحيّون الخلفاء والملوك ايضاً فيقولون للخليفة السلام عليك يا امير المؤمنين ورحمة الله وبركاته وهو دعاء لهم بالسلامة من الآفات في الدين والعقل والنفس والعرض والجسم والمال والجاه والولد والاهل اي كان الله معكم حافظاً لكم وفي سورة طه والسلام على من اتّبع الهدى اي من اتبع هدى الله سلم من عذابه وسخطه ولذلك اعتبروه شعيرةً اسلامية تقوم مقام كل تحية كانت تقتضيها الوقت من النهار والليل ولا يحيّون به من كان على غير الاسلام بل ولا يسمحون

---

(1) اسم محل من اراضي العرب

له ان يلفظ به ايضاً

ومن هذا السلام ما جاء في امثال المولدين وهو قولهم الف دُق دُق ولا سلام عليكم ودق دق هي حكاية صوت قرع الباب فكأنهم يقولون الف طارق يدق الباب وينتظر حتى يفتح له ولا طارقٌ واحد يجد الباب مفتوحاً فيدخل عليهم بغتة قال الشاعر

اعلقوا بابكم مخافة واشٍ الف دُقٍّ دُقٍّ ولا سلام عليكم

ويقولون ايضاً حديثه باسمه من الدقدق الى السلام عليك اي من الاول الى الآخر يعني من طرق الباب الى ان ودَّع بعد السلام وهو مبنيٌّ على المثل المذكور

ومن التحيات العامة غير هذا السلام قولهم عند اللقاء صباحاً اسعد الله صباحكم او الله يصبحكم بالخير وعند الضحى يبدلون لفظة الصباح بلفظ النهار فيقولون مثلاً نهاركم سعيد ونحو الظهر اوقاتكم سعيدة ومن العصر الى الغروب الله يمسيكم بالخير وبعد الغروب ومدة الليل ليلتكم سعيدة

الاستقبال. ويحافظ المسلمون على ان ينهض المزور الى الزائر على قدميه وقد يستقبله بعض خطوات الى [illegible] ويجلسه الى جانبه وربما اجلسه فوقه وجلس هو بين يديه رغبةً في اكرامه اذا كان من اهل الاسلام وبالجملة جرت عادتهم بملاطفة الزائر غريباً كان او وطنياً يعرفونه من ذي قبل او لا يعرفونه مسلماً كان او غير مسلم عدوًّا او صديقاً فيشكرون له ويخبرونه بسرورهم واشتياقهم الى رؤيته وفرحهم بقدومه واعتزازهم بمعرفته وانشراحهم لزيارته وانهم مرهونون لكل ما يرومهُ من الاغراض والحاجات ويزيدون ايضاً من ان يصنعوهُ [illegible] ولو اخترعوها اذا لم تكن موجودة وبه يحسن الطباع ودماثة الاخلاق والظرف واللطف والادب والذكاء ولا يميزون في مثل ذلك بين المسلم وغيره الاّ بوصف التدين والتقوى والفضيلة في عالم واحد كانت بعضهم فضيلة الزائر

او مارة معروفة سَوْانهُ مائم لامحسوبة منهم لامنيرهم محاسن الاخلاق والاوصاف المذكورة دون [illegible]

الجلوس (١). وللعرب جلسة خاصة بهم يجلسونها في اي محل وجدوا فيه حيث [illegible] في [illegible] ى في حيام لابوجد فيها حيطان يسند اليها في منهم وكان الرجل منهم ينيم ركبتيه في جوسد و [illegible] سيفاً او يديه [illegible] ويعقد [illegible] فيستريح اليها وتقوم له ذلك مقام الاسناد وقال بعضهم هو ان يجلس الرجل على ركبتيه متكئاً ويلصق بطنه بفخذيه [illegible] كثير وهي جلسة الاعراب واسموها القرفصاء وفي محيط المحيط والاعراب جلسة تسمى الحبوة من الاحتباء وهو ان يجمع الرجل بين ظهره وساقيه اذا جلس ليصير كالمسند ثم [illegible] بالقعود قالوا حل حبوته اي قام وعقد حبوته اي قعد

واما لحضرموتهم في الجلوس آداب يراعونها بكل تدقيق وخاصة في المجالس الحافلة ودواوين الكبراء وذوي المراتب والمساند العالية ومنها جلسة يقال لها التربع وهي ان يجلس الرجل ملتفاً باثوابه وركبتاه منثنيات الى الارض بحيث يكون قدم كل رجل من رجليه تحت ركبته الاخرى ويسند بظهره فيكون بذلك مثلاً بوجهه على الجالسين عن جانبيه بلا فرق وجلسة اخرى يقال لها على ركبة واحدة وهي ان تكون احدى ركبتيه قائمة والاخرى منثنية جانبها لكن يلاحظ فيها ان لاتكون الركبة القائمة من الجهة التي يكون جالساً فيها رجل فوقه في المرتبة وجلسة ثالثة وهي ان يركع الرجل على ركبتيه وقدماه منبسطتان الى الوراء وهذه الجلسة هي اعظم وقاراً واكثر تأدباً من كل انواع الجلوس وعلى اية صورة كان الجلوس لايكون متأدباً كالواجب الا باخفاء الاقدام وعدم ظهورها مهما امكن بحيث لا يظهر شيء من آثار القدمين ومن العادة ايضاً ان لايجلس الصغير بحضرة الكبراء الا بعد ان يأمروه بالجلوس ثلاث مرات اما لفظاً او بالاشارة . واما دخول الانسان الى المجلس بدون خلع نعليه او اذا

(١) الجلوس خاص [illegible] ان [illegible] للابل والجثوم للطير

مدَّ رجله بعد ان يجلس او وضع رجلاً فوق اخرى فكان كل ذلك يعدُّ من سوء الادب وعدم الوقار بما لا مزيد عليه

ما يقدم للزائر . وبعد ان يستقر جلوس الزائر عند احد ولا بدَّ من اكرامه بتقديم ما تيسَّر من الطعام ولذلك كلامٌ سوف يذكر في المقالة التالية واما الحضر فلا يكون تقديم الطعام الى الزوار الا في الولائم او الدعوات الخصوصية الاَّ اذا كان الزائر نزيلاً او مقبلاً من سفر لكن في الزيارات المتبادلة الاعتيادية فيكون اكرام الزائرين بتقديم شيء لهم من انواع الفواكه المطبوخة بالسكر والمشروبات من السكر والقهوة والتدخين فقط وبذلك يشترك جميع الحاضرين بدون فرق ولا تمييز الا في التقديم والتأخير بحسب الرتب ودرجات العمر

تشييع الزوار . ثم في وقت انصراف الزائر ينهضون كذلك حال نهوضه وقوفاً على الاقدام ويصرفون برهةً وهم وقوف يشكون له فيها ما سوف يكابدونه من الوحشة لفراقه وما سوف يلمُّ بهم من الاشواق اليه وربما شيعوهُ اذا كان من اصحاب الحيثية الى باب الدار وهم يرجونهُ العودة وان لا يبخل عليهم بالزيارات المتواصلة ولا يجعل زيارته لهم كبيضة الديك لانهُ يقال ان الديك يبيض مدَّة زمانه بيضةً واحدةً قال ابو العتاهية

يا اطيب الناس ريقاً غير مختبرٍ ... الا شهادة اطراف المساويكِ (1)
قد زرتنا مرةً في الدهر واحدةً ... ثنّي ولا تجعليها بيضة الديكِ

مع انهُ قد جاء في الحديث زُرْ غبّاً (2) تزدد حبّاً واحوى من اسوى يعني ان البعد يورث المحبة ومنهُ تتولد وان الانسان اذا كثر يُرى كل يوم استُحقِر

(١) المساويك جمع مسواك وهو عود تحك به الاسنان لتنظيف

(٢) غبّاً من اليوم يغبّ غبّاً اذا ورد يوماً وترك يوماً والمعنى زر الرجل حيناً زائراً بعد ايام او كل اسبوع

وقد قال الحارث بن حلزة اليشكري

آذنتنا ببينها(1) أسماء   رب ثاو يمل منه الثواء(2)

وداع الراحلين. وكانت العرب تقول في وداع الراحلين شاعكم السلام او شاعكم الله بالسلام اي اتبعكم اياه وجعله صاحبًا لكم وتابعًا وهو يقابل قولهم السلام عليكم في تحية اللقاء على ما سبقت الاشارة اليه او يقولون سر على الطائر الميمون وذلك انه يمن في سفرك اذا كان المودّع قاصدًا السفر. واما الحضريون الآن فيقولون له مع السلامة آنستم شرفتم وحلّت البركات ومعكم الله السلامة ويرجون ان تسلّم على الاصحاب وان تطمئنا بوصولك بالسلامة

آداب الجمعية. وكان من آداب العرب في اجتماعاتهم تشميت من عطس في الحضرة وفي درة الغواص التشميت والتسميت للعاطس اشارة بالشين الى جمع الشمل لان العرب تقول تشمت الابل اذا اجتمعت في المرعى وبالسين الى ان يُرزق السمت الحسن وبذلك يقول الحاضرون لمن عطس في المجلس رحمك الله اما هو فيجاوبهم نحن وانتم وعامة المسلمين

ويقولون لمن شرب الماء هنيئًا بعد ان يقول هو عقيب شربه الحمد لله فيجاوب كل واحد من الذين قالوا له ذلك من الحضّار هناكم الله ويدهُ اليمنى فوق رأسه عند انه من شروط الادب ان الصغير لا يقول ذلك لمن هو اعظم منه قدرًا او اكبر سنًا

وكانت العرب تقول [illegible] اذا تجشأ احد [illegible] يريدون بذلك طال عمرك وحلق رأسك [illegible] من الامور التي يجب الاحتراس منها في مجالس حضر الآن [illegible] الكبراء فاذا أُجبرت الطبيعة على ذلك [illegible] رأسه [illegible] ويقول استغفر الله

---

(1) البينونة [illegible]

(2) [illegible]

ويقولون لمن حلق رأسه او اغتسل او نهض من النوم نعيمًا فيجاوب هو من يقول له ذلك بقوله الله ينعم عليك

وكانت العرب تقول للعاثر لعًا وفي مجمع الامثال للميداني لعًا لك عاليًا ويقال لعل لك يقال ذلك للعاثر دعاء له قال الاخطل بن حزن الحارث

لما مُحمة زوراء احمت بلادها	متى يرما الشاوي يجح به وهَلْ
وارماحا بيهرتهم نهز مُحمةٍ	يقلْنَ لمن ادركنَ تعسًا ولا لعَلْ

وفي درّة الغواص للحريري التعس الدعاء على العاثر بان لا ينتعش ولعًا دعاء له قال الاعشى

بذاتِ لوثٍ عفرناة اذا عثرت	فالتعسُ ادنى لها من ان اقول لَعا

واما في ايامنا هذه فيقولون لمن يعثر الله بحذف حرف النداء غالبًا او يا خضر مثلًا او غيره من الانبياء والاولياء استعانة لوقاية العاثر وحفظه من الضرر

ويقولون لمن لبس الجديد البيت جديدًا وتليت حيًّا اي عشت ملابسك من دهرك وتمتعت به

ولمن اراد له اخاره بما يسرّه بشراك او بشرى لك

ولمن نجح في امر من الامور نعم الله لك عينًا ونعمك اي اقرّ بك عينًا من نعمة واقرّ عينك بمن تحبه. قال الاصمعي اقرّ الله عينك معناه أبرد الله دمعك اي سرّك غاية السرور لان دمع السرور بارد ودمع الحزن حارٌّ. وقال الشيباني معناه أنام الله عينك وازال سهرها لان استبداد الحزن داعٍ الى السهر. وقال آخرون اعطاك الله مناك ومتعاك حتى تقرّ عينك عن الطموح الى غيره

ويقولون لمن يستحسنون قوله لافضّ فوك اي لا كسرت اسنانك ولا

وُرِفْتَ مأخوذ من فض الختم او لا سُدَّ فوك ولا كان من يشنؤك[١]

ولمن يحسنون فعله لا شلت يداك او لا شلت يمينك والمعنى لا يبست وحيّاك الله وحيّاً انه وحياك وحياك وبيّاك قيل ان معنى حيّاك ملّكك وبيّاك اعتمدك بالتحية وبيّض الله وجهك ومن كلام المولدين بورك فيك من طلا كما ورد في لاولا وهو كلام ابي القاسم الحريري في مقاماته لحلية بريد بذلك بارك الله فيك كما بارك في شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية[٢] يقال ان اصل هذا الدعاء قاله اعرابي دخل على ابي حنيفة وسأله بواو ام بواوين يريد التشهد فاجابه ابو حنيفة بواوين فدعا له الاعرابي بهذا الدعاء قال بعضهم ان قول العرب للسائل بورك فيك فهم يقصدون به الردّ عليه لا الدعاء له وقد كثر هذا في كلامهم حتى جعلوه اسماً للرد والدفع

ويقولون لمن ارادوا الدعاء له بقارت[٣] عينك كي يقولون رشدت[٤] امرك ولله درك اي خيرك وعطاؤك وما يؤخذ عنك ولله ابوك اي لله درك والحاسب على ما هو عائله اي غلب ما هو غالبه ويقولون ايضاً اسعدك الله ولا عدمتك ورحمة الله عليك اي اسلافك وفي الاسلام رحمك الله ورحم الله آباءك فيجيب نحن وانتم وعامة المسلمين ويقولون ايضاً اكثر الله جرذان بيتك يريدون بذلك كثار الطعام فيكثر به الجرذان وحيّاك الله اي سانه وقى الله فداك[٥] وحديثاً رضي الله عنك والعامة تقول الله رضي عليك وهو على دابهم بذلك يدعون عليه عوض عن ان يدعوا له ويقولون نغ الله بك آكلاً عمر بني معناه الله طول عمر وهو كناية ولم يساء الله اي اكثر مدته والمرء شعر وقيل ... حرس الله في اجلك واطال الله بقاءك

(١) شيء سفيه مع ... وسوء خلق

(٢) ... مذكورة في ...

(٣) بدر ... ودهش من شدة الحمل ...

(٤) رشد الاهتداء (٥) ... في العيب ...

ويقولون لمن ارادوا ان يظهروا له المحبة مع التعظيم فَدِيتك او جُعِلتُ فداءك يريد المخاطِب ان يظهر للمخاطَب بذلك اعتبارهُ له بهذا المقدار حتى يودُّ ان يكون له فداء في ما يمكن حدوثهُ عليهِ من المصائب او الموت وقد يكتفون بقولهم بروحي او بأبي وامي انت والمعنى تفدّى بروحي وبابي وأمي و يقولون ايضاً لي اشرُ أتم سوادك وهو يقال عند النشجع اذا ظهر الخوف ومعناهُ أتم شخصك وليكن الشرُّ مقدرًا لي لا لك . واما قولهم ابيت اللعن فقد سبقت الاشارة اليهِ في الكلام على التحية وانما يقولون لمن ارادوا اغراءهُ على شيء من الاعمال افعل كذا وخلاك ذمٌ فتكون للعرى بمنزلة ابيت اللعن والمعنى افعل كذا وكذا وقد جاوزك الذمُّ فلا تستحقهُ قال الشاعر

فشأنكِ وانهي فخلاكِ ذمٌ ولا ارجع الى اهلي ومالي

ويقولون في الاستعطاف قِعْدَكَ الله او قعيدك والله اي ناشدتك الله وقيل ان المراد كانه قاعدٌ معك ويحفظك وعَمرك الله اي سألت الله اطالة عمرك وناشدتك الله الاَّ فعلت معناهُ ما طلبت منك شيئاً من الاشياء الاَّ فعلك وقولهم على رسلك يراد بهِ على رفقكَ والرِسْلُ الرفق وحنانيك بلفظ التثنية يراد بهِ تحنَّن عليَّ مرةً بعد اخرى اما قولهم اتبع الفرس لجامها والناقة زمامها واسلو رشاها فيريدون بهِ الامر باستكمال المعروف

وكان من عادة العرب ان يقولوا في الاستغاثة يا لفلان وينادي الرجل منهم يا فلان بن فلان فينتمي الى ابيهِ وجدّهِ لشرفهِ وعزّهِ فلما جاء الاسلام نهى عن ذلك وقد ورد في الحديث مَن تعزّى بعزاء الجاهلية فاعضّوهُ بهنِ ابيهِ ولا تكنوا يعني قبحوا عليهِ فعالهُ

ويقولون بنى باهلهِ وفي درة الغواص البانى على اهلهِ اذ الاصل فيهِ ان الرجل كان اذا اراد ان يدخل على عرسهِ بنى عليها قبةً (راجع الفصل الرابع من المقالة الثالثة) نِعمَ عوفُك والعوف هو البال والشان وقيل ما يقع ذكرهُ

من اعتناء الرجل وفي التهنئة للعريس الرفاء والبنين وهنأ بعضهم معرساً فقال بالرفاء والثبات والبنين وثبات اي بالالتئام وعدم الطلاق واتساع الولادة تشتمل على البنين والبنات . واما المتأخرون فيقولون مبارك ما عملت ربنا تعالى يهنئك وان شاء الله قريب التوفيق ونظر الخير ويجعله الله عرساً مقروناً بالهناء والسرور وما اشبه ذلك

ويقولون فيما اذا ولد لاحدهم مولود مبارك ما جاءك يربى بدلالك ويجعله الله من طويلي الاعمار وان شاء الله تفرح منه وتزوج اولاده وفي درة الغواص ان العرب كانوا يقولون اذا ولد لاحدهم ليهنأ لك الدبحة اي المعظمة لذلك (راجع الفصل المار ذكره)

ويقولون في الزيارات المتبادلة في الاعياد والمواسم كل عام وانتم بخير احياكم الله لكل عام واذا كان المزور عزباً قالوا له في السنة القادمة نشوفك عريساً ان شاء الله او اذا كان متزوجاً ولم يرزق بمولود بعد قالوا له في السنة القادمة يكون عندك غلام وفي عيد الاضحى خاصة يقولون السنة القادمة في عرفات واذا كانوا متغربين عن بيوتهم قالوا له السنة القادمة في الاوطان مع جبر الخاطر ان شاء الله

وكانت العرب تقول للمريض عند ما يعودونه متّع الله ما لك اي ادهمه ورفعه واما المتأخرون فيقولون له زال البأس شفاك الله وعافاك واذا كان متقدماً الى الصحة قالوا له اجراً وعافية يريدون بذلك ان الله يكتب له ما اصابه من ذلك المرض في ميزانه ويعوضه عنه عافية

ويقولون في تعزية المحزونين عظم الله اجركم وجعله قاطع الاسواء عنكم وربما لا بقي يكدر لكم خاطراً ويجعل العوض بسلامتكم وامثال ذلك وكانوا يقولون اذا كان الميت طفلاً اللهم اجعله لنا فرطاً اي اجراً يتقدمنا اما الآخرون فيجاوب كل من عزاه بما يوافق حطابه . يحكى عن ابي الوليد احمد بن عبد الله ابن غالب بن زيدون المخزومي الاندلسي المولود بقرطبة سنة ٣٩٤ للهجرة (سنة

١٠٠٢ م) انه وقف على قبر ميت له والناس يعزونه على اختلاف طبقاتهم فما اجاب احدًا بما جاوب به غيره ولذلك يضرب به المثل في وسع العبارة فيقال اوسع عبارة من ابن زيدون

ويقولون عند ذكر احد المتوفين من اهل الاسلام في مجلسهم رحمه الله او تغمده الله بالرحمة اذا كان ذكر المتوفي لفظًا . اما في الكتابة فيكتبون طاب ثراهُ يعني التراب الذي ضمه وقدس الله روحهُ ونوّر ضريحهُ ومثل ذلك ويعبرون عن الميت بالمتوفي اذا كان مسلمًا ايضًا والّا فالميت او [illegible]

ويقولون حبّذا زيدٌ وهو من افعال المدح اي هو حبيب وقد رجل حسبك من رجل وهو مدحٌ للنكرة ومعناه كافيك لك عن غيره. واما قولهم للمخاطَب حسبك الله فيريدون به انتقم الله منك ويأتي منه حسبنا اي محاسبًا وكافيًا

ويقولون لمن ارادوا اجابته نعم وحبًا وكرامةً ومعناه احبك حبًا واكرمك كرامة

واذا اطلع احدهم رجلاً على معائبه ذمه بقوله انت [illegible] عذري و[illegible] واما قولهم نصحًا له فمعناه بالغ في نصحه وقول المثل [illegible] اي افر بها وما في صدري حزازة ولا لوجاء اي ريبة ولا شك وكلمة في رأسي حوجاء ولا لوجاء اي كلمة قبيحة ولا حسنة واما قولهم حرسك الله فمعناه عافاك الله وجبلك الله معناه عظم الله قدرك والمكروه حاشاك وحاشا [illegible] الاستثناء وترد للتنزيه ومنه حاشا الله عن النقص اي تنزيهًا له عن ذلك وحاشا لله معناه معاذ الله

ويقولون في التمني ليت شعري ومعنى ليت شعري ليت علمي او [illegible] علمت بحقيقته

وكانت العرب في الجاهلية تقول عند الرضى والاعجاب والفخر والمدح بخٍ بالافراد او بخٍ بخٍ بالتكرير للمبالغة وهو اسم فعل معناه عظم الامر وفخم وبَدّ بمعناه ايضًا . اما قولهم وَي فقيل انها كلمة تعجب وقيل زجر تقول وي لزيد

واذا سرّوا بخبر سمعوهُ قالوا واهًا ما ابردها على الفؤاد ويروى واهًا لها من نغبةٍ اي صوتٍ ومن امثالهم انهُ لواهًا من الرجال اي محمود الاخلاق كريم يعنون انهُ اهل لأن يقال لهُ هذه الكلمة اما اللئيم فانهُ غير واهًا قال ابو النجم

واهًا لريّا ثم واهًا واها ... ياليت عيناها لنا وفاها

اما أخ فهي كلمة تكرّه وتأوّه وتوجّع ايضًا يقولونها اذا اصاب احدهم شيءٌ اوجعهُ وهي مثل كلمة حسٍ وأخ واوّه من التأوّه ومنهم من حذف الهاء فقال اوْ ومنهُ قولهم يا وَيْهِ من الذنوب

ويقولون في الباطل هو الضلال بن بهلل او تهلل او فهال وكلها من اسماء الباطل لا يُعرف ومعناهُ باطل بن باطل اما قولهم هيّان بن بيّان فهو كناية عمن لا يُعرف ابوهُ وكذا هي بن بي وجاء بقرني حمار يعني جاء بالكذب والباطل لان الحمار لا قرن لهُ وجاء بالضلال بن البهلل يصفون بذلك من ينكرون عليهِ احاديثهُ

وينهرون الكذب بقولهم صهٍ صانع ومعناهُ اسكت ياكذاب وينهرون من الامور من العيوب ما يكرهونهُ من شنهم وجهُ المحرّش اقبحُ وهو مثل قول العامة ما شحك الّا الذي يعطك ولمن يتضجرون من كلامهِ او فعلهِ خسًا وهي لفظة ينهرون بها الكلاب ايضًا واذا انكروا امرًا وارادوا ذمّ فاعلهِ حقيقةً قالوا اخزاهُ الله وقبحهُ الله او قالوا افٍّ وتفٍ اما افٍّ فهي من الاففِ وهو الضجر والاف ايضًا وسخ الاذن والتف وسخ الظفر وهو صدي بخٍ التي مرّ ذكرها ويقولون ايضًا أُفًا لهُ اي قذرًا لمتكبر او يقولون اخٍ وتف عانف قد مر ايضاحهُ واما الإخ فمعناهُ القذر ايضًا . وقولهم حجرًا لهُ معناه دفعًا لهُ يقال في الاستعاذة من الامر المكروه

ويقولون في الحقير لمن ارادوا ان يصغروا اليهِ نفسهُ ياحِنْقَة بالحاء والحاء معًا مكسورتين ومعنى الحِنْقَة القصير ولمن يكرهون طعنهُ حذادِ خربهِ والمعنى

ايها الرادة رُدّيهِ ويقولون للرجل المقابل الخبر انه لكث الخطيرة يريدون بالخطيرة امواله

ومن عادة العرب الدعاء في موضع المدح عند شدة الاعجاب من المتكلم او سماعهم منه ما لا يتوقعونه في الحضرة قال الزوزني ان العرب تفعل ذلك حرزاً لعين الكمال عن المدعو عليهِ قال الشاعر

رمى الله في عيني بثينة بالقذى وفي الغرّ من انيابها[1] بالقوادح[2]

ومن ذلك قولهم قاتلهُ الله ما افصحهُ والمعنى لا كان له غير الله قاتلاً اي انهُ لا قرن[3] له يقدر على قتلهِ غير الله ويطيرهُ ايضاً لا عدّ من نفرهِ وثكلتهُ امهُ وهبلتهُ امهُ وهو مثل ثكلتهُ وثكلتهُ الهَبُلُ اي الام والزوجة والهبل الشعر الكثير فيكون المعنى ثكلتهُ ذوات الهبل وقيل الهبل قيّمات[4] البيوت وقيل غير ذلك ويقولون ايضاً هوت امهُ اي سقطت قال الشاعر

هوت امهُ ما يبعث الصبح غادياً[5] وماذا يؤدي الليل حين يؤوبُ[6]

واما قولهم ويلك فمعناهُ الويل لك ويقال ايضاً في مثل هذا المقام واما ويحك فقد قال بعضهم انها كلمة ترحُّم كويحك وويبك كلمة ترحم وقيل بمعنى ويل وقال الميداني ايّ فلانٌ ويساً اي لقي ما يريد قال الخليل لم يُسمع على هذا البناء الاّ ويح وويس وويه وويل وقالوا ويك وويب وكلها متقاربٌ في المعنى الاّ ويح وويس فانهما كلمتا رأفةٍ واستعجاب

واما في الدعاء حقيقةً فيقولون لمن يتعالون من كلامهِ بفيك الحجر ولمن ارادوا اهلاكهُ استأصل الله عرقاتهِ واعرقهُ في الطرّة تسح فتدار حول

(١) الناب السنّ جمعها انياب (٢) القدح الطعن والاعابة
(٣) القرن الكفوء والنظير في شجاعة او قاوم (٤) القيم على الامر متوليهِ
(٥) الغدو الذهاب غدوة ثم كثر حتى استعمل في الذهاب والانطلاق اي وقت كان
(٦) الاوب الاتيان من كل مكان ووجه

فيسقط فتكون كالافعى له ويقولون به لا بظبي اعفر وهو من قول الفرزدق لما نعي اليه زياد بن ابيه

اقول له لما اتاني نعيه　　به لا بظبي بالصريمة اعفرا

وبه لا بكبش ناطح بالساسم[1] يقولونه للشماتة ويقولون به يريدون حمة على من يكرهونه لا تفعل ذلك امك حالق اي اثكلها الله حتى تحلق شعرها حزنا عليه. وسلاًّ له اي وبلاًّ له وسلاًّ وابلاً[2] دعاء عليه وبسلاً بسلاً معناه امين امين ايضاً اما قولهم تعس جده فهو كتعس جدك وبغض يعدوك عيناً وتبّ وارن اي هلك وتبت يداه خبنا وخسرنا وتبّاً له بالنصب على المصدر اي الزمه الله هلاكاً وخسراناً وثلّ الله عرشه اي اماته واذهب ملكه او عزّه وعثر جده وتعس جده اي هلك وذلك ذلة وذلاً ذالاً وذلاً ذيلاً اي ماله دمه الله واري الله به اي اري الناس به العذاب والهلاك ويقولون للمرأة لاحنى رفعك دعاء عليها يراد به لا رزقك الله زوجاً ويقولون للغلام لا اشب الله قرنك اي لا جعله يشب ولا طال عمرك وقولهم اشعب الله عيش فلان يريدون به شدّده اي جعله صعباً واضحى الله ظله اي اهلكه واكزّه الله تعالى دعاء بالسوء لان الكزاز داء من شدة البرد ولا كان ولا تكوّن ولحاه الله اي لعنه ولا هناه الله اي لا اسكن عناه واهة له وابيدت ولثم اي استحاله الله عليها ورماه الله بافعى حارية يعني التي نقص جسمها من الكبر فلا تبقي لديغها بل تقتل من ساعتها ورماه الله بالصدام والاولق والجذام فالصدام داء يأخذ في رؤوس الدواب والاولق الجنون ورماه الله بليلة لا اخت لها اي بليلة يموت فيها ورماه الله بذئبه يعنون به الموت لانه دين على كل احد ورماه الله من كل اكمة بحجر وعلى الشرف الاقصى فابعده اي ابعده الله واسحقه وسحقاً او حاقه وهو دعاء

---

(1) السباسب المعور و دوص النعيلة المصرية

(2) الأصل ارح ح وراس النعل وغيره

يقال في الدعاء باهلة ويقال للمرأة عقرى حلقى اي انها تعقر قومها وتحلقهم بشؤمها . وعليه العفار وادبار وسوء الدار وعليه العفاء والذئب العواء والعفاء هو الاندراس والبلى والهلاك وبريا يقطع العظام بريا اي وراه الله وريا وهو ان يأكل القيح جوفه وجدع(١) الله مسامعه واجن الله جباله اي اسكنها الجن فهي موحشة ورماه الله بداء الذئب يعني الجوع وقيل بالموت لان الذئب لا دبة من العلل الا علة الموت ورماه الله بالطلاطلة وبحمى المطبقة والطلاطلة الداء العضال لا دواء له واصم الله صداه(٢) وولج الرخم واخزى الله عنه ولا صحبة ولا وسع عليه ويقولون في الدعاء على المسافر لا نفيت ابلا (راجع الفصل الرابع من المقالة الرابعة) وصفرت يده من كل خير اي خلت ومنه المثل صفر اليدين وتربت يداه اي افتقرت ولا ترك الله له واضحة اي لا ابقى له شيئا وقيل يراد به المال الظاهر ويقولون في الدعاء على القوم اباد الله خضراءهم قال الاصمعي معناه اباد الله نعمتهم وخصبهم ومنهم من يقول اباد الله غضراءهم اي خيرهم وقال آخرون اهلكهم وخصبهم قال الشاعر

ابى الاله على محاسنه وعلى غضارة وجهه انضر

ويقولون ابدى الله شواره والشوار الفرج اي ازال عنه الستر وفضحه وبكت الوجبة يعني داء الجنب فكأنه دعاء عليه بالموت وتوسا له ونوسا له وجوسا له وهي كلها بمعنى واحد بلا فرق وهرا له اي يهدل عليه ما يبهره وهو مثل جدعا له وثبت لبده ويراد باللبد ما لبد فرسه فانه اذا ثبت لبده لم ير في رحله خيرا لانهم يجتنون الخير لانفسهم من الغارة ويقولون ايضا لا حلبت ولا أحلبت وقال رجل لرجل يدعو عليه ان كنت كاذبا فحلبت قاعدا وشربت

(١) الجدع القطع وجدعا له يعني رماه الله بالجدع اي قطع عنه الخير وجعله نقصا معيبا (٢) اصم الله صداه اي اهلكه لان الرجل اذا مات لم يسمع الصدى منه شيئا فيجيبه والصدى هو الذي يجيبك مثل صوتك في الجبال وغيرها ويقولون صم صداه على المجهول يعني مات

بارداً اي حلبت شاةً لا ناقةً وشربت بارداً على غير ثقل

وكانوا اذا شتم الرجل منهم عدواً له نسب امهُ الى الفحش بقولهم له يا ابن الفاحشة ويا ابن الحبا اي يا ابن المتنة ويا ابن شأمة الوزر والشائم الذي يجرّ الشومَ والوزر الاثم والثقل ويا ابن ذات الرايات والراية العَلم والعلامة المنصوبة للرؤية ويا ابن تُرنى يعني يا ابن الزانية ويا ابن المراغة والمراغة الارض التي يتمرّغ عليها الدواب ويا ابن اماعلة ويا ابن الثاء طاء اي يا ابن الأمة ولا امّ لك يعني ليس لك امٌ حرّة وهذا هو الشتمُ الصحيح قاله الميداني عن ابي سعيد الضرير لان بني الاماء عند العرب ليسوا بمحمودين ولا لاحقين بغيرهم من ابناء الحرائر (راجع ما يتعلق بالاولاد في الفصل الرابع من المقالة الثالثة) فاما اذا قالوا لا ابا لك فانهُ لم يترك لهُ شيء من الشتيمة وقال المروزي لا ابا لك كلمة جافية لا يراد بها الجفاء وانما يراد بها التنبيه والاعلام وكذلك ينسبون لمن يريدون شتمهُ ما يشين عرضهُ فيقولون له يا ابن القرنان[1] وامثال ذلك واذا سبّوا امرأةً قالوا لها يا حيّات كما يقولون للرجل يا خبث ويا لكاع للمرأة ايضاً والساء على الكسر كقطام اي لئيمة قال الحطيئة يهجو امرأته

اطوّفُ ما اطوّفُ ثم آوي الى بيتٍ قعيدتهُ[2] لكاعِ

ولا تكاد تستعمل الاّ في النداء ويشتمُ نساء العرب بعضهنّ بلفظ حيبلوطة وقد ظنّ بعضهم ان معناهُ الكثافة او السلاحة ويا حراقِ معدول عن الحرق بمعنى السرق اما قولهم يا بُظُر فهو شتمٌ للامة قبيح المعنى واذا سبّوا ولداً قالوا له يا ولد ازناء وتربية الخناء ويا ابن اللكعاء ويا ابن اللقيطة وغير ذلك من النسب القبيحة والالفاظ المستهجنة البربرية

وتقول العرب في التهديد الشديد المحقّق لاكوينّك كيَّة المتلوّم والمتلوّم

(١) قرن الرجل من يشاركهُ في قرينته اي زوجته والقرنان الديوث الذي لا غيرة لهُ اشاركه في زوجته (٢) القعيدة امرأة لقعودها في البيت

الذي يتبع الماء حتى يعلم مكانه ولاريك لمحا باصرا اي امرًا مفزعًا ولالحقنَّ حواقنك بذواقنك والحواقن ما سفل من البطن ولاطعننَّ في حوصك اي لاكيدنَّك واجتهد في هلاكك ولاقيمنَّك على الذرّ والذرّ الحيط يذرّ به ابناء الماء على الماء ولاقيمنّ اخدعيك اي لاذهبنّ كبرك ولاقيمنّ قذلك والقذل الميل والجور ويروى حذالك اي عوجك ويروى صعرك اي ميلك ويقولون ايضاً لئن التقى روعي وروعك لتندمنّ على مقارنتي لانك تجدني أعدل منك واقدر على دفع شرك

ويحكى ان الحجاج بن يوسف الثقفي قال لانس بن مالك لاقلعنّك قلع الصمغة (يعني كما تقلع الصمغة من شجرتها حتى لاتبقى عليها علقة) ولاجزرنّك جزر الضَّرَب (الجزر النحر والذبح والضَرَب ثرب البطن وهو شحم رقيق يغشي الكرش) ولاعصبنّك عصب السلمة (السلمة شجرة اذا ارادوا قطعها عصبوا اغصانها عصباً اي شدّاً شديداً حتى يصلوا الى جذعها فيقطعوه) فقال انس من يعني الامير قال اياك اعني اصمّ الله صداك فكتب انس بذلك الى عبد الملك ابن مروان فكتب عبد الملك الى الحجاج يا ابن المستفرمة بعجم الزبيب (المستفرمة هي التي اشتدت شهوتها للاكل وعجم النوى) لقد هممت ان اركلك ركلة تهوي منها الى نار جهنم (الركل الضرب برجل واحدة) واصعك صعة كبعض ضغمات الليوث الثعالب (الضغم العض) واخبطك خبطة تود انك زاحمت مخرجك من بطن امك قاتلك الله أخيفش العينين (الخفش ضعف البصر خلقة او هو فساد في الجفون بلا وجع او ان يبصر في الليل دون النهار ومنه الخفاش طائر يعمى في النهار ويبصر في الليل) اصكّ الاذنين (الاصك المضطرب ولعله هنا ضعيف السمع) اسود الجاعرتين (الجاعرة الاست او حلقة الدبر والجاعرتان مثنى الجاعرة) احمش الساقين (يعني دقيقهما وفي محيط المحيط الحمشاء العظيمة الركب

ويقولون في التهكم[1] لا ابقى الله عليك ان ابقيت عليّ وهو يقال للمتوعِّد

(1) التهكم الاستهزاء والازدراء

ومعناهُ لا ينبغي ان ينثني يعني لا تألُ جهدًا في الإساءة اليَّ ان قدرت . ولا تبقِ الا على نفسك ومعناهُ افعل ما تقدر عليهِ فلست ممن يبالي بوعيدك[1] ويقولون ايضًا لا تبرق علينا وهو مأخوذ من البرق بلا مطر ومعناهُ الكلام بلا فعل يقولونهُ للصلف[2] قال الكميت

أبرق وأرعد يا يزيـ ... ـد فما وعيدك لي بضائر

ويرق لمن لا يعرفك وتحسبه جادًّا وهو مازح يقال ان يتهدد وليس وراءهُ ما يحققهُ . وجاء الحوراء وذلك ان الحوراء تطلع غدوةً فتأتي بريح شديدة ثم تسكن واما في الازدراء فيقولون دعهُ يترمع في طمته اي يتسكع[3] في ضلاله او يتخبط في عمهه[4] وما ادري ايُّ مَن وجَنَ الجلد هو يعني اي الناس هو وما ادري اي اودكٍ هو ومعناهُ كالذي قبله

---

(١) الوعد يكون في الخير والوعيد في الشر يقال اوعده اي وعده شرًا

(٢) الصلف الاعجاب والتكبر وصلف رجل صلف صلفًا تمدح بما ليس عندهُ تيهًا وتكبرًا

(٣) تسكع هو ان يمشي الانسان مشيًا متعسفًا لا يدري اين يأخذ

(٤) العمه التحير قيل هو خاص بالعقل والعمى عام انه استعماله للانسان وهو من باب تعب

الجزء الثاني

المقالة السادسة

في اخلاق العرب وشجاعتهم وفصاحتهم وفيها ثلاثة فصول

الفصل الاول

في اخلاق العرب وطباعهم

حب الحرية والاستقلال صفة طبيعية لكل سكان الخيام وهو مغروس في قلوب الامة العربية فلا شيء يعادل عدم الحرية حتى ان كل شخص منهم يظنّ بنفسه انه ملك مستقل ولذلك كانوا يصفون كل خالص بنى الحرية قال الزوزني الحرّ من كل شيء خالصه وجيده ومنه قولهم طين حرّ يعني لم يخالطه رمل ومنه احرار البقول وهي التي تؤكل نيئاً وحرّ المملوك خلص من الرق وارض حرّة لاخراج عليها وثوب حرّ لا عيب فيه . ولكن مع هذا كله كان في اخلاقهم من المساوئ والعيوب بقدر ما كان عندهم من الفضائل التي تجذب بمحاسنها القلوب

اما مساوئهم فهي كما ان البدو منهم اعتادوا على قطع الطريق والنهب والسلب وغزو بعضهم بعضاً كذلك الحضر منهم قد الفوا الغش والخداع في معاملاتهم وتجاراتهم قال بعض المؤلفين ان قطع الطريق الذي هو صناعة

لبعض قبائل العرب الذين يقال لهم البدو هو مستعوض عند الحضر بالغش والخداع في التجارة ومع ذلك كان فيهم قديمًا شهرة عظيمة في الكرم والامانة وحفظ الجوار والحذاقة ولهم بعض المعارف وخاصةً نظم الشعر كما يتضح ذلك مما يأتي

وقد بلغ من درجة مساواة محاسنهم لمساوئهم ان من عرّاهُ شيخٌ من مشائخ العرب اذا دخل خيمة ذلك الشيخ من غير ان يعرف بانهُ هو الذي عرّاهُ فيرق الشيخ لحالهِ ويكسوهُ غير كسوتهِ التي اختلسها منهُ ويقضي ان كان عارفًا بهِ انهُ هو المعرّي لهُ

وقال ابن خلدون ان البدو لم تستحكم فيهم الصبغة الدينية لما ان كثرة فسادهم هو من طبيعة معاشهم وان توبتهم ورجوعهم الى الدين انما يقصدون بها الاقصار عن الغارة والنهب واكثر ما يعنون باصلاح السابلة ولا يعقلون في توبتهم الى مناحي الديانة

ومن مساوئهم انهم لا يسعفون الغرقى الذين تنكسر بهم السفائن على شطوط بلادهم بل ربما من يأتي على المسافرين بأخذهم ويسلب ما بقي لهم ثم يبيعهم في صورة ارقاء وكذلك يخفون آبار الصحاري عن اعين المسافرين حتى يهلكوا من العطش ثم يسلبون امتعتهم

وقد تخلد ذكر البعض من قدمائهم بما اتقنوهُ من فن اللصوصية حتى ضُربت بهم الامثال فيهِ كالسُلَيك بن السُلكة وسوف يأتي ذكره وشظاظ رجل آخر من بني ضبة وهو من ولد الجعد بن قيس بن قنان بن عائشة وكان شريكًا ومرجان وناجية وابو حردبة وكلهم من حذّاق اللصوص في الجاهلية فيقال في المثل أسرق من شظاظ ومن ناجية وهكذا الى آخره ويسمونهم ذؤبان العرب يعني ذئاب العرب

ومنهم من اشتهر بالظلم ايضًا كرجلٍ يقال لهُ الجعفنان كان مفرطًا فيهِ حتى ضربوا بهِ المثل فيقولون لمن ارادوا وصفهُ بذلك أظلم من الجيفنان وقد ضرب المثل بهذه الالفاظ عينها في العصر الاسلامي بالحجاج بن يوسف وقد

مرَّ ذكرهُ فيتولون أظلم من الحجاج وأسفك من الحجاج فانهُ كان سفاكاً للدماء

ومنهم مَن اشتهر بالفتك كالحرث بن ظالم فانهُ كان فتاكاً جسوراً والبرَّاض وهو ابن قيس الكناني والحجاف وهو ابن حكيم السلمي وعمرو بن كلثوم فيوصف بهم من كان من هذا القبيل في الجاهلية والاسلام

ومنهم مَن اشتهر بالغدر وكان اعظمهم في الجاهلية بنو سعد بن تميم وكانوا يسمون الغدر فيما بينهم عند ما يريدون استعماله بكنية وضعوها له وهي كيسان قال النمر بن تولب

ادا كنت في سعدٍ وامك منهمُ	غريباً فلا يغررْكَ خالك من سعدِ
اذا ما دعوا كيسان كانت كهولهم	الى الغدر ادنى من شبابهم المردِ

ولذلك سمَّوهم كناة الغدر وضربوا بهم المثل فقالوا اغدر من كناة الغدر كما يقولون أغدر من قيس بن عاصم ومن عيينة بن الحرث ولكل منهما حديث يطول شرحهُ قال ابو عبيدة ان قيساً بن عاصم كان أغدر العرب (وهو الذي كان يئد البنات في الجاهلية راجع الفصل السادس من المقالة الرابعة)

ومنهم من لم يكتفِ بقبيحة الغدر فقط بل اضاف الى ذلك رذيلة من اشنع الرذائل واقبحها وهي ما رواهُ مسيو ديع الفرسوي في كتابهِ المسمَّى دُوان قلائد المفاخر في غريب عوائد الاوائل والاواخر بان اهل البدو متى وصل الانسان الى اعتابهم وجب عليهم اكرامهُ واحترامهُ واطعامهُ ما تيسر عندهم وتسليم صاحب البيت قرينته لهذا الضيف اذا أحوج الامر الى ذلك حتى انهُ لو استضافهم احد اعدائهم لعاملوهُ هذه المعاملة عينها ودام عندهم في امان الى ان يخرج فتى خرج قتلوهُ وهنا يقصر الذهن في التمييز بين رذيلتين لا يمكنهُ ان يحكم على ايهما هي اعظم من الاخرى هل الغدر الشنيع او تسليم صاحب البيت قرينته الى ذلك الضيف المنكود الحظ المزمع ان يغدر بهِ (راجع الفصل الثالث من المقالة الخامسة)

ومنهم من اشتهر بالدهاء وقيل لقمان بن عاد طبيب العرب وقصير بن سعد لخمي صاحب جذيمة الابرش وهو الذي جدع انف نفسه احتيالاً على الزباء ملكة الجزيرة ليتمكن جذيمة المذكور من قتلها ولذلك قالوا في امثالهم لامرٍ ما جدع قصير انفه وقال عامر الشعبي الدهاة اربعة معاوية ابن ابي سفيان وعمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة وزياد بن ابيه وهؤلاء الاربعة في الاسلام

وكانت الزباء المذكورة تسمّى النائلة وقيل هند (راجع ترجمتها في الفصل الثاني من المقالة الخامسة) وسمّيت الزباء لطول شعرها. ويحكى انها كانت اذا مشت سحبته وراءها واذا نشرته جلّلها ولم يرَ في نساء زمانها اجمل منها ويضرب بها المثل في العزّة فيقولون لمن ارادوا المبالغة في عزّه اعزّ من الزباء

واما جذيمة الابرش المذكور فتصفه العرب بالكبر وعظمة غالبة فيه. ويحكون عنه انه كان لا ينادم احداً لكبره ويقول انما ينادمني الفرقدان ولذلك يقولون في امثالهم كندماني جذيمة وقيل بل لما فقد ابن اخته عمرو بن عدي وجده رجلان يقال لهما مالك وعقيل [illegible] فلما قدما به عليه حكّمهما في الذي ارادا فاختارا منادمته ما عاش وعاشا فصحبا في منادمته اربعين سنة حتى فرّق الموت بينهم

وكذلك يصفون بالكبر بني مخزوم وبني أمية من قريش وبني جعفر بن كلاب وبني زرارة بن عدس من باقي العرب

ومنهم من اشتهر بالحمق ويضربون المثل فيه برجل يقال له جحا من فزارة ويحكى انه دفن مالاً تحت ظل سحابة ليعرف موضعه ثم انقشعت السحابة فلم يهتدِ اليه فقالوا احمق من جحا ومن هبنّقة وهو رجل نظم ودعاً في سلك وجعله في عنقه علامة لنفسه لئلا يضيع فقيل له ذو الودعات واسمه يزيد بن ثروان احد بني قيس بن ثعلبة ويقولون ايضاً احمق من ابي غبشان وهو الذي باع مفاتيح الكعبة بزقّ خمر (راجع حكاية الكعبة في آخر الفصل الثاني من المقالة الرابعة) ومن حمقه قيل انه احمق من كان في العرب على وجه الارض

ومن عجل وهو رجل كان له فرس جواد فقيل له ان لكل فرس جواد اسماً و اسم فرسك فنقأ عينه وقال مميتة الاعور . ومن جحيفة ومن المهورة من ثم ابيها او من مال ابيها ومن المهورة احدى خدمتها ومن دُغَة وهي امرأة كانت حاملاً فدخلت الخلاء فولدت وهي لا تعلم ما الولد فخرجت تسأل جارتها ما هو ذلك وكانت من تميم فبنو تميم يعيّرون بذلك ويقال المنسوب منهم يا ابن الحمراء ويقولون ايضاً احمق من شرنبث وهو رجل من بني سدوس ومن بَيهس الملقب نعامة ومن ربيعة البكّاء وهو ابن عامر بن صعصعة ومن الذابح على الحلي ومن راعي ضأن ثمانين ومن لاطم الإشعي بجدّهِ والاشعي هو امنب والسراد يجرر به ومن المتقطط بكوعه ومن الربع ولكل منهم قصة يطول شرحها فاضربنا عنها تجنبًا لجرم الكتاب ويتمثلون ايضاً بحمقة امرأة من قريش يقال لها ام ربطة بنت كعب بن سعد بن تيم بن مرة وهي التي أُنزلت فيها الآية ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها قال المفسرون انها كانت تغزل وتأمر جواريها ان يغزلن ثم تنقض وتأمرهنّ ان ينقضنَ ما فتلنَ فقالوا في المثل أخرق من ناقضة وهي ابنة خرق حمق فهو أخرق وهي خرقاء

ويضربون المثل في الغلط برجل يقال له دالق كان كثير الاغلاط فيقولون لمن ارادوا وصفه بذلك اغلط من دالق

ويضربون المثل في البلادة والعيّ برجل يقال له باقل من ربيعة وقيل من اياد فيقولون اعيا من باقل

ومنهم من اشتهر بالخنث وهو ان يكون الرجل فيه لين النساء وحركتهنّ المشية وضُرب المثل في ذلك برجل من الجاهلية يقال له ابو جهل عمرو بن هشام المخزومي وهو الذي أُنزلت فيه آية تبت يدا ابي لهب وامرأته ام جميل اخت ابي سفيان بن حرب ابي معاوية ويقولون ايضاً اخنث من هيت ومن دلال واسمه نافذ وكنيته ابو يزيد ومن طويس وهم من اهل المدينة ودلال وطويس كانا من اشهر المغنين في مبادئ الاسلام

اما ام جميل المذكورة فهي التي سميت حمالة الحطب في سورة تبت يدا ابي لهب ولذلك قالوا في المثل اخسر من حمالة الحطب كما قالوا اخسر من ابي غبشان وقد مرّ ذكرهُ ومن مغبون

واشهر في الخيبة رجل يقال له حنين حكي عنه انه كان وُلِد لهاشم بن عبد مناف في حيّ من احياء اليمن فسماهُ حنيناً ابواه بهذا الاسم ثم لما شبّ ارسلهُ الى قريش فلم يقبلهُ رهط هاشم حيث لم تكن معهُ علامة عليهِ فردّ الغلام الى اهلهِ فخيب رأيهُ قالوا جاء بخفي حنين اي جاء خائباً حين جاء في خف نفسهِ ولو قيل لاسوءُ خف ابيهِ وقيل غير ذلك والحاصل انهم ضربوا فيهِ المثل فقالوا اخيب من حنين كما قالوا اخيب من الغائص على الماء

وضربوا المثل في الطمع برجل يقال له اشعب كان في الاسلام وكانت تكفلهُ عائشة بنت عثمان هو وابا الزناد صاحب الحديث وربتهما سوية لكنهُ كان طماعاً مفرطاً حكي عن نفسهِ فقال كنت اسفل وكان ابو الزناد يعلو حتى بلغت انا وهو هاتين الغايتين وسئل ذات يوم هل رأيت اطمع منك قال نعم شاةً لي صعدت الى السطح فنظرت قوس قُزَح فظنتهُ حبل القتّ اي الفصفصة فاهوت اليهِ فسقطت من السطح واندقت عنقها فاحذروا عن هذا الرجل المدهش هذه الخرافة وقالوا في المثل اطمع من شاة اشعب كما قالوا اطمع من اشعب

واشهر في البخل جماعة من العرب ايضاً لكنهُ لم يضرب المثل صراحةً الاّ برجل يقال له مخارق من بني هلال بن عامر بن صعصعة . حكي عنه انه مدر حوضاً سقى فيهِ لنعافة ابل غيرهِ فلا تردهُ ولذلك قالوا في المثل ابخل من مادر كما قالوا ابخل من ذي معذرة ومن الضنين بنائل غيرهِ فلا يصرّحون باسم

يحكى انه لما قرئ على ابي عبيدة حديث مادر ضحك فقيل له ما الذي اضحكك فقال تعجبي من تسيير العرب الامثال لو سيّروا ما هو اهم منها لكان الملح لها فقيل مثل ماذا قال مثل مادر هذا جعلوهُ علماً في البخل بعلة تحتمل التأويل وتركوا مثل ابن الزبير مع ما يؤثر من لفظهِ وفعلهِ من دقائق البخل فتركوهُ

كالعمل من ذلك انهُ نظر الى رجل من اصحابهِ وهو يومئذٍ خليفة يقاتل الحجاج على دولتهِ وقد دق الرجل في صدر اهل الشام ثلاثة ارماح فقال له يا هذا اعتزل عن حربنا فان بيت المال لا يقوى على مثل هذا

وقال بعض المؤلفين ان بخلاء العرب اربعة الحُطيئة وحميد الارقط وابو الاسود الدوئلي وخالد بن صفوان . اما الحطيئة فمرّ به انسان وهو على باب دارهِ وبيدهِ عصًا فقال انا ضيفٌ فاشار الى العصا وقال لكعاب الضيفان اعددتها . واما حميد الارقط فكان هجّاء للضيفان فحاشًا عليهم نزل به مرة اضياف فاطعمهم تمرًا وهجاهم وذكر انهم اكلوهُ بنواهُ . واما ابو الاسود الدوئلي نسبة الى دؤل الكناني وفي اللغة الدؤل ابن آوى والذئب وذو شبهة بابن عرس فقال انهُ تصدق على سائل بتمرة فقال له جعل الله نصيبك في الجنة مثلها وكان يقول لو اطعنا المساكين في اموالنا كنا اسوأ حالًا منهم . واما خالد بن صفوان فكان يقول للدرهم اذا دخل عليهِ يا عيّار كم تعيّر وكم تطوف وكم تطير لاطيلنّ حبسك ثم يطرحهُ في الصندوق ويقفل عليهِ

ومن البخلاء ايضًا عمرو بن يزيد الاسدي صاحب شرطة الحجاج امر غلامهُ ان يجمع الدهن الذي نزل من الجفنة ليسرج بهِ

والخليفة المنصور العباسي الذي انعم على مسلم ابو هو سلم الخاسر وكان يحدو له في ذهابهِ وايابهِ الى الحج بعبر موزونة بنصف درهم

وابو العتاهية الشاعر المشهور ومروان بن ابي حفصة والمتنبي الشاعر ومحمد بن الجهم وسهل بن هرون واهل مرو ولكل منهم حوادث عجيب في البخل يطول شرحهُ قال جرير يهجو بني تغلب

قومٌ اذا اكلوا اخفوا كلامهمُ	واستوثقوا من رتاج الباب والدارِ
قومٌ اذا استنبح الضيفان كلبهمُ	قالوا لامهم بولي على النارِ
فتمنع البول شحًا ان تجود بهِ	وما تبول لهم الا بمقدارِ

ولكنني بهذا المقدار مما وُسم به البعض من العرب من المساوئ والعيوب ونستطرد من ذلك الى الكلام على هذه النار التي تدل عندهم على الجود والكرم ونحوها مما وُجد في مناقب آخرين منهم من كل نوع مرغوب فنقول

لا يخفى ان العرب تفخر بكثرة النيران لانها اعظم برهان عندهم على كثرة الاطعمة التي هي من اتحف الاشياء واعزها لديهم لندرتها وتكون دليلاً للضيوف فيقصدونها ولذلك يسمّونها نار القرى يعني نار الضيافة قال بعض المؤرخ ان السبب الاصلي في افتخار العرب بعمل الولائم واطعام الطعام هو لكي يظهروا بذلك شهم

يُحكى عن رجل يقال له حاتم الطائي واسمه عبد الله بن سعد بن الحشرج ابن امرء القيس بن عدي بن اخزم بن ربيعة بن ثعل بن الغوث بن طيّ وكان اسمه حلهمة فسمّي طيّئاً لانه اول من طوى المناهل ومعنى حاتم قاضٍ والحاتم ايضاً الغراب وغراب البين وقد مرّ ذكرهُ في الفصل الرابع من المقالة الرابعة سُمّي بذلك لانه يحتم عندهم بالفراق وكان حاتم المذكور من شعراء العرب وحطه ثم اشهرهم ويكنى بابنته سفانة وبه يضرب المثل في الكرم فيقال اكرم من حاتم طيّ لانه كان جواداً متلافاً قال الشاعر

ان السماحة والمروءة والندى في قبةٍ ضُربت على ابن الحشرجِ

يقال عنه بانه متى اظلم الليل يقيم غلاماً له يوقد النار ليهتدي بها الضيفان ويقول له

اوقد فان الليل ليلٌ قرٌّ عسى يرى نارك من يمرُّ
ان جلبت ضيفاً فانت حرٌّ

وكانوا اذا اشتد البرد وهبت الرياح ولم تشب النيران فرقوا الكلاب حول الحي وربطوها الى العمد لتستوحش فتنبح فتهتدي الضلال وتاتي الاضياف على نباحها ولذلك يسمّون الكلب داعي الضمير والضمير الغريب ومتمم النعم

ومشيد الذكر لما يحسب من الاضياف بساحته

والذين انتهى اليهم الجود بين العرب وضُربت بهم الامثال في الكرم غير حاتم المذكور كعب بن مامة الايادي وهرم بن سنان وخالد بن عبد الله الآتي ذكرها وانما اشهرهم كعب وحاتم المذكورين قال ابو تمام الطائي

كعبٌ وحاتمٌ اللذان تقاسما خطط العُلى من طارفٍ وتليدِ [1]
هذا الذي خلف السحاب ومات ذا في الجد ميتة خضرمٍ صنديدِ [2]

يريد بالذي خلف السحاب حاتمًا لجوده كما يجود السحاب بالمطر واما الذي مات في الجد ميتة الخضرم الصنديد فهو كعب بن مامة فانه قد الرجل بلغ من كرمه انه مات لكونه سقى نصيبه من الماء يومين لرجل نمري وكان في ركب وكانوا يتصافون الماء في شهري ناجر وما كان يعرف ذلك النمري واما كان النمري يشخص ابيه فقط عند ما ينتمي اعقب الى كعب المذكور ولذلك ضرب به المثل في تفضيل الرجل صاحبه على نفسه فيقال اجود من كعب ابن مامة

واما هرم بن سنان فهو ابن ابي حارثة المري وقد سار بذكر جوده المثل فقيل اجود من هرم قال زهير بن ابي سلمى

ان البخيل ملومٌ حيث كان ولا كنّ الجواد على علاته هرمُ
هو الجواد الذي يعطيك نائله عفوًا ويظلم احيانًا فيظّلمُ

يحكى ان الامام عمر بن الخطاب سأل ابنة هرم ما كان الذي اعطى ابوكِ

(١) الطارف المال المكتسب والتليد المال الموروث ومما يتبع ذلك ايضًا المال اذا كان مدفونًا فهو ركاز واذا كان لا يرجى فهو ضمار فاذا كان ذهبًا وفضةً فهو صامت واذا كان ضيعةً ومستغلاً فهو عقار

(٢) الخضرم السيد الجواد والصنديد السيد الشجاع والحليم والكريم والشريف وغير ذلك

زهيرا حتى قالته من المديح بما قد سار فيه المثل فاست اعطاهُ خيلاً تنصى[1] واملاً تنوى[2] وثيابًا تبلى وما لا يفنى فقال عمر لكن ما اعطاكم زهير لا يبليهِ الدهر ولا يفنيهِ العصر

واما خالد بن عبد الله فيحكى عنهُ بانهُ جاء اليهِ بعض الشعراء ورجلهُ في ركاب يريد الغزو وانشدهُ

يا واحد العرب الذي ما في الانام له نظير
لوكان مثلك آخرٌ ما كان في الدنيا فقير

فامر له بعشرين الف دينار فاخذها وانصرف

وهنا ينبغي ان نلاحظ الفرق في العرب بين الجاهلية والاسلام والبدو والحضر فان البدوي نم انهُ لم يتكرّم في ظاهر الامر الا بشرذمة من الماء لكنهُ مات بسببها واما الحضري فانهُ نعم بعشرين الف دينار من اجل كلمة اذا صحّ ما قيل ولم يتأثر لها

والسبب في ذلك ان البدو من العرب كانوا يسكنون في اراضٍ غير غنية وليس لهم حرفة يتعيشون منها الاّ النهب والسلب فكان لايمكن للجواد منهم ان يتصدق بشيء أجلّ من بذل نفسه لاجل الحصول عليهِ لحصةٍ من طعامهِ وشرابهِ او بحاجةٍ من كسوتهِ ومتى فعل ذلك حقّ له ان يعتبر نفسه بانهُ عمل عملاً عظيمًا يفوق كل ما يمكن للانسان ان يجود بهِ ولا زالوا يتسابقون في ذلك حتى اتصل بهم الحال في الرغبة والتنافس الى ما فعلهُ كعب المذكور وفاق بهِ بذل غيره من امثالهِ لكن بعدما سادوا على احسن البلاد وامتلكوا الاراضي والعقارات ذات المحاصيل الواسعة ارتقوا الى اقصى درجات السعادة وبلغ غناهم حدّ الافراط فقد حكى ابن خلدون نقلاً عن المسعودي انهُ في ايام عثمان بن عفان اقتنى الصحابة الضياع والمال فكان له يوم قتل عند خازنهِ خمسون ومئة الف

(١) تنصى نفى او تمى (٢) تنوى تتحول او تبعد

دينار والف الف درهم وقيمة ضياعهِ بوادي القرى وحنين وغيرها مئة الف دينار وخلّف ابلاً وخيلاً كثيرة . وبلغ الواحد من متروك الزبير بعد وفاته خمسين الف دينار وخلّف الف فرس والف امة وكانت غلّة طلحة من العراق الف دينار كل يوم ومن ناحية السراة اكثر من ذلك . وذكر بعضهم انهُ كان لعمرو بن العاص بستان بالطائف على ثلاثة اميال من وجّ كان يعرّش على الف الف خشبة شراء كل خشبة درهم . ومن الامثال المضروبة عند المولدين قولهم لما ارادوا المبالغة في وصفهِ بالغنى أموّل من زبيدة واسمها أمة العزيز وهي بنت جعفر بن عبد الله المنصور بن محمد بن عليّ بن عبد الله بن عباس وكنيتها ام جعفر وهي زوج الخليفة هرون الرشيد وابنة عمهِ كانت محمدة في كثرة المال مهمة في البرّ والافضال قيل انها انفقت على الحج وبناء المساجد والصدقات الف الف وسبع مئة الف دينار واجرت الماء من دجلة الى عرفات ثم الى مكة واجرت نبع العرعار من جبل لبنان الى بيروت حتى وصل الى وادي المكاس فبنوا له طبقات قناطر حتى جرى الماء فوقها الى جانبهِ الآخر وتطرّق الى بيروت لانها كانت مرّت عليها حين قدمت للحج فوجدت الماء فيها قليلاً والى الآن يقال لهذه القناطر قناطر زبيدة

واذا اردنا ان نستقصي امثال هذه الحكايات يطول بنا الشرح ولذلك نكتفي بما ذكرناهُ دليلاً على انهُ بالنظر الى مثل هذا التموّل المفرط المقرون بما ثبت عندهُ الامة العربية بل فُطرت عليهِ طباعها من التنافس في البذل والمباهاة ليس في مقاديرهِ فقط بل في ضروبهِ وظروفهِ ايضاً كان لا يستغرب صنع خالد ابن عبيد الله المار ذكرهُ ولا ما يحكى عن الخلفاء اصحاب التصرف المطلق نظاير بني أُميّة والعباسيين ونوابهم الذين اختصت بهم خيرات هذه المملكة الكبيرة واستقلوا بها كونهم كانوا يهبون الولايات ويتصرفون بالبدر[1] من الاموال ولا يرون ذلك شيئاً قال ابو الطيب المتنبي

(١) البدرة كيس فيهِ الف او عشرة آلاف درهم من الفضة او سبعة آلاف دينار

يستصغرُ الخطرَ الكبيرَ لوفدِهِ[1] ويظن دجلة ليس تكفي شاربا

بل هنا بعض الملحوظات يستنتج من نقل الاخباريين بان تلك المقادير الفاحشة التي كان يجود بها الملوك وذوو المناصب للمدّاح من الشعراء والمجتدين[2] من الفقراء وارباب الفاقة لم تكن تُعطى تمامًا لاصحابها وانما تصالحهم الخزّان وامناء الاموال على شيء منها كما يروى عن الفضل بن الربيع خازن المأمون العباسي بانه صالح رجلاً كان أمر له هذا الخليفة بمئتي الف درهم فاعطاهُ نصفها ورجلاً آخر كان أمر له باربعة آلاف درهم فلم يعطهِ الربيع شيئًا فاحتال الرجل في تبليغ ذلك للمأمون وهو انهُ مرّ معهُ على بيت عاتكة فقال يا امير المؤمنين هذا بيت عاتكة الذي يقول فيهِ الاحوص

يا بيت عاتكة الذي اتعزّلُ حذرَ العدى وبهِ الفؤادُ موكّلُ

ففطن المأمون لما ارادهُ وهو بيتٌ من جملة ابيات هذه القصيدة يقول فيهِ

واراك تفعل ما تقول وبعضهم مذقُ[3] الحديث يقول ما لا يفعلُ

فامر له بالف درهم فقال يا امير المؤمنين كانت اربعة آلاف فقال له الفٌ يحصل خير من اربعة آلاف لا تحصل

وقد كانت أعطية بني أُمية في مبادئ الدولة الاسلامية الابل اخذًا بمذهب العرب وبداوتهم فاذا حبوا حباء[4] حملوا في اسنمة[5] هذه الابل ريش نعام ليُعرَف انها حباء الملك وان حكم ملكهم ارتفع عنها ثم صارت جوائز بني العباس

(١) الوفد الرسل مفردهُ وافد يعني رسول وهم قوم يفدون على الملك في امر فتح او تهنئة او غير ذلك

(٢) المجتدين جمع مجتدٍ وهو سائل الجدى يعني طالب الصدقة ومستمد الاحسان

(٣) المذق الممزوج ورجل مذق اي غير مخلص

(٤) الحبو العطية بلا جزاء ولا منّ

(٥) السنام حدبة ظهر البعير وتعرف عند العامة بالحدبة

والعبوديين من عدم احتمال المال ونخوة الشباب واعتياد الجبل بمراكبها وهكذا كان شأن كتامة مع الاغالبة بافريقية وكذا بني طنج بمصر وشأن لمتونة مع ملوك الطوائف بالاندلس والموحدين كذلك وشأن زناتة مع الموحدين لان الحضارة كانت تنتقل من الدول السالفة الى الدول الخالفة فانتقلت حضارة الفرس للعرب بني أمية وبني العباس وانتقلت حضارة بني أمية بالاندلس الى ملوك الغرب من الموحدين وزناتة وانتقلت حضارة بني العباس الى الديلم ثم الى الترك ثم الى السلجوقية ثم الى الترك المماليك بمصر والتتر بالعراقين على ما رواهُ ابن خلدون

ومن قرأ قصص بني المهلّب وزراء بني أمية وقصص البرامكة وزراء بني العباس فضلاً عن حكايات ساداتهم وغيرهم من امراء العرب في الاسلام لاطّلع من ذلك على ما يفوق التصديق ومنهُ ما حكاهُ ابو الحسن المدائني عن يزيد ابن المهلب بن ابي صفرة الازدي قال ان وكيله باع شيخاً جاء من معلّ بعض املاكهِ باربعين الف درهم فبلغ ذلك يزيد فقال لوكيلهِ تركتنا بتاليين اما كان في عجائز الازد من تشمه فيهنّ قال عمر بن لجا

آلُ المهلّب قومٌ ان نسبتهمُ	كانوا الكارمَ آباء واجدادا
كم حاسدٍ لهم يعيا بفضلهم	وما دنا من مساعيهم ولا كادا
ان العرانين تلقاها محسدةً	ولا ترى لئام الناس حُسّادا
او قيل للمجد حُلْ عنهم وخلّهم	بما احتكمتَ من الدنيا لما جادا
ان المكارمَ ارواحٌ يكون لها	آلُ المهلب دون الناس اجسادا

يحكى ان يزيد هذا قال لهُ بعض جلسائهِ لِمَ لا تتخذ لكَ دارًا فقال وما اصنعُ بها ولي دارٌ محصلةٌ جاهزةٌ على الدوام فقال لهُ واين هي فقال ان كنت متوليًا فدار الامارة وان كنت معزولاً فالسجن وانما قال ذلك لما جرت بهِ العادة من معاملة الملوك لعمّال في ذلك العصر وكان يزيد هذا عاملاً لبني

أُمية ثم قتاله مسلمة وبعث أُسره الى اخيهِ يزيد بن عبد الملك سنة ١٠٢ للهجرة (سنة ٧٢٠ م)

ويروى ان احمد بن حرب بن اخي يزيد المذكور اعطى ابا علي اسماعيل ابن ابرهيم بن حمدويه البصري الحمدويّ الشاعر طيلسانًا خليعًا فعمل فيهِ الحمدويّ مقاطيع ظريفة عديدة سارت عنهُ وتناقلها الرواة وهي اكثر من مئتين منها

يا ابن حرب كسوتني طيلسانًا ... املّهُ الازمان وهو سقيمُ
فاذا ما رفوتهُ قال سبحا ... نك محيي العظام وهي رميمُ

وقد ضُرب المثل بهذا الطيلسان بين الادباء فاذا كان الشيء رثًا باليًا شبهوهُ بطيلسان ابن حرب كما يتداولون جلدُ عمرو المرّق بالضرب يريدون بذلك قول النحاة ضرب زيدٌ عمرًا فانهم ابدًا يستعملون هذا المثال ولا يبدّلون تعبيرهُ فكأنهم يرقون جلدهُ لكثرة الضرب

ومن حكاية هذا الطيلسان وامثالها نعرف ما كان لهولاء الامراء من السماحة والمسامحة والملاطفة وكرم الاخلاق فانهم لا يأنفون من مجون الشعراء وتهكمهم على عطاياهم اذا كانت دون ما يرجونهُ منهم

وهناك حكاية لمعن بن زائدة بن عبد الله بن مطر بن شريك بن عمرو الشيباني الذي كان متنقلاً في الولايات في ايام بني أُمية ومات قتيلاً في سنة ١٥٨ للهجرة (سنة ٧٧٤ م) وهي تدل ليس فقط على شدّة كرم هذا الامير الذي استحق من اجلهِ ان يضرب بهِ المثل فيقال اجود من معن بن زائدة بل تعرب ايضًا عما انضمّ الى كرمهِ من الحلم وطول الاناة المفرط حتى قالوا فيهِ حدّث عن معن ولاحرج فان فتى من العرب هجاهُ بابيات فظيعة وانشدها بحضرتهِ فكان يسمعها منهُ مع البشاشة ويجاوبهُ على كل بيت منها بقولهِ له ثم ماذا الى ان انشد في آخرها بيتًا يطلب فيهِ هذا الغلام الشاعر جائزةً على ما هجاهُ بهِ فاجازهُ فتى

ببيتٍ آخر يطلب فيهِ الزيادة فزادهُ فختم حينئذٍ قصيدتهُ بقولهِ

سألت الله ان يبقيك ذخرًا ... فما لك في البرية من نظيرِ

ويحكى عن هذا الامير ان شاعرًا اقام مدةً يريد الدخول فلم يتهيأ له فكتب هذا البيت على خشبةٍ وهو

ايا جود معنٍ ناجِ معنًا بحاجتي ... فليس الى معنٍ سواك سبيلُ

والقى الخشبة في مسيل الماء لبستانٍ كان معن فيهِ فلما رأى الخشبة اخذها وقرأها واستدعى الرجل لوقتهِ وامر لهُ بمئة الف درهم ووضع الخشبة تحت بساطهِ ولما كان اليوم الثاني اخرجها وقرأها ثم استدعى الرجل وامر لهُ بمئة الف درهم اخرى وفي اليوم الثالث كذلك ففكر الرجل وخاف ان يضطرهُ بعد ذلك ويأخذ منه ما اعطاهُ فخرج من المدينة فلما كان اليوم الرابع طلب الرجل فلم يجدهُ فقال لقد ساءني ظنه وقد هممتُ ان اعطيهُ حتى لا يبقى في بيت المال درهم ولا دينار قال بعض الشعراء

يقولون معنٌ لا زكاة لمالهِ ... وكيف يزكي المال من هو باذلهُ
اذا حال حولٌ لم يجد في ديارهِ ... من المال الَّا ذكرهُ وجمائلهُ
تراهُ اذا ما جئتهُ متهللًا ... كأنك تعطيهِ الذي انت سائلهُ
تعوَّد بسط الكف حتى لو انهُ ... اراد انقباضًا لم تطعهُ انامِلُهُ
فلو ان ما في كفهِ غير نفسهِ ... لجاد بها فليتقِ الله سائلهُ

وقال محمد بن مناذر في آل برمك

اتانا بنو الاملاك من آل برمكٍ ... فيا طيب اخبارٍ ويا حسن منظرِ
لهم رحلةٌ في كل عامٍ الى العدى ... واخرى الى البيت العتيق المستَّرِ
اذا نزلوا بطحاء مكة اشرقت ... بيحيى وبالفضل بن يحيى وجعفرِ
فما خُلقت الَّا لجودٍ اكفهم ... واقدامهم الَّا لسعيٍ مطهَّرِ

اذا رام يحيى الامر ذلّت صعابه   وناهيك من راعٍ له ومدبّر

ولابي نواس

ان البرامكة الكرام تعلموا   فعل الجميل وعلموهُ الناسا
كانوا اذا غرسوا سقوا واذا بنوا   لا يهدمون لما بنوهُ اساسا
واذا هم صنعوا الصنائع في الورى   جعلوا لها طيب الثناء لباسا

وكان اول من وزر من البرامكة خالد بن برمك بن جاماس بن يشتاسف البلخي استوزرهُ عبد الله السفاح الخليفة الاول من بني العباس وكان ابوهُ برمك المذكور مجوسيًّا من بلخ اشتهر هو وسلفهُ بسدانة النوبهار وهو معبدٌ للمجوس توقد فيه النيران في تلك المدينة ثم لما تولى الخلافة هرون الرشيد خامس الخلفاء المذكورين استوزر جعفر بن يحيى وزوجهُ باخته العباسة[1] وبالجملة فانهُ رفع هذه العائلة الى اعلى درجات المجد حتى كان من حديث جعفر هذا انه خلا ذات يوم ليشرب في داره وامر حاجبه ان لا يدخل عليه احدًا الأ عبد الملك بن بحران قهرمانه فسمع الحاجب عبد الملك دون ابن بحران وعرف عبد الملك بن صالح الهاشمي مقام جعفر بن يحيى في داره فركب اليه فارسل الحاجب ان قد حضر عبد الملك فقال ادخله وعندهُ انه ابن بحران فلما دخل عبد الملك بن صالح في سواده ورصافيته اربدّ[2] وجه جعفر وكان ابن صالح لا يشرب النبيذ وكان الرشيد دعاهُ اليه فامتنع فلما رأى عبد الملك حالة جعفر دعا غلامه وناولهُ سوادهُ وقلنسوته ووافى ارباب المجلس فسلم عليهم وقال اشركونا في امركم وافعلوا بنا فعلكم في انفسكم فجاءهُ خادمٌ فالبسهُ حريرةً واستدعى بطعام فاكل وبنبيذ فأُتي برطل منه فشربهُ ثم قال لجعفر والله ما شربته قبل

(١) زواج بنات الملوك في الدول الوراثية الاسلامية يكون بالاسم فقط اي بالعقد بقصد ان تحضر الزوجة امام الزوج مكشوفة الوجه فلا يحصل منها على اولاد

(٢) اربدّ وجهه اي عبس وتغير لونه

اليوم فيخف عني فامر ان يحمل بين يديهِ باطية يشرب منها ما يشاء ثم لما اراد الانصراف قال جعفر اذكر حوائجك فاني ما استطيع مقابلة ما كان منك قال ان في قلب امير المؤمنين موجدة عليّ فتخرجها من قلبهِ وتعيد اليّ جميل رأيهِ فيّ قال قد رضي عنك امير المؤمنين وزال ما عندهُ منك فقال وعليّ اربعة آلاف الف درهم قال تقضى عنك وهي لحاضرة ولكن كونها من امير المؤمنين اشرف بك وادل على حسن ما عندهُ لك قال وابرهيم ابني أُحبُّ ان ارفع قدرهُ بصهرٍ من ولد الخلافة قال قد زوجهُ امير المؤمنين العالية ابنتهُ قال واوثر التنبيه على موضعهِ برفع لواء على راسهِ قال قد ولاهُ امير المؤمنين مصرًا ثم انصرف عبد الملك ولما كان الغد ركب جعفر الى باب الخلافة وعرَّف الرشيد ما كان من امر عبد الملك من اولهِ الى آخرهِ وهو يقول احسن احسن ثم قال ما صنعت فعرفهُ ما كان من قولهِ له فاستصوبهُ وامضاهُ جميعهُ بدون ان ينقص منهُ شيء. واخيرًا آل امر هذا الحبيبة سوء ان قتل جعفرًا المذكور في سنة ١٨٧ للهجرة (سنة ٨٠٢ م) ولازال بالبرامكة جميعًا حتى افناهم وقد ذكر المؤرخون لذلك اسبابًا كثيرة ولكنها مردودة . روى ابن خلكان عن ابن بدرون ان علية بنت المهدي قالت لاخيها الرشيد يا سيدي ما رأيت لك يوم سرور منذ قتلت جعفرًا ولايّ شيء قتلتهُ فقال لها يا حياتي لو علمت ان قميصي يعلم السبب لمزقتهُ

ويحكى انهُ لما زوج الحسن بن سهل ابنتهُ بوران لخليفة المأمون بن الرشيد المشار اليهِ احتفل ابوها بامرها وعمل لها من الولائم والافراح ما لم يعهد مثلهُ في عصرٍ من الاعصار وانتهى امرهُ الى ان نثر على الهاشميين والقواد والكتاب والوجوه بنادق مسك فيها رقاع باسماء ضياع واسماء جوارٍ وصفات دواب وغير ذلك فكانت البندقة متى وقعت في يد الرجل فتحها فقرأ ما في الورقة يمضي الى الوكيل المرصد لذلك ويتسلم ما فيها سواء كان ضيعةً او ملكًا آخر او فرسًا او جارية او مملوكًا. ثم نثر بعد ذلك على الناس الدنانير والدراهم ونوافج

المسك والعنبر وانفق على المأمون وقواده وجميع اصحابه وكل من كان معه من الاجناد والاتباع تسعة عشر يومًا فكان مبلغ النفقة خمسين الف الف درهم اما المأمون فانه امر له عند منصرفه بعشرة آلاف الف درهم واقطعه الصلح فجلس الحسن وفرّق المال على قواده واصحابه وحشمه وكان ذلك سنة ٢١٠ للهجرة (سنة ٨٢٥ م) وبوران هذه هي التي يضربون المثل بفرشها فيقولون انه من فراش بوران واسمها خديجة واما بوران فهو لقبٌ لها وفيها يقول بعض الشعراء

بارك الله للحسن ولبوران في الختن
يا امام الهدى ظفرْ تَ ولكن ببنت مَنْ

قال ابو العيناء تذاكروا الشعراء واتفقوا على آل المهلّب في الدولة الاموية وعلى البرامكة في الدولة العباسية ثم على ان احمد بن ابي دواد اسخى منهم جميعًا وافضل وكان يكنى بابي عبد الله واما ابوهُ فاسمه فرج بن جرير بن مالك بن عبد الله بن عباد ويتصل نسبه بنزار بن معد بن عدنان الايادي وكان معروفًا بالمروءة والعصبية وله مع المعتصم العباسي في ذلك اخبارٌ مشهورةٌ نشأ في طلب العلم وخاصةً الفقه والكلام ولم يُرَ رئيس قط أفصح ولا انطق منه جعله المعتصم المشار اليه قاضي القضاة بعد ان عزل يحيى بن اكثم وذكر ابن خلكان في ترجمته انه امتحن الامام احمد بن حنبل والزمه بخلق القرآن لانه كان من المعتزلة وشاعرًا مجيدًا فصيحًا بليغًا توفي سنة ٢٤٠ للهجرة (سنة ٨٥٤ م) واجتمع يوم وفاته على بابه كثيرٌ من اهل العلم والادب فلما طلعَ سريرهُ قام اليه ثلاثة منهم فقال احدهم

اليومَ مات نظامُ الملك واللسنِ ومات من كان يستعدي على الزمنِ
واظلمت سبل الآداب اذ حجبت شمس المكارم في غيمٍ من الكفنِ

وتقدم الثاني فقال

ترك المنابر والسرائر تواضعاً ولهُ منابر لو يشا وسريرُ
ولغيره يُجبى الخراج وانما يُجبى اليهِ محامدٌ واجورُ

وتقدم الثالث فقال

وليس فتيق[١] المسك ريح حنوطهِ ولكنهُ ذاك الثناء المخلَّفُ
وليس صرير[٢] النعش ما تسمعونهُ ولكنهُ اصلابُ قومٍ تُقصَّفُ

ومن شيم العرب الامانة والوفاء ايضاً ويأمنون من خلف الوعد وقد ضربوا الامثال برجلين من يهود العرب لكل واحدٍ منهما مزيةٌ تخالف الاخرى فالواحد يُضرب بهِ المثل في الوفاء وهو السموأل بن عريض بن عاديا من عرب اليمن واحد الشعراء المشهورين فيقال اوفى من السموأل او من السموْل والسموأل مهموزٌ من اسماء الظل اذا ارتفع ورواهُ الخليل سمول غير همزٍ كان امرء القيس استودعهُ دروعاً عند ذهابهِ الى قيصر ملك الروم فلما مات طالبهُ بها الحارث بن ابي شمّر الغساني وجهز عليهِ جيشاً والقصة مشهورة ملخصها انهُ سمح بذبح ابنهِ ولم يسلم الدروع الا الى ورثاء امرء القيس المذكور وانشد بعد ان ذبح الحارث ابنهُ

وفيتُ بادرع الكنديّ أني اذا ما ذمّ[٣] اقوامٌ وفيت
واوصى عاديا يوماً بان لا تهدمْ يا سموأل ما بنيتُ

وفي محيط المحيط

وفيتُ بادرع الكنديّ اني اذا ما خان اقوامٌ وفيتُ
بنى لي عاديا حصناً حصيناً اذا ما سامني ضيمٌ ابيتُ

(١) فتيق المسك شدة رائحتهِ (٢) الصرير صوت تموج الخشب
(٣) الذمّ هنا من الذمة

ولهُ ايضاً القصيدة المشهورة التي يقول في مطلعها

تعيّرنا انّا قليلٌ عديدنا　　فقلت لها ان الكرامَ قليلُ

واما الثاني فيضرَب بهِ المثل في خلف الوعد ويقال لهُ عرقوب وهو من خيبر وقيل من ساكني يثرب وقيل من العماليق كان كذوبًا يعد ولا يفي فقالوا في امثالهم اخلف من عرقوب كما قالوا ايضاً أخلف من ابي حباحب وهو رجل من العرب كان بخيلاً لا توقد لهُ نار بليلٍ مخافة ان يقتبس منها وقيل غير ذلك

وممن يضرَب بهم المثل في الوفاء عوف بن مُحلّم واسامة جاعة والحرث بن ظالم وام جميل من رهط ابي هريرة وابو حنبل الطائي والحرث بن عباد وفكيهة امرأة من بني قيس بن ثعلبة ولكلٍّ منهم حديث يطول شرحهُ

ولما كان من الشرف والرياسة حفظ الجوار وحمي الذمار[1] كانت العرب ترى ذلك دَينًا تدعو اليهِ وحقاً واجبًا تحافظ عليهِ فلا شيء يعادل عندهم في القدر والقيمة اغاثة الملهوفين وتأمين الخائفين حتى انهُ كان اذا عقد رجل طرف ثيابهِ الى جانب طنب بيت وجب على صاحب الطنب ان يجيرهُ وان يطلب لهُ بظلامتهِ

وممن اشتهر بحسن المجاورة وضرِب بهِ المثل في ذلك رجل يقال لهُ قعقاع ابن شور وهو احد بني عمرو بن شيبان بن ذهل بن ثعلبة من بني بكر بن وائل وابو دوءاد الايادي الذي سبق ذكرهُ ويعرف بالحذاقي[2] قال طرفة بن العبد البكري

اني كفاني من امرٍ هممتُ بهِ　　جارٌ كجار الحذاقيّ الذي انصفا

يريد بجار الحذاقي كعب بن مامة فانهُ كان جارًا لابي دوءاد المذكور

---

(١) الذمار ما يلزمك حفظهُ وحمايتهُ من عرضٍ وحريم وناموس

(٢) الحذاقي الرجل الفصيح اللسان البين اللهجة

وكانت الحمام بمكة لا تثار ولا تهاج احتراماً لمجاورتها لها ولذلك قالوا في امثالهم آمن من حمام مكة قال النابغة

والمؤمن العائذات الطير يمسحها ركبان مكة بين الغيل والسند[١]

ومن امثالهم ايضاً آمن من ظبي الحرم ومن الظبي بالحرم لان الصيد ممنوع في الحرم احتراماً وضربوا المثل ايضاً برجل يقال له مدلج بن سويد الطائي زعموا بانه حمى جراداً وقع بفنائه فلم يبرح راكباً فرسه ورمحه بيده الى ان حميت الشمس وطار الجراد فقالوا احمى من مجير الجراد كما قالوا احمى من مجير الظعن وهو ربيعة بن مكدم الكناني الذي مانع نبيشة بن حبيب السلمي عن ظعن من كنانة بالكديد[٢] اراد ان يحوزها الى ان طعنه نبيشة ولا زال حتى كشف القوم وحمى الظعن وهو واقف على فرسه متكئ على رمحه الى ان مات

ودامت الحرب بين بكر وتغلب اربعين سنة بسبب عقر ناقة تسمى سراب كانت لرجل يقال له سعد بن شمس وكان جاراً لامرأة يقال لها البسوس نسبت اليها هذه الحرب فقيل لها حرب البسوس لانها هي التي هيجتها ولذلك ضرب بهذه الناقة وبها المثل في الشؤم فيقال اشأم من سراب واشأم من البسوس والبسوس هذه كانت خالة عمرو بن مرة بن ذهل الشيباني او اليشكري ويلتبس بجساس وقيل بل هي جارته وكان كليب بن وائل رجلاً عظيم المهابة يضرب المثل بعزته فيقال أعزّ من كليب وائل وكان لا توقد نار مع ناره ولا ترد ابل على الماء حتى ترد ابله وكان يحمي المراعي فلا يقربها احدٌ ويحمي الصيد فلا يصاد ولذلك يقولون في المثل حمى كليب (راجع تجد في الفصل الاول من المقالة الاولى) وكان لا يتكلم احدٌ في مجلسه ولا يجلس حتى يأمره ويقال بانه هو

(١) الامن ضد الخوف والعياذ الالتجاء والمسح تحسين القول للخديعة وايضاً القطع والركبان جمع راكب والغيل الشجر الكثير الملتف والاجمة والوادي فيه ماء والسند ما علا سفح الجبل (٢) الكديد اسم موضع

وأول من صعد ماهود وكان لا يرعى احدٌ في حماه في انف الربيع الا ابل
جساس المذكور فانه كان احد اصهاره واذ نظر كليب هذا يوماً الى ناقة سعد
ترعى مع ابل جساس فانكرها ورماها بسهم فاختلّ ضرعها فولّت حتى بركت
بفناء صاحبها وضرعها يشخب لبناً ودماً فلما نظر اليها صاحبها صرخ بالذل
فخرجت جارته البسوس ونظرت الى ناقة جارها وهي على هذه الحالة فضربت
يدها على رأسها ونادت واذلاه وانشأت تقول ابياتاً سمتها العرب بالموثبات
حيث اوغرت صدور القوم منها

لعمرك لو اصبحت في دار منقذ(1) — لما ضيم سعدٌ وهو جارٌ لابياتي
ولكنني اصبحت في دار غربة — متى يعدُ فيها الذئب يعدُ على شاتي

فسمع جساس قولها فسكّن روعها وقال لها ليقتلنّ غداً جملٌ هو اعظم عقراً
من عقر ناقة جارتك ثم صار يرقب كليباً الى ان خرج من الحي وتباعد عنه
فخرج اليه وتبعه عمرو بن الحرث فوجده وقد طعن كليباً في صدره فمات ويظن
ان ذلك كان في سنة ٤٩م اي قبل الهجرة بنحو ١٢٢ سنة

ولما كان اخذ الثأر مما لا محيص عنه عند العرب ثار المهلهل بن ربيعة
التغلبي الحرب التي سبقت الاشارة اليها للأخذ بثأر اخيه كليب ولذلك يقولون
في المثل آخذ بالثار من مهلهل فكان مدة طلبه ثأر اخيه لا ينزع لامة حربه ولا
يشرب الخمر ولم يدهن رأسه بطيب ولا يأوي الى مضاجع النساء مع انه كان
يتعقّب الزير(2) النساء لقّبه بذلك اخوه كليب ويقال انه هو اول من قصّد
القصائد وقال الغزل(3) وسمّاه امرؤ القيس ولقّب بالمهلهل لرقة شعره من قولهم
ثوبٌ مهلهل اذا كان رقيق النسج وهو خال امرئ القيس الكندي فتمة عداده

---

(1) منقذ اسم ابي البسوس المذكورة
(2) والزير الرجل يحب محادثة النساء ومجالستهن وكان المهلهل كذلك فلقبه اخوه به
(3) الغزل محادثة النساء ومراودتهن ولذلك يقال في المثل اغزل من امرئ القيس

وهو في بعض الفلوات(١) لضجرهم منه وكان نائماً في ظلّ شجرة ويحكى انهما لما احدّا مديتهما وقال لهما ما بالكما لا تذبحانني ما اذقت العرب قبل ان لم يكن بدٌّ من ذلك فاذا اتيتما ابنتي فحدّثاها عني بالسلام وقولا لها هذا البيت

من مبلغ الاقوام ان مهلهلاً ... لله دركما ودرّ ابيكما

فلما تم بعد ان قتلاهُ ودفناهُ لحقا باهلهما يبكيان ويقولان وا مهلهلاه واسيداه وافارس العرب ولما سمعتهما ابنته وكان اسمها سلمى قالت في ما رأى فقالا مات ابوك المهلهل قالت وهل اوصاكما بشيء فقالا لا غير انه سمعناه يقول كذا وانشدنا البيت فعكرت سلمى ومن حولها فلم يجدوا مخرجاً لذلك واذا امة الصغيرة تبكي وتقول وا كلاه قتيل ورب الكعبة اوثقوا العبدين فاذن فتيان من تغلب فاختلط كلامها فقالت أتدرون ما اراد ابي قالوا لا قالت ما اراد الا ان يقول

من مبلغ الاقوام ان مهلهلاً ... اضحى قتيلاً في الفلاة مجدلا(٢)

لله دركما ودرّ ابيكما ... لا يبرح العبدان حتى يقتلا

فامروا بالعبدين فضُربت اعناقهما

وكان من عادة العرب اذا قتل لاحدهم شخصٌ نشأت العداوة بين قبيلة المقتول وقبيلة القاتل فلا تترك عشيرة المقتول لعشيرة القاتل او يستقر ما يقع الصلح على ديةٍ معلومة مع انهُ لا ذنب لعشيرته ولا قبيلتهِ وربما يوخذ ثار الان بقتل ابيهِ او بالعكس وتدوم العداوة مدةً طويلة بين الدراري ولو نسي السبب

وكان من عادتهم ايضاً سبب مثل ذلك ان يرموا سهماً نحو السماء سموهُ

(١) الفلوات جمع فلاة وهي الصحراء الواسعة والبرية لا ماء فيها
(٢) المجدل المصروع على الجدالة في الارض

سهم الاعتذار فان رجع ملطخًا بالدم لم يرضوا الاّ بالقود[1] وان رجع نقيًا مسحوا لحاهم وصالحوا على الدية وكان مسح اللحى علامة للصلح قال ابن الاعرابي لم يرجع ذلك السهم الاّ نقيًا ا ه . ويعبّرون عن هذا العمل بالعقيقة قال الشاعر

عقوا بسهم ثم قالوا صالحوا يا ليتني في القوم اذ مسحوا اللحى

وقد اوجبت الشريعة الاسلامية الدية لما ورد في الكتاب وما كان لمؤمن ان يقتل مؤمنًا الاّ خطاء ومن قتل مؤمنًا خطاء فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلّمة الى اهله الاّ ان يصّدّقوا فان كان من قوم عدوّ لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة وان كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلّمة الى اهله وتحرير رقبة مؤمنة فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين (الآية) . ثم ان هذه الدية في مقرّرة ومدونة في كتب الفقه والمسلمون تتكافأ دماؤُهم اي تساوى في الدية والقصاص لا فضل لشريف على وضيع وقد يقع ان بعض اهل الكرم يدفع الدية عن القاتل المعدم فيكافيه القاتل بثنائهِ عليهِ في كل مكان

وكان من سننهم ايضًا اذا قتل لاحد العرب عزيز ولم تقع المصالحة بين قبيلتهِ وقبيلة القاتل على ما تقدّم وتقرّر طلب الثار فيجزّون ناصية فرس المقتول ويقطعون ذنبها ويقال ان اوّل من فعل ذلك هو الحرث بن عباد في حرب البسوس الذي مرّ ذكرهُ لما قتل المهلهل ابنهُ بجيرًا فاستدعى فرسهُ النعامة وفعل بها ذلك اشارة الى طلب الثار

واذا كان القاتل مجهولاً واتهموا شخصًا بذلك فلا يبرأ المُدّعى عليهِ الاّ اذا لحس حديدةً محماة بالنار في حضرة مخصصة ابين فيحمّى القاضي الحديدة ويقع عليها ويعصبها للمُدّعى عليهِ فيضع لسانهُ عليها فان وُجد لسانهُ غير محروق تبيّن حينئذٍ براءتهُ ويلزم له المدّعي بعير لجبر ما رماه بهِ في ادّعائهِ عليهِ اما اذا وُجد لسانهُ محروقًا كان معرضًا للقتل الاّ اذا عفت عنه عائلة القتيل على قدر

---

(١) القود قتل القاتل والقصاص وهو من القيادة نقيض السوق فان القود يكون من قدام والسوق من خلف يقال قاد الامير القاتل الى موضع القتل حملهُ اليهِ

معلوم دلة على ما ذكرنا وزعم بعضهم ان للعرب حيلاً في عدم الاحتراق للمدَّعى عليهِ خصوصاً اذا كان من احداث النواحي[1] والظاهر ان هذه الطريقة كانت عند العرب لخصوص المتَّهم بالقتل فلا تكون في سائر الدعاوي بل كان لتلك طرقٌ مناسبة كما يستبان من قول زهير ابن ابي سلمى المزني

فان الحق مقطعهُ ثلاثٌ يمينٌ او نفارٌ او جلاء

ويروى يمينٌ او شهودٌ او جلاء فاليمين هنا معلوم وهو القسم وان كان ما بعدهُ نفارٌ فيكون المراد بهِ اما الحرب واما النفار الى الحكماء والاول ارجح لان النفار هو من قبيل التداعي فلا يكون حجة بذاتهِ وان كان شهودٌ فهو شهود البينة واما الجلاء فهو البرهان الذي يستفاد من واقعة الحال

وكانوا يتباهلون ايضاً في بعض منازعاتهم والتباهل التلاعن وتباهلوا تلاعنوا ومنهُ ابتهل اليهِ تعالى باخلاص واجتهاد وتضرُّع وفي سورة آل عمران فقل تعالوا ندعُ ابناءنا وابناءكم ونساءنا ونساءكم وانفسنا وانفسكم ثم نبتهل قيل اي نتباهل بان نلعن الكاذب منا وفي الحديث اللعان حين لاعن هلال بن أُمية امرأتهُ قال ان جاءت بهِ اثيبج[2] حمش الساقين فهو لزوجها وان جاءت بهِ ادرق جعداً جماليًا خدلَّج الساقين سابغ الاليتين فهو للذي رُميت بهِ

(١) راجع الامتحانات الشرعية التي كانت الافرنج تستعملها في القرون الوسطى ويسمّونها قضاء الله

(٢) الاثيبج تصغير الاثبج وهو الرجل العريض ما بين الكاهل الى الظهر وحمش الساقين مرَّ تفسيرهُ في آخر الفصل الرابع من المقالة الخامسة واما الادرق فهو المسرع في مشيهِ والجعد يراد بهِ اجعد الشعر لان الجعودة غالبة على شعور العرب وقد كانت يعنون باجعد الشعر الرجل الكريم وعكسهُ اجعد الكف وهو البخيل قال الشاعر

كلا قتلوا عن عليٍّ وطرقو بني اللوم حتى يعبد انامك الجعدُ

اي المالك الكريم والجماليّ من الرجال الضخم الاعضاء التام الخلق وخدلج الساقين ممتليهما وسابغ الاليتين طويلهما وهي لغة الحميرة

وكانوا يتشاءمون بالحماقة وجودة الرأي والفراسة ويضربون المثل في ذلك قيس بن زهير العبسي فيقولون لمن ارادوا وصفه بجودة الرأي قيس الرأي او ادهى من قيس وهو الذي اعتزل في آخر ايامه فكبرت نفسه عن الاقامة في قومه فخرج عنهم ونزل ببني النمر بن قاسط وتزوج بامرأة منهم ثم رحل ونزل بعمان وتنصر بها واقام حتى مات

واما في الاسلام فيضرب المثل بذكاء عبد الله بن عباس فيقولون لمن يصفونه بالذكاء اذكى من عبد الله بن عباس كما يقولون أفرس من اياس وازكن من اياس وهو ابو وبثلة بن معاوية بن قرة المزني البصري الالمعي المصيب كان قاضياً زكنا تولى قضاء البصرة لعمر بن عبد العزيز وكان شهيراً بالاجوبة المسكتة ايضاً وبنوادر زكنه كثيرة كتب المدائني فيه كتاباً سماه كتاب زكن اياس. حكي ان رجلين احتكما اليه في مال جحده المتهوب اليه المال فقال له اياس ابن دفعت اليه المال فقال عند شجرة في مكان كذا قال انطلق الى ذلك الموضع لعلك تذكر كيف كان امر هذا المال ولعل الله يوضح لك سبباً فمضى الرجل وجلس خصمه فقال اياس بعد ساعة أترى خصمك قد بلغ موضع الشجرة قال بعد قال قم يا عدو الله انت خائن واحتفظ به حتى اقرّ وردّ المال لصاحبه توفي سنة ١٢٢ للهجرة (سنة ٧٣٩ م)

ويضرب المثل ببراعة بني الفرات ايضاً فانهم كانوا اصحاب فضل وكرم وعلم وقلم فيقولون أبرع من بني الفرات وهم اربعة اخوة في الاسلام اكبرهم احمد ابو العباس وابو الحسن علي وابو عبد الله جعفر وابو عيسى ابرهيم وابوهم محمد ابن موسى بن الحسن بن الفرات ومنهم من تولى الوزارة للمقتدر بالله العباسي

ومن مزايا العرب الحميدة البر بالوالدين ويضربون المثل في ذلك برجلين يقال لاحدهما العملّس والثاني فلحس يتأسى بهما الناس في برّ الآباء والامهات. يحكى عن العملّس انه كان يحمل امه على عاتقه وفلحس كذلك يحمل اباه وكان خرفاً كبير السنّ ويتمثل بهما البنت

ويضربون المثل في العلم بالشعبي وهو عمرو بن عامر بن شراحيل والشعب بطن من همدان فيقال اعلم من الشعبي واحفظ من الشعبي لمن يريدون وصفه مع المبالغة في العلم او بالحفظ كما يقال احفظ من العميان توفي سنة ١٠٧ للهجرة (سنة ٧٢٥ م)

ويضربون المثل في الحلم بمعاوية بن ابي سفيان فيقولون أحلم من معاوية كما يقولون أحلم من الاحنف بن قيس واسمه الضحاك من بني تميم وكنيته ابو بحر وقيل اسمه صخر وكان سيدًا مطاعًا بعفوه وحلمه. يحكى انه خلا به رجل فسبّه سبًا سيئًا قبيحًا فقال له الاحنف ان كان بقي من قولك فضلة فقل الآن قبل ان يأتي احد من قومي فيسمعها فيؤذي . ويحكى ايضًا انه سئل بمَ سدت قومك فقال لو ان اناس كرهوا الماء ما شربته توفي سنة ٧٠ للهجرة (سنة ٦٨٩ م)

الفصل الثاني

في شجعان العرب

وُصف العرب بالشجاعة وقد اشتهر بها منهم رجالٌ في الجاهلية والاسلام تخلد ذكرهم ودام فخرهم ولا زال الناس الى وقتنا هذا يحكون بقصصهم ومآثرهم ومنهم في الجاهلية عمرو بن معدي كرب الزبيدي فارس بني زبيد ويكنى ابا ثور قيل لانه كان يأكل العجل ويشرب عليه زقًا من الخمر وكان من الابطال المعدودين أسلم ثم ارتد ثم عاد الى الاسلام وكان من الشعراء المشهورين ايضًا

وهو الذي قتل رستم زاد الذي قدّمه يزدجرد ملك الفرس يوم القادسية على قتال المسلمين وكما انه كان مشهورًا بالشجاعة كان مشهورًا كذلك بالكذب قيل لخلف الاحمر وكان يتعصب لليمن أكان ابن معدي كرب يكذب فقال كان يكذب في المقال ويصدق في الفعال وقالت احدى نساء العرب

أيا ليت جاري كمار الحصين وعلي عمرو بن معدي كرب

توفي سنة ٢٢ للهجرة (سنة ٦٤٣ م)

ومنهم ربيعة بن المكدّم بن عامر بن خويلد بن جذيمة بن علقمة بن جذل الطعان بن فارس ربيعة المكدّم الفراسيّ من بني كنانة احد فرسان مُضر المشهورين قتله نبيشة بن حبيب السلمي يوم الكديد

ومنهم دريد بن الصمّة ويكنى ابا دفافة وابا قرّة يتصل نسبه ببكر بن هوازن فارس شجاع شاعر فحل ومنهم من جعله اول شعراء الفرسان وهو سيد بني جشم غزا نحو مئة غزوة قتله المسلمون يوم حنين وكان جدّهُ لامه معدي كرب الزبيديّ فيكون عمرو خاله وكانت له ست شاعرة يقال لها سلمى واخرى يقال لها عمرة لها فيه مراثٍ كثيرة

وذو الخمار مالك بن نويرة يتصل نسبه بمضر بن نزار ويكنى ابا المغوار واخوهُ متمم ويكنى ابا نهشل وكان يقال لمالك فارس ذي الخمار لفرس كان عنده يقال له ذو الخمار وكان شريفًا فارسًا شاعرًا ويقال له الجفول ايضًا قتله خالد بن الوليد في خلافة ابي بكر متعللاً عليه بانه اتبع سجاح وآمن بها (راجع الخلف بذمة العرب في الفصل الثالث من المقالة الرابعة)

وعروة بن الورد بن زيد بن عمرو بن زيد بن عبد الله من ولد مُضر ابن نزار شاعرٌ من شعراء الجاهلية وفارسٌ من فرسانها وصعلوك[1] من صعاليكها المعدودين المقدمين الاجواد وكان يلقب عروة الصعاليك لجمعهِ اياهم وقيامهِ

(١) الصعلوك الفقير

بأمرهم اذا احفقوا[١] في غزواتهم ولم يكن لهم معاش ولا معزا وقيل غير ذلك

وعنترة بن عمرو بن شداد العبسي صاحب القصة الشهيرة فارس بني عبس الذي يُضرب المثل بشجاعته فيقولون اشجع من عنترة وهو من اغربة العرب اي سودانهم وُلد لشداد من امة سوداء يقال لها زبيبة ويقال له هو عنترة الفلحاء تأنيث الافلح وهو المشقوق الشفة السفلى كما ان الاعلم المشقوق الشفة العليا وكان بنو عبس استاقوا أمة مع غنائم اختطفوها من بني جذيمة ووقعت في سهم شداد ابن قراد ولما انتشى عنترة هام في عشق عبلة بنت مالك اخي شداد ثم صار يركب الخيل ويظهر الشجاعة وكان ظهوره في ايام الحرب بين عبس وفزارة التي اوجبها سباق الخيل وصار له اسم يذكر في تلك الوقائع وهابته فرسان العرب وكان بطلاً فصيحاً تزوج محبوبته عبلة وبلغ من فصاحته وشجاعته انه علق قصيدته على البيت الحرام بجملة المعلقات التي مرّ ذكرها في الفصل الاول من المقالة الرابعة . يحكى عنه انه قيل له انت اشجع العرب واشدهم بطشاً فقال لا فقيل له كيف شاع لك هذا الاسم بين الناس فقال اني أقدمُ اذا رأيت الاقدام عزماً وأحجمُ اذا رأيت الاحجام حزماً ولا ادخل مدخلاً الا اذا رأيت لي منه مخرجاً واعتمد الضعيف الساقط فاضربه ضربة يطير منها قلب الشجاع فاثني عليه فاقتله والحرب خدعة . قتله رجل يقال له الاسد الرهيص سنة ٦١٥ م اعني قبل الهجرة بنحو سبعة سنين

وممن يُضرَب بهم المثل في الشجاعة من فرسان العرب ايضاً عتيبة بن الحرث بن شهاب فارس تميم ويقال له سمّ الفرسان وعامر بن مالك بن جعفر بن كلاب فارس قيس وهو ابو براء ويقال له ملاعب الاسنة وعامر بن الطفيل ابن اخي عامر المذكور وبسطام بن قيس الشيباني فارس بكر فيقولون لمن ارادوا وصفه بالشجاعة افرس من سم الفرسان وافرس من ملاعب الاسنة وهكذا الى آخره

(١) الخفقان اضطراب القلب واخفق الرجل خاب سعيه ومطلوبه وغزا ولم يغنم

اما اغربة العرب الذين مرّ ذكرهم واشتهروا بهذا الاسم فهم ثمانية منهم ثلاثة ينسبون الى امهاتهم احدهم عنترة المذكور يُنسب الى امه زبيبة وخفاف بن عمرو الشريدي نُسب الى امه نُدبة والسليك بن عمير السعدي يُنسب الى امه السُلكة والخمسة الباقون هم الشنفرى الازدي وتأبط شرًّا وهشام بن معيط وهمام بن مطرف وعمير بن ابي عمير والكثير منهم صحة شهرتها اه. وفي محيط المحيط الاغربة في الجاهلية عنترة وخفاف بن ندبة وابو عمير بن الحباب وسليك ابن السلكة وهشام بن عقبة بن ابي معيط الا انه مخضرم (1) وقد ولي الاسلام ومن الاسلاميين عبد الله بن خازم وعمير بن ابي عمير وهمام بن مطرف ومنتشر بن وهب ومطر بن اوفى وتأبط شرًّا وهو زيد بن ثابت والشنفرى الازدي وحاجز

اما عنترة المذكور فانه اشتهر اخيرًا بالفروسية والشجاعة على ما تقدم واما السُليك ابن السُلكة فانه اشتهر بالصعلوكية على ما ورد في الفصل الاول من هذه المقالة ولكنه يُحسب من عدّائي العرب الآتي ذكرهم هو وتأبط شرًّا والشنفرى الازدي

وزاد معاصير العرب جماعة اشتهروا بالعدو على ارجلهم وسرعة الركض وهو من الاحضار والاحضار عدو الفرس ويقال بانهم خمسة احدهم السُليك المذكور ويقال له السعدي واسمه الحرث بن عمرو بن زيد بن مناة التميمي والسليك مصغّر السلك وهو ولد الحجل سُمي بذلك لكون امه تسمى السلكة وهي انثى الحجل ويقال بانه كان اول الناس بالجري على الارض واعداهم على رجليه لانه حاد الحجل وكما ضُرب المثل به في التلصص ضُرب كذلك به المثل في العَدْو ايضًا فيقال اعدى من السُليك بن السلكة وكان من فصحاء العرب وشعرائهم وحتوته سلوك المقانب ولمناسب الذئاب ضارية فقتله انس بن مدرك الخثعمي سنة ٦٠٥ م اعني قبل الهجرة بنحو عشرين سنة

وثانيهم الشنفرى وهو رجل من بني الازد سُمي بالشنفرى لعظم شفتيه وضُرب به المثل في سرعة الركض كما يضرب بالسليك المذكور فيقال اعدى

(1) المخضرم رجل كان جاهليًا ثم ادرك الاسلام فعاش واسلم

من السعدي وكان شاعراً جاهلياً وهو صاحب لامية العرب المشهورة التي شُبهت لامية العجم للطغرائي بها

والثالث عمرو بن براق والرابع اسيد بن جابر والخامس تأبط شراً واسمه ثابت بن جابر بن سفيان الفهمي

وهناك رجل يقال له دعيميص الرمل من سودان العرب ايضاً اشتهر في الدلالة على الطرق والدلالة يقولون لمن ارادوا المبالغة في حسن دلالته أدل من دعيميص الرمل كما يقولون أدل من حنيف الحناتم وهو رجل من تيم اللات ابن ثعلبة وسوف يأتي ذكره كان دليلاً ماهراً بالدلالة

ورجل آخر يقال له ربيعة بن الأخطل له قوة على سعر الابل فضربوا به المثل في ذلك

واما الذين اشتهروا بالشجاعة في الاسلام فهم على طبقات الاولى منها علي ابن ابي طالب وخالد بن الوليد والمقداد بن ابي الاسود وسعد بن ابي وقاص الزهري وطلحة الاسدي وابو دجانة الانصاري وعمار بن ياسر ومالك بن الحرث النخعي والقعقاع بن عمرو طاعن الفيل

ودونهم في الطبقة عبد الله بن الزبير بن العوام وابو هاشم عبد الله بن محمد ابن علي بن ابي طالب وعبد الله بن خازم السلمي فارس الاسلام ومسلمة بن عبد الملك بن مروان والمعتصم العباسي وابراهيم بن الاشتر النخعي وعبد الله بن الحر الجعفي وجحدر[1] بن ربيعة العكلي والمهلب بن ابي صفرة واولاده المغيرة ويزيد والمدرك وحبيب والمفضل وقبيصة[2] وعبد الملك ومحمد المشهورون بآل ابي صفرة وكان ابوهم المهلب احد امراء الحجاج بن يوسف وبه ضرب المثل في الكذب فيقال أكذب من المهلب كان اذا حدث قيل راح يكذب وكان دائماً ان يكذب وهو الذي اخترع الركب للخيل من الحديد وكانت قبلا من الخشب فكان الرجل يضرب ركابه فينقطع واذا اراد الضرب

(١) الجحدر القصير (٢) القبيصة التراب المجموع

والضرب لم يكن له معين ولا معتمد توفي المهلّب سنة ٨٣ للهجرة (٧٠٢م)

وكان المهلّب المذكور يقول اجمع الناس ثلاثة ابن الكلبية واحمر قريش وراكب البغلة فاما ابن الكلبية فهو مصعب بن الزبير واحمر قريش عمر بن عبد الله بن معمر وراكب البغلة عباد بن الحصين

ومن ينازعهم في الخوارج ابو بلال مرداس وشبيب الخارجي والحجاج في الكوفة وقطري بن الفجاءة

ودونهم في الطبقة معن بن زائدة الشيباني وعمرو بن حيف وابو دلف القاسم بن عيسى العجلي

الفصل الثالث

في فصحاء العرب وشعرائها

لاشيء عند العرب يساوي الفصاحة اذ انهم قد اشتهروا بها منذ الاجيال القديمة جدًا وكانوا في اعلى طبقة من نباهة الفكر وسرعة الخاطر في كل انواعها وضروبها الآتية وهي اولاً

الخطابة. فانهم كانوا يستعملون الخطب في كل امر مهمّ واعيانهم هم الذين يخطبون في ذلك على ان الخطابة في العالم المتمدن هي احدى العلوم المنطقية وموضوعها انما هو الاقوال المقنعة النافعة في استمالة الجمهور الى رأي او صدّهم

عنهُ اما العرب فكانوا يحفظون بهذه الاقوال عينها بدون ان يعرفوا ما هو المنطق

ويقال ان اول مَن خطب على الجماعة في الجاهلية هو عبد شمس الملقَّب سبا بن يشجب بن يعرب بن قحطان جدّ العرب

وكان قسُّ بن ساعدة بن عمرو بن عدي بن مالك بن النمر بن وائلة بن عبد مناة بن افصى بن دعمي بن اياد اسقف نجران التي سبق ذكرها في الفصل الثاني من المقالة الرابعة خطيب العرب وحكيمها وفاصيها في عصره وهو اول من صعد على شرفٍ وخطب عليه واول من قال في كلامهِ اما بعدُ واول من اتكأ عند خطابتهِ على سيفٍ او عصًا واول من كتب من فلان الى فلان واول من اقرّ بالبعث عن غير علم[1] واول من قال البينة على من ادّعى واليمين على من انكر ويقال ان صاحب الشريعة الاسلامية رآهُ قبل البعثة وسمع خطبتهُ وبهِ يضربون المثل في البلاغة فيقولون ابلغ من قسٍ ويزعمون انهُ عاش سبع مئة سنة

وكذلك سحبان وائل الباهليّ كان من خطباء باهلة وشعرائها وهو الذي يقول

لقد علمَ الحيّ اليمانون انني اذا قلت اما بعدُ اني خطيبها

يحكى انهُ خطب في صلحٍ بين حيين شطرَ يومٍ فما اعاد كلمةً ولذلك يقولون في امثالهم اخطب من سحبان

وابن خماعة[2] ايوب بن زيد بن قيس بن زرارة[3] الهلالي وخماعة امهُ وكانت تُعرَف بالقرية[4] وهو ينتسب اليها لشهرتها وكان معدودًا من خطباء

(١) هكذا في الاصل واما هو فكان نصرانيًا ولا يكون اقرارهُ بالبعث عن غير علمٍ
(٢) الخماع العرج (٣) الزرارة ما رميت به في حائطٍ فلصق
(٤) القرية الانان

العرب المشهورين بالفصاحة والبلاغة وكان أُميًّا لا يعرف القراءة توفي سنة ٨٤ للهجرة (سنة ٧٠٣ م)

وابو نعامة القطري بن الفجاءة وقد مرّ ذكرهُ والفجاءة اسم امه وهو خطيب من خطباء العرب كان ذا فطنة وذكاء وصاحب كيد ودهاء

وابو قدامة رجل في الاسلام ضُرِب به المثل في البلاغة ايضًا وله تصانيف كثيرة وهو ابو الفرج جعفر بن قدامة بن زياد الكاتب البغدادي ذكرهُ الحريري في مقدمة مقاماته حيث يقول وان المتصدي بعدهُ (اي بديع الزمان) لانشاء مقامة ولو أُوتي بلاغة قدامة لا يغترف الأمن فضالته ولا يسري ذلك المسرى الأ بدلالته

وابو الحسين محمد بن احمد بن اسماعيل بن عيسى بن اسماعيل الشهير بابن سمعون فانهُ اشتهر في العصر الاسلامي بالوعظ وضرب فيهِ المثل فيقولون لمن ارادوا المبالغة في وصفهِ بحسن الوعظ اوعظ من ابن سمعون توفي سنة ٣٨٧ للهجرة (سنة ٩٩٧ م)

الامثال . وكان للعرب اليد الطولى في ضرب الامثال فهم يضربون لكل واقعة مثلًا مبنيًّا على نادرة من نوادرهم او واقعة من وقائعهم وامثالهم على جانب من الفصاحة منها قسم كبير منتشر في اعقاب اجزاء هذا الكتاب لكونها ذات دخل عظيم في تحقيق آدابهم والاطلاع على حقيقة احوالهم فيجلي المتأخرون بها خطبهم ويزينون اشعارهم وانشاءاتهم وقد اعتنى بجمعها كثيرون من مؤلفي المسلمين واشهر كتاب أُلّف فيها جامعًا للامثال المضروبة في الجاهلية والاسلام مجمع الامثال للعلامة الميداني وهو ابو الفضل احمد بن محمد بن احمد بن ابرهيم النيسابوري قال فيهِ ان اول مثل جرى للعرب هو قولهم امرءُهُ من المرء وكل أَدماءٍ من آدم توفي سنة ٥١٨ للهجرة (سنة ١١٢٤ م)

الشعر . اما نظم الشعر فكان في زمن الجاهلية على ما قالهُ ابو دؤاد ليس احدٌ من العرب الا وهو يقدر على قول الشعر طبعًا ركب فيهم قلَّ قولهُ او

كثر وقال آخرون انهم كانوا ينظمونهُ ارتجالاً ويحصل من ذلك ان العرب وقتئذٍ لم تكن تعلم لهُ عروضاً ولا احتاجوا فيهِ الى درس علم البيان كما هو الحاصل الآن وانهُ انما اخترع ذلك لهُ المتأخرون بعد ظهور الاسلام لما عدمت منهم قواهُ الطبيعية واحتاجوا الى احيائها ثانيةً فشرعوا حينئذٍ في معالجتها بالوسائط الصناعية التي استنتجوها من تتبع اشعار المتقدمين من اهل الوبر الذين كانوا مفطورين عليها وقال ابو عبيدة كان الشعراء في الجاهلية من قيس وليس في الاسلام مثل حظ تميم في الشعراء واشعر تميم جرير والفرزدق والاخطل وحيث قد كتبنا بما فيهِ الكفاية في هذا المعنى عند الكلام على الشعر في المقالة الثانية من كتابنا زبدة الصحائف في اصول المعارف فلا نكرر ذلك هنا

غير انَّا نقول ان شعراء العرب في الجاهلية والاسلام ينقسمون بحسب ادوارهم الى اربع طبقات ثلاثة منها كان نظم الشعر فيها سجيةً على ما قد تقدم اذ بها لم تدرك الزمن الذي فيهِ اخترع لهُ المتأخرون قواعد صار بواسطتها صناعةً وهي اولاً الجاهليون الذين عاشوا في العصر السابق على ظهور الاسلام وماتوا اما قبل ان يدركوا الاسلام واما ادركوهُ ولم يسلموا بل اصرّوا على ما كانوا عليهِ من العادات في زمن الجاهلية كامرء القيس وأُمية بن ابي الصلت. ثانياً المخضرمون وهم الشعراء من الجاهلية الذين ادركوا الاسلام وفيهم حسّان ابن ثابت وكعب بن زهير وهو مأخوذ من الناقة المخضرمة وهي التي قد قُطِع نصف اذنها فيقال للشاعر منهم مخضرمٌ وسمع فيهِ محضرم بالحاء المهملة ثم توسع في ذلك حتى أُطلق على من ادرك دولتين كالدولة الاموية والدولة العباسية. ثالثاً المولَّدون كالفرزدق وجرير الذين مرَّ ذكرهما. رابعًا المحدثون كالمعري وابن الرومي وهم الذين نبغوا من اول القرن الثالث للهجرة (التاسع للميلاد) وكان نظمهم الشعر على مقتضى قواعد الآداب المخترعة لهُ اخيرًا منذ الزمن المذكور فيكون الشعر فيهم صناعةً لا طبعًا

ولما كان الشعر مشتقًا من الشعور فقد سُمي الشاعر شاعرًا لفطنتهِ ولهذا قد

كانوا من جهة النظم على طبقات متفاوتة فيقال للشاعر المتلق منهم حذيذ ومن دونهُ شاعرٌ ثم شُوَيعرٌ ثم شعرورٌ ثم متشاعرٌ وقد اشار بعضهم الى هذه الطبقات بقوله

الشعراء في الزمان اربعَهْ فواحدٌ يجري ولا يُجرَى معَهْ
وواحدٌ يجول وسط المعمعهْ وواحدٌ لا تشتهي ان تسمعَهْ
وواحدٌ لا تستحي ان تصفعهْ

ومن ثمَّ انتخب العلماء من المتأخرين من منظومات الطبقات الثلاثة الاولى اعني الجاهلية والمخضرمين والمولدين عدَّة قصائد تحصل منها سبعة اسابيع ووضعوا لكلٍّ منها وصفًا تُعرَف بهِ وهي شهيرةٌ بكونها افضل اشعارهم فقالوا المعلقات والمجمهرات والمنتقيات والمذهبات والمراثي والمشوبات والملحمات ولذلك نكتفي هنا بذكر الذين وقفنا على تراجمهم من اصحاب هذه القصائد فقط لانهُ لو صممنا على ان نورد تراجمات كل الذين جمعنا تراجمهم من الشعراء في الطبقات الاربعة المذكورة لاحتجنا ان نجعل جرم هذا الكتاب مضاعفًا

المعلقات . واصحابها امرءُ القيس بن حجر الكندي ويكنى ابا وهب ويقال لهُ الملك الضليل وذو القروح وامرأتهُ اخت كليب والمهلهل ابني ربيعة التغلبيين وكان راغبًا في الشعر والتشبب منذ صباهُ فطردهُ ابوهُ لان ملوك العرب كانت تأنف من الشعر ويقال بان لهُ اوَّل شعرٍ شبب فيهِ بالنساء ولهُ ديوان شعر وقد مرَّ ذكرهُ في عدَّة محلات من هذا الكتاب

وزهير بن ابي سلمى المزنيّ صاحب القصائد المسماة بالحوليات لانهُ كان ينظم الواحدة منها في اربعة اشهر ويهذبها بنفسهِ في اربعة اشهر ويعرضها على اصحابهِ الشعراء في اربعة اشهر فلا يشهرها حتى يأتي عليها حولٌ فلقبت بالحوليات وكان ابو زهير ربيعة وخالهُ بشامة واباهُ كعب وبجير واختاهُ سلمى والخنساء وابن ابنهِ المضرَّب وكلهم شعراء توفي زهير سنة ١٠ للهجرة (سنة ٦٣١م)

والحرث بن حلزة اليشكري من شعراء الجاهلية

ولبيد بن ربيعة العامري شاعر مخضرم كان من اشراف الشعراء المجيدين الفرسان القراء[1] المعمرين يقال بانه عاش مئة وخمسة واربعين سنة وفي ذلك يقول

ولقد سئمت من الحياة وطولها   وسؤال هذا الناس كيف لبيدُ

وكان يكنى ابا عقيل توفي سنة ٤١ للهجرة (سنة ٦٦٠ م)

وعمرو بن كلثوم التغلبي واسم ابيه مالك وامه ليلى بنت مهلهل اخي كليب المذكورين في ما تقدم ومن عقبه كلثوم بن عمرو العتابي الشاعر صاحب الرسائل وكان عمرو هذا يهجي النعمان بن المنذر هجاء كثيرًا ويزعمون بانه عاش مئة وخمسين سنة

وطرفة بن العبد البكري واسمه عمرو وطرفة لقبٌ له والطرفة واحدة الطرفاء وهي اصنافٌ من الشجر منها الاثل وبها لُقّب او لُقّب بقوله

لا تعجلا بالبكاء اليوم مُطّرفا   ولا اميريكما بالدار اذ وقفا

وهو شاعرٌ مجيد مقدَّمٌ من فحول الشعراء في الجاهلية وله اختٌ اسمها خرنق وهي شاعرة نظيرهُ ايضًا قتله عمرو بن هند بسبب هجائه لا خيه قابوس

وعنترة العبسيّ وقد سبقت الاشارة اليه في الفصل الثاني من هذه المقالة غير انهم احتسبوا في معلقته الميمية التي يقول في مطلعها

هل غادر الشعراء من متردمِ   أمْ هل عرفت الدار بعد توهمِ

فعدَّها بعضهم من المذهبات وجعل مكانها قصيدة النابغة الذبياني التي يقول في مطلعها

(١) القرّاء الناسك المتعبد

يا دارَ ميّةَ بالعلياء فالسندِ   أقوت وطال عليها سالف الابدِ

لكن لم يوافق الاكثرون على ذلك وعليه جرى في شرح المعلقات القاضي الزوزني والشيخ محمد بن زكريا الانصاري

المجمهرات. وفي عدادهم الطبقة الثانية من هذه القصائد السبعة وصاحبها النابغة الذبياني الذي مرّ ذكرهُ من بني غطفان واسمهُ زياد بن معاوية بن ضباب ويكنى بابي امامة وهو من الطبقة الاولى من المقدّمين على سائر الشعراء وكان يضرب له قبةٌ من أدم بسوق عكاظ فتأتيه الشعراء فتعرض عليهِ اشعارها وكان كثيرًا عند الملك النعمان وخصيصًا به من ندمائهِ واهل انسهِ

ويوجد غيرهُ ممن سمّي بالنابغة من الشعراء ايضًا ومنهم النابغة الجعدي واسمهُ حسان بن قيس ويتصل نسبهُ بعيلان بن مضر وفي ذلك خلاف وكنيتهُ ابو ليلى وسمّي النابغة لانهُ قام مدّةً لا يقول الشعر ثم نبغ فقالهُ وهو من الشعراء المخضرمين المعمّرين طويل البقاء في الجاهلية والاسلام وكان اكبر من النابغة الذبياني ومن شعره

فمن يكُ سائلاً عني فاني   من الفتيان ايام الخنانِ
أتت مئة لعامٍ ولدتُ فيهِ   وعشرٌ بعد ذاك وحجّتانِ
فقد ابقت خطوب الدهر مني   كما ابقت من السيف اليماني

عاش الى خلافة يزيد بن عبد الملك

ومنهم النابغة الشيباني عبد الله بن المخارق من ولد ربيعة بن نزار شاعرٌ بدوي من شعراء الدولة الاموية. قال الاصبهاني يُرى انهُ كان نصرانيًّا لانهُ في شعرهِ يحلف بالانجيل والرهبان والايمان التي يحلف بها النصارى مدح عبد الملك بن مروان ومن بعدهُ من ولدهِ بمدائح كثيرة

ومن اصحاب المجمهرات عبيد بن الابرص يتصل نسبهُ بمضر وهو شاعر فحل فصيح من شعراء الجاهلية جعله ابن سلام في الطبقة الرابعة من فحولهم وقرن

به طرفة بن العبد وعلقمة بن عبدة وعدي بن زيد الآتي ذكرهُ وكل شاعر بني اسد غير مدافع قتلهُ المنذر بن النعمان في يوم بؤسهِ

وعدي بن زيد وهو المشهور بابن الرقاع العاملي وزيد اسم ابيهِ وقد نسبهُ الناس الى الرقاع وهو جدّ جدّهِ لشهرتهِ وكان عديّ المذكور شاعراً مقدماً عند بني أُمية خاصاً بالوليد بن عبد الملك ولهُ بنت شاعرة يقال لها سلمى وشوس حاضرة العرب لا من باديتهم وكان منزلهُ بدمشق جعلهُ بعضهم في الطبقة الثالثة من شعراء الاسلام

وبشر بن حازم لم نقف على ترجمتهِ

وأُمية بن الصلت عبدالله بن ابي ربيعة من ولد بكر بن هوازن مات في مبدإ ظهور الاسلام ولم يسلم لزعمهِ بانهُ هو اولى بالنبوة من صاحب الشريعة الاسلامية وكان ابوهُ عبد الله بن ابي ربيعة شاعراً قديماً من شعراء الجاهلية ايضاً

وحلاش بن زهير ولم نقف على ترجمتهِ

والنمر بن تولب يقال لهُ العكليّ ويتصل نسبهُ بنزار شاعرٌ مخضرم ادرك الاسلام واسلم وكان احد اجواد العرب المذكورين وفرسانهم المشهورين وكان ابو عمرو بن العلاء يسميهِ الكيّس لجودة شعرهِ وحسنهِ

المنتقيات. وهي الطبقة الثالثة واصحابها لمسيَّب بن علَس يحكى عنهُ انهُ انشد بين يدي عمرو بن هند

وقد اتناسى الهمَّ عند احتضارهِ بناجٍ عليهِ الصيعرية مُكدَمِ

وكان طرفة بن العبد وقتئذٍ حاضراً وهو غلام فقال استنوق الجمل وذلك لان الصيعرية سمة تكون في اعناق النوق دون الجمول فذهبت كلمتهُ هذه مثلاً يضرب للرجل يكون في حديث ثم يخلطهُ في غيرهِ وينتقل اليهِ فغضب المسيَّب وقال ليقتلنهُ لسانهُ فكان كما قال (راجع حديثهُ في المعلقات)

والمرقش بن حرمر ويوجد غيرهُ من الشعراء يسمّون بالمرقش ايضاً. قال

ابو الفرج الاصبهاني المرقش الاكبر هو احد الشعراء في الجاهلية واحد من قال شعرًا فنسب به فان لقب المرقش غلب عليه لقوله

الدار وحش والرسوم كما رقش في ظهر الاديم قلم

وهو عم المرقش الاصغر واما اسمه الاصلي فهو عمرو وقيل عوف بن سعد ابن مالك ويتصل نسبه ببكر بن وائل

والمرقش الاصغر المذكور هو عمرو بن ربيعة بن حرملة بن سفيان عم طرفة بن العبد الذي مرّ ذكرهُ وهو اشعر المرقشين واطولهم عمرًا

وعروة بن الورد الذي سبقت ترجمته في الفصل السابق

ودريد بن الصمة " " " " "

والمهلهل بن ربيعة " " " " الاول

والمتنخل بن عويمر بن عثمان بن سويد يتصل نسبه بهذيل وبنو احلاف

ويكنى ابا اثيلة قال الاصبهاني هو شاعر من فحول شعراء هذيل وفصائحهم المذهبات . وفي الطبقة الرابعة واصحابها حسان بن ثابت ويكنى ابا الوليد وهو من فحول الشعراء قيل انه اشعر اهل المدر عاش مئة وعشرين سنة منها ستين في الجاهلية وستين في الاسلام ويفضلونه على الشعراء بثلاث وهي انه كان شاعر الانصار في الجاهلية وشاعر صاحب الشريعة الاسلامية وشاعر اليمن كلها في الاسلام ضربه صفوان بن المعطل بما قاله من الافك المشهور حديثه وكان موته في سنة ٦٠ للهجرة (سنة ٦٧٩ م)

وعبد الله بن رواحة شاعر من الانصار

ومالك بن العجلان لم نقف على ترجمته

وقيس بن الخطيم الاوسي يكنى بابي يزيد وابوهُ عدي بن عمرو بن ظفر وهو من شعراء الجاهلية

واحيحة بن الجلاح يكنى ابا عمرو وابا وحوحة وهو من شعراء الجاهلية ايضًا

وابو قيس بن الاسلت شاعرٌ جاهليٌّ ولم يعرف اسمهُ والاسلت لقب ابيهِ واسمهُ عامر وكانت الاوس قد اسندت الى ابي قيس هذا حربها وجعلتهُ رئيسًا عليها يوم بعاث

وعمرو بن امرء القيس ولم نقف على ترجمته

المراثي . وفي الطبقة الخامسة واصحابها ابو ذويب الهذلي واسمهُ خويلد ابن خالد يتصل نسبهُ بمضر من الشعراء المخضرمين ادرك الجاهلية والاسلام وكان شاعرًا مجلاً توفي في خلافة عمر بن الخطاب

ومحمد بن كعب الغنويّ ولم نقف على ترجمتهِ

والاعشى الباهليّ لم نقف على ترجمتهِ لكن الشعراء المعروفون بالاعشى كثيرون ومنهم الباهليّ المذكور

ومنهم ميمون بن جندل الاسدي ويكنى ابا بصير وقيل انهُ هو اول من سأل بشعرهِ وانتجع بهِ اقاصي البلاد وكان يغني في شعرهِ فسمّي صناجة العرب والصنج آلة من النحاس يضرب بعضها ببعض للطرب وربما سمّي اعشى هذا الكتاب توفي ميمون المذكور سنة ٨ للهجرة (سنة ٦٢٩م)

ومنهم اعشى همدان واسمهُ عبد الرحمن بن عبد الله بن الحرث ويتصل نسبهُ بكهلان بن سبا ويكنى ابا المصبح عرٌ فصيح كوفي من شعراء الدولة الاموية وكان زوج اخت الشعبي الفقيه الذي مرَّ ذكرهُ في الفصل الاول من هذه المائة والشعبيُّ ايضًا زوج اختهِ وكان احد الفقهاء القراء ثم ترك ذلك وقال الشعر اسرهُ الحجاج في حروبهِ مع اهل العراق وقتلهُ لانهُ كان يحرّض قومهُ على القتال

والاعشى المازني وهو عبد الله بن الاعور المازني الحرمازي شاعر مخضرم ولم نقف لهُ على غير ذلك

والاعشى التغلبيّ واسمهُ ربيعة وقيل اسعد بن يحيى بن معاوية شاعرٌ من شعراء الدولة الاموية ايضًا وكان يسكن الشام فاحضر ولما اذا نداءيل

في بلاد قومهِ بنواحي الموصل وديار ربيعة وكان نصرانيًا وكان الوليد بن عبد الملك يحسن اليهِ فلما ولي الخلافة عمر بن عبد العزيز لم يعطهِ شيئًا فقال

لعمري لقد عاش الوليد حياتهُ امامَ هدًى لا مستزادٌ ولا نزرُ
كأنّ بني مروان بعد وفاتهِ جلاميد لا تندي وان بلّها القطرُ

والاعشى بني ربيعة اسمهُ عبد الله بن خارجة بن حبيب من ولد بكر بن وائل وكنيتهُ ابو عبد الله شاعرٌ اسلاميٌّ من ساكني الكوفة وكان مرواني المذهب شديد التعصب لبني أُميَّة وُجد في ايام عبد الملك بن مروان وابنهِ سليمان

وعميمة المنطوس لم نقف على ترجمتهِ

وابو زبيد الطائي وهو حرملة بن المنذر بن معدي كرب بن حنظلة بن سعدان ويتصل نسبهُ بزيد بن كهلان كان نصرانيًا الا انهُ ادرك الجاهلية والاسلام فعدَّ من المخضرمين والحقهُ بعضهم في الطبقة الخامسة من الشعراء الاسلاميين وكان عثمان بن عفّان يقربهُ ويدني مجلسهُ وصف لهُ يومًا اسدًا امامهُ واطنب في وصفهِ فقال لهُ عثمان اسكت فقد ارعبت قلوب المسلمين

ومالك بن الريب المهشلي يتصل نسبهُ بتميم كان شاعرًا ولصًا فتكًا منشأهُ في بادية بني تميم بالبصرة وهو من شعراء الاسلام في اول ايام بني أُميَّة وكان مرافقًا لشظاظ الذي مرَّ ذكرهُ في الفصل الاول من هذه المقالة في قطع الطريق وكان اجمل الناس وجهًا واحسنهم ثيابًا واسمع اخيرًا عن خيانتهِ عن يد سعيد بن عثمان بن عفّان وصار عاملاً لمعاوية على البصرة فاستصحبهُ واجرى لهُ رزقًا في كل شهر

ومتمم بن نويرة التميمي يتصل نسبهُ بمضَر ويكنى ابا نهشل وهو اخو مالك ذي الخمار الذي قتلهُ خالد بن الوليد على ما تقدم في الفصل الثالث من المقالة الرابعة والثاني من هذه المقالة

المشوبات . وهي الطبقة السادسة واصحابها كعب بن زهير وكان معاديًا

لصاحب الشريعة الاسلامية فاهدر دمه فاسلم وامتدحه بقصيدة شهيرة يقول في مطلعها

بانت سعادُ فقلبي اليوم متبولُ متيمٌ اثرها لم يُفدَ مكبولُ

وجاء بها اليه فعفى عنه واحسن اليه ببردته التي اخذها معاوية بن ابي سفيان من ولده بعد موته بأربعين الف درهم قال صاحب تذكرة الحكم ان هذه البردة لازالت موجودة في الخزينة السلطانية وترك العهدة على الراوي ونابغة جعدة وقد سبقت ترجمته

والقطامي واسمه عمير بن شييم وهو نصرانيّ كان في ايام عبد الملك بن مروان الكنه يعد من من الشعراء الاسلاميين المطلبين وهو اول من لُقب صريع الغواني لقوله

صريع غوانٍ راقهنَّ ورقنه
لدن شبَّ حتى شاب سود الذوائب

والحُطيئة واسمه اوس بن جرول بن مالك من بني مُضَر ويكنى ابا مليكة لُقب بالحطيئة لقصره وقربه من الارض وكان فحل المطر ذي النفس مجالاً هجّاء خبيث اللسان فلما يسلم احدٌ من هجوه هجا ابيه وامه وزوجته وفي ذلك يقول

لا احدُ الأمُ من حُطيئة هجا بنيهِ وهجا المُرية
من لؤمه مات على مرية

والمرية في الاتان وذلك انه قبل موته اوصى اقرباءه ان يحملوه على اتان ويتركوه راكبها حتى يموت فان الكريم لا يموت على فراشه والاتان مركبٌ لم يمت عليه كريمٌ . ويحكى عنه ايضاً بانه التمس ذات يوم انساناً يهجوهُ فلم يجد وضاق عليه ذلك فجعل يقول

أبت شفتايَ اليومَ الاّ تكلّما بسوءٍ فلم ادرِ لمن انا قائله

وجعل يردد هذا البيت الى ان مرّ على حوض ماء فرأى وجهه فيه فقال

أرى لي وجهًا شوّه الله خلقه فقبح من وجه وقبح حامله

والشماخ بن ضرار واسمه معقل والشماخ لقب له وهو من الشعراء المخضرمين هما عصرين وهما صياغة ومن عليهم بالرى وكانت امه انجب نساء العرب وله اخوان شاعران احدهما يقال له مزرد واسمه يزيد والآخر جزء بن ضرار وذكر عنه انه كان اوصف الناس للحمير

وعمرو بن احمد وتميم بن مقبل ولم نقف لها على تراجم

المحات. وهي الطبقة السابعة واصحابها الفرزدق التميمي وكنيته ابو فراس واسمه همام بن غالب بن صعصعة بن ناجية التميمي والفرزدق في لغة قطعة من العجين تسقط فيجد منها الرغيف والرغيف الضخم الذي تخبزه النساء للفتوت ولُقّب بذلك لانه كان غليظًا جهم الوجه وكان فاجرًا بالحضراء شاعرًا جريرًا فقصد فيها قوله

وكنت اذا حللت بدار قوم رحلت بخزية وتركت عارا

ويحكى ان نفاه عمر بن عبد العزيز من المدينة مراودة زوجة صاحب البيت الذي كان مضافًا به فلما خرج راكبًا ناقته تذكر البيت وقال قاتل الله ان المراعة لقد اخرجتني قبل ان اراها وجاءه ذات يوم رجل من تميم قصيدة وانشد لنفسه

ومنهم عمرو المحمود نائله كأنما رأسه طين الخواتيم

فضحك الفرزدق وقال له اعلم يا اخي ان للشعر شيطانين احدهما يقال له الهوبر والثاني الهوجل فمن انفرد به الهوبر جاد شعره ومن انفرد به الهوجل ساء شعره وفسد كلامه وقد اجتمعا لك في هذا البيت فكان معك الهوبر في اوله فاحسنت وخالطك الهوجل في آخره فاسأت

وكان من مزعومات العرب ان لكل شاعر شيطانا يلقنه الشعر وان شيطان الفرزدق يقال له عميرة او عمرو قال ابو عبد الرحمن يونس بن حبيب النحوي لولا شعر الفرزدق لذهب ثلث لغة العرب توفي سنة ١١٠ للهجرة (سنة ٧٢٨ م)

وجرير الخطفي الذي مرَّ ذكرهُ وهو ابن عطية التميمي واسمه حذيفة والخطفي لقب له وكنيته ابو حزرة وكان من فحول شعراء العرب في الاسلام يضرب به المثل فيقال أحسن بالتغزل من جرير ويقال ايضاً بأنه اشعر من الفرزدق المذكور وكان معاديًا له ويشبه من شعراء الجاهلية بالاعشى واجمعت العلماء على مصادقة ما قاله ابو عبيدة بانهُ ليس في شعراء الاسلام مثله ومثل الفرزدق والاخطل الآتي ذكرهُ ويروون ان بيوت الشعر اربعة فخرٌ ومديحٌ وهجاءٌ ونسيبٌ وفي الاربعة فاق جرير غيرهُ وقيل المسيء وفي الغزل ايضاً لا يبعد ان يكون تبع توفي سنة ١١٠ للهجرة (سنة ٧٢٨م)

والاخطل التغلبي لُقّب بذلك لانه كان من نصارى التغلبيين واسمهُ غيث بن الغوث بن الصلت بن طارقة التغلبي ويكنى بابي مالك وقيل له الاخطل لاسترخاء في اذنيهِ وقيل ان معنى الاخطل السفيه وفي مجمع الامثال للميداني الخاطل الجاهل واصله من الخطل وهو الاضطراب في الكلام وغيره وقال قول الافعى الجرهمي الحرابيّ حكم العرب الذي مرَّ ذكرهُ في الكلام على الكهان مساعدة الخاطل تعدُّ من الباطل وكان الاخطل هذا معاصرا لجرير والفرزدق ويعدُّ من طبقتهما وكان بعضهم يفضلهُ عليهما سئل عنه حماد الراوية فقال ما تسألوني عن رجل حبَّبَ اليَّ شعرهُ النصرانية

وعبيد الراعي اسم ابيهِ حصين بن معاوية ويكنى ابا جندل والراعي لقبٌ غلب عليهِ لكثرة وصفهِ للابل وجودة نعتهِ اياها وهو شاعرٌ من فحول شعراء الاسلام وكان مقدمًا مفضلاً حتى اعترض بين جرير والفرزدق اللذين مرَّ ذكرهما وكان معاصرًا لهما

وذو الرمة ابو الحرث غيلان بن عقبة بن نهيس بن مسعود من ولد معد ابن عدنان احد عشّاق العرب المشهورين صاحب ميّة بنت مقاتل بن طلبة ابن قيس بن عاصم المنقري ومن شعره فيها

وقد علقت ميٌّ بقلبي علاقةً   بطيئاً على مرّ الدهور انحلالها

وقال ابو تمام الطائي

ما ربعُ ميّة معموراً بطيف به   غيلان ابهى ربًى من ربعها الخرب

وكان شبب بخرقاء ايضاً قال ابو الفرج الاصفهاني الخرقاء التي لا تعمل بيدها شيئاً لكرامتها على قومها وهي من بني البكاء بن عامر بن صعصعة رأت المفضل الضبيّ مرةً فقالت له هل حججت قال غير مرة قالت فما منعك من زيارتي أما علمت اني منسكٌ من مناسك الحج فقال وكيف ذلك قالت أما سمعت قول عمك ذي الرمة

تمام الحج ان تقف المطايا   على خرقاء واضعة اللثام

ويحكى ان جريراً مرّ بذي الرمة وهو ينشد وقد اجتمع الناس عليه فقال نقط عروس وابعارُ ظباء اي ان هذا الشعر مثل بعر الظبي من شمّهُ وجد له رائحة فاذا فتّهُ وجدهُ بخلاف ذلك فذهبت مثلاً. وكان لذي الرمة ثلاثة اخوة مسعود وحرفاش وهشام وكلهم شعراء ويقال انهُ كان طفيليًا ولُقّب بالرُمّة وهي بضمّ الراء الحبل البالي وبكسرها العظم البالي لكونهِ اجتاز يوماً بخباء ميّة المذكورة وسألها ان تسقيهُ ماء وكان على كتفهِ رمة فلما ناولتهُ الماء قالت له اشرب يا ذا الرُمة فصار ذلك لقباً له وسبباً لتعلقهِ بها قال ابو عبيدة وكان ذو الرمة يخرفيحسن الخبر ويردّ فيحسن الردّ ويعتذر فيحسن التخلص وقال ابو عمرو ختم الشعر بذي الرمة وختم الرجز برؤبة بن العجاج توفي سنة ١١٧ للهجرة (سنة ٧٣٥م)

والكميت بن زيد شاعرٌ اسلامي والشعراء المعروفون بالكميت ثلاثة احدهم جاهليٌ والثاني مخضرم والثالث اسلامي وهو الكميت بن زيد المذكور وكان اطولهم شعرًا قال الصاحب

قد طال قربك بالاخي فكأنه شعر الكميت

قال بعض المؤلفين الكميت شاعرٌ مقدمٌ عالمٌ بلغات العرب خبيرٌ بايامها وهو من شعراء مُضَر وكان في ايام بني أُمية ولم يدرك الدولة العباسية يقال ان مبلغ شعره حين مات كان خمسة آلاف ومئتين وتسعة وثمانين بيتًا وكان معاصرًا للعجاج الشاعر المشهور توفي سنة ١٢٦ للهجرة (سنة ٧٤٣م)

واما الكميت الجاهليّ فكان جدّهُ الكميت بن ثعلبة

والكميت المخضرم هو الكميت بن معروف قال الاصبهاني هو بدويٌ وأحد المعرقين في الشعراء كان ابوهُ معروف شاعرًا وامه سعدى شاعرة واخوهُ حنيفة اعشى بني اسد وابنه معروف بن الكميت شاعرين ايضًا

والطرماح هو حكيم بن الحكم ويكنى ابا نفر وابا ضبية ومعنى الطرماح الطويل القامة شاعر من فحول الشعراء الاسلاميين وفصحائهم منشأهُ بالشام ثم انتقل الى الكوفة مع من وردها من جيوش اهل الشام

واعتقد مذهب الشراة

الازارقة

المقالة السابعة

في تربية الخيول والابل عند العرب وباقي محصولات بلادها وتجارتها
وفيها اربعة فصول

الفصل الاول

في خيول بلاد العرب ومشاهيرها

من المعلوم بان العرب في الجاهلية كانت تحسن ركوب الخيل وتربيتها
والخيل في اللغة هي جماعة الافراس قيل انها سميت بذلك لانها تختال في مشيتها
وهي قسمان الكديشة وهي الخيول المعتادة والكحيلانية وهي الجيدة الجنس

اما الكحيلانية فهي موضوع الاعتناء عند العرب وعليها مدار الكلام هنا
ويقال بان اصلها الاصيل من اصطبلات سليمان بن داود ملك اسرائيل وسلسلتها
محفوظة من غير دخيل في جنسها وهي تصبر على التعب وتمكث عدة ايام من
غير اكل وتدخل كاسرة على الاعداء في الغارات

وقد اشتهر هذا القسم الكحيلاني في المحاسن حتى صارت له رنة وصوتة عند
جميع شعوب الارض ومع ان العرب في وقتنا هذا قد عدموا اغلب ما كان لهم

في الزمن القديم من المزايا العظيمة التي كانوا يتمتعون بها فهم لا يزال الى الآن لم يعدموا شيئًا من الوصف بالفروسية وتربية هذه الخيول التي يرغب في اقتنائها عظماء العالم بل وجميع الناس على اختلاف طبقاتهم ويضربون بها المثل وقد امتاز البعض منها في الزمن القديم وفاق غيرهُ في الحماس حتى تخلّد ذكرهُ كما يخلّد ذكر اصحاب الفضل من الناس ومنها

المشهّر فرسٌ للمهلهل بن ربيعة الذي مرّ ذكرهُ

والنعامة فرس الحرث بن عباد اليشكري

وثادق فرس منقذ بن طريف

وداحس والغبراء فرسا قيس بن زهير العبسي وكان ابو داحس فرسًا يقال له ذو العقال لحوط بن جابر بن حميري بن رياح بن يربوع وامه جلوى فرس قرواش بن عوف بن عاصم بن عبيد بن يربوع وبسببه تولدت حرب بن عبس وفزارة كما يتضح ذلك مما يأتي فضرب به المثل في الشؤم فيقال اشأم من داحس كما يقولون اشأم من خميرة وهي فرس شيطان بن مدلج الجشمي فان آثارها جرّت وبالاً على حيّ بني حشم بن معاوية من بني اسد وعلى بني ذبيان

والسبراء والخطار فرسا حذيفة بن بدر الفزاري

والحمار والاعوج فرسا ابن الهلالية وقيل له الاعوج لان غارةً وقعت على اصحابه وكان مهرًا فحملوهُ على الابل فاعوجّ ظهرهُ وكان هذا فرسًا لبني كندة ثم صار لبني سليم ثم لبني هلال بن عامر واليه تنسب الاعوجيات وبنات اعوج وليس في العرب فحلٌ اشهر ولا اكثر منهُ نسلاً

وخُصيّل فرس آخر لم نقف على اسم صاحبه واليه تُنسب الخيول الخُصيلية

والعنف كذلك طائفةٌ من الخيل الاصلية لم نقف على اخبارها

واللاحق فرس معاوية بن ابي سفيان

وسكاب فرس الاجدع بن مالك وقد طلبها منهُ بعض الملوك فمنعهُ اياها

وقال

ابيت اسعن ان مكاب عنق ... لا يعار ولا ...
منذة مكرمة لديا ... تعاع ها العبال ولا تعاع

والعبيد وزرة وربما العباس بن مرداس السلمى

ومعذب فرس زيد الخيل النبهاني وذكر في شعره سنة عبدها ايضًا وهي

المدل والكميت والورد وكامل ودوول ولاحق

والعصا وامها النعمة فرسا جذيمة الابرش ويضرب في امثالهم ما صلّ من

حرت به العصا قال هذا المثل قصير لما ركبها وهرب وحرت به الى غروب

الشمس والقصة مشهورة وقد مرّ لنا ذكرٌ في ما سبق ايضًا قيل لما ماتت بني

عليها قصير برجًا يقال له برج العصا وعبارة الميداني با صل ما تجري به العصا

قاله عمرو بن عدي لما رأى العصا فرس خاله جذيمة وعليها قصير كا ذكرنا

ارد بذلك با قوم ما صل اي ما هلك ما تجري به العصا يعني هلاك جذيمة

والابجر فرس عنترة العبسيّ

ورجا فرس عوف بن الكاهن الاسلمي

وهزام فرس اسعان بن عتبة العكي

وتخوم فرس مروان بن زنباع العبسيّ

ومحماة فرس معوية الكنانى

وخزنة فرس الحمام العكي

والضحيا فرس ملاعب الاسنة

وقرذل فرس اخيه طفيل الخيل

وريم فرس جابر بن حبي التغلبي واخرى بهذا الاسم للاحنف بن شهاب

واليحموم فرس النعمن بن المنذر وله فرس آخر يسمى الجموم يقال انه

كان يردي من ركبه

وخصاف بالكسر فرس مالك بن عمرو الغساني كان اذا سبق عليه

لا يُلحق واذا لحقَ ادرك فكان يتغنّى بهِ الاقوال ومنهُ قولهم في المثل أجرأُ من فارس خصاف

وخصاف مُعرَّب حصان لحمير بن ربيعة الباهليّ وفيهِ يضرب المثل المذكور ايضاً وحصان آخر لحمل بن زيد بن بكر بن وائل قيل انهُ لما كان عند ابن امرء القيس حالفة منهُ لمخالفة دمعة اباهُ فلحّ عليهِ الملك فنام الى الحصان وحصاهُ بين يديهِ غير مذهوب منهُ فضُرب بهِ المثل يقال هو أجرأ من خصي خصاف

والمنّ فرس الاشعر الشاعر
والعناق فرس مسلم بن عمرو الباهليّ
والعوجاء فرس حوب الطائي
وقراب فرس عبد الله بن الصمّة
والنعام فرس السُّليك بن السلكة
والمرار فرس معاوية بن عبادة
والكامل فرس عبد الله بن زيادة
وسبة فرس ابي سواج عباد بن خلف الضبيّ
والقضيب فرس حرد بن جمرة اليربوعي
والعوصاء فرس تومة بن الحمير
والشماء فرس معاوية بن عمرو اخي الخنساء
وذو الجمر فرس مالك بن نويرة
والكنفان او الكنعان فرس مالك بن بدر
وموذوع فرس هرم بن ضمضم المريّ
وجرادة العيار فرسٌ كان شديد الوثوب كالجرادة فلُقّب بها
والزائد اسم فرس نجيب جدّاً
والهجيسي فرس لبني تغلب

وهباج فرس لباهلة

والمذمري فرس لبني نعمة

وذات الرماح فرس لضبّة كانت اذا ذعرت تاشرت وضبّة باسم

وسبق فرس كان يسبق ومع ذلك يعاب فضُرب به المثل يقال يجري

سبق ويُذمُّ يُضرَب في ذم المحسن

وكانت الخيل اعزُّ ما يباع عند العرب فاذا اشترى الرجل فرساً قال

له البائع انقد عند الحافرة اي عند اول كلمة فذهبت مثلاً قال الشاعر

احبّوا الخيل واصطبروا عليها فانّ العزّ فيها والجمالا

اذا ما الخيل ضيّعها اناسٌ ربطناها فاشركت العيالا

نقاسمها المعيشة كلّ يوم ونكسوها البراقع والجلالا

وكانوا اذا ارسلوا الخيل على الصيد فسبق واحدٌ منها خضّبوا صدرهُ بدم

الصيد علامة له ويسمّون ذلك خضاب النحر

وكان يجري عندهم اتّخاذ سباق الخيل ومنهُ تولدت الحرب الشهيرة التي

ابتدأت سنة ٥٦٨ م اعنى قبل الهجرة باكثر من خمسين سنة بين عبس وبني

فزارة بسبب داحس فرس زهير والغبراء فرس حذيفة بن بدر الفزاري وقد

مرَّ ذكره وانشد عنترة العبسيّ من قصيدته التي رثى فيها مالك بن زهير

المذكور وقد قتلهُ حذيفة في هذه الحرب بيتاً ذهب شطرهُ الاول مثلاً

ولا كانت الغبرا ولا كان داحسٌ ولا كان يومٌ مما جرى فيه رهانُ

وقد دامت هذه الفتنة تؤجّج ناراً وتوقد شراراً الى ان تفانت القبيلتان

وهُجنت الطائفتان

وكانوا يسمّون اوّل الخيل في الحلبة اخيراً وهو السابق ثم المصلّي ثم المسلّي ثم

التالي ثم العاطف ثم المرتاح ثم المؤمّل ثم الحظيّ ثم اللطيم ثم السكيت ثم الفسكل

والناشور وقد نظمها بعضهم بقوله

سبق المجلّي والمصلّي والمسلّي   تاليًا مرتاحها والعاطفُ
وحظيّها ومؤمّل ولطيمها   سكّيتها هو في الاواخر رادفُ

وكانوا يسمّون الخيل عند السباق على حبل يسمّونه المقوس ويضعون في حلبة السباق قصبة فمن سبق اقتلعها واخذها ليُعلم انه السابق من غير نزاع ومنهُ قولهم احرز قصب السبق ثم كثر حتى أُطلق على كل مبرز ومشمّر

ويقال ان عامر بن الطفيل بن مالك بن جعفر بن كلاب العامريّ كان أحذق العرب بركوب الخيل وأجولهم على متونها وابصرهم في التصرّف عليها

وبقي هذا اللعب بعد الاسلام عند عرب المغاربة وكذلك عند اهالي الاندلس فانهم كانوا يشتغلون بتعليم المصارعة على ظهور الخيل ثم سرى ذلك الى الافرنج بتلك البلاد منهم الى ان صاروا يتنافسون في سباق الخيل ويتباهون عليهِ كما كان عند العرب فهو من رياضات امراء اوربا واكابرها في هذا العصر

وللاديب الفاضل الشيخ ناصيف اليازجي ارجوزة في تعديد اسنان الخيل والوانها عند العرب وهي هذه

المُهرُ في حَوليّهِ باسم الجذَعِ   يُدعى وبالثنيّ في التالي دُعي
ثم الرباعيْ بعدهُ في الرابعِ   والقارحُ في الخمس التوابعِ
وَهوَ على اختلافِ لونِ جلدِهِ   يُدعى بأوصافٍ جرَت في عدِّهِ
فأدهمٌ وأبيضٌ وأحمرُ   وأشقرٌ وأصفرٌ وأخضرُ
حتى اذا اشتدَّ سوادُ الأدهمِ   يقالُ فيهِ الغربيْ فاعلمِ
فإن يبقَّع ببياضٍ أبقعُ   قيلَ ومع ذاكَ سوهُ أبرشُ
فإن تكن نقطهُ تشعُ   غرّةٌ مدوّرٌ فانتبع
وان يشب بعضُ السواد الابيضا   عدّ كَ بالاشهب في الوصف فقضى

وان اصاب الاحمرَ السوادُ فبالكُمَيتِ وصفهُ المعتادُ
وان عرا الكُمْتَةَ لونٌ اشقرُ فذلك الوردُ الذي لا يُنكرُ
وان يكُ الاشقرُ فيهِ حُمرُ من السوادِ قيلَ هذا اغبسُ
وان رأيتَ اصفرًا يخالطهُ فيهِ السوادُ فهوَ السمند
وان عرا الشُّقرةَ لونٌ يُشبهه فالسُّوسَنيُّ وصفهُ بالبسه
وان يكُ الاحمرُ فيهِ يحوى شيءٌ من السوادِ فهوَ الاحوى

واما ركض الخيل فقد روى الاصمعي عن قيس بن زهير بانهُ قال يجري الجذعان اربعين غلوة والثنيان ستين والربع ثمانين والقرح مئة ومائة غلوة اثنا عشر ميلاً ولا يجري اكثر من ذلك ومن امثالهم جري المذكيات غلابٌ والمذكية من الخيل هي التي اتى عليها بعد قروحها سنةٌ او سنتان يضرب لمن يوصف بانهُ يبرّز على اقرانهِ في حلبة الفضل ومن امثالهم ايضًا أمْهِلك الويل فقد ضلّ الحمل وهو مأخوذ من قولهم أمهى الفرس اذا اجراهُ واحماهُ في جريهِ والمهى أعدّ فرسك فقد ضلّ جملك يضرب لمن وقع في امرٍ عظيم يؤمر ببذل ما يُطلب منهُ لينجو

ويتشاءمون من الخيل بالاشقر قيل ان السبب في ذلك فرس تسمّى الشقراء كانت لشيطان بن لاطم قتلت وقُتل صاحبها فقيل أشأم من الشقراء ومن كلام لقيط بن زرارة يوم جبلة يخاطب فرسهُ وكان اشقر يا اشقر ان تتقدم تُنحر وان تتأخر تُعقر وذلك ان العرب تتول شقر الخيل سراعها وكمتها صلابها فهو يقول لفرسهِ يا اشقر ان جريت على طبعك فتقدمت الى العدوّ قتلوك واذا اسرعت فتأخرت مهزمًا اتوك من ورائك فعقروك فتداولت العرب كلامهُ هذا وجرى عندهم مجرى المثل فيقولون كالاشقر ان تقدم نُحِر وان أُخّر عُقر

وترى العرب ان قصر الشعر في الخيل من علامات العتق والكرم فيقولون في مديح الفرس فرسٌ جرداء وكذلك سبوع الذنب واستواء عسيبهِ هما من هذا القبيل ايضًا

اما سبوغ الذنب فهو شدَّة طولهِ واسدالهُ الى الارض والعسيب العرس العظيم الذنب. والمجنَّب الفرس الذي في يديهِ انحناء وهو ممدوح اذا لم يفرط والجنيب المجنوب من الخيل وهو ان يجنب الفارس فرساً الى فرسهِ في السباق فاذا فتر المركوب تحوَّل الى المجنوب والادنُّ الفرس القصير اليدين وهو من العيوب والصافن الفرس اذا قام على ثلاث قوائم وثنى سنبكهُ الرابع والسُنبك طرف حافر الفرس والعكوة اصل ذنبهِ والمُبرقعة غرة الفرس الآخذة جميع وجههِ غير انهُ ينظر في سوادٍ اي ما حول عينيهِ اسود. والارحم ما كان راسهُ ابيض وسائرهُ اسود والهقعة دائرة تكون بعرض زور الفرس او بحيث تصيب رجل الفارس يتشاءَم بها او لمعة بياض في جنبهِ الايسر. والمحجَّل ما كان في قوائمهِ بياض جاوز الارساغ ولا يجاوز الركبتين فان كان البياض في قوائمهِ الاربع فهو محجَّل اربعٍ وان كان في الرجلين جميعاً فهو محجَّل الرجلين وان كان في احدى رجليهِ وجاوز الارساغ فهو محجل الرجل اليمنى او اليسرى وان كان البياض في ثلاث قوائم دون رجلٍ او دون يدٍ فهو محجل ثلاثٍ مطلق يدٍ او رجلٍ فان كان محجل يدٍ ورجلٍ من شقٍّ واحد فهو ممسك الايامن مطلق الاياسر او ممسك الاياسر مطلق الايامن وان كان من خلافٍ قلَّ او كثر فهو مشكول وان كان تحجيلهُ مستديراً فوق اشاعرهِ او جاوز البياض ارساغهُ او بعضها فهو أحذم والانثى خدماء. والمجبَّب الذي ارتفع البياض منهُ الى الجبب وهو ركبة اليد والارساغ المواضع المستدقة بين الحافر وموصل الوظيف من اليد والرجل مفردهُ رسغٌ والوظيف مستدقُّ الذراع والساق من الخيل والابل او ما فوق الرسغ الى الساق او مقدَّم الساق جمعهُ أوظفة ووظف. والشيظم الطويل من الخيل واليعبوب الفرس السريع الطويل او الجواد السهل في عدوهِ او البعيد القدر في الجري والاسحج الجواد السريع والفرط الفرس المتقدم السريع الخفيف والسراعيف كذلك الخيل السراع واحدها سرعوفة وفرس سبح وسبوح بعيد الخطو والانثى سبحة والبلدم ما اضطرب من حلقوم الفرس ويركع الفرس اذا

اقام على اربع وسقط على ركبتيه والطولات الحبل والصيام ما كان منها ملجما مسرجا وغير صيام ما كان على غير ذلك والأحق الفرس يضع حافر رجله موضع يده وهو عيب والفرس الذيب لا يعرق والخروج فرس يطول عنقه فيغتال كل عنان يجعل في لجامه والصهوة مقعد الفارس من ظهر الفرس والرصيعة عقدة العنان على قذال الفرس والقذال من الفرس معقد العذار خلف الناصية جمعه قذل واقذلة والعرف شعر عنق الفرس والسبيب شعر ذنبه وبهذا القدر كفاية والامان الاستقراء في هذا الموضوع او غيره من مواضيع هذا الكتاب يحتاج الى المجلدات الكبيرة والمدات الطويلة فاذا ما قل ودل خير مما كثر قل

الفصل الثاني

في تربية الابل وفوائدها

وللعرب اليد الطولى في تربية الابل والقيام على نتاجها وطلب الانتاج لها لارتياد مراعيها ومناحص توليدها لشدة الاحتياج اليها في بلادهم فهي مراكبهم التي يجاوزون عليها اجالهم ويسلون الثالم ويأكلون لحومها ويقتاتون من البانها ويكتسون من اوبارها ويقابضون عليها في المبايعات ويعتدون اسرام بها عند نزول النكبات ويعطون منها في سائر الغرامات والديات والمراهنات ومهر الزوجات وبالجلة والتجمل في مصدر غنامم وقد جاء في الحديث لا تسبوا

الابل فان فيها رقو الدم اي انها تعطى في الديات تحقن الدماء بها

ومن اشتهر عندهم في رعايتها وحسن القيام عليها رجل يقال له حنيف الحناتم وآخر يقال له مالك بن زيد مناة وبهما يضربون المثل في ذلك

وكانوا يعلفونها حبّ الحنظل وهو نبتٌ معروف ويصبون في مباركها عودًا تحتك به الجرباء منها ويسمونه المحكك وفي مجمع الامثال للميداني الجذل وهو اسمٌ لاصل الشجرة وتصغيره جُذَيْلٌ وبه يضربون المثل في الخشونة فيقولون اخشن من جُذَيل ويقولون انا جُذَيلها المحكك يضرب للرجل يستشفى برأيه وعقله ينصب في المعاطن تحتك به الجرباء واما الثلة والطلياء والربذة فهي اسماء خرقةٍ تطلى بها الابل الجرباء وبها يضربون المثل في الخسة والاحتقار فيقولون لمن ارادوا الاحتقار به اهون من ثملة ومن طلياء ومن ربذة

وكانوا اذا ارسلوا الجمال الى المراعي القوا حبلها على الغارب ولا يُترك ساقطًا فيمنعها عن الرعي ولذلك يقولون في امثالهم القى حبله على غاربه يضربونه لمن تكره معاشرته والمعنى دعهُ يذهب حيث يشاء

واذا كانت سنة مجدبة يخاف منها على الابل ذبحوا اولادها لتسلم الامهات ولذلك قالوا في امثالهم شرُّ دواء الابل الذبح ولهم فيها معاملات اخرى

ولما كانت العرب اشد الناس تحملاً للمشاق والبرد والحرّ والجوع والعرى نظرًا لمقر اراضيهم وقلة المياه فيها كان اذا اراد الرجل سفرًا عوّد ابله ان تشرب خمسًا اي كل خمسة ايام مرة ثم عودها على السدس حتى اذا احدث في المسير صبر عن الماء. وقال الميداني الظاهرة اقصر الاظماء وهي ان ترد الابل كل يوم مرة ثم الغبُّ وهي ان ترد الماء يومًا وتغبُّ يومًا والربع وهي ان ترد يومًا ويومين لا ترد وترد في اليوم الرابع وعلى هذا القياس الى العشر وفي الصحاح ليس في الورد ثلاث لان أقصر الورد الرِّفه وهي ان تشرب الابل كل يوم ثم الغب وهي ان ترد يومًا ثم تدع يومًا فاذا ارتفع عن الغب فالظِّمُ ثم الربع ثم الخمس وهكذا الى العشر قاله الاصمعي

وكان ركبهم يتصافن الماء ايضاً ولا سيما في شهرَي ناجر وتصافُن الماء هو ان يطرح في القعب حصاة او نواة من نوى المقل ولذلك يقال لها المقلة ثم ثم يصبّ فيه الماء بقدر ما يغمر الحصاة فيشربون بقدرٍ واحدٍ

واكبر الابل العربية لا يمشي في الساعة اكثر من الف وخمس مئة وخمسين خطوة واما الصغير منها فيمشي الفًا ونطو وخطواتها بقدر خطوات الانسان مرتين والركض عليها متعب جدًّا خلاف الهجين الآتي ذكرها ويعبرون عن الناقة التي لا تستقيم في سيرها لفرط نشاطها بالعوجاء واما القربوت فهي الجبار الفارهة من النوق والمرقال مبالغة مرقل من الارقال وهو بين السير والعدو والأمون الناقة التي يؤمن عثارها والرسلة هي التي تكون سهلة السير تمشي هونًا والحدج التي تميل في احد الشقين لنشاطها في السير والدفاق المتدفقة في سيرها اي المسرعة غاية الاسراع والرزية التي تزري في السير اي تخلت لفرط هزالها

وللعرب لحنٌ يسوقونها به ويسمّونه الحداء والحادي السائق الذي يسوق الجمل بصوته الرخيم وقد اشتهر بينهم في ذلك بعد الاسلام رجل يقال له سلام الحادي الذي مرّ ذكرهُ في الفصل الاول من المقالة السادسة لانه كان حسن الصوت في الغاية حتى كانوا يضربون به المثل قيل انهم كانوا يعطشون الابل ثم يوردونها الماء ويقف سلامٌ من ورائها ويحدو لها فتنصرف عن الماء اليه وكان من خواص مروان بن محمد بن مروان الاموي

ومن امثال العرب شقَّ العصاء يضرب للمتعارفين واصله ان يكون الحاديان في رفقةٍ فاذا لزم افتراقهما شُقّت العصاء التي معهما فاخذ هذا نصفها وذا نصفها ثم كثر حتى حُمل شقُّ العصاء مثلاً في كل فرقة

وذكر بعضهم ان العرب اذا كان لهم ناقة كريمة منعوا عنها كل فحل غير كريم وقرعوا على انفه بالعصاء اذا دنا منها ولذلك يقولون في امثالهم لا تقرع له العصاء يضرب لمن لا ينبغي ان يردَّ خائبًا وقيل بل يضرب للمحنك المجرّب وكان للنعمان بن المنذر اللخمي فحلان كريمان يُضرب بهما المثل وهما جديل وشدقم

ويحكى عن فحل لبني عوافة بن سعد بن زيد مناة بن تميم يسمّى فاشر وكانت لقومهِ ابلٌ تذكر اي تنتج الذكور فاستطرقوهُ رجاء ان تؤنث ابلهم فماتت الامهات والنسل فضرب بهِ المثل في الشؤم فيقال اشأم من فاشر وقيل في هذا المثل غير ذلك

وضلّ لرجلٍ بعيرٌ فاقسم لئن وجدهُ ليبيعهُ بدرهم فاصابهُ فقرن بهِ سورًا وقال أبيع هذا الجمل بدرهم وابيع السور بالف درهم ولا ابيعها الا معًا فقيل له ما ارخص الجمل لولا المرة فجرت مثلاً يضرب في النفيس والخسيس يقترنان

وللاديب الفاضل الشيخ ناصيف اليازجي ارجوزة في قيود اسنان الابل والوانها وهي

أوّلُ نتج الناقة الحوارُ	يُدعى كما جاءت بهِ الآثارُ
وهوَ لعامٍ واحدٍ فصيلُ	وأبنُ مخاضٍ بعدهُ تقولُ
وابنُ لبونٍ ثم حقٌّ جذعُ	ثم الثنيُّ فالرباعيُّ يتبعُ
ثم السديسُ بعدهُ والبازلُ	والعودُ في العشرِ رواهُ الناقلُ
فان صفت حمرتهُ فاحمرُ	قيلَ له وهوَ لديهم يؤثرُ
فان تشبها دُهمةٌ فارمكُ	والجونُ ما فيهِ السوادُ أحلكُ
وذو البياضِ آدمًا يلقّبُ	فان علتهُ حمرةٌ فاصهبُ
فان يكن بياضهُ يلتبسُ	بشقرةٍ فهوَ البعيرُ الاعيسُ
والاخضرُ المصفرُّ في سوادِ	يُدعى بأحوى اللون في النوادي

وما يلحق بذلك ايضًا السقب وهو ولد الناقة او ساعة يولد وقيل ولد البعير الذكر والفرع اوّل ولد تنتجهُ الناقة والربع الفصيل ينتج في الربيع وهو اول النتاج ويجمع على رباعٍ وارباعٍ والانثى ربعة ويجمع على ربعات ورباعٍ فاذا نتج في آخر النتاج فهو هبع والانثى هبعة اما المليط فهو السقط من اولاد الابل قبل ان يشعر تملطهُ الناقة اي تسقطهُ والخدج الذي ولد لغير تمام

والعجيُّ تموت امهُ فيربيهِ صاحبهُ بلبن غيرها والافيل الفصيل والحادل من ولد الناقة فوق الرائح وهو الذي قوي ومشى مع امهِ

اما الشارف فهي المسنة من النوق وبها يضرب المثل في الرأفة فيقولون أحنُّ من شارفٍ لانها تكون اشدّ حناناً على ولدها من غيرها

والبروق الناقة التي تشول بذنبها فيظنُّ بها لقحٌ وليس بها

والجمالية التي تشبه الجمل في وثاقة الخلق

والجسرة الدقة الموثقة الخلق ايضاً ويراد بالموثقة هنا المحكمة

والدعيص الناقة الغزيرة الجميلة التامة الخلق الكريمة

والكهاة والجُلالة الناقة الضخمة السمينة

والحائل الانثى والقلوص الانثى من الابل الشابة

والضروس الناقة السيئة الخلق عند النتاج

والاحوص الناقة الحائلة السمينة

والطلي ء الناقة الجرباء المطلية بالهناء وهو القطران

والماجن البكرة التي تنتج قبل ان يطلع لها سنٌّ ومنهُ المثل جلٌّ الرفد عن الماجن والرفد العطاء والصلة يضرب للرجل القليل الخير

والبكر الناقة التي ولدت بطناً واحداً والفتى من الابل

والصبور الناقة الكثيرة الرغاء

والنقارة الناقة تزبد عن العدو وتشتدُّ ولا تنثني في مرّها

والمهة الذلول من النوق

والبلية الناقة التي تشدُّ على قبر صاحبها حتى تموت راجع الرثية في الفصل الرابع من المقالة الرابعة

والعيطل الطويل العنق من النوق

والدعبل الناقة التي معها ولدها وقيل البعير المسنُّ

اما عصافير المنذر فهي ابل كانت للملوك نجائب

الحلب

البسوس الناقة التي تدرُّ على الابساس لان الحالب لابدَّ له ان يبسّ الناقة اولاً ثم يحلبها والابساس هوان يقول لها بِسْ بِسْ لتسكن وتدرّ ولذلك يقولون في المثل الايناس قبل الابساس

ومَصَر الناقة اذا حلبها باطراف الاصابع

والصبُّ هو الحلب بالاربع اصابع

والفطر الحلب بالسبابة والوسطى

والبائن الحالب الايمن

والمستعلي الحالب الايسر

والغرار منع الناقة درتها ومنهُ الغرارة قلة اللبن كما ان الدرة كثرتهُ

والضَّجي الناقة اذا حُلب لبنها

والطالق الناقة التي يتركها الراعي لنفسهِ فلا يحلبها على الماء

والضارب الناقة التي تضرب حالبها

والقيل الناقة التي تحلب عند القائلة يعني نصف النهار

والرائم الناقة التي تعطف على ولدها وتدرُّ عليهِ فان لم تدرّ سلخوا حوارًا وحشوا جلدهُ تبنًا ولطخوهُ بشيء من سلاها[1]

والملوق الناقة التي ترأم الولد بانفها وتمنع درها

والمحاريد الابل التي قلّت البانها

والعصوب الناقة يشدُّ فخذها حتى تدرّ

والشائلة الناقة التي خفَّ ضرعها وقلَّ لبنها

والمنزاح الناقة التي يسرع انقطاع لبنها

الفحول

والقرم من الابل الفحل

---

(١) السلى الجلدة التي يكون فيها الولد من الناس والمواشي

والعركرك البعير الغليظ القوي

والقرامز الجمل قد تمت قوّته او الذي اذا اعتلف رأيت هامته ترجف

وصوّل البعير اذا صار يقتل الناس وفي المثل أصْوَل من جمل يعني أعض

والحنفُ البعير الذي يحمل عليه الخباء بأسره مع ما فيه من كساء وعمود

والظعن البعير الذي عليه هودج وفيه امرأة

والصلخدم الشديد من الابل

والعيق الفحل

والقامح والمقامح الذي قد اشتدّ عطشه حتى فتر لذلك فتورًا شديدًا

ويقال القامح الذي يرد الحوض ولا يشرب

والهيمُ الابل العطاش من الهيام وهو اشدّ العطش قال الشاعر

ويأكل أكل الفيل من بعد شبعهِ ويشرب شرب الهيم بعد ان يروى

والحرائر من الابل التي لا تباع لنفاستها مفردها حريزة

والمروح الابل المروحة الى اعطانها والعطان وطن الابل ومبركها

والفريسة ما تُرِك في مراعيه

والعوذ الابل قد نتجت واحدتها عائذ فاذا تبعها ولدها قيل مُطفلٌ

والصمور الممسكة عن ان تجتر فاذا استعملته قيل راسفة

واللبساء التي لا تبرح من المبرك

والعُشَر الابل التي اتى عليها من حملها عشرة اشهر من ملقحها

والمتالي التي نتج بعضها والباقي يتلوها في النتاج

والغبط الابل التي لا وجع لها

والعيس اسم للناقة

والرُّكاب الابل ولا واحدٌ لهم من لفظها وقال الفرّاء واحدها ركوب

والجامل اسم صيغ للجمع وهي ذكور الابل واناثها والجمال ذكورها والنوق اناثها

والتربوت الجمل والناقة الذلول

والزود اسم مؤنث لا يوحّد ويجمع على اذواد يقع على قليل الابل ما بين الثلاث الى العشر الى العشرين الى الثلاثين ولا يجاوز ذلك ومنه المثل الزود الى الزود ابلٌ يضرَب في اجتماع القليل الى القليل حتى يؤدي الى الكثير

والصيرم جمع صريمة وهي القطعة من الابل

والعرج القطيع من الابل نحو الثمانين ومنها الى تسعين او مئة وخمسين وفويقها او من خمس مئة الى الف

والجَول جماعة الابل

والجهمة ثمانون بعيرًا

والهجرمة المئة من الابل او مئتان او ما بين الخمسين الى المئة

والعكر ما فوق الخمس مئة من الابل او الستون منها او ما بين الخمسين الى المئة

والقضاه ما بين الثلاثين الى الاربعين

والكور الجماعة الكثيرة من الابل او مئة وخمسون او مئتان واكثر

والهجمة من الابل اولها اربعون الى ما زادت او ما بين السبعين الى المئة اوالى دوينها فان بلغت المئة فهي هنيدَة

والامامة ثلاث مئة من الابل

ويعبرون عن الابل بالجليلة واجودها عندهم الاشهب البازل يعني الابيض القوي ويقولون ناقة هجان وجمل هجان والهجان حسن البياض واعتقه وقيل بل ان انفسها عندهم السوداء قال عنترة

فيها اثنتان واربعونَ حلوبةً سودًا كخافية الغراب الاسحمِ

الخافية ضدّ العلانية ولكن هنا يراد بها ما ظهر وتبين من الغراب وفي القاموس خباهُ خبأً وخبيًّا واختباهُ أظهرهُ واستخرجهُ وخبا الشيء ظهر وخبا البرق لمع والاعم الاسود

الفصل الثالث

في باقي الحيوانات المعروفة عند العرب

اما حيوانات بلاد العرب غير الخيل المشهورة في الجودة والجمل التي يعتمدون عليها لشدة احتياجهم اليها كما تقدّم في ما مرّ يوجد ايضًا الحمير الجيدة التي تباع باعلى قيمة وهي تقرب من صفة البغال وعليها تذهب الحجاج من اليمن الى مكة وتصل على تعب الطريق وتمشي في الساعة ثلاثة آلاف وخمس مئة خطوة وخطواتها بقدر خطوات الابل والركض عليها لا تعب فيهِ

وتوجد ايضًا المعزى والغنم والمعزى البرية ويعتنون بتربية الغنم كثيرًا وكما يعبّرون عن الابل بالجليلة يعبّرون كذلك عن الغنم بالدقيقة ولهم اصطلاحاتٌ في تعدادها ومن ذلك التيعة الاربعون من الغنم او ادنى ما تجب فيهِ الصدقة من الحيوان . والتيمة والثيمة الشاة الزائدة على الاربعين حتى تبلغ الفريضة الاخرى والتي تحلبها في المنزل وليست بسائمة والثلّة جماعة الغنم او الكثيرة منها او من الضأن خاصةً والحبلة للمعزى كالثلّة للضأن فاذا اجتمعت الضأن والمعزى فكثرتا قيل لها ثلّة ومن امثالهم لا يفرق بين الثلّة والحَبلة اي

بين جماعة الغنم وجماعة الناس لان الثُلّة الجماعة من الناس والحرعة والحربعة القطعة من الغنم جمعها حرائع والجَزِمَة المئة فصاعدًا من الماشية او من العشرة الى الاربعين او هي الصِّرمة من الابل والفرقة من الضأن

ونوجد ايضًا الجواميس وبقر الوحش وحمير الوحش وهي امرا الذي يضربون به المثل فيقولون كل الصيد في جوف الفرا يعني حمار اي كل الصيد دونهُ يضرب للرجل يكون له حاجات كثيرة منها واحدة عظيمة فتنقضي له ثم يبالي بفوات البواقي

ونوجد ايضًا الحماير والارانب والغزلان والظباء ويقال لها الغفر واحدها أعفر وتكثر في براريهم الأسد ويقال لها المباس واحدتها عنبسة واسامة علمٌ لها والضبع واسمر ويقال له ذو الموبت وبسمّونه المستي ايضًا والذئب والوعل والثعلب وابن آوى واليربوع وفي جهة الجنوب النسناس وهو كثير الجناية على الاثمار والفواكه

ويوجد ايضًا من الطيور النعام ويقال لذكورها الظلمان واحدها ظليم والقطا والحجل والصقر والكدري والكروان والغراب والحمام والرخم والهدهد والسمرمر وغير ذلك وعلى البحر الاحمر انواعٌ كثيرة من طير الماء كما ان مياه الابحر المحيطة كثيرة الاسماك والسلاحف

ويوجد في بلاد العرب من الاحناش حيّاتٌ موذية وعقارب وضبابٌ وانواع من النمل والزنابير وكثيرًا ما يسطو على هذه البلاد الجراد ويقال له الجندب فيتلف اغراسها واكثر ما يستوطن في براري نجد

وقال الميداني عن حمزة ان العرب تسمّي ضروبًا من البهائم بضروب من المراعي تنسبها اليها فيقولون ارنب الخلّة وضبُّ السحا وظبيُ الحلب وتيس الربلة وقنفذ برقة وشيطان الحماطة وأخبث الذئاب ذئب الغضى وأخبث الافاعي افعى الجندب واسرع الظباء ظباء الحلب

فالشيطان المذكور هنا يريدون به الحيّة والحماطة يبيس الاحابي وهي من

احرار البقول واحدتها امابة وضرب بشيطان الحماطة المثل للرجل اذا كان ذا منظرٍ قبيح والحلب شجرة حلوة يكون ظباؤها أسرع الظباء واما ظباء الحمص فتكون ابطأ الظباء لان الحمضَ مالحٌ وذلك كله على قدر طباع الامكنة والاغذية العاملة في طباع الحيوان

ويسمّون بعض الابل حوكشية نسبةً الى حوكس ولعلها هي الابل التي يسمونها الحوشيّة اي وحشية ينسبونها الى الحوش وهي على زعمهم بلاد الجنّ يسمون ان فحولها من الجنّ ضربت في نعَم مهرة بن حيدان فنُسبت اليها اذ يقال لها ايضاً ال مهرية او من الحوش اي من نسل فحول الحوش واماخفان وهي ارض بقرب الكوفة وعِثرين وحلية وترّج وحلبة هي من المواضع الموصوفة بكثرة الاسود ولذلك يقولون في امثالهم للجريّ أجرأُ من الماشي بترّج ولمن قهر رجلاً عظيماً فتكتَ أسد خفّان وتمثلتْ ليلى الاخيلية من ابياتٍ ترثي توبة بن الحميد

متى كان احيى من فتاةٍ حيّيةٍ   واشجع من ليثٍ بخفّان خادرِ[1]

واما اختلفوا في تفسير المثل المضروب وهو قولهم اشجع من ليث عثرين فمنهم من جعله دويبة ومنهم من قال ضربٌ من العناكب

وحيّة عيدان هي حية يزعمون انها قد منعت وادياً بسموه بهذا الاسم اي عيدان فلا يرعى ولا يؤتى

ولم يكن ما ذكرناهُ في هذا الفصل من اسماء الحيوانات وغيرها مقتصرًا على هذه الاسماء فقط بل يوجد لكل نوعٍ من انواعها اسماء متعددة لذكورها واناثهـا واصغارها وكبارها هذا فضلاً عن ترادف اسماء كثيرة على مسمّى واحد فان الاسد مثلاً يقال بانّ له نحو الف اسمٍ ولذلك لم نتعرّض لنغوص بهذا البحر العويص بل نكتفي هنا بذكر اسماء اولادها وما اصطلحوا عليهِ من القابهـا في نفسها

(١) الخادر معناه المقيم في خدره اي ملازم اجمته اذا كان من الاسود

اسماء اولاد الحيوانات . قد وضعت العرب لكل نوع من ولد الحيوان اسمًا مخصوصًا وهو ان ولد كل سبع جرو (ويطلق على الصغير من كل شيء) وولد كل وحشية طلا وولد كل طائر فرخ اما الشبل والحفص والفرهد فهي اسماء ولد الاسد وهرس ولد النمر ودغفل ولد الفيل والفيولا اولادهُ جمة بالدُّغل والتَّهذَل ولد الضبع والخِنصبص ولد الدب والدبس او الحيس ولد الدب والقشية ولد القرد والنُّصمل ولد الذئب وولد العقرب والعِجرِس ولد الثعلب والحوص ولد الحبرب والرعود ولد الوعل والمهر ولد الفرس والحَرقص ولد الحرقوص والجمل الصغير والجحش والعفْو ولد الحمار اما ولد الناقة فقد سبقت الاشارة اليهِ في الفصل السابق والعجل والبحزَج والحسيلة والذرب والفِراء والبزع ولد البقرة وكذلك الدغرة والبرغز والدعور والدغار ولد البقرة اذا مشى مع امهِ والتبيع ولدها في السنة الاولى والعضب ولدها اذا طلع قرنه والماري ولدها الاملس الابيض والانثى ماريةٌ والفرقد والزرع واليعفور والجوذر والعزّ ولد البقرة الوحشيّة والحَمل ولد الشاة وهي انثى الضأن والجدي ولد المعز والخشف والخِزْ والشادن والغزيز ولد الظبي والدائم ولد الظبي ايضًا اذا ماع في مشيهِ والخِرق ولد الظبية الضعيف القوائم والطلو ولد الظبية ساعة يولد ويجمع على طلاء والجرو وقد مرّ ذكرهُ ولد الكلب والدرص ولد الفارة والحسل ولد الضب ويقال هو اولاً حسل ثم مطبع ثم خِضرم ثم ضبّ والخِرنق والخونع والهمر ولد الارنب والفرّوج ولد الدجاجة والغنول والرأل والحونكيّ ولد النعام والزعلول ولد الحمام والجرذ وقد مرّ ذكرهُ فرخ الحمامة وولد الحيّة ويقال لهُ المارن ايضًا والكوزنل ولد الجُعل او هو الجُعل نفسهُ وقيل ان الهمر الذي مرّ ذكرهُ وكذلك السمع هو ولد الذئب من الضبع ويزعمون ان السمع لا يعرف العلل ولا الاسقام وهو كالحية يموت حتف انفهِ ويضربون بهِ المثل في شدّة السمع فيقولون لمن ارادوا المبالغة في شدّة سمعهِ أسمع من سِمع . قال الشاعر

تراه حديد الطرف ابلج واضحًا   اغرّ طويل الباع اسمع من سمع

والعسبار ولد الضبع من الذئب او ولد الذئب والعسور والعسورة ولد الكلب من الذئبة وفي بعض المؤلفات الاسبور ولد الذئبة من الضبع والدروان ولد الضبعان من الذئبة والازل ذئب ارسح[1] يتولد بين الضبع والذئب ايضًا والحيّعفاء بالمد والقصر ولد الكلب من الذئبة والديسم ولد الذئب من الكلبة وقيل ولد الثعلب منها او ولد الدب والبُرعُل وقد مرّ ذكرهُ يقال ايضًا انه ولد الورس من ابن آوى والقرنب ولد الفارة من اليربوع

كنى الحيوانات. وكما تكني العرب النوع الانساني كذلك تكني الاطعمة والبعض من النباتات والحيوانات وقد تقدم في الفصل الثالث من المقالة الخامسة كنى الاطعمة اما كنى الحيوانات فمنها ابو الحرث وابو الابطال وابو شبل وابو العباس كنية الاسد

وابو حم وابو دلف وابو دغفل وابو جُندل وابو دعل وابو الحجاج كنية الفيل وامّ سبل الانثى منه

وابو الاردّ وابو الاسود وابو حُدبة وابو حجل وابو خطاف وابو الصعب وابو رقاش وابو عمرو وابو المرسال وابو فارس للنمر وامّ الارد وامّ رقاش الانثى منه

وامّ نُزمُل وامّ خمار وامّ جنذرف وامّ رمال وامّ عناب وامّ عنبان وامّ عمرو وامّ عامر وامّ حنور وامّ طريق وامّ القبدور وامّ بوهل انثى الضبع وابو عامر وابو كلدة وابو اهبر ذكر الضبع

وابو حمدة وابو جاعد وابو حُمادة وابو ثمامة وابو مذقة وابو عسلة وابو رعلة الذئب

وابو حميد وابو حُهينة وابو حيل الدب

---

(١) الارسح الرجل الذي لم عجيزه بخسيس لحمه وركبه

وابو معاوية وابو الجهم وابو الحصين وابو الحدين وابو الحيص الثعلب
وابو قيس وابو زهرة ابن آوى
وابو ايوب وابو صابر الجمل
وابو خالد الكلب
وابو زرنة وابو عنبة الخنزير
وابو زنة القرد
وابو منقذ وابو مجي الفرس
وابو الختال وابو قموص وابو حرون النمل
وابو زيا وابو محمود وابو جحش وابو العيا الحمار وام المبرد الاتان وهي اتانه
وابو برائل وابو سليمان وابو البطال وابو حسان وابو حماد الديك وام حفصة وام ناصر الدين وام الوليد وام احدى وعشرين الدجاجة
وام ادرص وام ثلاثين النعامة وبنات الحرق جماعتها وابو حام ذكرها
وابو القعقاع الغراب
وابو الملح الصقر
وابو الاشعث وابو لاحق البازي
وابو الهيثم وابو وثاب وابو الحجاج وابو حسان وابو الدهر وابو الاشيم ذكر العقاب وام الحوار وام الشعر وام طلبة وام لوح وام الهيثم الانثى منه
وابو مالك وابو المنهال وابو يحيى وابو الاورد وابو الاصبع النسر وام قشم انثاه
وابو الاخبار وابو ثمامة وابو الربيع وابو روح وابو سجار وابو عباد الهدهد
وام الخراب وام الصبيان البومة
وابو عكرمة الحمام
وام جعران وام عجينة الرخمة

وابو حُدَيج اللقلق

وابو براقش المُكّس قيل هو طائرٌ صغير بريّ كالقنفذ اعلى ريشه أغبرُ واوسطه احمر واسفله اسود فاذا هُيِّج انتفش فتغير لونه الوانًا شتى حتى قيل لكل متلونٍ ذي وجهين أحول من ابي براقش ومنه قول الشاعر

كأنّي براقش كل يو م لونه يتغيرُ

وابو نجا او ابو نجادبي ضربٌ من الجنادب ومن الجراد وضربٌ ضخمٌ من الحامس وامّ عوف الجرادة

وابو الحسن طائر صغير ذو صوت حسن ويسمّى الحسّون

وابو كثير الصرد وهو الأخيل

وابو سلمى الوزغ

وابو جعفر الذباب

وامّ وردان الصرصور

وابو حِسْل وابو حُسَيل الضبّ

وابو جعران الجُعَل

وابو سفيان القنفذ

وامّ عِرْيَط وام ساهرة العقرب

وامّ حباحب دويبة ذات الوانٍ كالجندب وهو ذكر الجراد او القنوط

وامّ الاموال الغنم

وابو حبيب الجدي

وابو غزوان وابو خداش وابو الهيثم وابو شاغ السنور وامّ شاخ الشاةُ

وابو حَذر الحرباء وامّ قرّة وام حبيب الانثى منه وام الحُبين مصغرة الحرباء ايضًا

وام محبوب وابو عثمان الحية

وابو طامر وابو عدي وابو وثاب البرغوث
وابو مشغول النمل وامّ نوبة وامّ مازن اسمه
وابو راشد الفار وامّ خراب الفارة
وابو المج وابو هُبَيرة وابو معبد ذكر الضفدع وامّ هبيرة انثاه
وامّ اربع واربعين دويبة مسمّة معروفة

لاحقة . لا يخفى بانه عند العرب كل شيء انضمّت اليه اشباهه فهو امّ لها والامهات للناس والامات للبهائم وامُّ كل شيء اصلهُ وعمادُهُ وللنوم رئيسهم ومن القرآن الفاتحة او كل آية محكمة من آيات الشرائع والفرائض وللنجوم المجرّة وللرأس الدماغ او الجلدة الرقيقة التي عليها والرمح اللواء وللسائف اشد المداور واشقها وللبيض النعامة على ما تقدم والامّة الجرعة

وامّ القُرَى مكة
وامّ الدنيا مصر لكثرة اهلها
وامّ القِرَى النار
وامّ الكتاب اصله او اللوح المحفوظ او الفاتحة او القرآن جميعه
وامّ دَفْر وامّ حباب الدنيا
وامّ مثواك صاحبة منزلك
وامّ الصبيان الصرع
وامّ مِلدَم الحمى
وامّ الجراف الدلو والترس
وامّ حَبَوْكَر وامّ حَبَوْكَرَان وامّ حَبَوْكَرَى وامّ خَشَّاف وامّ خُنْشَب الداهية العظيمة والاساءة والغدر والظلم واما قول امرء القيس في مطلع بعض قصائده

خليليَّ مرّا بي على امّ جُندَبِ لنقضي لبانات الفؤاد المعذَّبِ

عمرو يريد بذلك امرأة من بني طي كان تزوج بها حين هرب الى قومها من وجه المنذر بن ماء السماء ملك العراق

الاصوات. ولما وضعت العرب اسماء لانواع الاصوات منها الصريف للناب والالم والسرير والصريف للاسنان. والطنطنة للاوتار. والرنين للقوس والقصيف للرعد والبحر. والزبير لصوت النار. والخشخشة للقرطاس والثوب الجديد. والصلصلة للحديد والسيف والدراهم. والزمزمة حكاية صوت المجوس. والنشيش لصوت غليان القِدر ونحوها. وغق غق حكاية صوت الغليان. والبقبقة صوت غليان الماء في الكوز ونحوه. والدقدقة صوت القرع. والدبدبة صوت وقع الحافر على الارض وكل صوت كوقع الحافر على الارض الصلبة. والطقطقة صوت الاحجار ومنه طقّ لصوت وقع الحجارة. وطاق للضرب. والخرير للماء والريح والمقاب اذا حفّت وغطيط النائم. والخُنازمُ سعليط من الاصوات. والخشف والحشفة لصوت والحركة والصوت الخفي او صوت دبيب الحيات وصوت الضبع. والنمط اصواتٌ مبهمة لا تفهم. والتغم صوتٌ بكلامٍ لا تبين. وطبلق حكاية صوت باب ضخم ذي مصراعين في فتحه. والصوّة لصوت الصدى. وطخ لصوت الضاحك وياه ياه لصوت يدعى به الناس للاجتماع وامثال ذلك وضعوا ايضاً لكل صوت من اصوات الحيوانات اسما ومنها الزئير للاسد. والعواء للذئب. والنباح للكلب والهرير له اذا انكر شيئاً او كرهه. والضباح للثعلب. والمواء للهرة. والقباع للخنزير. والخوار للبقر. والرغاء للشاه. والبغيب للظبي. والصهيل للفرس. والنهيق للحمار. والهدير للحمام. وطِق والنقيق للضفدع. والفحيح للحية. والخَرْشة صوت اكل الجراد والحرور صوت السنور. والصقاع للديك. والنعيق والنعيب والنعاب للغراب والبوم. وغاق لصوت الغراب. وغق غق حكاية صوت الغراب اذا اغلظ صوته وصوت الماء اذا صار من سعة الى ضيق والحفيف للشجر ولجاج الطائر وماء والبغام صوت الظبية. والطاب صياح التيس. والفيق والفرق لصوت

الدجاج . وقطا قطا حكاية صوت القطا ومنه وقط وقط اسم صوت لدعاء القطاة . والوع حكاية صوت ابن آوى والطفل اذا بكى . والزقزقة للعصفور . والتغريد للطائر والمغني والحادي . وكذ كذ حكاية صوت الاسد والبعير

زجر الحيوانات . وكما وضعوا هذه الاسماء لاصوات الحيوانات على ما تقدم وضعوا كذلك اسماء للاصوات التي يزجرونها بها ومنها إخذ واحط وآبا آبا ويا يا وبا به وبس بس وحو حو وحوث حوث وحاي حاي وحاب حاب وحا وحل حل وها ها وهِ وهج واي وهيا اصواتٌ تُزجر بها الابل

ونه نه وحِلِق وجاه جاه وحوه حوه وحاب وحوب وهَتْ هَتْ اصواتٌ يُزجر بها البعير

وجي جي وشيب اصواتٌ تدعى بها الابل للشرب

وهِي هِي صوتٌ تدعى به الابل للعلف

ودَي دَي من حدء العرب تدعى به الابل للمشي

وده وداه داه اصواتٌ تدعى به الناقة الى ولدها

وهِدَع هِدَع صوتٌ يُسكَّن به صغار الابل عن نفارها

واخ صوت اناخة الجمل

ودَوْه دَوْه صوت لدعاء الربع

وحِنْط وده وهلا وهِجْر وحَرَّم وهال وهاب وهب وهي لزجر الخيل

واه صوت دعاء للفرس

وجاه جاه زجرٌ للسبع وللبغل

وحَدَس او عَدَس زجرٌ للبغال خاصة

وحِيْ وحِيْ صوتٌ يدعى به الحمار

وعَوْه عَوْه صوتٌ يدعى به الجحش

وحِيز وحِيه وساه وشاه وشو شو وهِس اصواتٌ تزجر بها الحمير

وأجي أجي ورحاله رحاله وسدف سدف وقَصب قصب وهَدَف هدف

اصواتٌ لدعاء البهيمة

وأَمْ أَمْ وإِحْنَمْ او هِجِمْ وحَلْ حَلْ لزجر الشاة

وأَرْ أَرْ ودَعْ دَعْ لدعاء الغنم

وأوس أوس وحَطْ وحَبْ وشاه وعَلْ عَلْ وعاي وهِجْ ومن اصواتٍ زجرها

وتا تا دعاء للتيس لينزو

وحا حا دعاء له ليشرب

وحاج حاج تُدعى به العنز لتحلب

وحَل حَل لزجرها

وأوس أوس ووخ لزجر الثور

وأس أس كلمة تقال للحية لتخضع

ونه نه وقوس وقرقوس دعاء للكلب

ودَح دَح صوت صياح الدجاجة

وحَف حَف زجرٌ لها

وعس لزجر السنور

الامثال . وتضرب العرب امثالها كثيرًا من صفات بعض الحيوانات والنباتات او خواصها الطبيعية لكن اذا اردنا ان نذكر السبب لكل من هذه الامثال يطول بنا الشرح ولذلك نقتصر على المثل فقط كقولهم

بالاحمق أحمق من رجلة وهو نبت يعرف بالبقلة ايضًا واحمق من الضبع زعموا ان الصائد يخدعها بكلام يقوله فاحبس يقدر عليها وهو ابشري ام عامر فتخرج اليه وتسلم نفسها له واحمق من الرخم ومن نعجة على حوض ومن نعامة ومن رخمة ومن عنعق ومن ام الهبر والهبر الاتان وفي لغة فزارة هي الضبع ايضًا واخرق من حمامة واحمق من جهيرة وهي انثى الدب

ويقولون في الحذر أحذر من غراب ومن ذئب ومن ظليم

ويقولون في الحيرة احير من ضب ومن ورل

ويقولون في الحزم أحزم من فرخ العقاب ومن حرباء

ويقولون في المحاولة احول من ابي براقش ومن ابي قلمون ومن الذئب

ويقولون في الحسن أحسن من شنف الانضر يعنون قرط الذهب ومن

درّ ومن الطاوس ومن الديك ومن الهمل ومن بيضة في روضة لانهم

يستحسنون رؤية بياض البيضة في نضارة خضرة الروضة ومن الدهم الموقفة وهي

الخيل التي في قوائمها بياض

ويقولون في الحرص أحرص من كلب على جيفة ومن كلب على عرق

والعرق العظم عليه اللحم ومن كلب على عقي والعقي اول حدث الصبيّ ومن نملة

ويقولون في الحراسة أحرس من كلب

ويقولون في البخل ابخل من كلب

ويقولون في الجوع اجوع من كلبة حومل فان حومل هذه امرأة من

العرب لها كلبة تقيدها بحاسب البيت لتحرسها ولا تطعمها فكدمت ذكل ذنبها من

شدّة الجوع فضُرب بها المثل

ويقولون في المحاكاة أحكى من قرد لانه يحكي الانسان في افعاله سوى

النطق

ويقولون في العيوب مثل حمار طيّاب وبغلة ابي دلامة

ويقولون في الكفر هو اكفر من حمار لكنهم لا يعنون بذلك الحيوان

المعروف بهذا الاسم وانما يريدون رجلاً يقال له حمار بن مالك او مويلع كان

مسلماً اربعين سنة فخرج بنوه وكانوا عشرة لتصيد فاصابتهم صاعقة فهلكوا فكفر

وقال لا اعبد من فعل ببنيَّ هذا فضربوا المثل بكفره

ويقولون في الاختيال اخيل من غراب لانه يختال في مشيته واحيل من

ثعلب في استه عهنة والعهنة قطعة قضيب مكسور

ويقولون في الخفة أخف من فراشة واخف رأساً من الذئب واخف رأساً

من الطائر واخف حلماً من عصفور يضرب في احلام سخفه ومثله اخف حلماً من بعير واخف من يرعة والبراعة يقال بالهاء دابة فهو مثل قولهم اخف من فراشة وقيل هو البعوضة

ويقولون في الخبث اخبث من ذئب الخمر والخمر هو ما وارى شيء ستره من شجر او حجر او حرف واد واخبث من ذئب الغضى

ويقولون في الخيانة اخون من ذئب

ويقولون في الخداع اخدع من ضب

ويقولون في الخطاء اخطأ من ذباب ومن فراشة

ويقولون في العربسة اخبط من عشواء وهي ناقة لا تبصر في الليل فهي تطأ كل شيء

ويقولون في الحلم أحلم من فرخ العقاب

ويقولون في الحلاوة احلى من التوحيد قيل هو نوع من التمر بالعراق واليه ينسب ابو حيان التوحيدي صاحب كتاب المحاضرات والمناظرات قال المتنبي

يترشفن من فمي رشفات هن فيه احلى من التوحيد

ويقولون في الجرأة احد من ليطة وهي قشر القصب

ويقولون في الخفة اخف من شرب الكمون لان الكمون يسقى الدفي ولا يسقى والسقي بالكسر الزرع الذي يسقى واخف من ولد الحمار يعنون البغل لانه لا يشبه اباه ولا امه واخف من نار الحباحب قيل ان الحباحب طائر يطير في الظلام كقدر الذباب يتراءى جناحه كشعلة نار وقيل غير ذلك واخف من صقر وهو من خوف الغم اي تغير رائحته واخف من بول الجمل لان الجمل يبول الى خلف

ويقولون في الصيانة احمى من انف الاسد واحمى من است النمر

ويقولون في السرقة اسرق من زبابة وهي فارة برية صماء مثل الجرد

ويقولون في اشمّ اشمّ من نعامة[1] واما تمثيلهم الطويل بظل النعامة اذ يقولون اطول من ظل النعامة فليس هو من قبيل مشابهتهِ بظل الطائر المعروف بهذا الاسم بل يريدون بذلك الراية وكل بناء مرتفع او على جبل. وكذلك قولهم في المثل شالت نعامتهُم يعنون بذلك موتهُ لانهم يريدون بالنعامة هنا النفس كما في القاموس وفي مجمع الامثال للميداني شالت نعامتهم اذا انتقلوا بكليتهم كما يقولون رفَّ رألهم اذا انتقلوا عن الموضع ولم يبقَ لهم فيهِ شيء والرفّ في اللغة الاسراع والرأل ولد النعام

الصيد. وكانت العرب في الجاهلية ترغب في صيد الحيوانات فمنها ما يصطادونهُ بالنبل والسهام ومنها ما نصبوا لهُ الحبائل والشراك ويقولون ان اول من اصطاد منهم بالفهود كان كليب بن وائل وكانوا يسمون ما جاء من عن شمال الصائد وولاهُ ميامنهُ بالسانح وما جاء عن يمينهِ وولاهُ شمالهُ بالبارح وما تلقاهُ بالناطح وما استدبرهُ بالقعيد ويسمّون ناموس الصائد القترة والحفرة التي تحفر للاسد اذا ارادوا صيدهُ زبية ومنة المل بغ النبل الرتي ويعبّرون عن اللصوق بالارض لحمل الصيد الملبد ورجوع الصائد بلا صيد بالاخفاق وكانوا لا يعافون لحم شيء مما يصطادونهُ اصلاً

ثم لما جاء الاسلام أُحلّ لهم ايضاً صيد البحر وطعامهُ وصيد البرّ الاّ ما داموا حرماً غير انهُ قد حرّم عليهم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أُهلّ لغير الله بهِ والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما اكل السبع الاّ ما ذكّوا وما ذُبح على النصب ولم يستثنَ من الميتة الاّ السمك والجراد ومن الدم الاّ الكبد والطحال ولذلك يبذل المسلمون جهدهم في اصطياد الطيور والحيوانات بطريقة يظهر معها اثر خروج الدم مما يصطادونهُ منها واما الاسماك وسائر الحيتان والزحافات البحرية فلا قيد فيها

وقولهُ ما داموا حرماً يعني في مكة وهي حرم لاحتوائها على البيت الحرام

(1) يقال انهُ ليس للنعامة حاسة السمع ولذلك كان لها شم بليغ

ويقال له الحرم المكيّ ايضاً اما الحرم المدني فهو مسجد المدينة وفيه ضريح صاحب الشريعة الاسلامية ويُطلق عليهما كليهما اسم الحرمين الشريفين وقوله في ما حرّم عليهم اكلهُ الميتة ويرد بهِ الهالكة والدم اي المسفوح وما أُهلَّ لغير الله بهِ معناهُ بان ذبح على اسم غيره والمخنقة اي الميتة خنقاً والموقوذة المقتولة ضرباً والمتردية اي الساقطة من علوٍ الى اسفل والنطيحة المقتولة بنطح اخرى لها واما قوله الأَ ما ذكيتم بالذال المعجمة اي ادركتم فيهِ الروح من هذه الاشياء فذبحتموهُ

الفصل الرابع

في باقي محصولات بلاد العرب النباتية والمعدنية والصناعية وتجارتها

ينبت في بلاد العرب الاصلية المرّ والبلسان وكثير من الاشجار والنباتات العطرية ويخرج كذلك في ما كان صالحاً للنبات والشجر من الجبال والاودية الطرفاء والدوم والصفصاف والحنّاء والزنجبيل والياسمين والفل والتمر هندي والنخل والقصب والحنطة والشعير والحمص والارز والتبغ والعدس والبن والفلفل والباذنجان والصبر والرمان واللوز والفستق والمشمش والتفاح والسفرجل والليمون والتين والورد والشقائق والخزام والبنفسج والنرجس والنيلة والخروع وانواع القثاء والبطيخ والموز والطلح الذي منهُ الصمغ العربي والنارجيل المعروف بالجوز الهندي (ومنهُ أُخِذَ اسم النارجيلة وهي آلة للتدخين) وشجر البان في نجد وشجر اليسر الذي تعمل منهُ المسابح

وفي نواحي جبل سيناء توجد دودة مثل دودة القرمز تنقب قشر شجر الطرفاء فيخرج من انبوب في شهري حزيران وتموز رشح كالصمغ حلو الذوق طيب الرائحة تلتقطه رهبان دير القديسة كاترينا الكائن في تلك النواحي وينادون به او يبيعونه ويسمّونه منّاً تشبيهاً له بالمن الذي أُعطي لبني اسرائيل عند ما كانوا تائهين في تلك البراري

ومن اعشاب تلك البراري ايضاً ما يسمّونه بالخيلة وهو شجر الاراك اذا كانت رطبة والاراك نباتٌ يستاك[1] به والمبشر وهو كثير الشوك تأكله الابل ويقال بان للرمان عند العرب مزية على غيره من انواع الفواكه لان في كل رمانة من رمان الارض حبة من رمان الجنة فيجب ان يحرص من يأكل رمانة ان يسقط منها حبة لئلا تكون هي تلك الحبة

وبعض القدماء مدح بلاد العرب بسبب وجود الجواهر بها والزمرد والحجر الاسود والزبرجد. ويقول الجغرافيون ان معادن بلاد العرب قد فنيت في هذه الايام مع انها كانت كثيرةً في الزمن القديم فكان يوجد في بلاد اليمن كثير من معادن الذهب والفضة والى الآن يوجد في بعض الاماكن معادن حديد ونحاس ورصاص وحجر الجزع والعقيق اليمني في اليمن واللؤلؤ في خليج فارس ببلاد عمّان والبحرين ولا شك انه يوجد فيها ايضاً معادن كثيرة الى الآن لم تُكتشف

وكانت العرب تنقل على ابلها لمدن مصر[2] والشام التجارية اللبان والمر ومعطريات العودية كالزرابيج وغيره من سائر البهارات التي بعضها كانوا يجلبونه من بلاد الهند لسكان الساحل الجنوبي وبعضها كان يخرج من بلادهم لان العرب الذين لم يألفوا الحرب كان اكثرهم يصرف زمنه في التجارة حتى قبل ان

(1) السواك الدلك ويستاك به اي تدلك به الاسنان لتنظيفها وفي الحديث خير خصال الصائم السواك اي استعمال السواك

(2) اندرلك ص ٣٦

بلاد العرب كانت في الزمن القديم مستودع التجارة التي تربط الامم بعضها ببعض ولذلك كان الاسكندر الاكبر اراد ان يجعل قاعدة ملكه بلاد العرب ثم لما جاء الاسلام اباح هذه الحرفة ايضاً اذ قد ورد في الحديث تسعة أعشراء[1] الرزق في التجارة

وقال ابن خلدون القرش في اللغة الكسب والجمع وبه سميت قريش ايضاً لانها كانت تعاني التجارة وقيل تصغير قَرْش وهو الحوت الكبير المفترس دواب البحر وقال آخر كانت قريش في متاجرها تأتي الشام في فصل الصيف لاجل طيبة بلادها في هذا الفصل وتأتي اليمن في فصل الشتاء لانها بلاد حارة لا يستطاع الدخول اليها في فصل الصيف وقال ابو محمد عبد الملك بن هشام ان اول من سنّ الرحلتين رحلة الشتاء ورحلة الصيف هو هاشم جدّ صاحب الشريعة الاسلامية وانه توفي بمدينة غزة ولذلك يقال لها غزة هاشم اه. لكن ابن خلدون يقول ان الرحلتين هما من عوائد العرب في كل جيل لمراعي ابلهم ومصالحها فيفرّون بها من اذى البرد عند التوليد الى القفار ودفئها وطلب التلول في الصيف للحبوب وبرد الهواء

وقال بعض المؤلفين الظاهر ان هذه البخورات التي كانت تتجر بها العرب في ذلك الزمان كان اليونانيون يبخرون بها هياكلهم ومعابدهم والرومانيون كذلك يبخرون بها قبور بعض كهنتهم وفي زمن ملوك مصر البطليموسية والروم كانت مصر تتلقى هذه البضائع من يد تجار العرب بواسطة البحر الاحمر وكانت العرب تأخذ من الروم والعجم في مقابلة هذه البخورات المعادن النفيسة والجواهر التي كانوا يزينون بها مدنهم وهياكلهم وقصورهم (راجع الفصل الاول من المقالة الخامسة) ولم تنقطع اسباب التجارة عن بلاد العرب الا منذ اكتشف الطريق بين العرب والهند على راس الرجاء الصالح سنة ٨٩٢ للهجرة (سنة ١٤٨٦ م)

وكان للعرب في زمان جاهليتهم اسواق في محلات معلومة من بلادهم

(١) اعشراء جمع عشير وهو جزء من عشرة كالعشر

يجتمعون فيها في اوقات معينة من السنة للبيع والشراء وكانوا يتفاخرون ايضاً في اثناء تلك الاجتماعات ويتناشدون الاشعار ومن هذه الاسواق سوق كان يقوم في عكاظ (راجع الفصل الاول من المقالة الاولى) كل يوم احد ثم في كل سنة ايضاً كانت تجتمع قبائل العرب في اول شهر ذي القعدة ويلبثون هناك شهراً او عشرين يوماً ولما جاء الاسلام هدم السوق لكن قام مقامه مربد البصرة وهو ساحة تحبس فيها القوافل كانت العرب تجتمع اليه من الاقطار ويتناشدون الاشعار ويبيعون ويشترون وكان يؤخذ من بائعي السلع في مثل هذه الاسواق دراهم في زمن الجاهلية يعبّرون عنها بالمكس

وكان من عادتهم ايضاً ان يضرب المشتري على يد البائع ان رضي البيع وبذلك سمّي عقد المبيع صفقةً ويقال ربحت صفقتك لشراء وصفقة رابحة وصفقة خاسرة وتصافق القوم عند البيعة

وكان يقع عندهم البيع بالملامسة وهو ان يقول اذا لمست ثوبك او لمست ثوبي فقد وجب البيع بكذا وهو ان يلمس المتاع من وراء الثوب ولا ينظر اليه ثم يوقع البيع او يقال ابيعك هذا المتاع بكذا فاذا لمستك وجب البيع او يقول المشتري كذلك

وبيع المنابذة ايضاً والنباذ هو ان تقول انبذ اليّ الثوب او انبذهُ اليك وقد وجب البيع بكذا وكذا او ان ترمي اليه بالثوب ويرمي اليك بمثله او ان تقول اذا نبذت الحصاة وجب البيع او ان يحضر الرجل القطيع من الغنم فينبذ الحصاة ويقول لصاحبها ان ما اصاب الحجر فهو لي بكذا

والمحاقلة وهو بيع الزرع قبل ظهور صلاحهِ او بيعهُ اباهُ في سنبلهِ بالحنطة او زارعهُ بالثلث او الربع او اكثر او اكترى الارض منهُ بالحنطة

وبيع حَبَل الحَبَلى اي ما في بطن الناقة او حمل الكرمة قبل ان يبلغ او ولد الولد الذي في البطن او نتاج النتاج وولد الجنين على ان من امثالهم اذا اشتريت فاذكر البيع لتجتنب العيوب

لكن لما جاء الاسلام نهى عن مثل هذا البيع الفاسد بل وحقق للشاري الخيار في ما اشتراه لعدة اسباب منها ان يختار رد المبيع الى بائعه لعيب وُجد فيه وهذه تسمية خيار العيب اما خيار التعيين فهو اذا اشترى احد اثواباً من عشرة مثلاً فله الخيار في تعيين ايها شاء وخيار الرؤية وهو اذا اشترى ما لم يرهُ فله الخيار في رده وخيار الشرط وهو ان يشترط احد المتعاقدين امراً كنقد الثمن او غيره الى ثلاثة ايام او اقل منها فان اخلّ صحّ الخيار في البيع

وكان من عادتهم في الرهن ايضاً ان يقول الراهن لمن يمسك رهنه ان لم آتك الى كذا فالرهن لك فان اتى بالدين بعد الامد قال له غلق الرهن فجرى ذلك بينهم مجرى المثل قال الميداني غلق الرهن بما فيه يضرب لمن وقع في امر لا يرجو انتياشه منه قول الشاعر

وفارقتك برهن لا فكاك له يومَ الوداع فامسى الرهن قد غُلقا

فلما جاء الاسلام ابطل كذلك هذه العادة حيث ورد في الحديث لا يُغلق الرهن يعني لا يستحقه مرتهنه اذا لم يردّ الراهن ما رهنه فيه

وكانت بلاد اليمن تتجر في البن تجارةً عظيمة واغلب ايراد الدولة كان من البن الذي يؤخذ على ما يخرج منه وكانوا يمنعون خروج زريعته من بلادهم ويحمون حرمه من يخرجها عقاباً شديداً ومع كل ذلك قد وجد الفرنسوية والفلمنك والانكليز طريقاً لنقل هذه الشجرة الى قبائلهم ورعاياهم المستوطنة في البلاد البرانية وبذلك اضروا في تجارة هذه البلاد بهذا الصنف وان كان شاع بين بعض الافرنج وبين اليمن وتدّعي العرب بانهم نقلوا هذه الشجرة في الاصل من بلاد الحبشة ولعل ان الحبشة هم اول من عرف نفع البن وزراعته

وحكى بعض الذين تكلموا على بلاد اليمن ان اهالي هذه البلاد مع كونهم يتجرون في البن الذي هو من نواتج بلادهم فلا يستعملون شرب القهوة الا نادراً ويدّعون انها حارة ويستعملون بدلها شراب قشر البن الذي يسمونه كالشاي

ومنهم من يتعاطى نوعاً من النباتات مخدراً كالحشيشة

ولا يزال للحبش تجارة واسعة مع بلاد الحبشة المذكورة في العطريات والعاج والتبر ويأتيها من اوربا ايضاً انواع المعادن والاسلحة والزجاج وعندهم عدة انوال للنسائج وفي مدينة .نحا معمل للزجاج ولكن صانعهم حبشة وانما يجيدون صياغة الذهب والفضة التي تصطنعها عامتنا اليهود حتى ان السكة في مدينة صنعاء يضربها اليهود ويشتغلون بعض زركشات وهي المسماة مكاحل وكلها غير جيدة بل متوسطة الصناعة واكثر بيوت الجبل منقوبة في الصخور احدثة ولا يعرفون من آلات الموسيقى الا الطنبور والرابة وسمهم حبشة وشراعاتا ا وع من الخصر

واما البلاد التي فتحها العرب بعد الاسلام فقد اجادوا فيها انواع الزراعة بعد ان دخلت بينهم العلوم والمعارف القديمة واخذوا هذا الفن عن ديوسقوريدس الفيلسوف اليوناني كما سوف يرد ذلك في شأن بقية باقي العلوم التي تعاطوها وبرعوا فيها كما برعوا في التجارة وسائر العلوم التي ترجمت كتبها من اليونانية الى العربية وحسبنا ان نذكر مثالاً لذلك هنا ما ذكره صاحب المذهب في بعض نشراته حيث يقول

قال بعض المؤلفين يظهر من تاريخ العرب عموماً والاندلسيين خصوصاً ان متحضرهم بلغت الادنى رأياً وبحراً في زمان الحسناء وانهم فاقوا غيرهم في الزراعة والتجارة وبرعوا في استخراج المعادن وسبكها وفي الدباغة والحياكة والصباغة والصناعة والدباغة والنقش والدهن بالمذهب والزخرفة على انواعها وكانت مالقة (بلاد الاندلس) من شهر الامصار تصنع فخار المذهب العجيب ترسله الى اقاصي البلاد وكانت خيراتها كثيرة عنب وتين ولوز ورمان مرسي ياقوتي لا نظير له واشتهرت اشبونة بعسلها ومسكها واشبيلية بمتاجرها العظيمة وزيتونها وتينها حتى ان الماشي كان يمشي في ظل زيتونها وتينها اربعين ميلاً طولاً واثني عشر ميلاً عرضاً واشتهر فيها محب الماء والخلاعة ومن

الطرب واشتهرت كورة باجة بمعدن الفضة الذي فيها وبدباغة الادم وصناعة الكتان. وفاقت المرية سائر المدن بصنعة ديباجها ودار صناعتها حتى قال بعضهم كان فيها لنسج طرز الحرير ثماني مئة نول وللحلل المنبسة والديباج الفاخر الف نول وللثياب الجرجانية كذلك وللاصبهانية مثل ذلك وللعتابي والمعاجر المذهبة والستور المكللة ويصنع بها من صنوف آلات الحديد والنحاس والزجاج ما لا يوصف وفاكهة المرية يقصر عنها الوصف حسناً ووادياً طوله اربعين ميلاً في مثلها كلها بساتين بهجة وجنات نضرة وانهار مطردة وطيور مغردة وقيل لم يكن في بلاد الاندلس اكثر مالاً من اهلها ولا اعظم منهم متاجر وذخائر وكان بها من الحمامات والفنادق نحو الالف ولجودة ارضها قيل كلما غربلت من تراب. واشتهرت شنترة بجودة ارضها وحسن غرسها قال ابن اليسع ان التفاح فيها دور كل واحدة ثلاثة اشبار وكذا وقال نقلاً عن ابي عبد الله البكوري وكان ثقة ان رجلاً من اهل شنترة اهدى الى المعتمد ابن عباد اربعة من التفاح ما يقل الحامل على رأسه غيرها دور كل واحدة خمسة اشبار. وذكر هذا الرجل بحضرة ابن عباد ان المعتاد عندهم اقل من هذا واذا ارادوا ان يجيء بهذا العظم وهذا القدر قطعوا اصله وابقوا منه عشراً او اقل وجعلوا تحتها دعامات من الخشب. وكان بجوار المرية توت كثير وبه حرير وقرمز وكانت مرسية تسمى البستان لكثرة جنانها. والورق يعمل بشاطبة من اعمال بلنسية وبالاجمال كان اهل الاندلس خبيرين باستعمال الاطياب والعقاقير والافاويه وباستخراج الحجارة الكريمة والمعادن فكانوا يستخرجون العنبر وعود الالنجوج العطر الرائحة والعلب والقسط والمقل والجنطيانة والمر والكهرباء والقرمز وحجر اللازورد وحجر البجادي والبلور والياقوت الاحمر الا انهم لصغره لم يستعملوه والمغناطيس وحجر الشادنة يستعملونه في التذهيب والذهب والفضة والقصدير والزئبق يجهزونه منها الى الآفاق والتوتيا والنحاس والحديد والشب والكحل وقيل كانوا يصبغون النحاس بالتوتيا وكانوا يحررون

بالزعفران والزنجبيل ويلتقطون المرجان عن سواحلهم فاذا تأمل القارئ في كثرة هذه المواد وما يهال منها على البلاد من سيول الثروة وضمّ اليها نخوة العرب وعظم اقدامهم على الاعمال يتبين ان الاندلس صارت تحت يدهم جنة العالم وتحقق صدق واصفيها والقائل فيها

وكيف لا يبهج الابصار رؤيتها ... وكل روض بها في الوشي صنعاء
انهارها فضة والمسك تربتها ... والخز روضتها والدر حصباء
وللهواء بها لطف يرق به ... من لا يرق وتبدو منه اهواء
ليس النسيم الذي يهفو بها سحرًا ... ولا انتثار لآلي الطل انداء
وانما ارج الند استثار بها ... في ماء ورد فطابت منه ارجاء

اما الفن شيء من مصنوعات الاندلسيين فهو سائبهم فاهل الصناعة والذوق لا يزالون يفرون لهم بحسن المباني ايام كان سواهم من اهل اوربا يسكنون اسوث الحقيرة واشهر من شاد المباني الباذخة الخليفة الناصر (على ما تقدمت تفاصيله في الفصل الاول من المقالة الخامسة)

واما محصولات اراضي سلطنة مراكش فهي كما في الديار المصرية ويشتغل فيها الحرير والصوف والبسط والأدم من جلود المعزى واكثر تجارتها لا زالت حتى الآن مع اهالي البلاد والسواحل التي في الجهات الجنوبية

المقالة الثامنة

في جيوش العرب واسلحتها ووقائعها وفتوحاتها البرية والبحرية
وفيها ثلاثة فصول

الفصل الاول

في جيوش العرب وكيفية حروبها

يقال انه كان للنعمان بن المنذر ملك العرب خمس كتائب احداها تسمّى دوسر وهي اشدُّها بطشاً حتى ضُرب بها المثل فيقال أبطش من دوسر وكانت من كل قبائل العرب واكثرها من ربيعة سمّيت بذلك لاشتقاقها من الدسر وهو الطعن والدفع . والثانية الرهائن وكانت خمس مئة رجل رهائن لقبائل العرب تقيم بباب الملك سنةً ثم يأتي بدلها خمس مئة اخرى فتنصرف الاولى وكان الملك يغزو بها ويوجهها في اموره وكان ملك العرب في رأس كل سنة وذلك في ايام الربيع يأتيه وجوه العرب واصحاب الرهائن وقد صيّر لهم آكالاً عندهُ وهم ذوو الآكال فيقيمون عندهُ شهراً ويأخذون آكالهم ويبدلون رهائنهم ثم ينصرفون الى احيائهم . والثالثة الصنائع وهي بنو قيس وبنو تيم اللات

اي ثعلبة وكان هولاء خواص لملك لا يبرحون من بابه . والرابعة الوضائع
وكانوا الف رجل من الفرس يضعهم ملك الملوك بالحيرة نجدةً لملك العرب
وكانوا يقيمون سنة كالرهائن ثم يأتي بدلهم الف رجل فينصرف اولئك. والخامسة
الاشاهب وهم اخوة ملك العرب وبنو عمه ومن يتبعهم من اعوانهم وقيل لهم
الاشاهب لانهم كانوا بيض الوجوه

ويسمّون رئيس القوم بالعريف لانه عُرِف بذلك . اما النقيب فهو دون
الرئيس وقيل العريف يكون على عُشَرة والمنكب يكون على خمسة عرفاء ونحوها
ثم الامير فوق هولاء والدخية رئيس الجند ويجمع على دخاء

والجند هو جمعٌ معدّ للحرب والعسكر والاعوان والانبثة والانصار وصنف
من الخلق على حدة يقال هذا جندٌ قد اقبل

اما الحَصِيص وهو العدد يقال حصيصهم كذا اي عددهم كذا فهو اولاً
المُثنوث وهو الفرد الواحد والزوج للاثنين ويجمع على ازواج ، واما الزوج
والزوجة فهما من هذا القبيل ايضاً يقال لي زوجان. والنيف هو من الواحد
الى الثلاثة ولا يقال نيف الا بعد عقد العشرة من الرجال . والبضع اكثر ما
يستعمل بين الثلاث الى التسع او الى الخمس او ما بين الواحد الى الاربع او
من اربع الى تسع او هو سبع وقيل البضع ما بين العقدين من الواحد الى العشرة
ومن احدى عشر الى عشرين ومع المذكر بها ومعها اي مع المؤنثة بغيرها فتقول
بضعة وعشرون رجلاً وبضع وعشرون امرأة ولا يعكس . وقيل البضع غير
معدود لانه بمعنى القطعة . والعُرجم العدد الكثير والنفر لما دون الناس كلهم
من ثلاثة الى عشرة وقيل الى سبعة ولا يقال نفرٌ في ما زاد عن العشرة . اما
الوثيرة فهي اسمٌ لعقد العشرة اي اذا بلغ العدد عشرة يسمى وثيرة واذا بلغ
اربعين يسمى عصابة. ثم الهجمة وهي من السبعين الى المئة واذا بلغت المئة فهي
هُنيدة. والجماعة من المئة الى الالف واذا بلغت الالف قيل جمرة وقيل ان
كل قبيلة فيها ثلاث مئة فارس تسمى ايضاً بهذا الاسم وقيل ان كل من كان

بدًا واحدة من القبائل كبني ضبّة والحرث وعبس فانهٔ يقال لهم جمرات العرب

والحضيرة جماعة القوم او الاربعة او الخمسة او الثمانية او التسعة او العشرة او النفر يُغزَى بهم ومقدمة الجيش

والثُبة الجماعة والعصبة من الفرسان والاثبية الجماعة الكثيرة ج أثابي

والجاهشة الجماعة من الناس والسرية بالياء المثناة هي الجماعة من خمسة انفس الى ثلاث مئة او اربع مئة قيل لما ذلك لانها تسري في خفية او لانها جماعة مستراة اي مختارة من الجيش وقيل التسعة فما فوقها سرية وقيل السرية القطعة من الجيش يقال خير السرايا اربع مئة

واما السربة بالباء الموحّدة فهي الجماعة وجماعة الخيل ما بين العشرين الى الثلاثين

والطليعة تكون ثلاثة او اربعة ونحو ذلك

والعدقة ما بين العشرة الى الخمسين من الرجال

والمِقْنَب ما بين الثلاثين الى الاربعين من الخيل او زهاء[1] ثلاث مئة

والقبل الطائفة من الناس ومن الخيل ما بين الخمسين فصاعدًا وقيل ما بين الثلاثين الى الاربعين

والمَنسرُ والمِنسرُ من الخيل ما بين الثلاثين الى الاربعين او من الاربعين الى الخمسين او من الستين الى المئة الى المئتين وقطعة من الجيش تمرّ قدام الجيش الكبير

والوصمة صرمٌ[2] من الناس فيهم مئتا انسان او ثلاث مئة

والحَذ من الناس الجماعة ومن الخيل مئة واكثر

والدرازيق الجماعات من الناس والفرسان او جماعات خيل دون الموكب

---

(١) الزهاء المقدار والحزر يقال عندي زهاء مئة اي مقدار مئة وحزرها

(٢) الصرْم الضرب والصنف والجماعة ج اصرام واصارم واصاريم وصرمان ويراد بالصرم الجماعة من البيوت ايضًا

والدهم الجيش ولفيف القوم قبل سمي بذلك لان فيه اخلاطاً من الناس
والبعايا الطلائع تكون قبل ورود الجيش
والتجريدة جماعة من الجند منتظمة

اما الكتيبة فهي الجيش والعظيم منه فيلق وعرمرم ولهام وقيل الفيلق ما كان منه خمسة آلاف والبند ما كان عشرة آلاف والجحفل الجيش الكبير وجيش جرار يجرُّ غبار الحرب وكتيبة جرارة ثقيلة السير لكثرتها والطحون الكتيبة العظيمة تطحن ما لقيت واما الحميمة فهي الجيش الصغير والحول الكتيبة المنحمة وجماعة الحول او ثلاثون منها او اربعون وقيل الجيش اربع مئة وقيل اربعة آلاف والنبي ما يتطرق من معظم الجيش والمكة مركز الاجناد وتجمعهم وان لم يكن هناك لواء ولا علم

اما حومة الحرب فهي معظمها يعني حيث تحوم الحرب اي تدور غمرات الحرب والوقعة والوقيعة في صدمة الحرب والقتال والعظيم من الحروب ملحمة واشدها الحرب العوان والحارس الحروب ما لا قود فيها (اي ما لا اقتصاص للقاتل فيها) وعليه قولهم جرحهُ جبار اي لا يطالب به ومن امثالهم ايضاً الحرب سجال يعني تارةً لقوم واخرى عليهم اما الوغى والوعى فهو صوت الجيش في الحرب ثم استعير للحرب والجلب صوت العسكر والوغر صوت الجيش وجلبته والهمهمة اختلاف الاصوات وشدة زجلها واجلب القوم يعني جلبوا وتجمعوا من كل وجه للحرب واعلب اختلاط الاصوات . والجلاد والمجالدة تضارب المتحاربين بعضهم بعضاً بالسيوف والحوكرى المعركة بعد انقضاء الحرب والتوغن الاقدام في الحرب والذمر الحض على القتال. واحزنبى الرجل احرنباء ازبأرَّ وتهيأ للغضب والشر كاحرنبأ بالهمز. وحزفر القوم تهيأوا. والحمة الكرة في الحرب

وكانت العرب تكني عن الحرب بثلاثة اشياء احدها ثوب محارب وهو رجل من قيس غيلان يتخذ الدروع والدروع ثوب الحرب والثاني برد فاخر

وتاجر هذا رجل من تميم كان اول من لبس البرد الموشَّى فيهم وهو ايضاً كناية عن الدرع . والثالث عطر منشم يقولون في امثالهم دقّوا بينهم عطر منشم او يقولون اشأم من منشم زعم بعضهم ان منشم اسم امرأة كانت عطارة تبيع الطيب وكانوا اذا قصدوا الحرب غمسوا ايديهم في طيبها وتحالفوا عليه بان يستميتوا في تلك الحرب ولا يولوا او يقتلوا فصار جميع ذلك كناية عن الحرب

والسبب في غمس ايديهم بطيب هذه المرأة هو ان من عادة العرب اذا ارادوا الحرب غمسوا ايديهم في خلوق ليكون ذلك علامة لهم على التحالف عليه ومن ذلك حلف المطيبين والرباب على ما سبقت الاشارة اليه في الفصل الرابع من المقالة الخامسة ومنه ايضاً حلف الفضول ذكرهُ الاصبهاني فقال ان اناساً من قريش اجتمعوا في دار عبد الله بن جدعان وصنع لهم يومئذٍ طعاماً وكان معهم صاحب الشريعة الاسلامية قبل البعثة وهو ابن خمس وعشرين سنة فاجتمعت بنو هاشم واسد وزهرة وتيم وكان الذي تعاقدوا عليه هو ان لا يُظلم بمكة غريب ولا قريب ولا حرٌّ ولا عبدٌ الّا كانوا معه حتى يأخذوا له بحقه ويؤدوا اليه مظلمته من انفسهم ومن غيرهم ثم عمدوا الى ماء من ماء زمزم فجعلوهُ في جفنةٍ ثم بعثوهُ الى البيت فغسلت اركانهُ ثم اتوا به فشربوهُ وقال الواقدي ان سبب تسمية تحالفهم هذا بحلف الفضول هو ان قوماً من جرهم يقال لهم فضل وفضال ومفضل تحالفوا على مثل هذا في ايامهم وسمّي تحالفهم حلف الفضول فلما تحالفت قريش هذا التحالف سمّوا بذلك ايضاً ه . ومثلها احابيش قريش ايضاً هم قومٌ من قريش وكنانة وخزيمة وخزاعة اجتمعوا في الحبش وهو جبل باسفل مكة وتحالفوا انهم يدٌ واحدة ما سجا[1] ليلٌ ووضح نهارٌ وما رسا الحبش اي الجبل المذكور فقيل لهم ذلك

وكانت اسمارهم لعروبتهم وحروبهم وطعونهم وسائر حليهم واحيائهم من

(١) اسجى سكون وسكون وفي سورة الضحى والليل اذا سجا اي سكن اهله او ركد ظلامه

الاهل والولد وكانت عساكرهم لذلك كثيرة الخلل بعيدة ما بين المنازل متفرقة الاحياء يغيب كل واحد منها عن نظر صاحبه من الاخرى قال المرزوقي كانت العرب تشهد نساؤها الحروب وتقيمها خلف الرجال ليقاتل الرجال دفاعاً عن حرمهم فلا تفشل مخافة العار بسبي الحرم

وكان الشعر في حروب الجاهلية يقوم بمزية الآلات الموسيقية او القرع في الطبول او النفخ بالآلات والقرون عند غيرهم فكانوا في خروجهم امراوات يتقدمون بالشعر في مواكبهم فيطربون وتجيش هم الابطال بذلك ويسارعون الى مجال الحرب وينبعث كل قرن الى قرنه ولا زال الامر على ذلك في بعض قبائل العرب بعد الاسلام قال ربانة من ام المغرب كان يتقدم الشاعر عندهم امام الصفوف فيحرك بنشائده الجبال الرواسي ويبعث الى الاستماتة واما قرع الطبول والنفخ في الابواق لم يتخذه الاسلام الا بعد ان تولى الخلافة العباسيون في المشرق والعبيديون في المغرب

وكانوا ينصبون الرايات على ابواب بيوتهم لتعرف بها وكانوا يتفاخرون بالراية الصفراء لانها راية لملوك اليمن واما الرايات الحمر فهي لاهل الحجاز لكن في الاسلام كانت الرايات السود لبني العباس حزناً على شهدائهم ونعياً على بني أمية في قتلهم ولذلك سموا بالمسودة وكانوا ينصبون هذه الرايات السود على المنابر ايضاً فلما نزع المأمون العباسي عن لبس السواد وشعاره في دولته على ما تقدم في الفصل الثاني من المقالة الخامسة عدل الى لون الخضرة فجعل رايته خضراء واما الرايات البيض فكانت للطالبيين من الهاشميين لما خرجوا على العباسيين وذهبوا الى مخالفتهم ولذلك سموا بالمبيضة ومنهم العبيديون والقرامطة وغيرهم

وكان من عادة العرب في الجاهلية قتل اسرى الحروب فان من امثالهم المضروبة ليس بعد السلب الا الاسار وليس بعد الاسار الا القتل لكن كان اذا اكل الاسير وشرب من مال من اسره أمن من القتل فاذا منوا عليه

واطلقوهُ حزُّوا ناصيتهُ(١) وكان الشريف اذا أُسِر فُدِيَ بمئين من الابل وسمّي هذا الفداء عدم عقال(٢) المئين ثم لما جاء الاسلام ابطل الاسر من العرب حيث ورد في الحديث لاسبأ على عربي ولاسبأ في الاسلام ولا رقّ على عربي في الاسلام ولذلك كانت المطية في الرقيق هو ما سبي من قوم يحلّ استرقاقهم والخبيثة ما كان بعكس ذلك

وكانوا يقاتلون بالكرّ والفرّ(٣) ولا يعتمدون قتال الزحف صفوفًا المعتبر عند سواهم من الاعاجم وكانوا يصفّون ابلهم والظهر الذي يحمل ظعائنهم وراء عسكرهم فيكون فئة لهم ويسمونها المجبوزة لان ضرب المصاف وراء العساكر من الجامدات والحيوانات العجم لتكون ملجأ للجيالة في كرّهم وفرّهم يطلبون به ثبات المقاتلة هو من مذهب اهل الكرّ والفرّ ويفعله اهل الزحف ايضًا

ثم في مبادئ الاسلام جعل العرب حروبهم زحفًا واطلقوا الكرّ والفرّ لسببين الاول ليقابلوا اعداءهم بمثل مقاتلتهم والثاني لانهم كانوا مستميتين في حروبهم والزحف اقرب الى الاستماتة وفي الآية ان الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفًا كأنهم بنيان مرصوص

ولما تولى الخلافة مروان بن الحكم ابطل الصف في الحروب وصار الى تعبية الكراديس والكراديس هي ان يجعل بين يدي الملك عسكر منفرد بصفوفه متميز بقائده ورايته وشعاره ويسمونه المقدمة ثم عسكر آخر من ناحية اليمين عن موقف الملك وعلى سمته ويسمونه الميمنة ثم عسكر آخر من ناحية الشمال ويسمونه الميسرة ويقال لهما المجنبتان ثم عسكر آخر من وراء العسكر الساقة ويقف الملك واصحابه في الوسط بين هذه الاربع ويسمون موقفه القلب

---

(١) الناصية الشعر الذي يقع على الوجه من مقدم الراس

(٢) العقال تأدية الجناية في عقل القتيل اذا جنى جناية والعقل دية القتيل وعاقلة الرجل عصبته

(٣) الكرّ العطف وكرّ الفارس فرّ للجولان ثم عاد للقتال فهو كرّار وفرّ الفارس اوسع الجولان للانعطاف

وهنا نضرب صفحاً عن تعداد المؤلفات واسماء المؤلفين من العرب الذين ألفوا في احوال الحروب وتعبيتها وادواتها وسائر متعلقاتها كفضل الفارس على الراجل والراجل على الفارس وزي المتقاتلين ولباس الرجال والفرسان وانواعها وما يلزم ان يكون مع المتقاتلين وما يتعلق بانواع الاسلحة التي حدثت بعد الاسلام كالمجنيق والدبوس والخنجرة والمقلاع والقوس والنشاب والمكامن والمبارزة والاسرى وفضل الجهاد والسير والمغازي وفتح الثغور وسائر المعاقل واصول الفروسية والهندسة والمصابرة على الحصار والقلاع والرياضة الميدانية والحيل الحربية وسائر فنون العلاج والسلاح وعمل ادوات الحرب والكفاح لانها هيهات ان تحصر او يسعها هذا المختصر

واول من اتخذ طائفة الافرنج في جندهم هم ملوك المغرب ليقاتلوا بهم العرب الخارجين عليهم من اهل وطنهم لثبات الافرنج في الحروب واعتيادهم على حرب الزحف واما في الجهاد اي في حروبهم مع النصارى فلا يستعينون بهم خوفاً من ممالاتهم على المسلمين

الفصل الثاني

في اسلحة العرب الاصلية

وكما كانت العرب تغلب فيهم الشجاعة ويعدون ويجرون كذلك كانوا يحسنون حمل السلاح كما يحسنون ركوب الخيل التي سبق الكلام عليها فيلبسون الدروع السَّلوقية (نسبة الى سَلوق بلدة في اليمن يُنسب اليها الدروع والكلاب)

ويعتقلون الرماح الخطية ويتنكبون القسي ويضربون بالسيوف المشرفية

اما الرماح الخطية فهي منسوبة الى الخط جزيرة بالبحرين ترفأ اليها السفن ويقولون ايضاً رماح سمهرية ورماح ردينية فالسمهرية تنسب الى سمهر رجل كان في جزيرة خط المذكورة مثقفاً ماهراً وتماهُ يعني رماحهُ صلبة وكانت زوجته ردينة وهي مثل زوجها في تقويم الرماح واليها تُنسب الرماح الردينية وهناك رجل آخر مشهور بعمل الاسنة يقال له قُعضُب

وقد اشتهر بملاعبة هذه الاسنة عامر بن مالك الذي يقال لامه ام البنين الاربعة وهي انجب امرأة في جاهلية العرب لانها ولدت عامر المذكور والطفيل وانا نمام وربيعة وبذلك افتخر احدهم ربيعة المذكور بقوله "نحن بنو ام البنين الاربعة" وضُرب المثل بعامر في ملاعبة الرماح فيقولون لمن يريدون المبالغة في وصفه بذلك اللعب بالاسنة من عامر بن مالك كما ضُرب المثل ايضاً بابن نقر[1] فيقال ارمى من ابن تقن وقيل ارمى من تيّن وهو رجل من عاد كان ارمى من تعاطى الرمي في زمانه ويقولون ايضاً ارمى سهاماً من بني ثُعَل وهم قبيلة من العرب يوصفون بجودة الرمي فيها واشهرهم في ذلك رجل يقال له عمرو بن المسبّح

وكان الرجل من العرب اذا غضب يخط الارض بسهامه ويكسر ارعاظها والارعاظ جمع رعظ وهو مدخل النصل في السهم ولذلك يقولون في المثل انه ليكسر عليّ ارعاظهُ غضباً يضرب للغضبان

ويسمون آخر سهم يبقى في الكنانة رديئاً كان او جيداً الاهزع وهو انه اما فضل سهامها فأُذخر لشديدة واما ارداها فترك قال امرؤ القيس بن تولب

فارسل سهماً له اهزعا فشكّ نواهقهُ[2] والفما

(١) النقن الرجل الحاذق

(٢) النواهق مخارج النهاق وهو ما يكتنف الخياشيم من الدابة

اما الحرماة فهي سهام الهدف . والحبص وبصم صوت القوس . والمنض نصل عريض او سهم فيه ذلك يرمى به الوحش . والدقر السهم اذا اصاب الهدف . واما اذا لم يصب فليس ساقر . والرلح رفع اليد في الرمي الى اقصى ما يقدر عليه . والسهم الزالج الذي اذا رمى به الرمي قصّر عن الهدف واصاب الصخرة اصابة صلبة ثم ارتفع الى القرطاس وبذا لا يُعدّ مقرطساً والقرطاس الغرض ارشق السهام والمقرطس الذي اصاب القرطاس . وحبص السهم اذا وقع بين يدي الرامي . ومحط السهم اذا بعد من الرمية والشداد السهم الذي لا نصل له ولا ريش . والمعزو السهم المريش . والمسادل السهم سقط نصله . والاهوق الذي انكسر فوقه . واقبت السهم اذا وضعت فوقه الوتر . والسهم اشبح القاتل . واصمى الرامي اذا اصاب . وانى اذا شوى اي اصاب الشوى ولم يصب المقتل والشوى اطراف البدن وصرد السهم اذا نفذ في الرمية والصرد النفوذ . وخزق السهم وخسق بمعنى صرد ايضاً . واحبص السهم ضدّ اصرد والمراص السهم الذي لا ريش عليه . والوذح السهم قبل ان يراش ويركب نصله . والحرات سهم لم يتم بريه . والحابث السهم وقع حول القرطاس . وزج الرمح الحديد المركب في اسفله واذا قيل زجاج الرمح عني به ذلك الحديد

وكان من عادة العرب اذا التقت فئتان منهم شد كل واحد منهما زجاج الرماح نحو صاحبتها وسعى الساعون في الصلح فان ابتا الا التمادي في القتال قلب كل منهما الرماح واقتتلا بالاسنة ولذلك يقولون في المثل من عصى اطراف الزجاج اطاع عوالي الرماح وعالية الرمح ضد سافلته والجمع العوالي والسنان والملذم الرمح الطويل والجمع من السهام الذي لا نصل له

واما الجوب والجن فهما الترس . والحروخ ادوات ترمى عنهـــا السهام والحجارة . والتجفاف آلة للحرب تلبسها الفرس والانسان ليتقي بها كانها درع . والحُذّار قراب السيف او حدّه . والحرباء مسمار الدرع او راسه في حلقة الدرع . والحطميات دروع تنسب الى حطمة بن محارب كان يعمل الدروع او هي

الدروع التي تكسر السيوف او القبلة العريضة

واما السيوف المشرفية فهي منسوبة الى المشارف . قال الشيخ ناصيف اليازجي في كتابه مجمع البحرين هي قرية في اليمن وقال الميداني في مجمع الامثال المشرفية تُنسب الى مشارف الشام وهي قراها فيقولون السيف المشرفي وفي القاموس مشارف الارض اعاليها والسيوف المشرفية الثمينة الرفيعة واما المصروبة فمنسوبة الى بصرى موضع بالشام ايضاً والبيلمانية نسبة الى يلمان موضع باليمن او السند او الهند والحنيفية نسبة الى الاحنف بن قيس

ويصفون السيف بالاثر والباتر والبتار والجُذَم والحاروقة والحسام والمهند والجذوم والجِذَم والخاشب والحصم والصروم والصلت والاصمع والقباب والقرضاب والقرصوب والقصاب والنهك . والعضب والباصك والصوك للسيف الماضي القاطع اما الاقرع فهو السيف الجيد الحديد والمهد القاطع المحدد او المطبوع بالهند والصمصام السيف لا ينثني ويقال الصمصامة بزيادة التاء للمبالغة كالحاروقة والثامل من السيوف القديم العهد بالصقال والابريق السيف البراق والبارقة السيوف . والابيض والاصحمة السيف ايضاً . والصامي السيف الطالم . والدالك السيف الصارم والدرد من السيوف ما كان عليه اثر قديم او هو الدرد . والحيض من السيوف ما كان من حديد ابيض وحديد ذكر . والرقارق السيف الكثير الماء . والصموت السيف الرسوب . والمعصوب السيف اللذيف والماها سيفٌ رقيق . والكشوج سيفٌ من السيوف السبعة التي اهدتها بلقيس لسليمان . والاحثم السيف العريض والخشيب سيف ضد الصقيل والمعصد اردأ السيوف لانه يقطع به الشجر

ومما اشتهر من سيوف العرب المعلوب[1] وذو الحيّات سيفا الحرث بن ظالم المرّيّ

(١) المعلوب السيف ثم حزم او حزيم متصلة بعلباء البعير

والباتك[1] والجماد[2] لمالك بن كعب الهذلي

ولسان الكلاب لتبّع بن حسّان الحميري من ملوك اليمن

وذو الفقار[3] سيف العاص بن منبّه فلما قتل اخذهُ صاحب الشريعة الاسلامية ثم صار للامام علي بن ابي طالب وكثيرًا ما تذكرهُ الشعراء الاسلاميون في غزلياتهم يصفون به الالحاظ والمحظ باطن العين والمحاط موّخرها كأنهم يصفون القدود بالرماح

ومنها قُلزم والصمصامة لعمرو بن معدي كرب الزبيدي وكان اشهر سيوف العرب قال الشاعر

اخٌ ماجدٌ ما خانني يوم مشهدٍ كما سيف عمرٍو لم تخنهُ مضاربهُ

حكى الاصبهاني ان عمرًا المذكور انشد في يوم مقتل رستم

انا ابو ثور وسيفي ذو النون[4] اضربهم ضرب غلام مجنون[5]

يا لزبيد انهم يموتون

ودلدل[6] وذو الكف لذي جدن احد ملوك اليمن

وذو النون سيف مالك بن زهير العبسي

وولول[7] سيف عبد الرحمن بن عتاب بن اسيد بن ابي العاص

وامج[8] سيف زهير بن جناب الكلبي

والمخذوم[9] والمخذم سيف الحرث بن ابي شمر الغساني

---

(١) الباتك القاطع (٢) الجماد من السيوف الصارم

(٣) الفقار الدواهي (٤) النون شفرة السيف

(٥) المجنون من غربته المنية يعني مات (٦) الدلدل الامر العظيم

(٧) ولول اعول قال وا ويلاهُ (٨) امج لشق والغضب واعلب والمناجة

المبارزة يقال بامجة جميعة اي غلبة (٩) المخذوم والمخذم القاطع بسرعة قال عنترة

مطعنة بالرمح ثم علوتهُ بمهنّد صافي الحديدة مخذمِ

والاضرس (١) سيف الحرث بن هشام

والزائد سيف خُبَيب بن اساف

والمُصدَّع (٢) سيف زهير بن جذيمة العبسي

والصارد (٣) سيف عاصم بن ثابت بن ابي الاقلح

والمُصمت (٤) والوشاح (٥) لشيبان المندي

والعطشان سيف ابن عبد المطلب بن هاشم

والغام سيف جعفر الطيار

والفرد سيف عبد الله بن رواحة الانصاري

وذو الفوق سيف مسروق ابي عبد المسيح الرباني

والخزنات سيوف المنذر بن ماء السماء

وذو القرط سيف خالد بن الوليد المخزومي

وذو الدوين سيف معقل بن خويلد

والمصم وذو الوشاح لعمر بن الخطاب

---

(١) الاضرس المجرّب في الحروب والمحكم وضرس القوم مضارسة تحاربوا وتعادوا

(٢) المصدَّع من الصدع وهو الشق في شيء صلب

(٣) الصارد النافذ (٤) المصمت المسكت

(٥) الوشاحة السيف وتوشح الرجل السيف تقلد به

الفصل الثالث

في وقائع العرب وفتوحاتها

لا يخفى بان للعرب في زمن جاهليتها وقائع كثيرة لا يمكن حصرها ولا معرفتها بالتمام واغلبها لم يكن الاّ من نوع العدوان اذ لم يكن هناك اسباب توجبها الاّ في كونهم جعلوا ارزاقهم في رماحهم ومعاشهم في ما بايدي غيرهم فكانت مقاصدهم بها غلب الناس على ما في ايديهم فقط وقد ألّف ابو الفرج الاصبهاني كتاباً في ايام العرب يحتوي على الف وسبع مئة يوم وفي ايام الوقائع والحروب التي جرت بينهم اشهرها هو ما ذكرهُ الاديب الفاضل الشيخ ناصيف اليازجي اللبناني في ارجوزة ضمنها نحو المئة يوم وهي

قد ذكر القوم لايام العرب	مواقعاً تدعى بهنّ كاللقب
من ذلك الكديد والبيداء	بُعاث والنُترة والهباءه
كذا كُلابٌ ثمَّ الجفارُ	والنجرُ والرخيخُ والمِنسارُ
شَيطةُ والزَورُ غبيط المَدَره	كذا الغبيطانِ اللوى ونثره
جَوُّ شطاعٍ ذو طُلوحٍ والذنب	ذُرى الكُحيلُ والعذيبُ ذو نجب
نخلةُ وثيتُ الرجيعِ قرنٌ فلجُ	طُوالةٌ وفيحُ زرودُ المرخ
عُوَيرضُ الحدائقُ اليِسارُ	قُشاوةٌ كُفافةٌ سنجارُ
دَرَجرجٌ جَوٌّ خُويٌّ داتُ	عينُ أُباغٍ قادمٌ إرابُ
عُراعرُ الدَّبيُّ الربيعُ ملهمُ	نجرانُ والعيسانِ عولٌ رَقمُ
ذوالأثلِ ذاتُ الرمرمِ النِّتاشُ	عُنيزةٌ عَتَقةٌ أعشاشُ

ووارداتُ الجنوِ رحرحانُ	والدّركُ السوبانُ والسُّلانُ
شِعبٌ خرازى والعُظالى حاطبُ	قُراقرُ الدثينةُ الذنائبُ
جبلةُ القرعاء والصليبُ	ظهرٌ وذات الحرملِ الكثيبُ
أُوارةٌ إهابةٌ ذو قارِ	أقرنُ وحجَ حيرة سفارِ
شعواء والقساة الدُرَقبُ	قطَنُ ذو جبى القروق يحسبُ
نُسيانُ والمرَبُ ذو أحثالِ	وما عسى نحصي من الرمالِ

واما الحروب المفيدة الناجحة التي شيّدت الامة العربية ورفعت شأنها وقوّت شوكتها ومدّت سلطانها في كل نادٍ ونصبت لها اعلام السلطة على اعظم الممالك واجل البلاد فهي الحروب التي اجرتها بعد ظهور الاسلام

وافتتاح هذه المعارك في الحروب التي اجراها صاحب الشريعة الاسلامية لمقاومة اعدائهِ والتغلب على بلاد العرب وهي · اولاً غزوة بدر التي غزا فيها بثلاث مئة رجل من اصحابهِ قافلةً لقريش كان فيها نحو الف رجل وكان رئيسها ابو سفيان فانتصر عليها

ثانيًا وقعة أُحد كانت بعد هذه بسنة واحدة جنّد فيها ابو سفيان المذكور ثلاثة آلاف رجل فكسر المسلمين وشنّع بهم

ثالثًا غزوة الطائف التي قتل فيها نحو عشرة آلاف من اليهود وكانت في سنة ٥ للهجرة (سنة ٦٢٦ م)

رابعًا غزوة خيبر موقعها على الشمال الشرقي من يثرب واهلها يهود ويقال انهم باقون على ذلك الى الآن غير انهُ لا قرابة بينهم وبين اليهود الساكنين باطراف بلاد العرب ولعلهم من فرقة منهم يقال لها القرائين وهي مبغوضة بغضًا شديدًا من باقي اليهود وهم مستقلون بحكمهم مشايخ كثيرهم من العرب واعداء للقوافل ولهذا تُعيّر بهم اليهود فيقال لليهودي اذا أُريد وصفهُ بالرذائل خيبري وكانت خيبر هذه مدينة احصن قرى العرب فغزاها صاحب الشريعة الاسلامية

المشار اليهِ سنة ٦ للهجرة (سنة ٦٢٧ م)

خامساً وقعة موتة وهي في اراضي الشام غلب فيها ثلاثة آلاف من المسلمين ثلاثين الفاً من الروم سنة ٨ للهجرة (٦٢٩ م) غير ان هذه الواقعة لا يجزم بها الامرخ

سادساً غزوة حنين وهي آخر غزواتهِ تمَّ لهُ فيها الاستيلاء على بلاد العرب باجمعها . واما عام الوفود المشهور في الكتب العربية فهو العام الذي انقاد فيهِ الامراء سنة ٩ للهجرة (سنة ٦٣٠ م) واعظم مَن اسلم منهم باذان وابنة صحار خاتمة ملوك اليمن

وكان يعامل غير المسلمين بالحلم واللطف ويؤمنهم بالعهود والمواثيق التي يعطيها لهم في البلاد التي يفتحها كالصحيفة التي كتبها بين المسلمين وبين اليهود واعطاها الى اليهود بعد ان قتل كعب بن الاشرف والكتاب الذي كتبهُ الى المنذر بن نولب ليبقى في يد اهلهِ ولكنَّا لم نقف على صورة ما كُتب لهم في تلك اسحنف وانمّا وقفنا على صورة العهدة التي منحها الى رهبان دير القديسة كاترينا الكائن في جبل سيناء مترجمة باللغة التركية لان الاصل محفوظ الى الآن في الخزينة السلطانية ولا يوجد الا نتوش من الدبورة المتعلقة بهذا الدير في المدن الاسلامية الاَّ ويوجد فيهِ صورة باللغة التركية مطبقة من المحاكم الشرعية وعليها اوامر من الخلفاء الراشدين ومن جاء بعدهم من الملوك والسلاطين لتعمل بموجبها وهذه ترجمتها

هذا كتابٌ كتبهُ محمد بن عبد الله بشيراً ونذيراً وامين الخالق اجمعين لود يعة الله في خلقهِ كي لا تكون حجة على الله بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً كتبهُ لمن هم على دينهِ عهداً لاولئك القوم جميعاً الذين هم على دين النصرانية من مشارق الارض الى مغاربها بعيدهم وقريبهم عربيهم وعجميهم معلومهم ومجهولهم هذا كتاب ما عهدهُ اليهم وكل من خالف ما فيهِ من العهد يكون مخالفاً لهُ ولغيرهِ ومتعدياً على ما أُمر بهِ وقد افسد عهد الله ولم يصدق ميثاقهُ ولم يخضع لهُ ويكون

قد استهزأ بدينه ومستحقًا للعتو ان يكن سلطانًا او كان غيره من المسلمين المؤمنين. فمتى كان راهب او سائح مقيمًا في جبل او واد او مغارة او معمور او سهل او كنيسة او معبد فحن من ورائهم واني لاذب عنهم بنفسي واعواني وانصاري وشعبي هم واموالهم وأنواتهم اذ انهم من رعيتي واهل ذمتي وادفع عنهم كل ما يكدرهم من تلك الاثقال التي تعطيها اهل العهد فلا يعطون الّا ما طابت له نفوسهم من الاشياء خراجًا ولا يكدّرون ولا يكون عليهم جبر ولا اكراه ولا يغير من كان عليهم قضاة منهم عن وظيفتهم ولا رهبانهم عن رهبانيتهم ولا اصحاب الخلوات عن الاقامة في صوامعهم ولا يسلب احد سياحهم ولا يهدم بيتًا من بيوت كنائسهم ولا بيعهم ولا يدخل شيء منها الى بيوت المسلمين وكل من اخذ شيئًا من ذلك فيكون قد افسد عهد الله وخالف رسوله حقيقة ولا يطرح خراج على قضاتهم ورهبانهم ولا من كان مشغولاً في العبادة منهم ولا شيء آخر غرامة كان او خراجًا او مظلمة اخرى فاني ما احفظ ذمتهم في البحر والبر والمشرق والمغرب والشمال والجنوب اينما كانوا وهم في ذمتي وميثاق اماني من جميع الاشياء التي يكرهونها فلا يؤخذ خراج ولا اعشار ممن يتعبد في خلوة في الجبال ولا ممن يزرع في تلك الاراضي المباركة ولا احد يشركهم في طريقهم ولا يشترك معهم بدعواه ان ذلك لغيرهم ويعطى لهم في اوقات المواسم من كل اردب قدحًا لاجل ماكولهم فلا يقال لهم ان هذا كثير ولا يطالبون بخراج ولا يؤخذ من ذوي الخراجات ايضًا ولا من الاغنياء وارباب التجارة زيادة عن اثني عشر درهمًا في السنة عن كل راس ولا يكلف المسنون منهم زيادة عن الحد المعين ولا يكلفهم احد الى سفر او يلزمهم الى حرب او نقل سلاح انما المسلمون يحاربون عنهم. ويجادلونهم على احسن وجه اتباعًا للآية ولا تجادلوا اهل الكتاب الّا بالتي هي احسن فيعيشون مرحومين ويمنع عنهم ما يكدرهم او يضيق عليهم من كل داع. اينما كانوا او في اي محل نزلوا واذا تزوجت امرأة نصرانية بمسلم فلا يكون ذلك الّا برضا تلك المرأة ولا تمنع من الذهاب الى كنيستها لاجل الصلاة وتحترم

كانهم ولا يمنعون من تعميرها ولا من مرمة ديورتهم ولا يلتزمون بنقل سلاح او حمل حجارة وانما المسلمون يذبون عنهم ولا احد من الامة يخالف هذا العهد الى يوم القيامة وانقضاء الدنيا هذا العهد الذي كتبه محمد بن عبد الله الى جميع ملة النصارى اشترط جميع ذلك لبني يو ومعه ايضاً الذين اثبتوا اسماءهم وشهادتهم وقد اشهد الصحابة العظام عليه في آخره وهم

علي بن ابي طالب . وابو بكر بن قحافة . وعمر بن الخطاب . وعثمان بن عفان . وابو الدرداء . وابو هريرة . وعبد الله بن مسعود . وعباس بن عبد المطلب . والفضل بن عباس . والزبير بن العوّام . وطلحة بن عبد الله . وسعود بن معاذ . وسعيد بن عبادة . وثابت بن قيس . وزيد بن ثابت . وابو حنيفة بن عتبة . وهاشم بن عبيد . ومعظم بن قريش . والحارث بن ثابت . وعبد العظيم بن حسن . وعبد الله بن عمرو بن العاص . وعامر بن ياسر

وقد كتب هذا العهد بخطه في مسجد النبي صلّى الله عليه وسلم علي بن ابي طالب في اليوم الثالث من المحرّم والسنة الثانية من الهجرة

وكان بعد ان توفي صاحب الشريعة الاسلامية المشار اليه حدثت امور كثيرة كادت توقع خللاً كبيرًا في الاسلام لو لم يتداركها بحكمة بالغة وشجاعة فائقة الامام عبد الله بن ابي قحافة الشهير بابي بكر الصديق الذي اختاره اكثر القرشيين وقتئذٍ لمسند الخلافة ومن تلك الامور المهمة ما كان واقعاً بين القرشيين المذكورين من تفرّق الآراء على مسند الخلافة فان بعضهم كان يجد ان الحق فيه للامام علي بن ابي طالب.اما الذين اختاروا ابا بكر المشار اليه فكانوا يمنعون عليًّا منه لخوفهم من ان تتم الشوكة لبني هاشم الذين كان هذا الامام سيدهم وهذا التفرق هو الذي نشأ عنه اخيرًا ظهور بدع وتشيّعات في الاسلام لم يعد ممكنًا لاهل السنة استئصالها فكان اول ما شرع به ابو بكر المشار اليه هو ان دعى اليه ابا عبيدة بن الجراح وعندهُ الامام عمر بن الخطاب وقال له يا ابا عبيدة ما ابين ناصيتك وابين الخير بين عارضيك ولقد كنت من

رسول الله (صلعم) بالمكان المحوط والمحل المغبوط ولقد قال فيك في يوم
مشهور ابو عبيدة امين هذه الامة وطالما اعزّ الله بك الاسلام واصلح فساده على
يدك ولم تزل للدين ملجأً وللمؤمنين روحًا ولاهلك ركنًا ولاخوانك رداءً وقد
اردتك لامرٍ ما بعده خطر مخوف وصلاحه معروف وان لم يندمل جرحه
بيسرك ولم تنجع حيّة ارقيتك فقد وقع اليأس واعضل البأس واحتيج بعد
ذلك الى ما هو امرّ من ذلك واعلق واعسر منه واغلق والله اسأل اتمامه بك
ونظامه على يدك فتأتَّ له يا ابا عبيدة وتلطف فيه وانصح لله تعالى ولرسوله (صلعم)
ولهذه العصابة غير آلٍ جهدًا ولا قالٍ جدًّا والله كالئك وناصرك ومبصرك وبه
الحول والقوة امضِ الى عليّ واخفض جناحك له واغضض من صوتك
واعلم انه سلالة ابي طالب ومكانه ممن فقدناه بالامس (صلعم) وقل له
البحر مغرقة والبرّ مفرقة والجو اكلف[١] والليل اغلف[٢] والسماء جلواء[٣]
والارض صلعاء[٤] والصعود متعسر والهبوط متيسر والحق رؤوف عطوف
والباطل عنيف[٥] مشنوف[٧] والعجب[٦] رائد[٨] البوار والتعريض[٩] شجار[١]
السنة والمعة[١١] ثوب العداوة هذا والشيطان متكئ على شماله متحيل بيمينه نافخ
حضنيه لاهله ينتظر بهم الشتات والفرقة ويدب بين الامة بالشحناء والعداوة
عنادًا لله عز وجل ولرسوله (صلعم) ولدينه فهو ثائب يوسوس بالفجور
ويدلي[١٢] بالغرور ويمني اهل الشرور ويوحي الى اوليائه بالباطل دأبًا له منذ
كان على عهد ابينا آدم وعادة منه منذ اهانه الله عز وجل في سالف الدهر
لا ينجي[١٣] منه الا الناجذ[١٠] على الحق وغاض الطرف عن الباطل وواطئ

(١) متغير اللون معبس (٢) الغلاف الشامل (٣) مصحية
(٤) لا نبات فيه (٥) غير موفق (٦) مرجوم من ارم (٧) محمد
(٨) صلب (٩) ضد التصريح (١٠) نزاع (١١) اسم لعبة للصبيان
(١) ثوب العداوة (١٢) يتعمد يتقلل
(١٠) المبين من الاستعانة

هامة عدو الله وعدو الدين بالاشد فالاشد والاجد[1] فالاجد وسالم الذين لله
عز وجل في ما يوجب رضاه ويجنب سخطه ولا بد الآن من قول ينفع اذا
ضر السكوت ويخيف غبه[2] ولقد ارشدك من افاد ضالتك وصادقك من
احيى مودته لك بعتابك واراد الخير لك من آثر البقاء معك ما هذا الذي
سولت لك نفسك ويدوي به قلبك ويلتوي به عليك رأيك وتخاوص[3] دونه
طرفك ويسري به ظعنك ويتراد معه نفسك وتكثر معه صعداؤك ولا يفيض
به لسانك أعجمة بعد افصاح أتلبس بعد ايضاح أدين غير دين الله عز وجل
أخلق غير خلق القرآن أهدي غير هدى النبي (صلعم) أمثلي يمشي له
الضراء ويدب له الخمر[4] أم مثلك ينقبض عليه الفضاء ويكسف في عينه
القمر[5] فما هذه القعقعة بالشنان. وما هذه الوعوعة باللسان انك جد
عارف باستجابتنا لله ولرسوله وخروجنا عن اوطاننا واموالنا واحبتنا هجرة الى
الله تعالى ذكره ونصرة لنبيه (صلعم) في زمان انت فيه في كن[7] الصبا وخدر
الغرارة غافل عما يشيب ويريب لا تعي ما يراد ويشاد ولا تحصل ما يساق
ويقاد سوى ما انت جار عليه الى غايتك التي اليها وصلت وعندها حط رحلك
اذ ذاك غير مجهول القدر ولا مجحود[8] الفضل ونحن في اثناء ذلك نعاني
احوالاً تزيل الرواسي ونقاسي اهوالاً تشيب النواصي خائضين غمارها راكبين
تيارها نتجرع صابها[9] ونشرج عيابها[10] ونحكم اساسها ونبرم
امراسها[11] والعيون تطرف بالحسد والانوف تعطس بالكبر والصدور تستعر
بالغيظ والاعناق تتطاول بالفخر والشفار تشحذ[12] بالمكر والارض تميد[13]

---

(١) الجد والاجتهاد (٢) عاقبته (٣) الخوص ضيق في آخر العين
(٤) شرّ الناس (٥) والعجم والروم والترك والفرس والهنود
(٦) اعمق البالغ في القعيرة (٧) الستر ( ) مشكور
(٩) عصارة شجر مر او هو عصارة الصبر (١٠) الحبول السريعة الجري
(١١) المرس من الرجال الشديد العلاج (١٢) تسارع (١٣) تتحرك

بالخوف ولا ينظر عند المساء صباحاً ولا عند الصباح مساء ولا يدفع في نحر امرٍ الّا بعد ان يحسو(1) الموت دونه ولا يتطلع الى شيء الّا بعد رجع ابعد ص منه ولا يقوم مبادئ الّا بعد اليأس من الحياة عنده وقد هاديا في كل ذلك رسول الله (صلعم) بالاب والام والخال والعم والنشب(2) والسبد(3) واللبد(4) والنشب(5) واللبد(6) بطيب نفس وقرور عين ورحب اعطان(7) وثبات عزائم وصحة عقول وطلاقة اوجه وذلاقة السن هذا الى خبيات اسرار ومكنونات اخبار كنت عنها غافلاً ولولا حداثة سنك لم تكن عن شيء منها ناكلا كيف وفؤادك مشهوم(8) وعودك معجوم(9) وغيبك محبور(10) والقول فيك مشهور والآن قد بلغ الله لك وحمل مرادك بين يديك وعن علم اقول ما تسمع فارتقب زمانك وعقلك بين عينيك وقلّص(11) اليه اردانك ودع التحسس والتعبس لمن لا يظلع(12) لك اذا اخطى ولا يتزحزح عنك اذا تعطى(13) فالامر غض(14) والنفوس فيها مضض(15) وانك ادم(16) هذه الامة فلا تغلّ لجاجاً(17) وسبيلها العصب ولا تنب اعوجاجاً وماؤها العذب فلا تحيل اجاجاً(18) والله لقد سألت رسول الله (صلعم) عن هذا الامر فقال لي يا ابا بكر هو لمن يرغب عنه لا لمن يرغب فيه ويحاحش(19) عليه ولمن يتصاغر(20) له لا لمن يتصبّح(21) اليه يقال هو لك لا بل

(1) يجرع و يشرب شيئاً بعد شيء
(2) المال والاصل من الناطق والصامت (3) الكثير
(4) القطعة من الصوف (5) جارية الشباب (6) المال
(7) مبرك والمربض وهو هنا كناية عن الوطن (8) من الشهامة
(9) من قولهم عجمت عند فلان اي بلوت امره وخبرت حاله
(10) من الحبور وهو الحسن والسرور (11) وجّه او انهض
(12) لا يجزع (13) سأل العطا (14) طري (15) لا تحمل ما يسوءها
(16) اصل هذه الامة (17) التمادي في الخصومة
(18) الملح المرّ (19) يزاحم (20) يخضع اليه او ينقلب له
(21) يترشّش له

يقول هو لي ولله لقد شاورني رسول الله (صلم) في الصهر فذكر فتياناً من قريش فقلت له اين انت من عليّ فقال اني لاكره لفاطمة ميعة[1] شبابه وحداثة سنه فقلت له متى كنفته يدك ورعته عينك حفت بهما البركة واسبغت عليهما النعمة مع كلام كثير خطبت به عنك ورغبته فيك وما كنت عرفت منك في ذلك حوجاء[2] ولا لوجاء[3] فقلت ما قلت وانا ارى مكان غيره واجد رائحة سواك وكنت لك اذ ذاك خيراً منك الآن لي ولئن كان عرّض بك رسول الله (صلم) فقد كنى عن غيرك وان كان قال فيك فما سكت عن سواك وان تلجلج في نفسك شيء فهلمّ فالحكم مرضي والصواب مسموع والحق مطاع . . . ولقد نُقل رسول الله الى ما عند الله تعالى وهو عن هذه العصابة راضٍ وعليها حدب[4] يسرُّهُ ما سرَّها ويكيدهُ ما يكيدها ويرضيه ما يرضيها ويسخطه ما يسخطها أما تعلم انه لم يدع احداً من اصحابه وخلطائه واقاربه وسجرائه[5] الاّ ابانه بفضيلة وخصّه بمكرمة وافردهُ بحالة او اصفقت[6] الامة عليه لكان عقدهُ آبلتها[7] وكفالته[8] وكرامتها[9] وغرارته[10] أيظن انه (صلم) ترك الامة سُدًى[11] بدداً[12] عباهل[13] طلاحى[14] مباهل[15] مفتونة بالباطل مغبونة[16] عن الحق لا رائد[17] ولا ذائد ولا ضابط ولا حائط ولا ساقي ولا واقي ولا هادي ولا حادي[18] كلاّ والله ما اشتاق الى ربه ولا سأله المصير الى رضوانه حتى ضرب الصوى[19] واوضح الهدى وآمن المهالك والمطاوح[20] وسهل المبارك[21]

---

(١) اول الشباب (٢) قبيح (٣) حدة (٤) عطوف
(٥) صهره وحواشيه (٦) ارتدت او اطبقت او اجمعت على الرمة له
(٧) سوستها (٨) اعالته اياها او صيانته (٩) تدبيرها
(١٠) فوقة بعد تدلل (١١) مفتوحة (١٢)
(١٣) وترة او جانبة مهملة (١٤) متفادية (١٥) مهملة
(١٦) جائعة او عديمه (١٧) عطشانة (١٨) قليلة فطنة وادراك
(١٩) مرشد او دليل (٢٠) مرتق (٢١) جمع صوة لعلم
(٢٢) المهاوف (٢٣) موضع البرك والجلوس

والناخ[1] وبعد ان شرخ يافوخ الشرك باذن الله عزّ وجلّ وشرم وجه النفاق لوجه الله تعالى وجدع انف الفتنة في ذات الله تبارك اسمه وتعلى في وجه الشيطان وصدع بالحق فيه وبدءِ امر لله عزّ وجلّ وبعد فهولاء الانصار والمهاجرون عندك ومعك في دارٍ واحدة وبقعةٍ جامعة ان استقاموا لي لك واتّأزروا عندي لك وانا واضع يدي في يدك وصائر الى رائهم فيك وان نكن الاخرى فادخل في ما دخل فيه المسلمون وكن العون على مصالحهم والفاتح مغالقها[2] والمرشد لضالّهم والرادع لغاويهم فقد امر الله بالتعاون على البرّ والتقوى والتناصر على الحق ودعنا نقضي هذه الحياة الدنيا بصدورٍ بريئة من الغلّ ونلقى الله تعالى بقلوبٍ سليمة من الضغن وبعد فالناس عامة فارفق بهم واحنُ عليهم ولِن لهم ولا تشقّ بنفسك بما خاصة فيهم واترك ناجم[3] الحقد حصيدًا وطائر الشرّ واقعًا وباب الفتنة مغلقًا فلا قال ولا قيل ولا لوم ولا تبيع والله عزّ وجلّ على ما نقول شهيد وبما نحن عليه بصير

قال ابو عبيدة فلما تهيّأت للنهوض قال سيدي عمر كن لدى الباب هنيهة فلي معك ذرو من القول فوقفت ولا ادري ما كان بعدي الا انه لحقني ووجهه يبدي تهللاً وقال قل لعلي

الرقاد محلمة واللجاج ملجمة والهوى مقحمة وما منا الا وله مقام معلوم وحق شائع او مقسوم ونبأ ظاهر او مكتوم وان اكيس الكيس من منح الشارد تألّفه وقارب البعيد تلطّفه ووزن كل امرٍ بميزانه ولم يخلط خبره بعيانه ولم يجعل فتره مكان شبره ولا حيرة في معرفة مشوبة بنكرِ ولا خير في علمٍ معتلٍ[4] في جهل او لسنا كالعير بين النجاد والذئب وكل صالٍ[5] فبناره وكل سيلٍ فالى قراره وما كان سكوت هذه العصابة الى هذه الغاية لعيٍّ ولا شيء وكلامها اليوم لفتقٍ او رتق فقد جدع الله بمحمد (صلعم) انف كل ذي

(١) الداخي (٢) الفضل عن الرشد (٣) نابت من النبات

(٤) مقيد (٥) من الاصطلاء وهو الاستدفاء بالنار

كدر وقصف ظهر كل جبار وقطع لسان كل كذوب فماذا بعد الحق الا الضلال فما هذه الخنزوانة[1] التي في فراش رأسك وما هذا الشجي المعترض في مدارج انفاسك وما هذه الوحرة[2] التي اكلت شراسيفك[3] والقذاة التي اعشت ناظريك وما هذه الدمس[4] والرمس[5] اللذان يدلان على ضيق الباع وخور الطباع[6] وما هذا الذي لبست بسببه جلدة النمر واشتملت عليه بالشحناء والنكر لشد ما استسعيت اليها وسرت سيري ان انفذ[7] اليها ان العوان لا تعلم الخمرة[8] وان الحصان لا تكلم خمرة وما احوج الصلعاء[9] الى فالية[10] وما اقدر الدرعاء[11] الى قال لقد خرج رسول الله (صلعم) والامر مقيد محيس ليس لاحد فيه ملمس ولا مأنس لم يسير فيك قولا ولم يستنزل فيك قرآنا ولم يجزم في شأنك حكمًا ولسنا في كسروية كسرى ولا قيصرية قيصر ولسنا كاخوة[12] فارس وابناء الاصفر قوم جعلهم الله جزرًا لسيوفنا وجزرًا لرماحنا ومرمى لطعاننا وتبعًا لسلطاننا بل نحن في نور نبوة وضياء رسالة وثمرة حكمة واثرة[13] رحمة وعنوان نعمة وظل عصمة بين امة مهدية بالحق والصدق مأمونة على الرفق بالرتق لها من الله عزّ وجلّ قلبٌ ابيٌّ وساعد قويٌّ ويد ناصرة وعين باصرة أتظن ان ابا بكر الصديق وثب على هذا الامر مفتاتًا على هذه الامة خادعًا لها متسلطًا عليها تراه امتلخ[14] احلامها وازاغ ابصارها وحل عقدها واحال عقولها واستل من صدورها حميتها وانتزع من اكبادها عصبيتها وانكث رشاها[15] وانتضب ماءها واضلها عن هداها وساقها الى رداها وحول نهارها

---

(١) الكبرياء او هي ذبابة تطير على انف البعير فيشمخ لها

(٢) وزغة كسام ابرص لا تدخل بيتًا الا ...ه (٣) عصار بطنك

(٤) كتم الخبر او جعله في ظلام (٥) الدفع بالرجل

(٦) ضعف حمل القوم بعضهم على بعض (٧) الحقد او العداوة

(٨) مثل عربي (٩) الحسر شعر مقدم رأسها (١٠) ما ترجّه من الخلق ليدوم لها مقام الشعر (١١) ذهاب الشعر (١٢) كاجراء (١٣) رواية

(١٤) انتزع او انتقى (١٥) انتقض حبل دلوها

للاً ووردها كدًّا وينقطها رقادًا سلاحها فسادًا وان كان هكذا فان سحره لمبين وان كيده لمتين كلاً والله بأي خيل ورجل وباي سنان ونصل وباي قوة ومنة وباي ذخر وعدة وبأي ايد وشدة وبأي عشيرة واسرة[1] وبأي تدرع وبسطة ولمد صح عندك ما وسمته مبيع العقبة[2] رفيع العنة لا والله لكن سلاعها مولدت[3] به ونصاً من لما اصطفت به ووال عنها في لدت الجو واشتمل دونها عاسرت عليه حبوة حماه الله بها وعاقبة ملمة الله اياها وانمة سربلة الله جمالها وبد وحب عليه شكرها وانه نظر الله به لها واطالما حامت[4] حوله في ايام رسول الله (صلعم) وهو لا يلتفت اليها ولا يرتقب وقتها والله اعلم بخلقه وأرأف بعباده بخير ما كان لهم الخيرة وانك بحيث لا يجهل موضعك من بيت النبوة ومعدن الرسالة وكهف الحكمة ولا يجحد حقك في ما اتاك ربك ولكن . الك من يراحك بمكب اضم من منكبك وقرب اسنى من قربك وسن اعلى من سنك وشيبة اروع[5] من شيبتك وسادة لها عرفت في الجاهلية وفرع في الاسلام والشريعة ومواقف ليس لك فيها من جمل ولا ناقة ولا تذكر فيها في مقدمة ولا ساقة ولا تضرب فيها بذراع ولا اصبع ولا تخرج منها بازل[6] ولا هبع[7] فان عدرت نفسك في ما تهدر به شقشقتك[8] من صاعنك[9] فاعذرنا في ما نسمع مما في اب وسكون مما لا نبعده منه ولا نستاصله عليه ولئن خدعت بهذا نفسك لتحرس[10] عليك ما يصيبك الاولى ولهيك عن الاخرى ولو علم من ظن به في نفسا له وعيه لما سكن ولا اتخذت ولجة[11] الى بعض الارب . . . . فاما

(١) عشيرة (٢) أنزق الصعب (٣) شغلت
(٤) من قولهم حلق الطائر اذا ارتفع في طيرانه (٥) افزع او اعجب بالحسن وجه رة المنظر او الشجاعة (٦) عاطي مجيد متكرم (٧) المتقدون بعقله في مشيته تيهاً (٨) شيء كالرئة يخرجه البعير من فيه اذا هاج
(٩) الذين يلون الإك ويأتونك من ذوي القرابة والاصحاب
(١٠) تغرك (١١) بطانة وخاصة من الرجال ومن يعتمد عليه من غير اهله

ابو بكر الصديق فلم يزل حبّةً في سويداء قلب رسول الله (صلعم) وعلاقة همّهِ وعيبة سرّهِ ومثوى حزنهِ ومفزع رأيهِ ومشورتهِ وراحة كفهِ ومرمق طرفهِ وذلك كلهُ بمحضر للصادر والوارد من المهاجرين والانصار وشهرتهُ مغنية عن الدلالة عليهِ ولعمري انك اقرب الى رسول الله (صلعم) قرابةً[1] ولكنهُ اقرب قربة والقرابة لحم ودم والقُربة روح ونفس وهذا فرق قد عرفهُ المؤمنون ولذلك صاروا اجمعين ومهما شككت فيهِ فلا تشكّ ان يد الله مع الجماعة ورضوانهُ لاهل الطاعة فادخل في ما هو خير لك اليوم وانفع لك غدًا والفظ من فيك ما تعلق بلهاتك[2] وانفث سخيمة[3] صدرك عن تلاتك فان يكن في الامل طول وفي الاجل فسحة فستأكلهُ مريئًا[4] او غير مريءٍ وستشربهُ هنيئًا او غير هنيءٍ حين لا رادّ لقولك الّا من كان سلمًا لك ولا تابع لك الّا من كان طامعًا فيك يمضّ اهابك[5] ويفري على اديمك[6] ويزري على هديك هناك تقرع السنّ من ندم وتجرع الماء ممزوجًا بدم وحينئذٍ تأسى[7] على ما مضى من عمرك ودارج[8] قومك فتود لو ان سُقيت الكأس التي ابيتها ورددت للحال التي استبدعتها[9] ولله فينا وفيك امر هو بالغهُ وغيب هو مشاهدهُ وعاقبة هو المرجو لضرائها وسرّائها وهو الولي الحميد الغفور الودود

قال ابو عبيدة فمشيت متزملًا[10] انوءُ[11] كأنما اخطو على ام راسي فرقًا من الفرقة وشفقًا على الامة حتى وصلت الى عليّ في خلاءٍ فابثثتهُ بثّي[12] كلّهُ وبرئت اليهِ منهُ ورفقت لهُ فلما سمعها ووعاها وسرت في اوصالهِ حمياها قال

(١) ما يتقرب بهِ الى الله تعالى من اعمال البر والطاعة
(٢) الطنطلة (٣) الحقد (٤) هنيئًا (٥) الجلد
(٦) مستقبلك الآتي عليك (٧) تحزن (٨) الذاهب او المنقرض
(٩) وجدتها لذاتك (١٠) ملتفًا بثوبهِ
(١١) حدرٌ يحل بالابل في ايديها وارجلها وفتور الانسان من المشي
(١٢) كشف السر واظهارهُ

حلّت معارضة(1) وولدت مطوطة(2). حلْ. لاحلبت النفس ادنى لها من قول لعا(3)

احدى لياليك فهيسي هيسي(4) لا تنعمي الليلة بالتعريس(5)

ثم يا ابا عبيدة أكل هذا في انفس القوم يحسّون به ويطوون عليه. قال ابو عبيدة لاجواب لك عندي انما انا قاصٌ حقّ الدين وراتق فتق الاسلام للمسلمين وسادٌ ثلمة الامة ويعلم الله ذلك من خلجان قلبي وقرارة نفسي

قال علي (رضه) والله ما كان قعودي في كسر هذا البيت قصداً للخلافة ولا انكاراً للمعروف ولا زرية على مسلم بل لما وقذني به رسول الله (صلم) بفراقه واودعني من الحزن بفقده وذاك اني لم اشهد بعده مشهداً الاّ جدّد لي حزناً وذكّرني شجناً وان الشوق الى اللحاق به كافٍ عن الطمع في غيره وقد عكفت على عهد الله انظر فيه واجمع ما تفرّق(6) منه رجاء ثواب معدٍّ لمن اخلص عمله وسلم لعلمه ومشيئة ربه على اني ما علمت التظاهر عليّ واقع ولاعن الحق الذي سيق اليّ دافع واذ قد افعم الوادي(7) بي وحشد النادي من اهلي فلا مرحباً بما ساء احداً من المسلمين وفي النفس كلام لولا سابق قول وسالف عهد لشفيت غيظي بخنصري وبنصري(8) وخضت لجّته باخمصي ومفرقي ولكني ملجم الى ان القى ربي عزّ وجلّ وعنده احتسب ما نزل بي واني غادٍ الى جماعتكم ومبايع لصاحبكم وصابر على ما ساءني وسرّكم ليقضي الله امراً كان مفعولاً وكان الله على كل شيء شهيداً

قال ابو عبيدة فعدت الى ابي بكر (رضي الله عنهما) وقصصت له القول

(1) موسومة بالملاطه وهو حبل يجعل في عنق البعير
(2) ممزوجة من اجزاء مختلفة
(3) دعاء يقال للعاثر
(4) كلمة تقال عند امكان الامر والاغراء به يدلك وجدها
(5) مصدر عرس بريد
(6) تبين او انكشف
(7) مثل عربي
(8) الاصبع بين الوسطى والخنصر

على غِرّه[ ] ولم استنزل شيئًا من حلوه ومرّهِ وذكرت عودي الى امه.

فلما كان الصباح بوكّر وتقدّم في ثلة من غير السيوف الى ابي بكر فاتاه وقال خيرًا ووصف جميلاً وجلس زونًا واستأذن للقيام ونهض فتبعه عمر تكرمة له واستثارًا[ ] لما عنده فقال له علي ما قعدت عن صاحبكم كارهًا له ولا اتيته فرقًا منه وما اقول ما اقول تعلّة[٣] واني لأعرف منتهى طرفي ومحطّ قدمي ومنزع قوسي وموقع سهمي ولكني قد أزمتُ[٤] على فأسي[٥] ثقة بربّي في الدنيا والآخرة

فقال له عمر كفكف غربك[٦] واستوقف سربك[٧] ودع العصا بلحائها[٨] والدلاء برشائها[٩] فانّا من خلفها وورائها ان قدحنا أورينا وان متحنا اروينا وان جرحنا ادمينا وان قصدنا اصمينا[ ] ولقد سمعت اماثيلك التي لغزت بها عن صدر أُكِلَ بالجوى[١١] ولو شئت لقلت على مقالتك ما اذا سمعته ندمت على ما قلته زعمت انك قعدت في كسر بيتك لما وقذك به رسول الله (صلعم) من فقده أفراق رسول الله وقذك وحدك ولم يقذ سواك بل مصابه اعظم واعم من ذلك ومن حق مصابه ان لا يصدع شمل الجماعة بفرقة لا عصام لها ولا يؤمن كيد الشيطان في بقائها هذه العرب حولنا والله لو تداعت علينا في صبح يوم لم نلتق في ممسى وزعمت ان الشوق الى اللحاق به كاف عن الطمع في غيره فمن الشوق اليه نصرة دينه وموازرة اولياء الله تعالى ومعاونتهم فيه وزعمت انك عكفت على عهد الله عز وجلّ تجمع ما تبدّد منه فمن العكوف على عهده النصيحة لعباده والرأفة على خلقه وبذل ما يصلحون به ويرشدون اليه وزعمت انك لم تعلم ان النظام سلك واتبع ولا عن الحق الذي

---

(١) غره من الغرّ وهو الجرب (٢) استخراج (٣) اي اشتمال النفس وطباعها (٤) نشبت ( ) آلة حديد للقطع (٦) بعدك او غيابك وابعادك (٧) طريقتك او ماشيتك (٨) قشرها (٩) حبلها (١٠) احكمها ( ) الحزن والحرقة وشدة الوجد من الحزن

سبق اليك دافع فايّ تظاهر وقع عنك وأي حق لك لبهذ دونك قد علمت ما قال الانصار لك بالامس سرّاً وجهرًا وما تقلبت عليه بطنًا وظهرًا وهل ذكرتك واشارت بك او وجدنا رضانا عنك هؤلاء المهاجرون من الذي قال بلسانه تصلح لهذا الامر او اومى بعينه او همهم في نفسه أتظن ان الناس قد ضلوا من اجلك وعادوا كفارًا زهدًا فيك وباعوا الله عزّ وجلّ ورسوله (صلعم) تحاملاً عليك لا والله لا ينال الملك اعتزلت تنتظر الوحي وتتوكف[1] مناجاة الملك لك فذلك امر طواهُ الله عزّ وجلّ بعد محمد (صلعم) كأن الامر معقودًا بانشوطة[2] او مشدودًا باطراف ليطة[3] كلاّ والله ان الغابة[4] لجمة وان الشجرة لمورقة ولا عجماء بعد حمد الله الاّ وقد فصحت ولا عجماء[5] الاّ وقد سمنت ولا بهساء الاّ وقد فدت ولا شوكة الاّ وقد نقحت[6] ومن العجب قولك لك لولا سابق قول وسالف عهد لشفيت غيظي وهل ترك الدين لاحد من اهله ان يشفي غيظه بلسانه وبده تلك جاهلية قد استأصل الله شأفتها ودفع عن الناس آفتها وقلع جرثومتها وهوّر[7] ليلها وغوّر سيلها وابدلنا منهـــا الروح والريحان والهدى والبرهان وزعمت انك ملجم فلعمري ان من اتقى الله عزّ وجلّ وآثر رضاهُ وطلب ما عندهُ امسك لسانه واطبق فاهُ وجعل سعيه لما وراءهُ[8]

قال علي (رضه) والله ما نكلت عن وانا اريد فلتة ولا اقررت وانا اريد حولاً عنه وان اخسر الناس صفقة عند الله من آثر النفاق واحتضن الشقاق وبالله سلوة من كل كارث[9] ولديه التوكل في كل الحوادث ارجع يا ابا حفص نافع[10] القلب مبج البال مدرور الحبل فصيح اللسان فليس وراء

(١) يتعرض او ينتظر (٢) عقدة يسهل انحلالها (٣) قشرة القصب

(٤) اسالي وتزال الحيته (٥) ضعيفة او مهزولة (٦) قشرت واخلص

جدعه من ردشها (٧) كسر طلائة او حجب (٨) اخفاه

(٩) انشداد لم وبلوغ المشقة منه (١٠) ثابت

ما سمعته وفتنة الا ما يشدّ الازر (١) ويحط الوزر (٢) ويضع الاصر (٣) ويجمع الامة ويرفع الكلفة بموقع الزلفة (٤) بمعونة الله عزّ وجلّ وحسن توفيقه

قال ابو عبيدة وانصرف عمر وهذا اصعب ما مرّ بصاحبي بعد فراق رسول الله (صلعم)

وفي رواية ابي منصور ثم حضر علي (رضه) وقال يا ابا بكر ان عصابة انت فيها لمعصومة وان امة انت فيها لمرحومة ولقد اصبحت عزيزًا علينا كريمًا لدينا نخاف الله اذا سخطت ونرجوه اذا رضيت ولولا اني شُدِهت (٥) لما اجبت اليه واني حفظ الله عن طريق ما اتاني به كاهلك وما ابعد من نظر الله اليه بالكفاءة وانا اليك لمحتاجون وبفضلك عالمون والى الله عزّ وجلّ في جميع الامور راغبون

ثم بعد ان استكنّ هذا الحال ومهد لابي بكر المشار اليه الامر على هذه المنوال استقر على عرش الخلافة رخي العيش هني البال في سنة ١٢ للهجرة (سنة ٦٣٣ م)

وما كان حاصلاً ومنتبه من تلك الامور المهمة التي سبقت الاشارة اليها هو ان جلوس هذا الامام في مسند الخلافة كان في وقت فشا فيه الارتداد بين العرب ولذلك كان اول ما شرع به هذا الخليفة منذ تولى الخلافة في السنة التي مرّ ذكرها هو ملافاة هذا الامر فافتتح ولاً الحروب مع المرتدين وبعد ان ظفر بمسيلمة الكذاب الذي مرّ ذكره في الفصل الرابع من المقالة الرابعة واجتمع كثيرٌ من العرب المرتدة على الاسلام وجه عزائمهم الى ارض فلسطين وبرّ الشام فحوّل بذلك مقاصدهم الحماسية ورغبتهم في الفتك الذي الفوه في زمن الجاهلية الى غزو من جاورهم في البلاد ونشر الدين الاسلامي في كل ناد لكن لما لم يساعده الاجل على بلوغ الامل توفي بعد ان حكم سنتين وثلاثة شهور تاركًا مشروعاته

(١) الظهر (٢) الاثم والثقل (٣) الانعطاف

(٤) التقدم والتقرب (٥) دهشت وتحيرت

الحرية لها محبة بعد ان كانت تحت الحيرة في ايام الاوثان

غير ان اورسالينة هذه ذاقت اثمار هذه العروق في ايام خليفة عمر بن الخطاب حيث فتحت لها ابواب اورشليم المسماة في الكتب العربية بيت المقدس الاثنان وسلطت على اراضي فلسطين ثم فتح كذلك اقليم مصر بنحو اربعة آلاف فارس من العرب تحت راية عمرو بن العاص قال الامام المقريزي ان فتوح مصر كان على يد فاتحة من قوافل العرب على انه كان يوجد فيها ازيد من مئة الف من عسكر الروم ما خلا القبط

وذكر مؤرخو الاسلام انه لما فتح عمر بن الخطاب المشار اليه مدينة القدس كتب الى صفرونيوس بطريركها العهدة الشهيرة بالشروط العمرية بها رخّص النصارى تمسك بديانتهم واشترط عليهم ان لا يحدثوا كنيسة ولا ديرًا ولا قلاية ولا صومعة راهب ولا يجددوا ما خرب منها ولا ما كان خططًا منها في خطط المسلمين وان يوسعوا ابوابها للمارة وابن السبيل وان ينزلوا من مرّ بهم من المسلمين ثلاث ليال يطعمونهم وان لا يأووا في كنائسهم ولا في منازلهم جاسوسًا ولا يكتموه عن المسلمين ولا يعلموا اولادهم القرآن ولا يظهروا شركهم ولا يدعوا اليه احدًا ولا يمنعوا احدًا من ذوي قرابتهم عن الدخول في دين الاسلام ان اراده وان يوقروا المسلمين ويقوموا لهم من مجالسهم اذا ارادوا الجلوس وان لا يتشبهوا بالمسلمين في شيء من ملابسهم من قلنسوة ولا عمامة ولا نعلين ولا يتكلموا بكلامهم ولا يكتنوا بكناهم ولا يركبوا في السروج ولا يتقلدوا بالسيوف ولا يتخذوا شيئًا من السلاح ولا يحملوه معهم ولا ينقشوا على خواتمهم بالعربية ولا يبيعوا الخمر وان يجزوا مقادم رؤوسهم وان يلتزموا زيّهم حيثما كانوا وان يشدوا الزنار[1] الى

(١) الزنار خيط غليظ بقدر الاصبع من الابريسم يشد في الوسط وهو غير الكستيج قال بعضهم ان الكستيج ... في بلاد المسلمين كانوا يتزرون بخيط دقيق ومنه قول الفقهاء ان الذمي اذا عطس ينقطع زناره اي ان الذمي المالك بحسب مقتضى الذمة يكون زناره خيطًا دقيقًا اذا عطس ينقطع من ضغط احشائه

اوساطهم ولا يظهروا صلبانهم او كتبهم في شيء من اسواق المسلمين وطرقهم ولا يضربوا بالنواقيس في كنائسهم الأ ضربًا خفيًا ولا يرفعوا اصواتهم مع موتاهم ولا يظهروا النيران في شيء من طرق المسلمين ولا اسواقهم ولا يجاوروهم بموتاهم ولا يتخذوا من الرقيق ما جرى عليه سهام المسلمين ولا يطلعوا على منازلهم وان خالفوا في شيء فلا ذمة لهم

ثم زاد على هذه الشروط ايضًا بان لا يشتروا شيئًا من سبايا المسلمين ومن ضرب مسلمًا عمدًا فقد خلع عهده

ويروى ان الامام عليًا بن ابي طالب زاد على ذلك استنادًا على حديث نبوي عن صاحب الشريعة الاسلامية. قال لا تساووهم في المجالس ولا تعودوا مرضاهم ولا تشيعوا جنائزهم واضطروهم الى اضيق الطرق وان سبوكم فاضربوهم وان ضربوكم فاقتلوهم

ثم زاد على هذه الشروط عمر بن عبد العزيز بان يركبوا على الاكف عرضًا من شق واحد. وكتب الى عماله ان لا يولوا على الاعمال الا اهل القرآن

وزاد على هذا ايضًا اصحاب الشافعي بان تلبس النصارى قلانس يميزونها عن قلانس المسلمين بالحمرة ويكون في رقابهم خاتم من نحاس او رصاص او جرس يدخلون به الحمام وان لا يلبسوا العمائم ولا الطيلسانات واما المرأة فانها تشد الزنار تحت الازار وقيل فوقه (يرى الاشبيهي بان الاولى يكون فوقه) ويكون في عنقها خاتم تدخل به الحمام ويكون احد خفيها اسود والآخر ابيض ولا يتصدرون في المجالس ولا يبدأون بالسلام ويلجأون الى اضيق الطرق ويمنعون ان يتطاولوا على المسلمين في البناء وتجوز المساواة وقيل لا تجوز وان تملكوا دارًا عالية اقروا عليها ويمنعون من اظهار المنكر كالخمر والخنزير والناقوس والجهر بالتوراة والانجيل ويمنعون من المقام في ارض الحجاز وهي مكة والمدينة واليمامة وان امتنعوا عن اداء الجزية انتقض عهدهم وكذلك ان زنى احد بمسلمة او اصابها بنكاح او آوى عينًا للكفار او دل على عورة المسلمين او فتن مسلمًا عن

دينهِ او قتلهُ او قطع عليهِ الطريق تنقض ذمتهُ

لكن لما كتب المهدي كتابهُ في الرد على النصارى حرَّر صورة كتاب الامان من عمر لنصارى الشام على الوجه الآتي وهو

بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما اعطى عبد الله بن عمر امير المؤمنين اهل ايليا (اعني اورشليم وهي القدس) من الامان اماناً لانفسهم وكنائسهم وصلبانهم سقيمها وبريّها وسائر ملتها ان لا تسكن كنائسهم ولا تهدَم ولا ينتقص منهـا ولا من صلبانهم ولا شيءٍ من اموالهم ولا يكرهون على دينهم ولا يضار احدٌ منهم ولا يسكن ايليا احدٌ من اليهود وعلى اهل ايليا ان يعطوا الجزية كما اعطوا اهل المدائن وعليهم ان يخرجوا منها الروم واللصوص فمن خرج منهم فهو آمنٌ على نفسهِ ومالهِ حتى يبلغوا مأمنهم ومن اقام منهم فهو آمنٌ وعليهِ مثل ما على اهل ايليا من الجزية ومَن احبَّ من ايليا ان يسير بنفسهِ ومالهِ مع الروم ويخلي بيعتهم وصلبهم فانهم آمنون على انفسهم وعلى بيعتهم وعلى صلبهم حتى يبلغوا مأمنهم ومن كان فيها من اهل الارض فمن شاء قعد وعليهِ مثل ما على اهل ايليا من الجزية ومن شاء رجع الى ارضهِ وان لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصدوا حصادهم وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمةُ وذمة رسولهِ صلى الله عليهِ وسلم وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين اذا اعطوا الذي عليهم من الجزية شهد على ذلك من الصحابة رضي الله عنهم خالد بن الوليد. وعمرو بن العاص. وعبد الرحمن بن عوف. ومعاوية ابن ابي سفيان

ولنرجع الى ما كنا بصددهِ من الفتوحات فنقول. ثم في زمن خلافة عثمان ابن عفان فتحت بلاد فارس واستولى هذا الخليفة على تاج كسرى الاكبر وبيرق السلطنة

وفي ايام خلافة عبد الملك بن مروان فتحت افريقية واستولى هذا الخليفة على قرطاجنة وغيرها من مدن البحر واسبانيا وافتتح طارق بن زياد الجبل المسمى الآن باسمهِ وهو جبل طارق

قال بعض المؤلفين انه في مدة اثني عشرة سنة بعد وفاة صاحب الشريعة الاسلامية ملك العرب ستة وثلاثين الف مدينة وقلعة وخربوا اربعة آلاف كنيسة وضربة غير الهياكل والمدن وذكر في تواريخ القرون الوسطى ان العرب في طرف ثمانين سنة افتتحوا من الاقاليم اكثر مما افتتحه الرومانيون بظرف ثمانية قرون هذا ما كان من امر فتوحات العرب البرية

واما ما كان من امر سطوتهم البحرية فهو كما لا يخفى بان العرب كانوا في اقدم الاعصر الخالية يسافرون في البحر الى بلاد الهند ولا يعرفون البحر المتوسط وكانت سفنهم التي يسافرون بها قوارب مغطاة بالجلد لم يدخل في مادتها شيء من المسامير وربما بلغت مدة السفر ذهاباً واياباً نحو خمس سنوات ولم يعرفوا السفر في وسط البحر بواسطة الرياح الدورية الا في القرن الاول من التاريخ المسيحي

وحكى ابن خلدون انه بعد ان افتتح المسلمون بلاد مصر كتب عمر بن الخطاب الى عمرو بن العاص ان صف لي البحر فكتب اليه ان البحر خلق عظيم يركبه خلق ضعيف دود على عود فاوعز حينئذ بمنع المسلمين من ركوبه ولم يركبه احد الا من افتات على عمر في ركوبه ونال من عقابه كما فعل بعرفجة بن هرثمة الازدي لما غزا عمان في البحر وعنفه

ثم لما كان العهد لمعاوية بن ابي سفيان اذن للمسلمين في ركوب البحر والجهاد على اعواده فاستخدموا حينئذ من النوتية في حاجاتهم البحرية امماً تكررت ممارستهم للبحر وثقافته وشرعوا الى الجهاد فيه وانشأوا السفن والشواني[1] الى ان بلغت في ايامه الفاً وسبعمائة مشحونة بالرجال والسلاح واختصوا بذلك من ممالكهم وثغورهم ما كان اقرب لهذا البحر وعلى حافته مثل الشام وافريقية والمغرب والاندلس واوعز الخليفة عبد الملك بن مروان باتخاذ دار الصناعة

(١) الشواني جمع شونة وهي مركب الحرب وقد تقال بالظاء مع كسر الشين والنون كما في البعض... اما الجماعة فهي السفينة الفارغة

بتونس لانشاء الآلات الحربية وكانوا يسمّون صاحب قيادة الاساطيل[1] وهو عبارة عن قبودان باشي في الدولة العلية العثمانية باسم الملند بتفخيم اللام منقولاً من لغة الافرنج

وما زال امر العرب يتقوّى في البحر الى ان سادوا عليه فلم تعد تسبح للنصرانية فيه الواحٌ وامتلكوا جزائرهُ وافتتحوا كثيرًا من سواحل القارة واتسعت تجارتهم اتساعًا عظيمًا ومكثت دول العرب الغربية بشمال افريقية مدةً طويلة تسلب في بحر الروم مراكب الافرنج وتسبي جميع النصارى الذين فيها وتضرب عليهم الرق لتبيعهم فكانت بلاد تونس والجزائر مشحونةً من هؤلاء الارقاء الذين كانوا يتبدلون عمّا تعودوا عليه من العزّ في بلادهم بالذل الذي يهلكهم في هذه البلاد

ودام الحال على هذا المنوال الى ان ادرك الدولة الاموية والعبيدية الوهن والفشل ومدَّ النصارى ايديهم الى جزائر البحر الشرقية وامتلكوها وملكوا السواحل الشامية اثناء الحروب الصليبية وتراجعت قوتهم الى ما كانت عليه من قبل فاحدث حينئذٍ قوة العرب الحربية في الرجوع القهقرى منذ القرن السادس للهجرة (الثالث عشر للميلاد) . ثم آل الامر اخيرًا الى انقراض ما بقي من آثارها لما افتتح الفرنسويون بلاد الجزائر سنة ١٢٤٦ للهجرة (سنة ١٨٣٠ م) حيث كان من شروط هذه الدولة التي عقدتها سنة ١١٥٣ للهجرة (سنة ١٧٤٠ م) مع الدولة العلية ما معناهُ لدولة فرنسا ان تقابل اهل ولايات المغرب باساءتهم من غير ان يعدّ ذلك من باب الاساءة في حقّ حضرة السلطان وكان دأب اهل الجزائر قطع الطريق البحرية وبذلك انقرضت شوكة العرب من البحر بالكلية

---

(١) الاساطيل جمع اسطول وهي ما يسمونه الآن بالعمارة البحرية

المقالة التاسعة

في دول العرب القديمة والجديدة وخططها وامارة المؤمنين وخصوصياتها وترتيب الدواوين وبعض الامور المالية وفيها ثلاثة فصول

الفصل الاول

في دول العرب وخططها

لا يخفى انه كان للعرب في الزمن المتوغل في القدمية دول وملوك ذهبت اخبارهم واندرست آثارهم ولم يبق للمتأخرين الا معرفة كونهم كانوا موجودين قبل زمن خروج بني اسرائيل من مصر ودخولهم الى ارض كنعان وانما نقل من بعض المؤلفات العربية اخبار غير كاذبة عن بعض الدول العربية كانت موجودة الى زمن ظهور الاسلام ومن ذلك

ان صنعاء اليمن كانت في الزمن القديم تسمّى ازال فلما ملكها الحبشة عام الفيل بنوها واحكموها فقالت الاحباش صنعة ومن ثمّ سمّيت صنعاء وكانت هي وحصن تعز الحصوني من زبيد مقر ملوك اليمن في الجاهلية وهم التبابعة

ومنهم الاذواء الذين مرّ ذكرهم في الفصل الرابع من المقالة الخامسة وعدن
المكنة في اعظم اقاليم العرب الاصلية وكانت لها قديماً متمتعة باستقلالها
اقدم ايامها ولم تكن فتحت بالاسلام في زمن الخلفاء ودخلت بعد ذلك في
قبضة الاكراد الايوبية ملوك مصر لكنها خرجت اخيراً عن طاعة المماليك في
سنة ٩٢٣ للهجرة (سنة ١٥١٧م) ثم في سنة ١٠٤٠ للهجرة (سنة ١٦٣٠م) افرز
السلطان مراد الرابع العثماني السيد حسان بن محمد على هذه المملكة واعترف له
بانه مالكها الاكبر تحت سيادة الدولة العثمانية فتوارثها خلفاؤه من بعده وتناولوا
الاحكام فيها لكن من ذلك الوقت ذهب عنها عدة اقاليم في الجبل والساحل
جهة الشمال والشرق وخرجوا عن طاعة ملك اليمن واستقلوا بذواتهم وبقي
الحال على هذا المنوال الى ان جرت اسبابٌ اوجبت سلب هذا الاستقلال
منها وادخالها في حوزة احكام السلطنة العلية العثمانية منذ بضع سنين

واما الحيرة فكانت مقرّ ملوك العراق اللخميين الذين كان منهم جذيمة
الابرش واسمه مالك بن فهم والاصل في لقبه الابرش انه برص كان فيه وكانوا يقولون
له الابرش تأدباً ومنهم مَن يلقبه بالوضاح من الوضح وهو البرص وكان من
الازد وكان اول من ملك قضاعة بالحيرة واول من حذا النعل وادلج(١)
من الملوك وصُنع له الشمع . اما اول من اتخذ الحيرة داراً للملك فهو ابن اخته
عمرو بن عدي وقد مرّ ذكرهُ في عدة مواضع من هذا الكتاب واول مَن تنصّر
من ملوكهم هو امرؤ القيس بن عمرو المذكور وكان عامل الملوك بالانبار
(راجع الفصل الثالث من المقالة الاولى)

واما الشام فكانت مقرّ ملوك غسان الذين كانوا عمالاً للقياصرة ايضاً
ومنهم الحارث الملك الذي كان يريد ان يقبض على بولس الرسول (٢ كو
١١: ٣٢و٣٣)

والعرب في الجاهلية ملوك آخرون كملوك جرهم الثانية وملوك كندة وحضرموت

(١) الادلاج السير من الليل

التتار وغيرهم وليس في الكلام عليهم شيء من موضوع كتابنا هذا

واما دول العرب بعد الاسلام فهي كثيرة منها في بلاد المشرق . اولاً الخلفاء الاربعة ويليهم بنو أمية ثم بنو العباس وكانت حكومتهم ممتدة في ابتداء الامر على بلاد المغرب ايضاً ولما خرجت تلك البلاد عن طاعتهم ترتب على ذلك وجود دول اخرى فيها على ما سبقت الاشارة اليه في الفصل الاول من المقالة الخامسة ومن ذلك الدولة الاموية ببلاد الاندلس ودولة الشيعة وهم العبيديون بافريقية والقيروان ودولة الموحدين باسبانيا ودولة العبيديين المذكورين بمصر ودولة بني حفص بتونس ودولة رابعة بالمغرب كان ضعف شوكة الخلفاء بالمشرق ترتب عليه وجود دول متعددة لغير العرب لا حاجة لنا في الكلام عليها

والظاهر ان البيعة للملوك وهي العهد على الطاعة كان معروفاً عند الجاهلية وشرعوه في الاسلام ايضاً فكان المبايع يعاهد اميره على ان يسلم له النظر في امر نفسه وامر غيره ولا ينازعه في شيء ويطيعه في كل امر

ثم جرت العادة في صدر الاسلام عندما يبايعون الامير ويعقدون عهده يجعلون ايديهم في يده تأكيداً للعهد فاشبه ذلك فعل البائع والمشتري فسميت بيعة مصدر باعَ وصارت البيعة مصافحةً بالايادي واول ما وقع ذلك في بيعة صاحب الشريعة الاسلامية ليلة العقبة وبعد الهجرة وكان الخلفاء من بعده يستحلفون على العهد ويستوعبون الايمان كلها لذلك وكذلك ولاية العهد التي من شأنها حفظ التراث على الابناء فكان الخليفة يكتب صكاً بها الى وليّ عهده ويشهد عليه بذلك

وكان الردف في الجاهلية خليفةَ للملك والهبل والحزمّر والأصيد والصيدَق والصيدَن هو الملك دون العاهل الذي هو الملك الاعظم والقطين الاماء والحشمُ والقَتو وانما حسن خدمة الملوك والمقتوون الخدام احدهم مقتوى ومقتى ومقتوين اما الحباء فهو جليس الملك وخاصته ج أحباء

والردف في الجاهلية كالوزارة في الاسلام وهي نوعان احدهما ان يردفهُ الملك على فرسهِ والثاني ان يجلسهُ الملك عن يمينهِ وكان اذا شرب الملك شرب الردف قبل الناس واذا غزى الملك جلس الردف مكانهُ وكان خليفتهُ على الناس حتى يرجع فاذا عادت كتيبة الملك اخذ الردف منها المرباع وهو ربع الغنم

واما الوزارة في الاسلام فهي ام الخطط السلطانية والرتب الملكية لان اسمها يدل على مطلق الاعانة فهو مأخوذ اما من الموازرة وهي المعاونة او من الوزر وهو الثقل وكانوا عند ما يقلدون الوزير يخلعون عليهِ خلعها وهي الجبة والعمامة

والوزارة انواع وهي اما ان تكون في امور حماية الملكة واسبابها من النظر الى الجند والسلاح والحروب وسائر امور الحماية والمطالبة وصاحب هذا هو الوزير المتعارف في دول الاسلام القديمة بالمشرق والمغرب واليهِ يدفع ختم السلطان ليختم بهِ السجلات. واما ان تكون في المخاطبات لمن بعد في الزمان والمكان وتنفيذ الاوامر في مَن هو محجوبٌ عنهُ وهذا هو الكاتب. واما ان تكون في جباية المال وانفاقهِ وضبطهِ وهذا هو صاحب المال والجباية. واما ان تكون في مدافعة الناس وذوي الحاجات عن الملوك لئلاَّ يزدحموا عليهم فيشغلوهم عن فهمهم وهذا هو الحاجب وكان اول من وضعهُ على بابهِ معاوية بن ابي سفيان ثم آل امر هذه الوظيفة اخيرًا الى الحجر على الملوك عند هرم دولتهم وضعف شوكتهم

واما قيادة الثغور وولاية الجبايات لخصوصة والنظر في حسبة الطعام والسكة فان اصحابها تبعًا لاصحاب النظر العام المارّ ذكرهم

وكانت العرب تسمّي ابا بكر وزير صاحب الشريعة الاسلامية قياسًا على ما عرفوهُ في دول قيصر وكسرى والنجاشي لان هذه الرتب لم تكن موجودة عند الخلفاء في صدر الاسلام وانما حدثت على التدريج

وعندهم ان رتبة السيف تستغني عن معاناة العلم واما المال والكتابة

ويضطران الى ذلك للبلاغة في الكتابة والحسبان في المال فيختارون لها من هذه الطبقة ما دعت اليه الضرورة ويقلدونه

وكانت ديوان الرسائل غير ضرورية في كثير من الدول لاستغنائهم عنها رأساً كما في الدول العريقة في البداوة التي لم يأخذها تهذيب الحضارة ولا استحكام الصنائع واما اكثر الحاجة اليها في الدول الاسلامية وكان كاتب الامير لابد ان يكون من اهل نسبه ومن عظماء قبيلته كما كان لخلفاء وامراء الصحابة بالشام والعراق لعظم امانتهم وخلوص اسرارهم

ومن نصائح امير المسلمين ابي موسى بن يوسف ابي حمو بن زيان العبد الوادي لولي عهده في كتابه الذي سماه . سطة السلوك في سياسة الملوك ما نصه . واما كاتبك فتغير منهم اسرك كاتبا من وجوه لذلك موفيا لغرضك ومقصدك فصيح اللسان جري الجنان لبيع البيان عارفاً بالآداب سالكاً طريق الصواب بارع الخط حسن الضبط عالماً بالحل والربط كاتماً للاسرار متقلياً على الوقار ذا عقل وافر وفهم حاضر وذهن ثاقب وفكر صائب حلو الشمائل موصوفاً بالفضائل جميل الهيئة والباس والموالاة للناس لان الكاتب عنوان المملكة وبه تثبت الامور المشتبكة ومن كتابك يستدل على عقلك ويعرف بمرمك وفضلك . فهذا اقل ما يشترط بالكاتب ويكون في حده وحقك من الواجب فانه اذا كان الكاتب بهذه المثابة صلح ان يكون اهلاً للكتابة وان اخل بهذه الشروط كان جديراً بالتأخر والسقوط لاخلاله بكتابته وعدم اصابته وكان ذلك وصماً في حق مخدومه ودليلاً على جهد في تقديمه

ثم لما فسد اللسان العربي وصار صناعة اختص بمن يحسنه وكتب عبد الحميد بن يحيى بن سعيد الكاتب مولى ابي العلاء بن وهب العامري الذي يضرب به المثل في الكتابة والبلاغة اذ انه اول من نهج الكتابة وبسط باع البلاغة وشنف الرسائل وقرطها ولخص فصولها وخاصها واستحق لفظ الكاتب عليه لفضله رسالة الى الكتاب استوعب فيها الشروط المعتبرة لاصحاب رتبة

العلم وهي طويلة إلا أنها مفيدة ولا بأس من إيرادها هنا وهي بعد البسملة[1]

اما بعد حفظكم الله يا اهل صناعة الكتابة وحاطكم ووفقكم وارشدكم فان الله عزّ وجلّ جعل الناس بعد الانبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم اجمعين ومن بعد الملوك المكرمين اصنافاً وان كانوا في الحقيقة سواء وصرفهم في صنوف الصناعات وضروب المحاولات الى اسباب معاشهم وابواب ارزاقهم فجعلكم معشر الكتّاب في اشرف الجهات اهل الادب والمروءات والعلم والرواية بكم ينتظم للخلافة محاسنها وتستقيم امورها وبنصائحكم يصلح الله للخلق سلطانهم ويعمر بلدانهم لا يستغني الملك عنكم ولا يوجد كافٍ الا منكم فموقعكم من الملوك موقع اسماعهم التي بها يسمعون وابصارهم التي بها يبصرون والسنتهم التي بها ينطقون وايديهم التي بها يبطشون فامتعكم الله بما خصكم من فضل صناعتكم ولا نزع عنكم ما اضفاه من النعمة عليكم وليس احدٌ من اهل الصناعات كلها أحوج الى اجتماع خلال الخير المحمودة وخصال الفضل المذكورة المعدودة منكم ايها الكتّاب اذا كنتم على ما يأتي في هذا الكتاب من صفتكم فان الكاتب يحتاج من نفسه ويحتاج منه صاحبه الذي يثق به في مهمات اموره ان يكون حليماً في موضع الحلم فهيماً في موضع الحكم مقداماً في موضع الاقدام محجاماً في موضع الاحجام مؤثراً للعفاف والعدل والانصاف كتوماً للاسرار وفياً عند الشدائد عالماً بما يأتي من النوازل يضع الامور مواضعها والطوارق في اماكنها قد نظر في كل فن من فنون العلم فاحكمه وان لم يحكمه اخذ منه بمقدار ما يكتفي به يعرف بغريزة عقله وحسن ادبه وفضل تجربته ما يرد عليه قبل وروده وعاقبة ما يصدر عنه

[1] البسملة مقتطعة من بسم الله الرحمن الرحيم والهيللة من لا اله الا الله والحمدلة من الحمد لله رب العالمين والحوقلة من لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم والحيعلة من قول المؤذن وهو الداعي للصلاة حيّ على الفلاح والصلعمة من صلى الله عليه وسلم ورضه من رضي الله عنه وعم من عليه السلام والخ من الى آخره والر من الراوي والش من الشرح وص عليه

قبل صدوره فيعدُّ لكل امر عدته وعتادهُ ويهيئ لكل وجه هيئة وعادته فتنافسوا يا معشر الكتّاب في صنوف الآداب وتفقهوا في الدين وابدأُوا بعلم كتاب الله عزّ وجلّ والفرائض ثم العربية فانها ثقاف ألسنتكم ثم أجيدوا الخط فانه حلية كتبكم واروُوا الاشعار واعرفوا غريبها ومعانيها وايام العرب والعجم واحاديثها وسيرها فان ذلك معين لكم على ما تسمو اليه هممكم ولا تضيعوا النظر في الحساب فانه قوام كتّاب الخراج وارغبوا بانفسكم عن المطامع سنيها ودنيها وسفساف الامور ومحاقرها فانها مذلّة للرقاب مفسدة للكتّاب ونزّهوا صناعتكم عن الدناءة واربأوا بانفسكم عن السعاية والنميمة وما فيه اهل الجهالات واياكم والكبر والسخف والعظمة فانها عداوة مجتلبة من غير احنة وتحابّوا في الله عز وجلّ في صناعتكم وتواصوا عليها بالذي هو اليق لاهل الفضل والعدل والنبل من سلفكم وان نبا الزمان برجل منكم فاعطفوا عليه وواسوهُ حتى يرجع الى حاله ويثوب الى امره وان أقعد احدًا منكم الكبر عن مكسبه ولقاء اخوانه فزوروهُ وعظموهُ وشاوروهُ واستظهروا بفضل تجربته وقديم معرفته وليكن الرجل منكم على من اصطنعه واستظهر به ليوم حاجته اليه أحوط منه على ولده واخيه فان عرضت في الشغل محمدة فلا يضيفها الّا الى صاحبه وان عرضت مذمة فليحملها هو من دونه وليحذر السقطة والزلة والملل عند تغير الحال فان العيب اليكم معشر الكتّاب أسرع منه الى القرّاء وهو لكم أفسد منه لهم فقد علمتم ان الرجل منكم اذا صحبه من يبذل له من نفسه ما يجب له عليه من حقه فواجب عليه ان يعتقد له من وفائه وشكره واحتماله وخيره ونصيحته وكتمان سرّه وتدبير امره ما هو جزاء لحقه ويصدق ذلك تبعًا له عند الحاجة اليه والاضطرار الى ما لديه فاستشعروا ذلك وفقكم الله من انفسكم في حالة الرخاء والشدة والحرمان والمواساة والاحسان والسراء والضراء فنعمت الشيمة هذه من وُسِمَ بها من اهل هذه الصناعة الشريفة واذا وُلِّي الرجل منكم او صُيِّر اليه من امر خلق الله وعياله امرٌ فليراقب الله عزّ وجلّ وليؤثر طاعته

وليكن على الضعيف رفيقًا وللمظلوم منصفًا فان الخلق عيال الله واحبهم اليه ارفقهم بعياله ثم ليكن بالعدل حاكمًا والاشرف مكرمًا وللفيء موفرًا وللبلاد عامرًا وللرعية متألفًا وعن اذاهم ممسكًا وليكن في مجلسه متواضعًا وفي سجلات خراجه واستنصاء حقوقه رفيقًا واذا صحب احدكم رجلاً فليختبر خلائقه فاذا عرف حسنها وقبيحها اعانه على ما يوافقه من الحسن واحتال على صرفه عما يهواه من القبح بالطف حيلة واجمل وسيلة وقد علمتم ان سائس البهيمة اذا كان بصيرًا بسياستها التمس معرفة اخلاقها فان كانت رموحًا لم يهجها اذا ركبها وان كانت شبوبًا اتقاها من بين يديها وان خاف منها شرودًا توقاها من ناحية رأسها وان كانت حرونًا قمع برفق هواها في طرقها وان استمرت عطفها يسيرًا فيسلس له قيادها وفي هذا الوصف من السياسة دلائل لمن ساس اساس وعاملهم وخدمهم وداخلهم والكاتب لفضل ادبه وشريف صنعته ولطيف حيلته ومعاملته لمن يحاوله من الناس ويناظره ويفهم عنه او يخاف سطوته اولى بالرفق لصاحبه ومداراته وتقويم اوده من سائس البهيمة التي لا تحير جوابًا ولا تعرف صوابًا ولا تفهم خطابًا الا بقدر ما يصيرها اليه صاحبها الراكب عليها الا فارفقوا رحمكم الله في النظر واعملوا ما امكنكم فيه من الروية والفكر تأمنوا باذن الله من صحبتموه النبوة والاستثقال والجفوة ويصير منكم الى الموافقة وتصيروا منه الى المؤاخاة والشفقة ان شاء الله ولا يجاوزنَّ الرجل منكم في هيئة مجلسه وملبسه ومركبه ومطعمه ومشربه وبنائه وخدمه وغير ذلك من فنون امره قدر حقه فانكم مع ما فضلكم الله به من شرف صنعتكم خدمة ولا تحملون في خدمتكم على التقصير وحفظة لا تحتمل منكم افعال التضييع والتبذير واستعينوا على عفافكم بالقصد في كل ما ذكرته لكم وقصصته عليكم واحذروا متالف السرف وسوء عاقبة الترف فانهما يعقبان الفقر ويذلان الرقاب ويفضحان اهلها ولا سيما الكتّاب وارباب الآداب وللامور اشباه وبعضها دليل على بعض فاستدلوا على مؤتنف اعمالكم بما سبقت اليه تجربتكم ثم اسلكوا من مسالك التدبير اوضحها محجة واصدقها حجة واحمدها

عاقبة واعلموا ان التدبير آفة مهلكة وهو الوصف الشاغل لصاحبه عن انفاذ علمه ورويته فليقصد الرجل منكم في مجلسه قصد الكافي من منطقه وليوجز في ابتدائه وجوابه وليأخذ بمجامع حججه فان ذلك مصلحة لفعله ومدفعة للتشاغل عن اكثاره وليضرع الى الله في صلة توفيقه وامداده بتسديده مخافة وقوعه في الغلط المضر ببدنه وعقله وآدابه فانه ان ظنّ منكم ظانٌّ او قال قائل ان الذي برز من جميل صنعته وقوة حركته انما هو بفضل حيلته وحسن تدبيره فقد تعرّض بحسن ظنه او مقالته الى ان يكله الله عزّ وجلّ الى نفسه فيصير منها الى غير كافٍ وذلك على من تأملها غير خافٍ ولا يقول احدٌ منكم انه ابصر بالامور واحمل لعبء التدبير من مرافقه في صناعته ومصاحبه في خدمته فان اعقل الرجلين عند ذوي الالباب من رمى بالعجب وراء ظهره ورأى ان اصحابه أعقل منه واجمل في طريقته وعلى كل واحد من الفريقين ان يعرف فضل نعم الله جلّ ثناؤه من غير اغترار برأيه ولا تزكية لنفسه ولا يكاثر على اخيه او نظيره وصاحبه وعشيره وحمد الله واجب على الجميع وذلك بالتواضع لعظمته والتذلل لعزته والتحدث بنعمته (وانا اقول) في كتابي هذا ما سبق به المثل من تلزمه النصيحة يلزمه العمل وهو جوهر هذا الكتاب وغرّة كلامه بعد الذي فيه من ذكر الله عزّ وجلّ فلذلك جعلته آخرهُ وتممته به تولانا الله واياكم يا معشر الطلبة والكتبة بما يتولى به من سبق علمه باسعاده وارشاده فان ذلك اليه وبيده والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته انتهى . ولنرجع الى ما كنا فيه فنقول

وكانت رتبة الكاتب رفيعةً عند بني العباس فان جعفر بن يحيى البرمكي مع كونه وزير الدولة هو الذي كان يوقّع في القصص بين يدي الخليفة هرون الرشيد ويرمي بالقصة الى صاحبها وكانت توقيعاته يتنافس البلغاء في تحصيلها للوقوف على ما فيها من اساليب البلاغة وفنونها . قيل انها كانت تُباع كل قصة منها بدينار . وكان الكاتب هو الذي يصدر السجلات مطلقةً ويكتب في آخرها اسمهُ ويختم عليها بخاتم السلطان وهو طابعٌ منقوش عليه اسم السلطان او

السارة تغمس في طبق احمر مذهب بالماء ويسمى طبق الختم ويطبع بها على طرف
اسمين عند طيها والصاقها ثم صارت السجلات بعدهم تصدر بامر السلطان ويضع
الكاتب فيها علامة اولاً او آخراً على حسب الاختيار وصارت رتبة الكاتب
ترتفع تارة وتنحط اخرى بارتفاع مكانة غير صاحبها عند السلطان من اهل
مراتب في الدول الاسلامية الكائنة في بلاد المشرق والمغرب ثم امتنعت
العلامة فيما بعد عند اصحاب المراتب في هذه الدول ترفعاً وتعظيماً عن ان
يكتب الاسم

وكانت عادة الملوك والوزراء والامراء من العرب اتخاذ الندماء
والمصاحبين للمسامرة كما في سائر الدول ويكونون من الشعراء واهل الادب
ويعاشرون سادتهم ويشرحون صدورهم فاذا اراد الامير انفضاض المجلس جعل
اداة اشارة يعرفها جلساؤه كأن طلب منديلاً واتكأ على وسادة او غير ذلك
من الاشارات فينصرفون

وكان اذا قال الامير لاحد عزمت عليك ان تقول كذا وكذا او تحدثنا
بما علم من الشيء الفلاني لزم ذلك الرجل ان يقول او يحكي ما امره به لانهم
يرون عزمة الامير حتماً ويراد بعزمت عليك اقسمت عليك وعزم على الامر اراد
فعله او جدّ على فعله

الفصل الثاني

في امارة المؤمنين وخصوصياتها

ذكرنا في الفصل الرابع من المقالة الخامسة ان العرب في الجاهلية كانت تسمّي صاحب الشريعة الاسلامية امير مكة وامير الحجاز ثم بعد ان توفي وتولى الخلافة بعدهُ ابو بكر الصديق تلقّب بالخليفة لكن لما تولى الخلافة بعدهُ عمر تلقّب بامير المؤمنين وكان السبب في ذلك هو انهم لما كانوا يلقبون ابا بكر بالخليفة كان هو اول خليفة لصاحب الشريعة المشار اليه ورأوا انه يلزمهم ان يسمّوا عمر خليفة الخليفة وهكذا كل من جاء بعدهُ يقال خليفة خليفة خليفة الخ. فكره عمر ذلك فقال له المغيرة نحن المؤمنون وانت اميرنا فانت امير المؤمنين ومن ثمّ صار ذلك لقباً لكل من تولى الخلافة بعدهُ واتخذ مع تمادي الزمان معنى ملك الملوك لانه في زمن الخلفاء العباسيين صارت ولاة الاطراف وعمالها يسمّون ملوكاً وسلاطين[1] اهـ

وكان من خصوصيات الخلفاء الذين من وظيفتهم حفظ الدين وسياسة الدنيا وظيفة القضاء فان من خطط الخلافة الدينية الامامة في الصلاة والفتيا والقضاء والجهاد واعطاء الامارة والوزارة والحرب وجباية الخراج والملاحظة امور المساجد العظيمة العامة وضرب السكة للنظر في النقود والتعامل بها بين

(1) قال الروزني السلطان مأخوذ من السليط وهو الزيت ودهن السمسم سمّوا بذلك لاضاءتها السراج ولذلك سمي السلطان سلطاناً لوضوح امره. وفي الكشاف كل سلطان في القرآن فهو حجة (اي بمعنى الحجة)

الناس وحفظها مما يداخلها من الغش والنقص فيدفع عليها السلطان علامة للاستفادة والخواص والحسبة وهي البحث عن المنكرات وتعزير وتأديب من يرتكبها والمنع من المضايقة في الطرقات ومنع الحمالين واهل السفن من الاكثار في الحمل والحكم على اهل المباني المتداعية للسقوط بهدمها وازالة ما يتوقع من ضررها والضرب على ايدي المعلمين في المكاتب وغيرها في الابلاغ في ضربهم للصبيان المتعلمين وامضاء الحكم في الدعاوي التي تتعلق بالغش والتدليس في المعايش وفي المكاييل والموازين ونقابة الاسلاف المعروفة بنقابة الاشراف التي يتوصل بها الى الخلافة والحق في بيت المال (راجع الفصل الرابع من المقالة الثانية) لكن قد استتاب الخلفاء اخيرًا الوزراء في هذه الخطط المتعلقة بوظيفتهم

وكان الخليفة عمر بن الخطاب اول من استناب في القضاء بعد ان كان الخليفة يباشرهُ بنفسهِ وكتب لمن فوضهُ فيهِ الكتاب المشهور الذي عليهِ تدور احكام القضاة ومن جملة ما فيهِ البيّنة على من ادّعى واليمين على من انكر والصلح جائزٌ بين المسلمين الّا صلحًا احلّ حرامًا او حرّم حلالًا وان يراجع نفسهُ في ما يقضي ويرجع الى الحق وان المسلمين عدول بعضهم على بعض الّا من كان مجلودًا في حدٍّ او مجربًا عليهِ شهادة زور او ظنينًا في نسبٍ او ولاء

وكان منصب القضاء في الاصل مختصًا بالفصل بين الخصوم فقط ثم دُفع بعد ذلك للقضاة امور اخرى على التدريج وهي استيفاء بعض الحقوق العامة للمسلمين بالنظر في اموال المحجوز عليهم من المجانين واليتامى والمفلسين واهل السفه وفي وصايا المسلمين واوقافهم وتزويج الايامى عند فقد الاولياء والنظر في مصالح الطرقات والابنية وتصفح الشهود والامناء والنواب وغير ذلك وربما كان الخلفاء يجعلون للقاضي قيادة الجهاد في عسكر الطوائف وكان من وظيفة القاضي ان يفرض العقوبات الزاجرة قبل ثبوت الجرائم ويقيم الحدود[1]

(١) الحدود جمع حدٍّ وهو عقوبة مقدرة تجب حقًا لله تعالى سميت به لانها تمنع من المعاودة الى الذنب

النائبة في محالها ويحكم في العقود والقصاص وغيرها التعزير[٢] والتأديب في حق من لم ينتهِ عن الجريمة وكان ذلك كله من خصوصيات الخلفاء على ما ذكرنا

وكانت الاحكام في صدر الاسلام تجري على مقتضى ما في معرفة الحكّام بالكتاب والسنة ورواية الحديث فكانت القضية اذا نزلت بابي بكر اول الخلفاء قضى فيها بما عندهُ من ذلك او سأل مَن يحضرهُ من الصحابة الذين كانوا يفتون في زمن صاحب الشريعة الاسلامية والاَّ اجتهد في الحكم

والذين كانوا يفتون في زمن صاحب الشريعة المشار اليهِ هم ابو بكر وعمر وعثمان وعلي وعبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن مسعود وأُبيّ بن كعب ومعاذ ابن جبل وعمار بن ياسر وحذيفة بن اليمان وزيد بن ثابت وابو الدرداء وابو موسى الاشعري وسلمان الفارسي

وكان بعد ان توفي ابو بكر وولي الخلافة عمر بن الخطاب زاد تفرّق الصحابة في ما افتتحوهُ من البلاد فكانت الحكومة تنزل بالمدينة او بغيرها من الامصار فان كان عند احد الصحابة الحاضرين لها في ذلك اثرٌ حكم بهِ والاَّ اجتهد امير تلك البلدة فيهـا مع انهُ يكون في تلك القضية حكم موجود عند صاحب آخر لم يكن حاضرًا وحينئذٍ اخذهُ عن صاحب الشريعة في وقت لم يكن حاضرًا فيهِ غيرهُ من الصحابة ومن ثمَّ انتدب اقوامٌ لجمع الحديث وتقييدهِ فكان اول من دوَّنهُ محمد بن شهاب الزهري وكان اول من صنف فيهِ وبوّب سعيد بن عروبة والربيع بن صبيح بالبصرة ومعمر بن راشد باليمن وابن جريج بمكة ثم سفيان الثوري بالكوفة وحماد بن سلمة بالبصرة والوليد بن مسلم بالشام وجرير

(٢) التعزير تأديب دون الحدّ والفرق بينهُ وبين الحدّ ان الحدّ مقدَّر والتعزير مفوَّض الى رأي الامام وان الحدّ يدرأُ بالشبهات والتعزير يجب مع الشبهات وان الحد لا يجب على الصبي والتعزير يشرع عليهِ وان الحد يطلق على الذمي اذا كان مقدَّرًا والتعزير لا يطلق عليهِ وانما يسمى عقوبة

ابن عبد الحميد بالري وعبد الله بن المبارك بمرو وخراسان وهشيم بن بشير بواسط وزيد بالكوفة وابو بكر بن ابي شيبة بكثير الابواب وجودة التصنيف وحسن التاليف ووصلت الاحاديث من البلاد البعيدة الى من لم تكن عنده وقامت الحجة على من بلغه شيء منها

وكان ابو جعفر المنصور اول الخلفاء العباسيين اول من تعلم الفقه وغيره من العلم واشار على الامام مالك بن ابي عامر بن عامر بن الحرث الاصبحي بتاليف كتاب في الفقه وقال له يا ابا عبد الله لم يبق على وجه الارض أعلم مني ومنك واني قد اشغلتني الخلافة فضع انت للناس كتابا ينتفعون فيه وتجنب فيه رخص ابن عباس وشدائد ابي عمرو ووطئه للناس توطئة. قال مالك لقد علمني التصنيف يومئذ واراد بذلك كتابه الموطأ وبعد ان اشتهر مذهبه توفي في ايام خلافة هرون الرشيد سنة ١٧٩ للهجرة (سنة ٧٩٥ م)

ثم في ايام هذا الخليفة ايضا ظهر الامام ابو حنيفة النعمان بن ثابت بن النعمان بن المرزبان الفارسي فوضع مذهبا في الفقه في مذهبا على غيره من المذاهب قال الامام الشافعي الآتي ذكره الناس عيال على هؤلاء الخمسة. من اراد ان يتبحر في الفقه فهو عيالٌ على ابي حنيفة ومن اراد ان يتبحر في الشعر فهو عيالٌ على زهير بن ابي سلمة ومن اراد ان يتبحر في المغازي فهو عيالٌ على محمد بن اسحاق ومن اراد ان يتبحر في النحو فهو عيالٌ على الكسائي ومن اراد ان يتبحر في التفسير فهو عيالٌ على مقاتل بن سليمان انتهى كلامه. ويحكى عن الامام ابي حنيفة المشار اليه انه توفي في حبس هذا الخليفة لكونه لم يقبل منصب القضاء الذي كان يدعوه اليه وكان يجلده كل يوم عشر جلدات وقيل انه توفي مسموما في سنة ١٥٠ للهجرة (سنة ٧٦٧ م)

ثم ظهر بعده مذهب الامام محمد بن ادريس بن العباس بن عثمان بن شافع القرشي المعروف بالشافعي المتوفي في خلافة المأمون العباسي سنة ٢٠٤ للهجرة (سنة ٨١٩ م)

واخيرًا وضع الامام احمد بن حنبل بن هلال بن اسد الشيباني مذهبهُ المشهور بالحنبليّ توفي في عصر خلافة المتوكل على الله العباسي سنة ٢٤١ للهجرة (سنة ٨٥٥ م)

فهذه هي المذاهب الاربعة المعتبرة في الفقه ولكلٍّ منها جماعة تنقاد اليهِ في البلاد الاسلامية السنيّة وعُملت لاجلها المدارس والخوانك والزوايا والربط في سائر البلاد وعُودي من تمذهب بغيرها وأُنكر عليهِ ولم يولَّ قاضٍ ولا قبلت شهادة احدٍ ولا قدم للخطابة والامامة والتدريس احدٌ ما لم يكن مقلدًا لاحدى هذه المذاهب التي قد افرغ أيتها ومقلدوهم من العلماء كنانة الجهد في علم الفقه على ثلاثة اطراف. اولها العبادات وهي ما حقٌّ لله على الناس. والثاني البيوع وهي ما حقٌّ للناس على الناس في المعاملات. والثالث الفرائض وهي ما حقٌّ للاحياء من الاموات

ولما تولى منصب القضاء في ايام الخليفة هرون الرشيد ابو يوسف يعقوب ابن ابرهيم بن حبيب الانصاري صاحب الامام ابي حنيفة وكان فيها عُدَّ ودُعي قاضي القضاة وكان هو اوّل من سمّي بذلك وهو الذي غير لباس العلماء الى هذه الهيئة التي هم عليها الآن وكان ملبوس الناس قبلهُ شيئًا واحدًا لا يتميز احد عن احد بلباسهِ توفي سنة ١٨٢ للهجرة (٧٩٨ م)

الفصل الثالث

في تدوين الدواوين وبعض الترتيبات المالية

حكى ابن خلدون المغربي عن عظم مقدار الغنائم التي كانت تغنمها فرسان العرب في فتوحاتها بعد ظهور الاسلام فقال كان الفارس الواحد يتم له في بعض الغزوات ثلاثون الفاً من الذهب او نحوها وكان من عادتهم ان يرسلوا الى الخلفاء الخُمس من الغنائم ليصرفوهُ في مصالحهم العامة اه . وكان ما يردُ الى الخلفاء من هذه الغنائم وغيرها توزعهُ الخلفاء المشار اليهم في مبادئ الاسلام على اهل البيت والصحابة والمهاجرين والانصار وكل من اشترك معهم في الغزو والجهاد ولا يخصّصون لانفسهم منهُ الاّ ما قلّ وربما كان دون غيرهم لانهم ذكروا ان امير المؤمنين عمر بن الخطاب كان يرقّع ثوبهُ بالجلد ثم لما قدم ابو هريرة على هذا الخليفة بمالٍ من البحرين سألهُ عمر ماذا جئت بهِ فقال خمس مئة الف درهم فاستكثرهُ عمر وقال أتدري ما تقول قال نعم مئة الف خمس مرات فصعد عمر المنبر وقال ايها الناس قد جاءنا مالٌ كثير ان شئتم كلنا لكم كيلاً وان شئتم عددنا لكم عدّاً . ثم لما تعب في قسمتهِ استحضر الهرمزان الفارسيّ ليسألهُ عن طريقة يستوضحون بها زمن كتاباتهم وما يضبطون بهِ حساباتهم واوقاتهم فقال لهُ الهرمزان ان لنا حساباً نسميهِ ماه روز معناهُ حساب الشهور والايام فعرّبوا كلمتهُ هذه وقالوا مؤرخ ثم جعلوهُ اسماً للتاريخ واستعملوهُ وطلبوا وقتاً يجعلونهُ اولاً لتاريخ دولتهم فوقع اتفاقهم على السنة التي هجر بها صاحب الشريعة الاسلامية مكة وسكن المدينة

ثم بعد ذلك اتخذ الخليفة المشار اليهِ باشارة الهرمزان المذكور بيت المال

فكان بذلك هو اول من دوّن الدواوين ورتب ديوان الجيش عملاً بما كان في بلاد فارس وعيّن له كتّابًا من القريشيين

والديوان لفظٌ فارسيٌ مأخوذٌ من قولهم ديوانه اي مجنون وسبب تسميتو على ما ذكروا ان احد ملوك فارس نظر يومًا الى كتّاب ديوانه وهم يحسبون على انفسهم كأنهم يحادثون فقال ديوانه اي مجانين فسمّي موضعهم بذلك وحُذفت الهاء تخفيفًا فقيل ديوان وقيل انهُ اسم الشياطين بالفارسية فان الواحد منهم يسمّونه ديو وزيادة الالف والنون للجمع سمّي الكتّاب بذلك لسرعة نفوذهم في مهم الامور وجمعهم لما شذّ وتفرّق

واول مَن اتخذ ديوان الختم وحزم الكتب معاوية بن ابي سفيان ولم تكن تحزم وسبب ذلك انهُ كان أمر لعمر بن الزبير عند زياد بالكوفة بمئة الف ففتح الكتاب وصيّر المئة مئتين فلما دفع زياد حسابهُ انكرها معاوية وطلب بها عمر وحبسهُ واتخذ عند ذلك ديوانًا لحزم الكتب وختمها

ثم وضع هذا الخليفة ايضًا البريد في البلاد الاسلامية وكان ذلك في سنة ٤٣ للهجرة (سنة ٦٢٣م) وخالف المقريزي في هذا فقال ان الذي وضع البريد هو محمد المهدي العباسيّ وانهُ جعلهُ بين مكة والمدينة واليمن

واما كتابة ديوان التصريف يعني الخراج في دمشق فكانت باللغة الرومية ودامت على ذلك في عهد الخلفاء الامويين الى ان استولى عبد الملك بن مروان فنقلها لهُ الى العربية ابو ثابت سليمان بن سعد كاتب الرسائل وعزل عنها كتّاب الروم وكان الذي يكتب على هذا الديوان في ايام معاوية المشار اليهِ رجلاً يقال لهُ سرجون بن منصور النصراني ثم كتب بعدهُ ابنهُ منصور

وكانت كتابة ديوان العراق بالفارسية وكان الحجاج بن يوسف الثقفي عاملاً لمعاوية المشار اليهِ على العراق المذكور فرغم كتّاب الفرس على نقلها الى العربية

ثم لما تولى الخلافة عبد الله المأمون العباسيّ احدث دواوين الانشاء

والاعمال في بغداد فبنى حجرة واسعة في داره وجعل فيها مجلساً للنسخ ومجلساً للمعاملة ومجلساً للمحاسبة ومجلساً للانشاء ومجلساً للخران وعيّن لكل مجلس من هذه المجالس كتبة مشتركين وكان كثيراً ما يخرج الى هذه المجالس على حين غفلة ويتأمل ما يشكره او ينكره فكانت العمال دائماً على حذر

وكانت كتابة الدواوين في صدر الاسلام ان يجعل ما يكتب فيه صحفاً مدرّجة فلما انقضت ايام بني أُمية وقام بالامر عبد الله السفاح العباسي استوزر خالداً بن برمك بعد ابي سلمة حفص بن سليمان الخلال فجعل هذا الوزير الدفاتر في الدواوين من الرقوق المتخذة من الجلود وكتب فيها وترك الدروج الى ان تصرّف بالوزارة حفيدهُ جعفر بن يحيى البرمكي في ايام الرشيد فاتخذ الكاغد وتداوله الناس من بعده وقال ابن خلدون المغربي ان الذي اشار بصناعة الكاغد هو الفضل بن يحيى اخو جعفر المار ذكرهُ

ويروى ان العرب في الزمن المتوغل في القدم كانوا يستعملون في الخط حروف الهجاء القديمة الشبيهة بالمسامير في الشكل المسماة عند علماء التنقيب في آثار القدماء حروفاً برسوليسية اي فارسية قديمة ثم تغيرت هذه الحروف بالحروف الحميرية وهي الخط المسند الذي كان لحمير يكتبون كل حروفه منفصلة عن بعضها (راجع جملة العرب الاصلية واقسامها في الفصل الاول من المقالة الاولى) ومن حمير انتقل الى الانبار ومن الانبار الى الحيرة ومن الحيرة نقلهُ اهل الطائف وقريش ولتوغلهم في البداوة دامت خطوطهم غير مستحكمة الاجادة لأوّل الاسلام

ويرى كثيرون من مؤرّخي العرب بعد الاسلام ان اول من كتب باللغة العربية كان اسماعيل بن ابرهيم الخليل وقال البعض منهم ان العرب كانوا يعرفون الكتابة في زمن ايوب الصديق وقد يوافقون بذلك راي بعض الافرنج والكتبة المتأخرين قال بعضهم قد يترجّح الظنّ بانهُ لاينكر على العرب في الاجيال الصاعدة جداً نحو القدمية تقدمهم في العلوم والمعارف الطبيعية

والملكية ونظم الشعر بالاستدلال على ذلك من بعض الامور منها محاطات ايوب المتقدم ذكرهُ واصحابهِ التي يظن بانها كانت نحو سنة ١٥٢٧ قبل الميلاد وقال غيرهُ قد اجمع فضلاء الافرنج الذين امتازوا بالبلاغة بالحق على ان ايوب المشار اليهِ هو افضل شعرًا من اوميروس الشاعر اليوناني وشكسبير الشاعر الانكليزي اللذين يعتقدونهما أشعر الخلق وان لهُ عليهما فضيلة السبق لان صحيفة اقدم الصحف الاولى على الاجماع وقد خُيّل للبعض منهم ان اصلها كان باللغة العربية ثم نقلهُ موسى النبي الى اللغة العبرانية وان الاصل العربي هو مفقود الآن فلا يعلم هل كان بلغة حمير او لغة مُضر ثم باضمام ذلك الى آداب اللغة العربية الموجودة سابقةً في جاهلية العرب ترجّح عند كثيرين ممن ذكرنا ان العرب القدماء كانوا يعرفون صناعة الكتابة لكن لم يبق شيء من كتبهم القديمة اصلاً كما استدلوا على قدمية آداب اللغة اليونانية من اشعار اوميروس المذكور فقالوا انها كانت موجودة قبل ظهور هذا الشاعر ناشئة من كتب مؤلفة في علوم الادب الّا انهُ لما اندرست تلك الاجيال اندرست كذلك اخبار اهلها (وهكذا العرب ايضًا)

وقال ابن خلدون نقلاً عن الطبري ان ولد صخر بن ارام كانوا يسكنون الطائف هلكوا في من هلك من ذلك الجيل وقال غيرهُ انهم هم اوّل من كتب بالخط العربي الّا ان مثل هذه الاقوال هو مردود عند ارباب التحقيق منهم ويرون الصحيح هو ان رجلاً يقال لهُ مرامر بن مرّة ويقال مروة من بني طي وقيل من بني مرّة من اهل الانبار هو الذي ادخل اولاً الكتابة في الانبار وان هذه الصناعة انتشرت بين العرب هناك وان المثل المضروب عندهم اما خدش الخدوش أبوش والخدوش الاثر وابوش هو ابن شيت بن آدم اي انهُ اوّل من كتب واثر بالخط في المكتوب هم يضربونهُ في ما تقادم عهدهُ فلا يراد بهِ الخط العربي وانما كان انتشار هذه الصناعة بينهم قبل ظهور الاسلام بقليل لانهُ لما جاء هذا الدين لم يكن مجموع الذين من يقرأ ويكتب وقد اتفق على

ذلك جمهور المحققين من المسلمين وانما كان لحمير فقط الخط المعروف بالمُسند فكانوا يكتبون كل حروفهِ منفصلة عن بعضها ويمنعون العامة من تعلمهِ فلا يتعلمهُ احدٌ الاّ باذنهم وكان بالغًا مبلغًا من الاحكام والاتقان والجودة في دولة التبابعة لما بلغت من الحضارة والترف وانتقل منها الى الحيرة لما كان بها من دولة آل المنذر نسباء التبابعة في العصبية والمجددين لملك العرب بارض العراق لكنهُ لم يكن في الجودة عندهم كما كان عند التبابعة ثم من الحيرة لُقّنهُ اهل الطائف وقريش بالتسلسل عن مرامر بن مرّة على ما تقدم

وفي حديث زيد بن ثابت حين امرهُ ابو بكر ان يجمع القرآن ما يدل دلالةً واضحة بانهُ لم يكن عدم ادوات تصلح للكتابة ايضًا حيث يقول فجعلت اتّبعهُ على العسب واللخاف وصدور الرجال والعسب في سعوف النخل واللخاف حجارة بيض رقاق واحدها لخفة . وقال الزوزني انهم كانوا يأخذون الحرقة ويطلونها بشيء ثم يصقلونها ويكتبون عليها ويسمّونها المُهرق ويجمعونها على مهارق وهو معرّب مَهَرَة كَرْدَه لفظ فارسيّ ولم تعرف العرب قراطيس الكتابة الاّ منذ استعملها الحجاج فهو اول من كتب بها

ثم بعد ان فتحت العرب الامصار وملكوا الممالك واحتاجوا الى الكتابة استعملوا الخط وطلبوا صناعتهُ وأُبدل الخط الحميري بالخط الكوفي وأُخترعت الحركات ووُضعت النقط لتمييز الحروف المتشابهة كما سبقت الاشارة الى ذلك في كتابنا المسمّى زبدة الصحائف في اصول المعارف صفحة ٧٠ فبلغ هذا الخط رتبة من الاتقان الاّ انها كانت دون الغاية

وكذلك بعد ان انتشرت العرب في المغرب وافتتحوا افريقية والاندلس واختط ابو جعفر المنصور العباسيّ مدينة بغداد وصارت دار الاسلام ومركزًا للعلوم العربية على ما تقدم في الفصل الاول من المقالة الخامسة ظهر الخط البغدادي وقد ذكروا ان رجلًا يقال لهُ الشيخ علي بن هلال السمساني وصل احرف الهجاء العربية بعضها ببعض على هيئة استعمالها الآن في الكتابة بعد ان

كانت حروفاً مقطعة . وقال آخرون ان اول من نقل هذه الطريقة من خط الكوفيين وابرزها في هذه الصورة المستعملة الآن هو تلميذهُ ابو علي محمد بن علي ابن الحسين الشهير بابن مقلة وزير الخليفة المقتدر بالله العباسي وبهِ يضربون المثل بحسن الخط فيقولون لمن ارادوا المبالغة في حسن خطهِ اجود من خط ابن مقلة توفي سنة ٣٢٨ للهجرة (سنة ٩٣٩ م) ومن اراد التوسع في هذا الموضوع باكثر من ذلك فليراجع الكلام على الكتابة في كتابنا المار ذكرهُ صفحة ١١٣- ١٢٥ هذا ما كان من امر تدوين الدواوين في ايام الخلافة العربية

واما ما كان من امر الترتيبات المالية التي جرت في تلك الاوقات ايضاً فهو انهُ كما كان بدء تدوين الدواوين في ايام خلافة عمر بن الخطاب كذلك كان اول من شرع بترتيب جباية الاموال الاميرية هذا الخليفة نفسهُ . قال بعض المؤلفين من العرب انهُ ابطل العردة التي كانت مرتبة على الرؤوس ورتب المكس في التجارة فكان يؤخذ من تجار المسلمين والنصارى والحربيين واما بدرجات مختلفة حتى انهُ كان يؤخذ من تجار الحرب العشر عن بضائعهم وكذلك رتب المكس على العبيد والدواب

وعيّن مقدار الجزية التي تؤخذ من الذميين وملخص ما ذكرهُ المؤرخون في ذلك هو ان الخليفة المشار اليهِ كتب الى عاملهِ على البصرة عثمان بن حنيف بتعيين مقدار الجزية فوضع على الغني ثمانية واربعين درهماً وعلى من دونهُ اربعة وعشرين درهماً وعلى من دونهُ اثني عشر درهماً وكان الصرف اثني عشر بدينار وهذا مذهب ابي حنيفة واحمد بن حنبل واحد قولي الشافعي ثم قالوا انهُ يجوز للامام ان يزيد على ما قدّر عمر ولا يجوز ان ينقص عنهُ ولا جزية على النساء والمماليك والصبيان والمجانين

ووضع ايضاً على سواد العراق خراجاً لكل جريب صاعاً من برّ او شعير ودرهماً

ووضع ايضاً قانوناً بان من كان لهُ ارض ثم تركها ثلاث سنوات لا يعمرها

فعمرها قوم آخرون فهم أحق بها

ووصل النيل بجون العرب بواسطة خليج القلزم كما كان صنع البطليموسية والقراعنة وطرايانوس وخصص ثلث ايراد مصر بعمل الجسور والترع لارواء الاراضي

ولما تولى الخلافة بعده عثمان بن عفان شرع في اقطاع القطائع وبيع الاراضي (وفي ذلك خلاف)

وفي خلافة عبد الملك بن مروان أمر هذا الخليفة الحجاج وكان عامله على البصرة فضرب الدراهم والدنانير فكان استعمالها والتداول بها بين الاسلام سنة ٧٦ للهجرة (سنة ٦٩٥ م) وكانوا قبل ذلك يتعاملون بالفضة والذهب وزنًا

وفي ايام خلافة ابي عبد الله محمد المهدي العباسي وضع الخراج على الحوانيت فكان هو اول من احدث ذلك في الاسلام

المقالة العاشرة

في وضع آداب اللغة العربية وطلب العرب العلوم الفلسفية القديمة بعد ظهور الاسلام وفيها ستة فصول

الفصل الاول

وضع آداب اللغة العربية واسباب ذلك

لا يخفى ان العرب في زمن جاهليتهم كانوا في اعلى طبقة من ساحة الفكر وفصاحة اللسان وسرعة الخاطر وكانت فصاحتهم طبيعية حتى انهم كانوا يقولون الشعر ارتجالاً كما سبقت الاشارة الى ذلك جميعه في محلات متعددة من هذا الكتاب ولما لم يكن لهم اعمال يشتغلون بها فكانوا يصرفون همهم الى تهذيب لغتهم والتفنن فيها حتى ذهبوا في ذلك كل مذهب وساعدهم على التصرف فيها ما عندهم من الحذاقة فكانوا يجعلون لكل حكم من احكامها وجهاً سديداً بحكم العقل نصيبه فكانت باعتبار الفاظها منقولة وباعتبار احكامها معقولة

وكانت القبائل التي يوثق بعربيتها بين العرب سبعة وهي قريش وهذيل

وهوازن وكنانة وبنو تميم وقيس وغيلان واليمن وهذه القبائل في اوساط العرب ولا تعتبر لغات القبائل الأُخر لاختلاطها بالاعاجم وقيل بل ان القبائل الموثوق بعربيتها في بنو قيس وتميم واسد وبعض الطائيين وبالاختصار ان لغة العرب قبل الاسلام كانت متشعبة الى لغتين اصليتين وهما لغة قريش ولغة حمير وكانت الاولى مستعملة في مكة وما حولها والثانية ببلاد اليمن فلما نزل القرآن بلغة قريش غلبت على لغة حمير وبقيت متداولة في المكاتبات والتآليف والاشعار

وقولهم بقيت متداولة في المكاتبات والتآليف والاشعار يراد به حصر بقاء اللغة حسب قواعدها واصولها في القلم فقط وسلب ذلك عنها في المخاطبات الشفاهية المعتادة لانهُ بعد ان ظهر الاسلام اختلطت لغات القبائل كلها بما فيها القبائل الموثوق بعربيتها مع لغات الاعاجم من الشعوب الكثيرة التي دخلت فيهِ فانتشر الفساد في اللغة العربية ولذلك اضطرّ الحال فيما بعد الى وضع مؤلفات لحفظها وصيانة قواعدها من التلف والضياع

وكان القرآن الذي هو اساس الدين الاسلامي الوحيد لا يزال الى زمن خلافة ابي بكر غير مجموع في مصحف بل باقياً في مستودع اذهان الحفظة الذين سمعوهُ من فم صاحب الشريعة الاسلامية فاعتنى هذا الخليفة في كتبهِ في صحف وكان ذلك باشارة عمر بن الخطاب خوفاً من ان يذهب كثير منهُ بموت الذين يحفظونهُ من القراء الذين كانوا يُقتلون في الجهاد فامر زيداً بن ثابت فجمعهُ كما سبقت الاشارة الى ذلك ولا زال يبحث عن آخر سورة التوبة حتى وجدها مع ابي خزيمة الانصاري ولم يجدها مع احدٍ آخر غيرهِ فلولا سرعة اهتمام هذا الخليفة بجمعهِ لكان في ذلك مصيبة على الاسلام بفقد كثير منهُ

ثم في ايام خلافة عثمان بن عفّان وقع اختلاف في القراءة بين الحفظة فجاء حذيفة بن اليمان فاخبرهُ بذلك فامر زيداً بن ثابت المذكور وعبد الله بن الزبير وسعد بن العاص وعبد الله بن الحارث بن هشام بان ينسخوا الصحف المذكورة في المصاحف وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاث اذا اختلفتم انتم

وزيد بن ثابت في شيء فاكتبوهُ بلسان قريش فانما نزل بلسانهم فعلوا قال القاسم بن معن لم تختلف لغة قريش والانصار في شيء من القرآن الاّ في التابوت فلغة قريش بالتاء والانصار بالهاء. حتى اذا نسخوا الصحف في المصاحف ردَّ عثمان تلك الصحف الى حفصة حيث كانت محفوظة اولاً وارسل الى كل افق بمصحفٍ مما نسخوا وامر بما سواهُ من القرآن في كل صحيفةٍ او مصحفٍ يحرَق وكانت فقدت آية من الاحزاب فالتمسوها ووجدوها مع خزيمة بن ثابت الانصاري فالحقوها في سورتها

وقال ابن خلدون ان الخط العربي لاول الاسلام كان غير بالغ الى الغاية من الاحكام والاتقان والاجادة ولا الى التوسط لما كان العرب من البداوة والتوحش وبعدهم عن الصنائع وانظر ما وقع لاجل ذلك في رسمهم المصحف حيث رسمهُ الصحابة بخطوطهم وكانت غير مستحكمة في الاجادة فخالف الكثير من رسومهم ما اقتضته رسوم صناعة الخط عند اهلها

وذكر بن خلكان في ترجمة ابي عمرو بن العلاء التميمي المازني البصري ما نصه قال حدثنا قتادة السدوسي قال لما كُتب المصحف عُرِض على عثمان بن عفان فقال ان فيهِ لحنًا ولتقيمنَّهُ العرب بالسنتها وقال ايضًا نقلاً عن كتاب التصحيف لابي الحسن بن عبد الله بن سعيد العسكري ما نصه وعبر الناس يقرأون في مصحف عثمان بن عفان نيفًا واربعين سنة الى ايام عبد الملك بن مروان ثم كثر التصحيف وانتشر بالعراق ففزع الحجاج بن يوسف الى كتابهِ وكان يومئذٍ عاملاً على البصرة وسألهم ان يضعوا الى هذه الحروف المشتبهة علاماتٍ فقام بذلك النصر بن عاصم ووضع النقط افرادًا وازواجًا وخالف بين اماكنها فعبر الناس بذلك لا يكتبون الاّ منقوطًا فكان مع استعمال النقط يقع التصحيف ايضًا فاحدثوا الاعجام فكانوا يتبعون النقط والاعجام واذا أُغفل الاستقصاء عن الكلمة فلم تعرَف حقوقها اعترى التصحيف فلم يقدروا فيها الاّ على الاخذ من افواه الرجال بالتلقين

النحو. وكان ابو الاسود الدؤلي واسمهُ ظالم بن عمرو بن جندل بن سفيان ابن حلس بن نباثة بن عدي بن الدؤل بن بكر بن كنانة المتوفي سنة ٦٩ للهجرة (سنة ٦٨٨ م) يعلم اولاد زياد بن ابيهِ وهو يومئذٍ والي العراقين وكان لا يخرج شيئًا اخذهُ عن علي بن ابي طالب فبعث اليهِ زياد المذكور ان اعمل شيئًا يكون للناس امامًا ويعرف بهِ كتاب الله عزَّ وجل فاستعفاهُ من ذلك الى ان جرت اسبابٌ كثيرة لوضعهِ علم النحو لا نذكر منها هنا الا ما يوافق المقام وقد اوردناهُ في كتابنا زبدة الصحائف في اصول المعارف

حكي انهُ سمع ذات يوم قارئًا يقرأ ان الله بريءٌ من المشركين ورسولهِ بالكسر فقال ما ظننت ان امر الناس آل الى هذا فرجع الى زياد وقال اعمل ما امر بهِ الامير فليبغي كاتبًا لقنًا يعقل ما اقول فاتي بكاتب من عبد القيس فلم يرضهُ فاتي بآخر فقال لهُ ابو الاسود اذا رايتني فتحت فمي فانقط بين يدي الحرف وان كسرت فاجعل النقطة من تحت ففعل ذلك وقال القاري في حاشيتهِ على شرح الاجروميه ان عليًا دفع الذي جمعهُ الى ابي الاسود وقال لهُ انحُ هذا النحو اي اقصد هذا المقصد فسُمّي حينئذٍ هذا الفن نحوًا انتهى كلامهُ. وهو علمٌ يعرف بهِ تركيب الالفاظ الدالة على اصل المعنى المراد بواسطة تغيير اواخر الكلم لاختلاف العوامل الداخلة عليها لفظًا او تقديرًا

المناظرات. ويقال بان في ايام الخليفة ابي جعفر المنصور العباسي وضع عبد الله بن المقفع الآتي ذكرهُ في محلهِ كتاب كليلة ودمنة وقيل انهُ لم يضعهُ وانما كان باللغة الفارسية فعربهُ ونقلهُ الى العربية وان الكلام الذي في اول هذا الكتاب هو من كلامهِ. وقال ابن خلدون ان كتاب كليلة ودمنة تُرجم لهُ الفارسية في ايام كسرى انوشروان الذي كان محبًا للعلم مكرمًا للعلماء ترجمهُ من لسان اليهود وكان ذلك في الزمن الذي ولد فيهِ صاحب الشريعة الاسلامية وقال صاحب تذكرة الحكم ان المقفع كان كاتبًا لابي جعفر المنصور وهو الذي ترجم لهُ الثلاثة الكتب في المنطق وترجم ايضًا كتاب فرفريوس الصوري

المعروف بايساغوجي بعبارة سهلة قريبة المأخذ وترجم كذلك كتاب كليلة ودمنة من الهندية الى اللغة الفارسية وان من تآليفه رسالة في الادب والسياسة ورسالة في الطاعة للسلطان انتهى كلامه . وحكى ابن خلكان ان ابن المقفع كان زنديقاً(١) والزندقة في اللغة تطلق على من يبطن الكفر ويظهر الايمان فارسية معرّبة ومن تآليفه الدرة اليتيمة التي لم يُصنَّف مثلها في فنها قتله سفيان متولي البصرة بامر ابي جعفر المنصور وهو يومئذ في خدمته سنة ١٤٥ للهجرة (سنة ٧٦٢م) وقيل له المقفع لانه كان يعمل القفاع ويبيعها وهي شيء يُعمل من الخوص شبيه بالزنابيل لكنه بغير عروة وخلاصة الكلام ان ابن المقفع المذكور اما بترجمته كتاب كليلة ودمنة او بتأليفه اياهُ وضع اساساً لعلم المحاضرات الذي ألَّف فيه اخيراً كثيرون من علماء العرب في الاسلام وهو من فنون الادب الاثني عشر التي هي علم متن اللغة والصرف والنحو والمعاني والبيان والبديع والعروض والقوافي والخط وقرض الشعر وانشاء الرسائل والخطب والتواريخ وهي من مشتملات علم المحاضرة والمحاضرة في اللغة هي ما بين القوم ان يجيب الواحد صاحبه بما يحضرهُ من الجواب

الانشاء . وكانت سياسة الخليفة ابي جعفر المشار اليه قدمت ب[illegible] جملة من قبل من خواص مروان بن محمد بن مروان آخر الخلفاء الامويين عبد الحميد بن يحيى بن سعيد الكاتب المشهور الذي به يُضرَب المثل ويقولون لمن ارادوا المبالغة في مدحه من الكُتَّاب ابرع كتابةً من عبد الحميد لانه كان هو اوّل من فتح الكتابة وبسط باع البلاغة والانشاء والانشاء صناعة يُعلم بها كيفية استنباط المعاني وتأليفها مع التعبير عنها بكلام يطابق الحال وتدوينها

اللغة . وكان للخليفة هرون الرشيد العباسي معلمٌ يقال له ابو عبيدة وهو احد الرواة المشهورين الآتي ذكرهم وصنَّف له اسحق بن ابرهيم الموصلي النديم

---

(١) الزندقة نسبة الى زند وهو اسم لغة قديمة فارسية مكتوب بها كتب ديانتهم المجوسية المسماة زند اوستاه

فاستدناهُ الخليفة من البصرة بعد ان اسقط مرتبة الاصمعي بوشاية اسحق المذكور ايضاً لما فسد ما بينهما وكان اسحق قبل ذلك يسمعهُ ويكثر الرواية عنه وكان ابو عبيدة اوّل من دوّن اللغة العربية لانهُ كان اعلم الناس بلغة العرب واخبارهم وايامهم

متن اللغة . ثم ظهر في ايام الخليفة المشار اليهِ ابو علي محمد بن المستنير بن احمد النحوي اللغوي المعروف بقطرب تلميذ سيبويه امام البصريين في علم النحو والقطرب ذبابٌ يطير في الليل ولا ينام وقيل دُوَيبة يُضرَب بها المثل في السير فيقال سير القطرب وأجول من قطرب وأسهر من قطرب سمّاهُ بذلك سيبويه المذكور لانهُ كان يبكر على بابهِ وقيل القطرب هو ذكر السعالى صنّف كتباً كثيرة وهو اول من وضع المثلّث في اللغة وبهِ اقتدى غيرهُ من العلماء ويراد بالمثلث متن اللغة وهو علمٌ نُعرَف بهِ مباني الالفاظ العربية اي اوضاع المفردات التي تتكلم عنها كتب اللغة المسماة بالقاموس

الصرف . وفي ايام الخليفة المشار اليهِ ظهر ايضاً معاذ بن مسلم الهرّاء شيخ الكسائي امام الكوفيين في النحو فوضع علم الصرف وقيل بل ان من دوّن هذا العلم هو ابو عثمان بكر بن محمد بن عثمان بن حبيب المازني البصري المتوفى سنة ٢٤٨ للهجرة (سنة ٨٦٢م) وهو علم نُعرَف بهِ احكام ابنية الالفاظ المتداولة في المعاني المختلفة

العروض . وفي ايام الخليفة المشار اليهِ ظهر ايضاً الخليل بن احمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي ويقال الفرهودي الازدي اليحمدي وكنيتهُ ابو عبد الرحمن وهو صاحب كتاب العين المشهور في اللغة وكان لهُ معرفة في الايقاع والنغم فاحدثت لهُ تلك المعرفة علم العروض فانهما متقاربان في المأخذ فوضع هذا العلم الذي بهِ يُعرَف صحيح اوزان الشعر وفاسدها وسمّاهُ بالعروض لان العروض اسم لما يُعرَض عليهِ الشيء فنقل الى هذا الفن لانهُ يعرض عليهِ الشعر فما وافقهُ فصحيح وما خالفهُ ففاسد وقال بعضهم انهُ انما سمّي بالعروض لان الخليل

الّفهُ في العروض وهي مكة فسماهُ بها تبركًا وبهِ يُضرَب المثل في هذا الفن فبذل اوضع للعروض من الخليل

القوافي . والخليل المذكور هو الذي وضع علم القوافي ايضًا وهو علمٌ يبحث عن تناسب وعيوب الاعجاز في الشعر

البديع . وفي زمن خلافة المعتمد بالله العباسي كان ابن اخيهِ ابو العباس عبد الله بن المعتز قد اخذ الادب عن جماعة من اكابر اهلهِ الى ان صار اديبًا بليغًا شاعرًا مطبوعًا مقتدرًا على الشعر قريب المأخذ سهل اللفظ جيّد القريحة حسن الابداع للمعاني وله ديوان شعر ومن مؤلفاتهِ كتاب مكاتبات الاخوان بالشعر وكتاب الزهر والرياض وكتاب الجوارح والصيد وكتاب السرقات وكتاب اشعار الملوك وكتاب الآداب وكتاب حلى الاخبار وكتاب طبقات الشعر وكتاب الجامع في الغناء وفيهِ ارجوزة في ذمّ الصبوح فوضع هذا الاديب كتابًا ايضًا في علم البديع وهو علمٌ تُعرَف بهِ وجوه تحسين الكلام

المعاني والبيان . ولما ظهر الشيخ عبد القادر الجرجاني نسبةً الى جرجان مدينة بفارس صاحب كتاب دلائل الاعجاز المتوفى سنة ٤٧١ للهجرة (سنة ١٠٧٨ م) في ايام خلافة المقتدي بالله العباسي وكان رجلًا فاضلًا في المعارف والآداب فوضع علمي المعاني والبيان . اما المعاني فهو علمٌ تعرف بهِ احوال اللفظ العربي التي بها يطابق اللفظ مقتضى الحال . واما البيان فهو علمٌ يعرف بهِ ايراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضع الدلالة عليهِ فاكمل بها علم البلاغة

باقي الفنون . وهكذا مع تمادي المدة سواء كان في خلال ما ذكر او بعده عُرِف ما يتصل بذلك من الفنون العديدة كعلم الاشتقاق واصول النحو وقرض الشعر وانشاء النثر والفصاحة والمحاضرة والخط ومقاطع الحروف والاحكام المتعلقة بهـا وقد تعرضنا لشيء مما ذُكر في كتابنا زبدة الصحائف في اصول المعارف فانا هناك بسطنا تفاصيل مستوفية بقدر الامكان عن كامل ما اوردناهُ في هذا الفصل فليراجعهُ مَن اراد

علم الكلام . لاجرم بانهُ لم يكن عند احدٍ من المسلمين في صدر الاسلام ما يستدلّ بهِ على اثبات التوحيد او النبوة فضلاً عن امورٍ اخرى غيره سوى القرآن ولا بحث احدٌ منهم عن شيءٍ من الطرق الكلامية او المسائل الفلسفية كما حدث اخيرًا بعد ان شغف الخليفة المأمون العباسي بالعلوم القديمة وعرَّب كتب الفلاسفة الذين مند اشتهرت كتبهم هذه بين الناس وانتشرت بعامة الامصار اقبلت اصحاب البدع من المعتزلة والقرامطة والجهمية وغيرهم عليها واكثروا من النظر فيها والتصفح لها فانجرَّ من ذلك ما لا يوصف من البلاء والمحنة حيث بالغ القدري في القدر فجعل العبد خالقًا لافعالهِ . وبالغ الجبريّ في مقابلهِ فسلب عنهُ الفعل والاختيار . وبالغ المعطّل في التنزيه فسلب عن الله سبحانهُ صفات الجلال . وبالغ المشبّه في مقابلهِ حتى جعلهُ كواحدٍ من البشر . وبالغ المرجي في سلب العقاب . وقال المعتزليّ بالتخليد في العذاب . وبالغ الناصبي في دفع علي عن الامامة . وبالغ غلو الغلاة حتى جعلوهُ الهًا . وبالغ السنّي في تقديم ابي بكر وبالغ الرافضي في تأخيرهِ حتى نسبهُ الى الكفر فعارضت الظنون وكثرت الاوهام وبلغ كل فريقٍ في العناد ما ساقهم الى التشاغل والتلاعن واستحلال الاموال واستباحة الدماء وانتصروا بالدول واستعانوا بالملوك وحينئذٍ قام ابو منصور محمد بن محمود الماتريدي امام الحنفية في سمرقند وابو حسن علي الاشعري[1] امام الشافعية بالبصرة وترأسا على اهل السنة والجماعة

وكان ابو الحسن الاشعري المذكور من ايمة فرقةٍ من جملة الفرق التي ذكرناها يقال لها المعتزلة وهم الغلاة في نفي الصفات الالهية القائلون بالعدل والتوحيد وان المعارف كلها عقلية حصولاً ووجوبًا قبل الشرع وبعدهُ واكثرهم على ان الامامة بالاختيار وهم عشرون فرقة قد ذكرت بتفاصيلها في كتاب

(١) اشعر قبيلة في اليمن وكان جدّهُ عبد الله بن قيس الشهير بابي موسى الاشعري من الصحابة

المسمّى سوسنة سليمان في اصول العقائد والاديان والواضع الاول لهذه الفرقة رجلٌ يقال له واصل بن عطا كان اول من اعتزل مجلس الحسن البصري واول من تسمّت جماعة المعتزلة لهذا السبب يقال انه اخذ العلم عن ابي هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية وخالفه في الامامة واعتزاله يدور على اربع قواعد هي اولاً نفي الصفات على ما تقدم ثانياً القول بالقدر ثالثاً القول بمنزلة بين المنزلتين رابعاً اوجب الخلود في النار على من ارتكب كبيرةً وكان لكثرة صمته يقال له ابو الحرس توفي سنة ١٣١ للهجرة (سنة ٧٤٨ م)

ووُجِدت فرقة اخرى من الفرق المذكورة تضادّ المعتزلة المذكورين يقال لها المشبهة او المجسمة تنقسم الى سبع فرق ايضاً ولكنهم كلهم يغلون في اثبات صفات التجسيم لله تعالى

فلما رجع ابو الحسن الاشعري المذكور عن القول بخلق القرآن وغيره من آراء المعتزلة ألّف كتاباً في اعتقاد اهل السنة والجماعة قال المقريزي انه ألّف خمسة وخمسين كتاباً منها كتاب اللمع وكتاب الموجز وكتاب ايضاح البرهان وكتاب التبيين على اصول الدين وكتاب الشرح والتفصيل في الرد على اهل الافك والتضليل وكتاب الابانة وكتاب تفسير القرآن قيل انه في سبعين مجلداً ثم توفي ببغداد سنة ٣٣٧ للهجرة (سنة ٩٤٨ م)

وحقيقة مذهبه انه سلك مذهباً متوسطاً بين النفي الذي هو مذهب الاعتزال وبين الاثبات الذي هو مذهب اهل التجسيم فانتشر مذهبه نحو سنة ٣٨٠ للهجرة (سنة ٨٩٠ م) وجملة عقيدته مذكورة بتمامها في كتابنا سوسنة سليمان المار ذكرهُ صفحة ٣٠٩ وكان ذلك بداءة الالتفات الى علم الكلام ويسمى علم اصول الدين ايضاً ثم بعد ذلك اخذ العلماء البارعون في التآليف المعتبرة في هذا الفن وهو علم من العلوم الشرعية المدونة للبحث عن ذات الله تعالى وصفاته واحوال الممكنات من المبدإ والمعاد على قانون الاسلام

قال بعض المؤلفين انهم اقتفوا بهذا العلم اثر ارسطاطاليس الفيلسوف اليوناني

الذي اخذوا عنه علم المنطق وزادوا عليه ايضًا امورًا أُخر من اجتهادهم وعلى هذه الصفة اخذ الافرنج ايضًا عنهم قواعدهم واصولهم الفلسفية التي تقرأ في المدارس ببلاد اوربا ويسمّونها علم الكلام السكولاستيكي (اي اللاهوت المدرسي)

التاريخ . لا يخفى ان التاريخ بمعناهُ الحقيقي له ثلاث درجات . فالدرجة الاولى هي مجرَّد علم الازمنة الماضية وتاريخها فقط من غير التفات الى حوادثها وهذه الدرجة تكون اساسًا الى الدرجة الثانية التي هي علم سلسلة الزمان وتاريخ ادوار وترتيبهم ونسبة زمان كل قوم ومقابلة احكامهم بوجهٍ مجمل وهذه الدرجة تكون اساسًا للدرجة الثالثة التي هي علم السِيَر والاخبار وهذه الدرجات الثلاثة يقال لكلٍّ منها تاريخ وكلها لا وجود لها في العصر الجاهليّ اصلاً وانما حدثت بعد ظهور الاسلام كما يتضح ذلك من الابحاث الآتية

ان ما يروى من اخبار العرب في الجاهلية لم يُعرَف زمن وقوعه بالتحقيق الادق الّا اذا كان بعضه يُلاحَظ له زمنٌ باعتبار ما من وجود قران له حالية ما لو كان له علاقة مع بعض الاشخاص المشهورين من شعوب اخرى غير العرب او كان مرتبطًا كذلك بحادثة من الحوادث المعروفة العهد لسائر الامم ومع ذلك الّا لكون العرب المذكورين لم يعرفوا ان يتخذوا لهم زمنًا لحادثة من الحوادث يجعلونه اساسًا لمعرفة ما يجدّ بعدهُ من وقائعهم الاخرى بالنسبة اليه كما حصل اخيرًا بعد ظهور الاسلام وانما كانوا يوقتون اوقاتهم بطلوع النجم واوقات سيرهم يحفظونها بالانواء حتى انهم كانوا يسمّون الوقت الذي يجئ فيه الاداء نجمًا تجوّزًا لان الاداء لا يُعرف وقته عندهم الّا بواسطة ظهور النجم المعيَّن له وكانوا يذكرون ما لهم من الوقائع بدون معرفة مقدار ما مرّ عليها من السنين كما هو الحال في كثيرٍ من الاميين في وقتنا هذا الذين يذكرون وقائع شهيرة جرت في الاعصار الخالية ولا يعرفون زمن وقوعها ويقولون مثلاً الحروب الصليبية وفتوح القسطنطينية بدون ان يعرفوا أيّة واقعة كانت قبل الاخرى ولا كم من السنين مرّ بعد وقوعها وهكذا كانت العرب ايضًا تحكيه

نذكر بعض الحروب التي جرت بين قبائلها من غير معرفة ازمنة وقوعها ولا ايّها وقعت قبل الاخرى وانما يميزونها باضافتها اما الى اسماء بعض الامكنة التي جرت فيها كيوم الكديد مثلاً بين بني سليم وبني كنانة ويوم البيداء بين حمير وبني كلب واما الى اشياء أُخر تمتاز بها كيوم عام الفيل وبنيان الكعبة ولذلك كان جلّ ما عُرِف لهم من الحوادث لا يتجاوز مدة التاريخ المسيحي لانهُ على ما قيل ان كنانة احدى قبائل العرب حسبت من موت كعب بن لوي حتى كان عام الفيل وهو العام الذي ملك فيه النجاشي اليمن سنة ٥٢٩ م وجعل الملك عليه ارباط ابا ابرهة الاشرم صاحب الفيل المذكور فاضافوا الواقعة الى فيلهِ وقالوا عام الفيل كما ذكرنا وكان بين موت كعب المذكور والفيل خمس مئة وعشرون سنة وكان بين الفيل والفجار[1] اربعون سنة ثم عدّوا من الفجار الى وفاة هشام ابن مغيرة فكان ست سنين ثم عدّوا من وفاة هشام الى بنيان الكعبة فكان تسع سنين ثم كان بين بنائها وبين الهجرة خمس عشرة سنة

ومعنى الهجرة هو هجر صاحب الشريعة الاسلامية مكة وتوطنهُ في المدينة وكان ذلك على ما حسبهُ العلامة الفاضل رفاعة بك الطهطاوي يوم الجمعة الواقع في سادس عشر تموز سنة ٦٢٢ م وقد اختارها المسلمون مبدءًا لتاريخهم كما سبقت الاشارة الى ذلك في اول الفصل الثالث من المقالة التاسعة

وقال ابن خلدون المغربي ان تاريخ مدة الجاهلية وان يكن قد عرفهُ

---

(1) الفجار يوم من ايام العرب وهي اربعة فجارات احدها كان بين كنانة وهوازن في موضع بين مكة والطائف يقال له عكاظ . والثاني بين قريش وكنانة في مكان يقال له شمطة . والثالث بين كنانة ونصر بن معاوية في العبلاء . والرابع بين قريش وهوازن في عكاظ وكان السبب في ذلك ان رجلاً يقال له البراض بن قيس الكناني قتل رجلاً يقال له عروة الرحال فهاجت الحرب بينهم ولما سمت قريش هذه الحرب فجاراً لانها كانت في الاشهر الحرام فقد قاتلوا فيها وقد حضرها صاحب الشريعة الاسلامية وهو ابن عشرين سنة وفي الحديث كنت انبل على عمومتي يوم الفجار ورميت فيه باسهم وما احب اني لم اكن فعلت

المسلمون اخيرًا الاّ ان ضعفاء الاخباريين منهم يعتمدونه تاريخًا لوجود آدم الاب الاول للجنس البشري الموجود الآن على سطح الكرة وليس هو لمطلق المخلوقات التي امكنها الباري تعالى جلّت عظمته فيها فهم يتبعون في ذلك آراء بعض الحكماء القائلين بقدمية العالم والادوار ووجود عوالم أُخر قبل آدم كالحن[1] والطم وغيرها

فاذًا بعد ان عرفنا هذا جميعه عن الدرجة الاولى التي هي اوّل اساس للتاريخ وانها كانت مجهولة الاسم والرسم عند الجاهلية وانما حدثت عند العرب بعد الاسلام ولا يلزمنا ان نبحث عن الدرجة الثانية فصلاً عن الثالثة الاّ في العصر الاسلامي حيثما عرف العرب ضرورة التاريخ وفصلوا بجملة ما عرفوهُ من العلوم والفنون التي مارسوها من بعد ان تولّى العباسيون تخت الخلافة على ما تقدم قال صاحب تذكرة الحكم ان التاريخ مع كونهِ معدودًا من العلوم العربية لم تؤلّف فيهِ العرب الاّ في الازمنة الاخيرة

اما ما وصل الى المتأخرين من اخبار الجاهلية المذكورين غير ما جاءت بهِ الكتب الدينية فانما وصل اليهم برواية الرواة الآتي ذكرهم قال ابن خلدون انهُ لم يكن للعرب كتاب لبداءتها وانما بقي من اشعارها ما ذكرهُ رواة الاسلام وقيدوهُ من محفوظ الرجال

ثم ان هولاء الرواة الذين كانوا يطوفون احياء العرب ويقيّدون بعد البحث لعاتهم وينقلون عنهم الاحاديث الشائعة بينهم بالنقل الشفاهي عن البعض من امرائهم وشجعانهم ووقائعهم وعوائدهم وآدابهم وملابسهم ومآكلهم وخيومهم ومواشيهم ومعارفهم وانسابهم الى غير ذلك مما بحثوا عنه لم يمكنهم ان ينسقوا ما

---

(1) الحن راجع اسماء اهل العلم الروحاني في الفصل الخامس من المقالة الرابعة وعند الدروز هو ثاني العوالم الثلاثة التي يعتقدون بوجودها وهي عالم الجن وعالم الحن وعالم البن وهذا الاخير هو الذي نحن منه ومن المعلوم انهم يتبعون في ذلك آراء بعض الفلاسفة كما في كثير من معتقداتهم

دوّنوهُ في طواميرهم على اسلوب التواريخ المعتادة بل وضعوا مؤلفاتهم على سبيل مجاميع حكايات ونوادر متفرقة بل ان البعض منهم لم يكتفوا بتدوين بعض قصص المشاهير من الشجعان بحسب ما كانت تترنم به ربما مع المبالغة تلك القبائل التي ينسبون اليها بل زخرفوها بكل ما وصلت اليه مبالغاتهم من التمييقات بنوع يفوق ما جرت به عادة امثالهم من اوائل المؤرخين الذين كانوا المداة في جمع اخبار اصولهم القديمة ولذلك بتل الاعتماد عليها غالباً لكون كثيرٍ منها يجل على الخرافات التي معظمها خالٍ عن الفائدة نظير قصة عنترة وامثالها والظاهر ان الذي حملهم على ذلك هو ما غُرِس في خلقهم طبعاً من الكرم والعشق والميل الى الاستقلال والتفاخر بحيث لم تعُد نفسهم في ذلك جميع النوادر المحتملة الوقوع ومن مطالعة ترجماتهم الآتية تعلم كيفية مؤلفاتهم والطريقة التي اختاروها في تأليفها

فمن الرواة المذكورين حماد الراوية وهو ابو القسم بن ميسرة بن المبارك بن عبيد الديلمي الكوفي مولى بني بكر بن وائل وكان يُضرَب به المثل في الحفظ فيقال أحفظ من حماد وكان اعلم الناس بايام العرب واخبارها واشعارها ولغاتها وهو الذي جمع السبع الطول اي المعلقات الشعرية التي مرّ ذكرها في الفصل الثالث من المقالة السادسة ويقال ان ملوك بني أُمية كانت تقدّمهُ وتؤثرهُ وتستزيرهُ وكان ينادمهم ويجزلون صلته الا انه كان غير ثقة في نقله فكان يزيد في الاشعار ما ليس منها ويقال انه كان بالكوفة ثلاثة انفار يقال لهم الحمادون وهم حماد هذا وحماد عجرد وحماد بن الزبرقان يتنادمون على الشراب ويتناشدون الاشعار ويتعاشرون معاشرةً جميلة وكانوا يُرمون بالزندقة جميعاً توفي حماد الراوية سنة ١٥٥ للهجرة (سنة ٧٧١م)

ومنهم ابو عبد الرحمن الهيثم بن عدي الطائي الثعالي البحتري الكوفي كان راويةً اخبارياً ويرى رأي الخوارج ومن مؤلفاته كتاب المثالب وكتاب المعمرين وكتاب بيوتات العرب وكتاب بيوتات قريش وكتاب هبوط آدم وافتراق

العرب ورودها ومسارها وكتاب رول العرب بخرسان والدواد وكتاب نسب طيء وكتاب مديح اهل الشام وتاريخ العجم وبني أمية وكتاب من تزوج من الموالي من العرب وكتاب الوفود وكتاب خطط الكوفة وكتاب تاريخ الاشراف الكبير وكتاب تاريخ الاشراف الصغير وكتاب طبقات الفقهاء والمحدثين وكتاب كنى الاشراف وكتاب خواتم الخلفاء وكتاب قضاة الكوفة والبصرة وكتاب المواسم وكتاب الخوارج وكتاب النوادر وكتاب التاريخ على السنين وكتاب اخبار الحسن بن علي بن ابي طالب وكتاب اخبار الفرس وكتاب عمّال الشُرَط[1] لامراء العراق وغير ذلك توفي سنة ٢٠٧ للهجرة (سنة ٨٢٣ م)

ومنهم الاصمعي وهو ابو سعيد عبد الملك بن قريب بن عاصم بن عبد الملك ابن اصمع بن مظهر بن رياح بن عمرو بن عبد الله الباهليّ نسبةً الى باهلة قبيلة من قبائل العرب توصف بالخساسة ولذلك يقول بعض الشعراء

لو قيل للكلب يا باهليّ عوى الكلب من لؤم ذاك النسب

كان في عصر الخليفة هرون الرشيد وولده المأمون وكان فسيح المطار للغاية ألّف على ما قيل نحو مئتي مجلّد جمع فيها روايات العرب واحاديثهم يضرب به المثل في سعة الرواية وكثرة الحكايات والنوادر فيقال اروى من الاصمعي ومن مؤلفاته كتاب خلق الانسان وكتاب الاجناس وكتاب الانواء وكتاب الهمزة وكتاب المقصور والممدود وكتاب الفرق وكتاب الصفات وكتاب الانواب وكتاب الميسر والقِدح وكتاب خلق الفرس وكتاب الخيل وكتاب الابل وكتاب الشاء وكتاب الاخبية وكتاب الوحوش وكتاب فعل وافعل وكتاب الامثال وكتاب الاضداد وكتاب الالفاظ وكتاب السلاح وكتاب اللغات وكتاب مياه العرب وكتاب النوادر وكتاب اصول الكلام

(١) الشرط هم اعوان الوالي واحدهم شرطي ويقال له في ايامنا هذه ضابطي نسبة الى الضابطة اي الحكومة

وكتاب القلب والابدال وكتاب جزيرة العرب وكتاب الاشتقاق وكتاب معاني الشعر وكتاب المصادر وكتاب الاراجيز وكتاب الخلة وكتاب النبات وكتاب ما اتفق لفظه واختلف معناهُ وكتاب غريب الحديث وكتاب نوادر الاعراب وغير ذلك توفي سنة ٢١٧ للهجرة (سنة ٨٣٢ م)

ومنهم ابو عبيدة معمَّر بن المثنى التيمي البصري النحوي وهو اول من صنَّف الغريب (اي البعيد عن الفهم من اللغة والمعاني) قال الجاحظ لم يكن في الارض خارجي ولا جماعي اعلم بجميع العلوم منه وكان من الشعوبية يرى رأي الخوارج وبعدًا ألثغ مدخول النسب مدخول الدين وكان لا يقبل شهادته احد من الحكام وكان طويل الاظفار والشعر ابدًا ويغضب من تلقب ابي عبيدة لانه من اسماء اليهود ونُسب به تعريضًا بان جدَّهُ يهودي وكان يبغض العرب أنَّف في مثالبها وزعم الباهليُّ صاحب كتاب المعاني ان طلبة العلم كانوا اذا اتوا مجلس الاصمعي اشتروا الدرَّ في سوق البعر لانهُ كان حسن الانشاد والزخرفة لرديّ الاخبار والاشعار حتى كان يحسن عندهُ القبيح وان الفائدة مع ذلك قليلة وان ابا عبيدة كان معهُ سوء عبارة مع فوائد كثيرة وعلوم جمَّة وهو اول من دوَّن العربيَّة على ما سبقت الاشارة اليهِ في الكلام على اللغة وتصانيفه تقرب المئتين منها كتاب مجاز القرآن وكتاب غريب القرآن وكتاب معاني القرآن وكتاب غريب الحديث وكتاب الديباج وكتاب التاج وكتاب الحدود وكتاب خراسان وكتاب خوارج البحرين واليمامة وكتاب الموالي وكتاب البله وكتاب الخيل وكتاب مرج راهط وكتاب المنافرات وكتاب القبائل وكتاب خبر البرَّاض (١) وكتاب القرائن وكتاب البازي وكتاب الحمام وكتاب الحيَّات وكتاب العقارب وكتاب النواكح وكتاب النواشز وكتاب حصر الجبل وكتاب الاعيان وكتاب بيان باهلة وكتاب ايادي الازد وكتاب الجبل وكتاب الابل وكتاب الانسان وكتاب الزرع وكتاب الرحل وكتاب الدلو وكتاب البكرة وكتاب السرج

(١) البرَّاض من حلف مائة كلمة اكثر ج براض

وكتاب اللجام وكتاب الفرس وكتاب السيف وكتاب الشوارد وكتاب الاحلام وكتاب مناقل الفرسان وكتاب مقاتل الاشراف وكتاب الشعر والشعراء وكتاب فعل وافعل وكتاب المثالب وكتاب خلق الانسان وكتاب الزرق وكتاب الحث وكتاب مكة والحرم وكتاب الجمل وصفين وكتاب بيوتات العرب وكتاب النغات وكتاب الغارات وكتاب المعاتبات وكتاب الملاومات وكتاب الاضداد وكتاب مآثر العرب وكتاب مآثر غطفان وكتاب ادعية العرب وكتاب مقتل عثمان وكتاب اسماء الخيل وكتاب الفقه وكتاب قضاة البصرة وكتاب فتوح الاهواز وكتاب فتوح ارمينية وكتاب لصوص العرب وكتاب اخبار الحجاج وكتاب قصة الكعبة وكتاب الحُمْس من قريش وكتاب فضائل الفرس وكتاب ما تلحن فيه العامة وكتاب السواد وفتحه وكتاب من شكر من العمال وحُمِد وكتاب الجمع والتثنية وكتاب الاوس والخزرج وكتاب محمد وابرهيم ابني عبد الله بن الحسن وكتاب الايام الصغير وكتاب الايام الكبير وكتاب ايام بني مازن واخبارهم وغير ذلك مات بالبصرة سنة ٢١٨ للهجرة (سنة ٨٣٤م)

ومنهم ابو الفرج الاصبهاني علي بن الحسين بن محمد بن احمد بن محمد بن احمد بن الهيثم بن عبد الرحمن بن مروان بن محمد بن مروان بن الحكم وجده مروان المذكور آخر خلفاء بني أمية وهو اصبهاني الاصل بغدادي المنشأ كان شديد العناية باخبار العرب وهو صاحب كتاب الاغاني الذي وقع الاتفاق انه لم يكتب مثله في بابه كان في ايام سيف الدولة ابن حمدان وكان يحفظ من الشعر والاغاني والاخبار والآثار والاحاديث المسندة والنسب واللغة والنحو والخرافات والسير والمغازي ومن آلة المنادمة مثل علم الجوارح والبيطرة ونتف من النجوم والطب والاشربة وله شعر يجمع اتقان العلماء واحسان الظرفاء والشعراء من تصانيفه ايضاً كتاب القيان وكتاب الاماء الشواعر وكتاب الديارات وكتاب دعوة التجار وكتاب مجرّد الاغاني وكتاب جحظة البرمكي

ومقاتل الطالبين وكتاب الحانات وآداب الغرباء وكتاب نسب بني عبد شمس وكتاب ايام العرب الذي سبق ذكرهُ في الفصل الثالث من المقالة الخامسة وكتاب التعديل والانتصاف في مآثر العرب وامثالها وكتاب جمهرة النسب وكتاب نسب بني شيبان (احدى امهات القبائل الاربع وهم عرب العراق) وكتاب نسب المهالبة الذين كانوا وزراء بني أمية وقد مرَّ ذكرهم في الفصل الاول من المقالة السادسة وكتاب نسب بني تغلب ونسب بني كلاب وكتاب الغلمان المغنين وغير ذلك توفي سنة ٣٥٦ للهجرة (سنة ٩٦٦م)

الفصل الثاني

في فنّ التطريب المعروف بالموسيقى

قال ابن خلدون المغربي ان الغناء لا يحدث الا في العمران متى توفّر وجاوز الحدّ الضروريّ الى الحاجيّ ثم الى الكمالي وصناعة لا يستدعيها الا من فرغ من حاجاته الضرورية والمهمة من المعاش والمنزل ولا يطلبها الا الفارغون عن سائر احوالهم ولذلك لم يكن للعرب اولاً الا فن الشعر يؤلفون فيه الكلام اجزاء متساوية على تناسب بينها في عدّة حروفها المتحركة والساكنة ويفصلون الكلام في تلك الاجزاء تفصيلاً يكون كل جزء منها مستقلاً بالافادة لا ينعطف على الآخر ويسمونه البيت فتلائم الطبع بالتجزئة اولاً ثم بتناسب الاجزاء في المقاطع والمبادئ ثم بتأدية المعنى المقصود وتطبيق الكلام عليها فلهجوا به فامتاز

من يرى كلامهم بحظٍ من الشرف ليس لغيره لاجل اختصاصه بهذا التناسب وجعوهُ ديوانًا لاخبارهم وحكمهم وشرفهم ومحكًّا لقرائحهم في اصابة المعاني واجادة الاساليب واستمرّوا على ذلك مع ان هذا التناسب الذي هو من اجل الاجزاء والمتحرك والساكن من الحروف قطرة من بحرٍ من تناسب الاصوات الموسيقية كما يُعرَف ذلك من كتب الموسيقى الا انهم لم يشعروا بما سواهُ لانهم لم ينتحلوا علمًا ولا عرفوا صناعة ثم تغنّى الحداة منهم في حداء ابلهم والفتيان في فضاء خلواتهم فرجّعوا الاصوات وترنموا اه. وقال آخرون بان للعرب في الجاهلية لحن آخر ارقُّ من الحداء يغنون بهِ يُعرَف عند اهل الموسيقى بالسلك ويسمى نصب العرب

وكانوا يسمون الترنم اذا كان بالشعر غناء واذا كان بالتهليل وانواع القراءة تغبيرًا بالغين المعجمة والباء الموحدة وعللها ابو اسحق الزجاج بانها تذكّر بالغابر وهو الباقي اي باحوال الآخرة وربما ناسبوا في غنائهم بين النغمات مناسبة بسيطة كما ذكرهُ ابن رشيق في آخر كتاب العمدة وغيرهِ وكانوا يسمونهُ السناد وكان اكثر ما يكون منهم في الخفيف الذي يرقص عليهِ ويمشي في الدف والمزمار فيطرب ويستخف الحلوم وكانوا يسمون هذا الهزج وهذا البسيط كلهُ من التلاحين الذي هو من اوائلها ولا يبعد ان تتفطن لهُ الطباع من غير تعليم

وكانت آلات طربهم الطبول والمزامير ولا زال ذلك مستعملًا عند عرب المغاربة وتغني عندهم البنات على صوتهِ

وكانوا يضربون المثل بحسن الصوت في رجلٍ يقال لهُ بُديح كان حسن الصوت في الجاهلية ورجل آخر يقال لهُ جذيمة بن سعد الخزاعي واطلقوا عليهِ اسم المُصطلق لحسن صوتهِ وشدتهِ

ويقال ان اول من غنّى في العرب قينتان لنعمان يقال لهما الجرادتان على ما رواهُ الشيخ ناصيف اليازجي في كتابهِ مجمع البحرين ولكن الميداني يقول في مجمع الامثال ان العرب تقول في امثالها أنعم من جرادتين وهما قينتان

لماوية بن بكر العبيقي سيد العمالقة الذين كانوا ارباب بمكة في قديم الزمان واسمها ثماد وثماد وفي حاشية الشهاب على القاضي البيضاوي في سورة الاعراف كان اسم احداهما وردة والاخرى جرادة فقيل لها جرادتان على التغليب وفي كتاب الاغاني لابي الفرج الاصبهاني ان الجرادتين كانتا لعبد الله بن جدعان نعيان في الجاهلية سماهما بجرادتي عاد ووهبهما لامية بن ابي الصلت الثقفي

ثم لما جاء الاسلام واستولت العرب على الملك وصاروا الى نضارة العيش ورقة الحاشية وافترق المغنون من الفرس والروم فوقعوا الى الحجاز وصاروا موالي للعرب غنوا جميعاً بالعيدان والطنابير والمعازف والمزامير وسمع العرب تلحينهم للاصوات فلحنوا عليها اشعارهم وظهر بالمدينة نشيط الفارسي وطويس وسائب خاثر مولى عبد الله بن جعفر فسمعوا شعر العرب ولحنوه واجادوا فيه ثم اخذ عنهم معبد المغني وطبقته وابن سريج وانظاره وما زالت صناعة الغناء تتدرج الى ان كملت في ايام بني العباس عند ابرهيم المهدي وابرهيم الموصلي وابنه اسحق وابنه حماد وكان من ذلك في دولتهم ببغداد ما تبعه الحديث بعده به وبمجالسه لهذا العهد وعنهم اتصلت ببلاد المغرب

واتخذت آلات الرقص في الملبس والقضبان والاشعار التي بها يترنم بها وجعل صنفاً وحده واتخذت آلات اخرى للرقص تسمى الكرج وهي تماثيل خيل مسرجة من الخشب معلقة باطراف اقبية يلبسها النسوان ويحاكين بها امتطاء الخيل فيكرون ويفرون ويثاقفون وامثال ذلك من اللعب المعد للولائم

الفصل الثالث

في انتباه العرب لطلب العلوم الفلسفية بعد الاسلام

قبل ان نتكلم على انتباه العرب للعلوم والفنون وغير ذلك من المعارف وخاصة الفلسفة وما زينوا به اخيرًا تلك الانتصارات الفاخرة لاسيما في زمن الخلفاء العباسيين بالمشرق والامويين بالمغرب ينبغي ان نذكر ما وقع من هؤلاء الفاتحين المسلمين من الاضرار التي اصابت معارف تلك البلاد وعلومها والآثار القديمة التي كانت تتحلى بها في عصر اسلافهم نظرًا لجهلهم بهما وعدم معرفتهم منفعتها وفوائدها

قال بعض المؤلفين انه متى صرفنا النظر عن فوائد التجارة التي اكتسبتها هذه البلاد بعد الفتوح والتفتنا الى ما عداها من الامور التي جرت في اقسام الارض التي داستها العرب من اسيا وافريقية واوربا وما فعلوهُ من الفظائع نجد انهُ لاشيء يقدر ان يعزّي تلك البلاد عما خسرتهُ من التحف الجميلة والذخائر النفيسة التي تلفت بحريق المدن مع المكاتب العظيمة وهدم الابنية والآثار القديمة وكسر التماثيل البديعة التي كانت زينةً للبلاد وغير ذلك من الامور التي يتأسف منها كثيرًا المولعون في النفائس والغرائب ولا يمكن تعويضها بشيءٍ من الاشياء هذا عدا عن القتل والنهب والسبي والسلب وقد اقام هؤلاء الفاتحون نحو قرن ونصف من الزمان في حروب خارجية وداخلية غير ملتفتين لشيء من المعارف والفنون بل ابادوها بالكلية حتى انهم بعد ما انتبهوا اليها اخيرًا وارادوا ممارستها لم يجدوا لها اثرًا في ممالكهم التي كانت في ما سلف مصدرًا لها فاحتاجوا ان يطلبوها من بلاد اليونان وغيرها

وكانت النكبة الاولى التي حلّت بالمكاتب في حريق مكتبة الاسكندرية التي حرقها عمرو بن العاص بامر الامام عمر بن الخطاب على ما رواهُ مترجم[1] تاريخ القرون الوسطى نقلاً عن ابي الفداء (مجلد ١ صفحة ١٥١) وقد تأسف ابن خلدون المغربي ايضاً على علوم الفرس التي امر بمحوها عثمان بن عفّان اما المكاتب التي كانت باقية في انطاكية وبيروت وقيصرية فانها اندرست بمجرد رؤيتها الى اعلام المسلمين ومكاتب دمشق حرقها يزيد بن عبد الملك الاموي سنة ١٠١ للهجرة (سنة ٧١٩ م)

وكذلك تأسف ابن خلدون المذكور على ما كان عزم عليهِ هرون الرشيد العباسي من خراب ايوان كسرى الذي كان بناهُ على ما حكاهُ مؤرخو العرب سابور ذو الاكتاف وقال انه لما شرع الرشيد المشار اليهِ في ذلك ادركهُ العجز وكان استشار فيهِ يحيى بن خالد البرمكي وهو في محبسهِ فنهاهُ عنهُ وقال لا تفعل يا امير المؤمنين واتركهُ ماثلاً يستدل بهِ على عظم ملك آبائك الذين سلبوا الملك من اهل ذلك الهيكل. فاتهمهُ الرشيد وظن بان النخوة العربية تهيج وشرع في هدمهِ وجمع الايدي عليهِ واتخذ له الفؤوس وحماه بالنار وصب عليه الخل حتى ادركهُ العجز بعد ذلك كلهِ وخاف الفضيحة بعث الى يحيى يستشيرهُ ثانياً في التجافي عن الهدم فقال لا تفعل يا امير المؤمنين واستمرَّ على ذلك لئلاَّ يقال بانك عجزت عن هدم مصنع من مصانع العجم فعرفها الرشيد واقصر عن هدمهِ

وليس ذلك بأعجب من كون المامون العباسي ابن الرشيد المشار اليهِ الذي كان مولعاً بالفلسفة وعلوم الاوائل اراد هدم الاهرام الشهيرة بمصر وجمع الفعلة لهدمها فلم يجُل بطائل قال ابن خلدون وشرعوا في نقبهِ فانتهوا الى جوّ بين الحائط الظاهر وما بعدهُ من الحيطان وهو الى اليوم في ما يقال منفذ ظاهر

(1) مترجم هذا الكتاب المطبوع في مصر هو رفاعة بك الطهطاوي الشهير والفصل المدرجة في هذه الاجزاء هي للمترجم اورى ... وضعها في هذا الكتاب عوضاً عن فصل للمؤلف الاصلي انكرهُ عليهِ ... ووضع هذا الفصل من كلامهِ هو بعينه بلا ...

وقال المقريزي ايضاً او امكن الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين الايوبي الذي استقلّ بملك مصر بعد ابيه ان يزيل هذه الاهرام ويمحو اثرها لما تأخر عن ذلك فانهُ ابتدأ بهدم الصغير منها ولا زال الى ان نفذت النفقات وضاعف النصب ووهنت عزائم العملة وكلّوا محسورين لم ينالوا بغية بل شوهوا الهرم وابانوا عن عجزٍ وفشل

وكانت العامة ايضاً تتلف الآثار والابنية اما طمعاً في وجود الدفائن والخبايا كما فعل الوليد الاموي في منارة فاروس بالاسكندرية او لازالة ما يكرهون عليه كالهياكل والصور والاوثان نظير ما فعل رجلٌ يقال له الشيخ محمد صائم الدهر الذي كان موجوداً في آخر القرن الثامن للهجرة والرابع عشر الميلاد فانهُ شوّه وجه الصنم الكائن بالقرب الاهرام المذكورة ويسمّونهُ ابا الهول او لتستعمل موادها في شيء آخر نظير ما فعل الامير بلاط بمصر سنة ٧١١ هجرية (١٣١١م) بكسره الصنم المعروف بالسربة وقطعهُ اعتاباً وقواعد للعمد الصوان التي بجامع الجديد المعروف بالناصري

وليس انهم كانوا يفعلون ذلك في الآثار القديمة المختلفة عن غير العرب فقط بل في كل انتقالات اني وقعت في دولهم الحديدة كانوا يهدمون ويحرقون ويمحون آثار بعضهم بعضاً قال المقريزي وهذا شأن الملوك ما زالوا يطمسون آثار من قبلهم ويميتون ذكر اعدائهم فقد هدموا بذلك السبب اكثر المدن والحصون وكذلك كانوا في ايام العجم وفي جاهلية العرب وهم على ذلك الى ايام الاسلام فقد هدم عثمان بن عفان صومعة غمدان الذي مرّ ذكرهُ في الفصل الاول من المقالة الخامسة وهدم الآطام التي كانت بالمدينة وهدم زياد بن ابيهِ كل قصرٍ ومصنع كان لابن عامر في مصر وهدم بنو العباس مدن الشام لبني مروان

وقال ابن خلدون المغربي ان العرب اذا تغلّبوا على اوطانٍ اسرع اليها الخراب لانهم امة وحشية باستحكام عوائد التوحش واسبابه فيهم فصار لهم خلقاً وجبلةً وكان عندهم ملذوذاً لما فيهِ من الخروج عن ربقة الحكم وغاية الاحوال

المادية عدم الرحلة والتغلّب واما الحجر فلما حاجتهم اليه لنصب اثافي القدر فينقلونه من المباني ويخربونها عليه والخشب ليعمروا به خيامهم فيخربون السقف عليه فلذلك صارت طبيعة وجودهم منافية للبناء واذا تمّ اقتدارهم على ذلك بالتغلّب والملك تعطلت السياسة في حفظ اموال الناس وخراب العمران فلا يرون لأعمال اهل الصنائع والحرف قيمة ولا قسطاً من الاجر والثمن فهم متنافسون في الرياسة وقلّ ان يسلّم احدٌ منهم الامر لغيره ولو كان اباه او اخاهُ او كبير عشيرته الّا في الاقلّ وعلى الكره فيتعدّد الحكام منهم والامراء وتختلف الايادي على البلاد فيفسد العمران وانظر الى ما ملكوهُ وتغلّبوا عليه من الاوطان من لدن الخليقة كيف تقوّض عمرانه واقفر ساكنه وبدّل قرارهم في خراب الّا قليلاً من الامصار وعراق العرب الذي كان للفرس اجمع قد خرب عمرانه والشام لهذا العهد وكذلك افريقية والمغرب لما جاز اليها بنو هلال وبنو سليم منذ اول المئة الخامسة (القرن الثاني عشر للميلاد) قد لحقت بها وعادت بسائطه خراباً كلها بعد ان كان كلّه عمراناً

وبناء على ما ذكر جميعه يلزمنا ان نبحث هنا عن السبب الذي بعثه الميل في طلب قوم كالعرب المذكورين الذين هذه الصفات صفاتهم للعلوم والفنون والرغبة الزائدة في الصنعة القديمة كما يتضح ذلك من الفصل الآتي والذي يظهر لنا انه لا سبب لذلك يمكن ان نعتبره وجيهاً الّا رغبتهم الزائدة في معرفة مستقبل احوالهم التي منذ زمن جاهليتهم يظنون كل الظنّ بانها تحصل لهم جزءاً من اتقان علم الفلك لانهم كانوا يعتقدون في انواء المنازل اعتقاد المنجمين في السيارات على ما سبقت الاشارة اليه في الكلام على الصناعة من الفصل الرابع من المقالة الرابعة في المدارك الغيبية واخيراً أيّد لهم ذلك كل التأييد الاطباء الذين استخدموهم منذ ظهور الاسلام من الروم والفرس وغيرهم كما يتضح ذلك مما يأتي وبهذه الواسطة انساقوا الى طلب كل العلوم والمعارف الفلسفية لانهم اقنعوهم بما كانوا يعتقدونه وهو المعوّل عليه عندهم بانه لا يتأتى

لانسان ان يكون طبيبًا ما لم يكن منجمًا ولا منجمًا حاذقًا الاّ اذا كان فيلسوفًا وبرهن لنا صحة ما قلناهُ ان الخلفاء العباسيين لم يطلبوا شيئًا من العلوم ولا ترجموا كتابًا من كتب الاعاجم قبل ان ترجموا كتاب سند هند الكبير للخليفة ابي جعفر المنصور العباسي كما سوف يأتي الكلام على ذلك في محلهِ وهكذا الخليفة المأمون الذي هو اوّل من ادخل العلوم المذكورة بين الاسلام لم يتقن علمًا من هذه العلوم الاَّ علم الفلك

ومن ثمَّ عرفت العرب قدر الكتب القديمة وعدلوا عما كانوا اعتادوهُ من حرق المكاتب في البلاد التي كانوا يفتحونها وابدلوا الازدراء بهـــا بالالتفات اليها والمحافظة عليها الى ان صارت عندهم من اعظم الغنائم التي يغنمون بهــــا ملوكهم فينقلونها الى عواصم بلادهم

وكانت بداءة هذا الفعل الحميد في زمن الخليفة هرون الرشيد خامس الخلفاء العباسيين المشار اليهم فان هذا الخليفة ابدى في العلم رغبة فائقة قال بعض المؤرخين انه كان لا يخرج الاَّ في مئة من العلماء ورفع منار المعارف في بلادهِ وقرب اليهِ اهلها ووضع لهم احكامًا حسنة كوجوب اقامة مكتب بجانب كل جامع نشرًا للعلم في مملكتهِ وبذل روح اهلها واستمالهم الى الحضارة

الفصل الرابع

في جمع الكتب القديمة وترجمتها

وكان لما افتتح الخليفة هرون الرشيد المتقدم ذكرهُ مدينة انقره وجد بها عددًا كثيرًا من الكتب التي كانت محفوظة في خزائنها فاحضروها الى بغداد ومن ثمَّ امر هذا الخليفة يوحنا بن ماسويه طبيبه وسوف ياتي ذكرهُ في الكلام على الطب ان يترجمها الى اللسان العربي فترجم اكثرها وكان جعفر البرمكي وزير هذا الخليفة وجماعة من اهل بيتهِ يعتنون ايضًا بترجمتها اعتناء زائدًا فقال فيهم بعض الشعراء

اولاد يحيى اربعٌ كاربع الطبائع
فهم اذا اخبرتهم طبائع الصنائع

ومع ذلك لم يبلغ هذا الخليفة ولا غيرهُ ممن اتى بعدهُ درجة ابن الخليفة عبد الله المأمون الذي مرَّ ذكرهُ لان هذا الامير الذي اشتهر بكثيرٍ من المعارف والعلوم كان اكثر رغبة ممن تقدمه في طلب الفلسفة وكان يكرم العلماء واصحاب المعارف ويجمعهم من كل جهةٍ لتزين بهم دار سلطنتهِ ويعتني بكل جهدهِ في ترجمة الكتب اليونانية الى اللغة العربية قال بعض المؤلفين ان في ايام خلافة هذا الخليفة زهت العلوم واينعت حدائق المعارف فبعث العلماء الى الاقطار وجمع من كتب اليونان كل ما طالت يدهُ اليهِ ثم استخلص نفائسها وامر بترجمتهِ وتوزيعهِ على اهل بلادهِ وشغف بالعلم كل ايامهِ ولم يكن مجالس

الأ العلماء ولم يألُ جهدًا عن جمعهم اليهِ وقال آخرون انهُ بذل الى ثاوفيلس قيصر القسطنطينية مئة وزنة من الذهب على ان يبعث اليهِ بلاون الرياضي الكبير فابى واغلظ له في الجواب بما معناهُ لا ينبغي بنا ان نبذل اهل العلم الى قوم متبربرين لكن صاحب تذكرة الحكم يقول غير ذلك وترجمة ما قالهُ هو ان المأمون ارسل رسولاً الى ملك الروم بهدايا وتحف جزيلة وطلب منهُ ان يبعث له بكتب الفلاسفة التي كانت موجودة وقتئذٍ بمكتبة اثينا قصبة اليونان فبعث بها اليهِ فاهتم بترجمتها الى العربية . وقفى اثرهُ في هذه المهمة بعض الخلفاء من بعدهِ وزادت رغبة الناس في هذه الكتب وجدُّوا في مطالعتها وتعلمها فكثرت العلوم الفلسفية واشتهرت اشتهارًا عظيمًا

قال ابن خلدون المغربي لم يصل الى العرب من علوم الفرس والكلدانيين واهل بابل والقبط شيء وانما وصل اليهم علوم امةٍ واحدةٍ وهي اليونان خاصة لكلف المأمون باخراجها من لغتهم واقتدارهِ على ذلك بكثرة المترجمين وبذل الاموال فيها

وذكر ابو معشر البلخي في بعض مؤلفاته ان عدة المترجمين في التراجم اربعة اشخاص احدهم حنين بن اسحق العبادي وكان طبيب الخليفة المأمون المشار اليهِ وسيأتي ذكرهُ مع الاطباء وكان عارفًا باللغة اليونانية وماهرًا في العربية ايضًا اخذ العربية عن الخليل بن احمد فلما قدم الى بغداد في ايام المأمون امرهُ فترجم له عدَّة من الكتب منها كتاب اقليدس الذي نقحهُ وهذبهُ ثابت بن قرة الحراني الآتي ذكرهُ وكتاب المجسطي واكثر كتب الحكماء والاطباء وكان اشدَّ الجماعة اعتناء بتعريب هذه الكتب

والثاني يعقوب بن اسحق الكندي احد المجيدين وهو فيلسوف من فلاسفة المسلمين تحلت دولة المعتصم بهِ وبمؤلفاتهِ وسوف يأتي ذكرهُ

والثالث ابو الحسن ثابت بن قرة بن هرون ويقال زهرون بن ثابت بن كرايا بن ماريوس بن مالاجريوس الحاسب الحكيم الحراني نسبةً الى حرَّان

مدينة في بلاد الجزيرة وكان الغالب عليه الفلسفة وله تآليف كثيرة في فنون من العلم مقدار عشرين تأليفًا واحد كتاب اقليدس الذي عرّبه حنين فهذبه ونقحه واوضح منه ما كان مستعجمًا على من تقدم وكان صابئي المذهب فبل انه كتب رسالة في الصابئين فطُرد من بلاده فلقاه محمد بن موسى بن شاكر الآتي ذكره وهو راجعًا في ما جمعه من الكتب من بلاد الروم فجاء به الى بغداد وادخله الخليفة في جملة المنجمين وسوف يأتي ذكره في الكلام على علم الهيئة توفي سنة ٢٨٨ للهجرة (سنة ٩٠٠ م)

والرابع علي بن فرجان الطبري لكن ترجمة حنين المارّ ذكره دونهم جودة في اوضح وعباراتها احسن واصلح وقد اهتم حنين المذكور بترجمة وتلخيص وتنقيح كتب ابقراط وجالينوس وتهذيبها

وكان لحنين هذا ابن يقال له اسحق يحقق بابيه في النقل وفي معرفة اللغات وفصاحته فيها وكان يعرّب كتب الحكمة كما كان يفعل ابوه الا ان الذي وُجد في كتب الحكمة من كلام ارسطاطاليس وغيره اكثر مما يوجد في تعريبه لكتب الطب توفي سنة ٢٩٩ للهجرة (سنة ٩١١ م) في ايام خلافة المقتدر بالله

ويعلم من روايات بعض المؤلفين اسماء بعض الكتب التي ترجمها المترجمون المذكورون من كتب فلاسفة اليونانيين وعلمائهم في ذلك الزمان ونقلوها الى العرب وهي

مؤلفات فيثاغورس في الارثماطيقي وعلم الموسيقى وغير ذلك من العلوم الرياضية

ومؤلفات افلاطون ومنها كتاب في النفس وكتاب السياسة المدنية وطيماوس البرهان في ترتيب العوالم الثلاث العقلية وهي عالم الربوبية وعالم العقل وعالم النفس وطيماوس الطبيعي في تركيب العالم الطبيعي وهذان الكتابان كان علمهما هذا الفيلسوف الى تلميذ له اسمه طيماوس فسمّيا باسمه

ومؤلفات ارسطاطاليس في المنطق والاشكال الذين جعلهم آلة سموه

النظرية وكتاب الخطوط وكتاب الجبل وكتاب الكون والفساد وكتاب العالم والسماء وكتاب سمع الكيان وكتاب الآثار العلوية وكتاب الحيوان وكتاب النبات وكتاب الحس وكتاب النفس وكتاب الصحة والسقم وكتاب الشباب والهرم وكتاب في السياسة من جملة ما قاله فيه هذه الدائرة المشهورة وهي العالم بستان سياجهُ الدولة . الدولة سلطان تحيي بهِ السنّة . السنّة سياسة يسوسها الملك . الملك نظام يعضدهُ الجند . الجند اعوان يكفلهم المال . المال رزق تجمعهُ الرعية . الرعية عبيد يكتنفهم العدل . العدل مألوف وبهِ قوام العالم ثم ترجع الى الاول فتقول العالم بستان سياجهُ الدولة

ومؤلفات ابقراط ومنها كتاب الفصول ومقدمة المعرفة وكتاب قيديما وكتاب ماء الشعر وكتاب الجنين وغير ذلك

ومؤلفات جالينوس قالوا انها تجاوز المئة

ومؤلف ديسقوريدس في الادوية

ومؤلفات اقليدس صاحب الهندسة ومنها كتاب المدخل وكتاب الاركان وكتاب المسع وكتاب مساحة الدائرة وكتاب الاكرة والاسطوانة والمخروط وغير ذلك

وكتب بطليموس الذي كان فيلسوفًا واستاذًا في مدرسة الاسكندرية وبع في القرن الثاني بعد الميلاد في زمن ادريانوس احد قياصرة الروم وكان بارعًا في معرفة النجوم والعلوم الفلكية وله تصانيف كثيرة منها كتاب المناظ وكتاب المقالات الاربعة في احكام النجوم وكتاب الموسيقى وكتاب الانواء وكتاب القانون والمجسطي المشهور وهو كتاب مطوّل في الهيئة ومعنى المجسطي الاعظم وكان شرحهُ النضل بن حاتم التبريزي ثم اختصره محمد بن جابر الشيباني ذكروا انهُ ثلاث مجلدات احدها في علم الهيئة وحركات النجوم والثاني لارسطاليس في صناعة المنطق والثالث كتاب سيبويه النصري وهو جامع لجميع قواعد النحو

وبينما كان العرب مشتغلون في الشرق بترجمة هذه الكتب لم ينتهِ القرن الثالث من الهجرة اوائل القرن العاشر من الميلاد حتى سرت هذه الرغبة الى العرب في بلاد المغرب ايضاً واخذ عبد الرحمن الآخر الملقب بالناصر بعد ان تولى مملكة الاندلس يبذل جهدهُ بجعل مدينة قرطبة عاصمة بلادهِ شبيهة بمدينة بغداد مركزاً للخلافة ودارًا للعلوم وطلب من روماس قيصر القسطنطينية رجلاً يعلم له عبيدًا ليكونوا مترجمين عدهُ فارسل له راهبًا يسمّى نقولا ثم بعث الى افريقية وبلاد فارس ومصر وبلاد العرب من يشتري له الكتب او ينسخها اذا لم يتهيأ له ابتياعها وكتب بنفسهِ الى مؤلفي زمانهِ يطلب منهم كتبهم واجازهم عليها خير الجزاء حتى جمع على ما يقال اربع مئة الف مجلد او ست مئة الف على قول البعض وكان شديد العناية باجازة العلماء وبمكتبتهِ ولا زال يبحث عن العلوم والفنون وتقدمها ووسائل انتشارها في بلادهِ الى ان حصل على ما ارادهُ من ذلك بمدة خلافتهِ التي استغرقت نحو خمسين سنة

قال بعض المؤلفين لما فتح العرب الاندلس تولاها عشرون واليًا كانت بيدهم خلفاء دمشق او عمّالهم بافريقية من عبر موازنة ولم يتجاوزوا في الحمة لتب الامير وقضوا في الحرب جلّ زمانهم وان يكن بعضهم عنوا بترقية اسباب الرفاهة كالسمح بن مالك الخولاني فانهُ كان عالمًا بطريق الفلاحة والسقي على اصطلاح اهل مصر واشور وغيرها من بلاد المشرق وكتب للخليفة كتابًا بديعًا مستوفيًا وصف الاندلس وذكر فيهِ تدبير تربية غلاتها وتعميم فوائد استغلالها لكن لم تصفُ محاسن راحة البلاد ولم تبلغ الاندلس رهوتها الا في زمان دولة بني أمية الذين اوّل من تسمّى منهم خليفةً وتلقب بامير المؤمنين على ما سبق ايضاحهُ في الفصل الاول من المقالة الخامسة وادخل الى بلادهِ علوم الاقدمين التي نحن بصددها هو الامير عبد الرحمن الناصر المذكور

والظاهر ان العرب عندما شرعوا في ترجمة هذه الكتب اليونانية ومؤلفات العلوم الفلسفية وجدوا العلوم الادبية القديمة غير حاسية فلم تعجبهم شعراء مدينة

اثينا ولا رومية وكذلك لما كان من طبيعتهم ان لا تهمهم الامور المتعلقة بغيرهم لم يلتفتوا الى مؤرخيها بل اعترفوا بنجابة فلاسفتها فقط ولذلك اهملوا ما أملاه هوميروس وفيرجيل من الاشعار والآداب ولم يترجموا الى لغتهم سوى تآليف اشهر الفلاسفة اليونانيين على ما تقدّم

وكانت اصحاب البدع المتجددة من فرق الشيع الاسلامية المتعددة آخذة وقتئذٍ في تشتيت عصابة بعضهم بعضاً وتمزيق قوة الامة فمن ثمّ ردتث همتها وهمت شذبها عن ان تفي بما كان قائمًا في ذهنها من ان تمحق عن وجه الارض كل من خالف ديانتها بل انكبوا جميعًا على مطالعة هذه الكتب والنظر ما فيها في كل من خلافتي بغداد والاندلس ليتمكنوا بواسطة العلوم الموجودة فيها من مقاومة بعضهم بعضاً قال ابن خلدون ان البلاد التي ذخرت فيها بحار العلم هي بغداد وقرطبة والقيروان والبصرة والكوفة

ولما طما بحر العمران والحضارة في الدول الاسلامية وعمّ ذلك كل اقطارها وعظم الملك ونفقت اسواق العلوم انتسخت الكتب وأجيد كتبها وتجليدها وملئت بها القصور والخزائن الملكية بما لا كفاء له وتنافس اهل الاقطار في ذلك وتناغوا فيه

وكانوا يطوفون المدن والبلاد الاجنبية للبحث عن الكتب اليونانية وجمعها كما فعل الافرنج اخيرًا في الكتب العربية وغيرها فقد حكى ابن خلكان ان ابا عبد الله محمد واخويه احمد والحسن اولاد موسى بن شاكر (هم ثلاثة اخوة يُنسب اليهم حيل موسى اظهروا عجائب الحكمة وكان الغالب عليهم من العلوم الهندسة والحيل والحركات والموسيقى والنجوم وهو الاقل ولهم في الحيل كتاب عجيب نادر يشتمل على كل غريبة وهو مجلد واحد) كان لهم همّة عالية في تحصيل العلوم القديمة وكتب الاوائل واتعبوا انفسهم في شأنها فانفذوا الى بلاد الروم من اخرجها لهم واحضروا النقلة من الاصقاع الشاسعة والاماكن البعيدة بالبذل السني توفي محمد المذكور سنة ٢٥٩ للهجرة (سنة ٨٧٣ م)

واحمد بن يوسف السليكي المنازي وزير نصير الدولة احمد بن مروان الكردي صاحب تاريخ ميافارقين وديار بكر ترسل الى القسطنطينية مرارًا وجمع كتبًا كثيرة اوقفها على جامع ميافارقين وجامع آمد توفي سنة ٤٣٧ هـ (سنة ١٠٤٥ م)

وبلغت كثرة الكتب عند الناس من العرب فضلًا عن الامراء والاغنياء والمدارس العمومية هذا المقدار حتى انه اعجزهم حملها في رحلاتهم واسفارهم. فمما ذكروه بهذه المناسبة ما حكاه ابو الفرج الاصبهاني ان الاصمعي سأل اسحاق بن ابراهيم الموصلي وكان يخرج مع الرشيد الى الرقة هل حملت معك شيئًا من كتبك فقال حملت منها ما خف حمله فقال كم. فقال ثمانية عشر صندوقًا فقال هذا ما خففت فلو ثقلت كم كنت تحمل فقال اضعافها

وحكى ايضًا عن الصاحب ابي القسم اسماعيل بن ابي الحسن بن عباد بن العباس بن عباد بن احمد الطالقاني انه اعتذر الى نوح بن منصور احد ملوك بني سامان وكان استدعاه ليفوض اليه الوزارة انه يحتاج الى اربعمئة جمل لنقل كتبه خاصة توفي سنة ٣٨٥ للهجرة (سنة ٩٩٥ م)

فاذن اذا كانت هذه حالة الشرق من حيث العلم وراغبيه فلا بدع فيما نقل عن الاندلس بانها اصبحت في حلبة الشرق لعهد بني امية (حتى منتصف القرن الخامس للهجرة) ذات مكتبة تحوي كتب اهلها

قال صاحب المقتطف لم يكن العلم محصورًا في خاصة من العرب بل كانت عامتهم على جانب عظيم من محبة المعارف ولم يجهلوها قال ابن سعيد في بعض كلامه عن قرطبة انها كانت اكثر بلاد الاندلس كتبًا واشد الناس اعتناء بخزائن الكتب حتى ان الرئيس منهم الذي لا تكون عنده معرفة يحتفل في ان تكون عنده خزانة كتب في بيته وينتخب ليس الا لان يقال فلان عنده خزانة كتب والكتاب الفلاني ليس هو عند احد غيره والكتاب الذي هو بخط فلان قد حصله وظفر به. وحكى عنه انه ... [illegible]

ابن رشد وابن زهر (وكلاهما من فلاسفة العرب الآتي ذكرهم) فقال ابن رشد لابن زهر في تفضيل قرطبة ما ادري ما تقول غير انهُ اذا مات عالم باشبيلية وأُريد بيع كتبهِ حُملت الى قرطبة حتى تباع فيها

الفصل الخامس

في العلوم التي مارستها العرب عن اليونان

وكان العرب في طلبهم للعلوم القديمة اتبعوا آراء الفلاسفة الذين سبقت الاشارة اليهم فتفرغوا بالكلية للعلوم المنطقية والهندسية والفلكية والطبية والكيمياء والنباتات وما وراء الطبيعيات وتدارسوا هذه العلوم وتقدموا فيها واعانهم ذلك على الترقي الى درجات الكمال كما يتضح ذلك من التفاصيل الآتية

الكلام على المنطق وفلاسفة العرب

اما المنطق فاخذوهُ عن منطق ارسطاليس بحسبما شرحهُ ابن سيناء وابن رُشد الآتي ذكرهما والظاهر انهم لم يزيدوا عليهِ شيئًا يذكر واوّل من ترجمهُ الى العربيّة عبد الله بن المقفّع الخطيب الفارسي الذي اسلم في ايام ابي جعفر المنصور العباسي وكان كاتبًا لعيسى بن علي عمّ الخليفة المشار اليهِ وكان مشهورًا بالبلاغة ولهُ رسائل بديعة فاستكتبهُ ابو جعفر المشار اليهِ فترجم لهُ الثلاثة كتب الذين

لارسطاليس في المنطق وهو علمٌ من العلوم المدونة ويسمّى بالميزان ايضاً ويعرف بانهُ آلة قانونية تعصم مراعاتها الذهن عن الخطاء في الفكر ونسبتهُ الى العقل كنسبة النحو الى اللسان والعروض للنظم ونحو ذلك

قال احد المؤلفين ان هذا العلم اشرق متلألئاً بعد ان ترجمت الفلسفة عند المسلمين الاَّ انهم اختصروا اخيرًا على مباديه حيث ضُرِب المثل عندهم "من تمطق فقد تزندق" وقد لخص ابو نصر الفارابي الآتي ذكرهُ كتاب ارسطو في كتابهِ المسمَّى بالثمانية وعلَّق عليهِ شروحاً ولخصها ايضاً ابن رشد تلخيصاً حسناً ولحنين بن اسحق المسيحي الذي مرَّ ذكرهُ بجملة المترجمين في الفصل السابق كتاب المسائل في المنطق ولابنهِ اسحق كتاب اختصار اقليدس وكتاب المقولات وكتاب ايساغوجي واما مؤلفات يعقوب بن اسحق الكندي الآتي ذكرهُ فسوف تُذكر اسماؤها في ترجمتهِ وللمتقدمين من بعدهِ ايضاً كتبٌ كثيرة فيهِ زاد عليهـــا المتأخرون فمن الكتب المختصرة كتاب عين القواعد للكاتبي وكتاب المنهـاج للاوحدي وكتاب القسطاس للسمرقندي وكتاب التجريد لنصير الدين الطوسي ومن المتوسطة كشف الاسرار لنصير الدين المذكور وعليهِ حواشي مهمة لابن البديع البندي وكتاب جامع الدقائق للكاتبي وكتاب نخبة الفكر لابن واصل ومن الكتب المبسوطة المطوّل الكبير للامام فخر الدين الرازي الآتي ذكرهُ وكتـاب شرح القسطاس لمصنفهِ السمرقندي وكتاب شرح كشف الاسرار للكاتبي والبحر الخضم منطق الشفاء للشيخ الرئيس ابن سيناء بل ان معظم كتب المنطق مجموعة مع كتب الطبيعيات والالهيات من ذلك ما هو مختصر ككتاب كشف الحقائق لاثير الدين الابهري وكتاب تنزيل الافكار لهُ ايضاً ومن المتوسطة كتاب التلويحات للسهروردي الآتي ذكرهُ وكتاب الملخص للاما فخر الدين المارّ ذكرهُ وعليهِ حواشي مفيدة للابهري وكتاب مطالع الانوار للارموي وكتاب الحكمة الجديدة لابن كونه وكتاب المعتبر لابي البركات ومن المبسوطة الشفاء وشرح التلويحات لابن كونه ايضاً وكتاب شرح الملخص للكاتبي وكتاب

شرح الاشارات والتنبيهات لنصير الدين الطوسي وبذلك كفاية

غير ان استبد عليهم من الاجانب يقولون ان منطقهم افضى بهم الى مراعاة اللفظ اكثر من مراعاة المعنى فتبعهم بعضهم بحكاية الالفاظ وبعضهم بالمذربين وفي ما ذكرناه في كتابنا زبدة الحقائق في اصول المعارف وجه ٩٥ ما اقاموا به الحجة على خلل قواعد هذا العلم عند العرب ما يغني عن اعادتها

ومن ثمّ قام بين العرب عددٌ غفير من الفلاسفة الذين اتبعوا في الفلسفة فلسفة ارسطو في ما لا يمس منها اصول معتقدهم اشهرهم يعقوب بن اسحق الكندي الذي مرّ ذكرهُ في جملة مترجمي الكتب واشتهر بفيلسوف العرب وكان من ابناء ملوكها قال صاحب تذكرة الحكم انه لم يشتهر احدٌ غيرهُ بالفلسفة في الاسلام وله تصانيفٌ في اكثر العلوم تبلغ خمسين كتاباً منهـا كتاب في المنطق وكتاب التوحيد المعروف باسم المذهب وكتاب في الرد على الذين يذهبون مذهب الازلية القديمة وكتاب الموسيقى وكتـاب في اثبات النبوة وكتاب في الادب ورسالة تسلية الاحزان وقال ابن خلكان كان يعقوب بن اسحق الكندي اسمى فيلسوف الاسلام من ولد الاشعث بن قيس من الكوفة وانتقل الى بغداد واشتغل في علم الفلسفة والادب وحلّ مشكلات كتب الاوائل وحذا حذو ارسطاليس وصنف الكتب الجليلة الجمّة واجودها كتاب اقسام العقل الانسي وكتاب الجوامع الفكرية وكتاب الفلسفة الاولى وقال بعض مؤلفي الافرنج ان يعقوب الكندي كان من جملة المشهورين في استخراج الكتب وله مؤلفات منها كتاب الفلسفة الاولى في ما دون الطبيعيات والتوحيد وكتاب الفلسفة الداخلة والمسائل المنطقية وما فوق الطبيعيات ورسالة في ان الفلسفة لا تنال الاّ بعد الرياضيـات وكتاب الحثّ على تعلم الفلسفة ورسالة في كمية كتب ارسطو وكتاب في قصد ارسطو من المقولات ورسالة الكندي في مقياسه العلمي وكتاب في اقسام العقل الانسي وكتاب في ماهية العلم واقسامه وكتاب في ان افعال الباري تعالى كلها عدل لا جور فيها وكتاب في ماهية الشيء الذي لا نهاية له

وكتاب في الفاعلة والمنفعلة من الطبيعيات الاول وكتاب في عبارات الجوامع الفكرية وكتاب ايساغوجي لفرفوريوس وكتاب في المدخل المنطقي مبسوط وآخر مختصر ومسائل كثيرة في المنطق وغيره ورسالات كثيرة في كل العلوم وهي مئتان وخمسون رسالة مفيدة بكل علم انتصبة وكلها مذكورة في كتاب عيون الانباء في طبقات الاطباء لابن ابي اصيبعة

ومنهم ابو النصر محمد بن طرخان بن اوزلغ المشهور بالفارابي وهو معدود من اكابر فلاسفة المسلمين. قال صاحب تذكرة الحكم انه لم يكن فيهم من بلغ رتبته وهو تركي الاصل من مدينة فاراب كان يقول بعدم انقراض الانواع واستحالة انقطاع المكونات وخصوصاً في النوع الانساني ووافقه على ذلك حكماء الاندلس واقاموا عليه الادلة التي ردَّ عليها ابن سينا الآتي ذكرهُ وكان يملي على تلامذته كتب ارسطاليس في المنطق ويشرحها لهم ولما كان ارتحل الى حرّان وفيها يوحنا بن خيلان الحكيم النصراني فاخذ عنهُ طرفاً من هذا العلم ثم قرأ في بغداد علوم الفلسفة وتناول جميع كتب ارسطاليس ومهر في اخراج معانيها وله كتاب جليل في احصاء العلوم والتعريف باغراضها لم يسبق اليه وألف كتاباً في السياسة المدنية وقد ذكرهُ بعض مؤلفي الافرنج بجملة مفسري الكتب وقال انه لخص كتاب ارسطو في كتابه المسمى بالثانية في علم المنطق وعلق عليه شروحاً على ما سبقت الاشارة اليه في الكلام على المنطق وذكر بعض مؤرخي العرب بانه هو الذي انشأ القانون (آلة من الآلات الطرب) واهداهُ الى سيف الدولة بن حمدان العدوي فاجازهُ جائزة عظيمة توفي بدمشق سنة ٣٣٩ للهجرة (سنة ٩٥٠ م)

وابن سينا الشيخ الرئيس ابو علي الحسين بن عبد الله بن سينا البخاري المشهور المذهب مرّ ذكرهُ كان عارفاً بحساب الهندسة والجبر والمقابلة وقرأ على الحكيم عبد الله الناتلي وفي بعض المؤلفات ابي سهل المسيحي الجرجاني ايساغوجي واحكم عليه المنطق واقليدس والمجسطي وفاقه اضعافاً كثيرة حتى اوضح له منها

رموزًا لم يكن الفارابي يدريها ثم اشتغل بتحصيل العلوم كالطبيعي والالهي وغير ذلك ثم رغب في الطبّ وأتم كتبه الاوسط في جرجان ثم ألف كتاب القانون وكتاب الشفاء والنجاة والاشارات ويقال ان له نحو مئة مصنف وله القصيدة المشهورة في النفس التي مطلعها

هبطت اليك من المحلّ الارفع ورقاء ذات تعزُّزٍ وتمنّعِ

وقد أُتهم بحرق مكتبة الامير نوح بن نصر الساماني صاحب خراسان لينفرد بمعرفة ما حوَتهُ منها وبسببه لنفسهِ (كما نُسب الى هيوقراط حرق مكتبة كوس لهذه الغاية) وزعموا انه حرقها لما كان يعالج هذا الامير في مرضهِ وكانت عديمة المثيل ويقال انه كان يستمد من مؤلفات الفارابي المار ذكرهُ في الفلسفة وخالفه في قولهِ بعدم انقراض الانواع وردَّ على ذلك برسالةٍ سماها رسالة حيّ بن يقظان اقام فيها ادلَّةً لم يعتبرها ابن خلدون المغربي مع انه موافقًا لرأيهِ. وذكرهُ ايضًا بعض مؤرّخي الافرنج بجملة الذين استخرجوا الكتب واتهمه بانه كان يعكس في استخراجها لانه كان يحذف اشياء كثيرة ويضع عوضها من اختراعهِ وتخيلاتهِ توفي سنة ٤٢٨ للهجرة (سنة ١٠٣٦م)

وابو حامد محمد بن محمد بن احمد الغزالي زين الدين الطوسي الفقيه الشافعي حجة الاسلام ومناقض فلسفة اليونان ومن مصنفاتهِ الوسيط والبسيط والوجيز والخلاصة في الفقه وكتاب احياء علوم الدين وهو انفس الكتب واجملها وله في اصول الفقه المستصفى وله المحول والمنتحل في علم الجدل وتهافت الفلاسفة ومحك النظر والمقاصد والمضنون بهِ على غير اهلهِ والمقصد الاسنى في شرح اسماء الله الحسنى ومشكاة الانوار والمنقذ من الضلال وحقيقة القولين وغير ذلك من الكتب النافعة توفي سنة ٥٠٥ للهجرة (سنة ١١١١م)

وابن طُفَيل ولم اقف على ترجمتهِ وانما قيل عنهُ بانهُ هو اوَّل مَن علَّم العرب بان الانسان ترقى في الاصل من الحيوانات الدنيا على ما يعلم

درون الانكليزي في ايامنا هذه

وابن رُشد ابو الوليد محمد بن احمد بن رُشد المالكي القرطبي اشهر فلاسفة العرب في الاندلس اخذ عن اشهر الفلاسفة في عصره وتخرج في الطبّ والفقه والفلسفة وكان بينه وبين ابن عربي الفيلسوف والعالمين الشهيرين ابن طفيل وابن زهر علائق وطيدة ساءهُ المنصور بالله من اشبيلية لكونهِ وشي اليهِ بانهُ يجحد القرآن ويخالفهُ فدُعي الى مراكش لان سلطانها رغب في مطالعة اقوال الفلاسفة والتخرج فيها وكان ابن رُشد يذهب الى ان ارسطو اعظم الفلاسفة فترجم مؤلفاتهِ وشرحها بتبسط وترويّ على ان في تآليفهِ ما يوضح جليًّا متابعته الفلسفة الافلاطونية الجديدة (ومن اراد الوقوف على مبادئ هذه الفلسفة فيراجع كتابنا زبدة الصحائف في سياحة المعارف صفحة ١٥٩) وشرح ارجوزة في الطب لابن سينا . وصنّف تهافتًا من طرف الحكمة ردًّا على تهافت الغزالي الذي مرّ ذكرهُ ذكر فيهِ ان ما ذكرهُ الغزالي بمعزلٍ عن مرتبة اليقين والبرهان وقال في آخرهِ لاشكّ ان هذا الرجل أخطأ على الشريعة كما اخطأ على الحكمة ولهُ رحلة تُنسب اليهِ وكتاب فصل المقال في ما بين الشريعة والطبيعة من الاتصال وهو كتابٌ يبحث فيهِ عن العلم الالهي وتلخيص كتاب الكون والفساد وهو مقالتان لارسطو ولهُ الكليات المعروفة بكليات ابن رُشد واصل مؤلفاتهِ في العربية نادر الوجود الآن الا ان اكثرها مترجم الى اللغة اللاتينية ومن ذلك شرح اقوال ارسطو مع الردّ على الغزالي وقد رُتب احدى عشر مجلدًا وطُبع في البندقية سنة ١٠٦٠ م (سنة ٩٦٨ للهجرة) وترجم كثير من مؤلفات المذكورة الى اللغة العبرانية واخذ عنهُ كثيرون من الافرنج ايضًا عند ما كانت تُدرّس كتبهُ في مدارس اسبانيا وكردوفا من بلاد المغرب وكان الذين ينظرون الى الاستقبال من الحركات الفلكية ينسبون اليهِ وقد كتب اشياء تتعلق بامسك اهمها ما قرّرهُ عن كلف الشمس ومن الذين كتبوا عن فلسفتهِ في زماننا هذا رينان الفرنسوي فانهُ الف كتابًا سماهُ ابن رُشد قرّر فيهِ سيرتهُ ومؤلفاتهِ . وقال

كان اعظم فلاسفة العرب الموسعة الشارحين لارسطو وطُبع هذا الكتاب في باريس سنة ١٨٥٢م توفي ابن رشد سنة ٥٩٥ للهجرة (سنة ١١٩٨م)

وابن زُهر ابو بكر محمد بن ابي مروان عبد الملك بن ابي العلاء زُهر بن ابي مروان عبد الملك بن ابي محمد بن مروان بن زُهر الايادي الاندلسي الاشبيلي كان متمكنًا من اللغة وحافظًا لشعر ذي الرمة بارعًا في الاقوال الشعرية قال في حق جده ابي العلاء زهر انه كان وزير ذلك الدهر وعظيمه وفيلسوف ذلك العصر وحكيمه توفي مُمتحنًا بعلة بين كتفيه سنة ٥٢٥ للهجرة (سنة ١١٣١م) ثم قال في حق جد ابيه عبد الملك انه رحل الى المشرق وبه طبب زمانًا طويلًا وتولى رياسة الطب ببغداد ثم بمصر ثم بالقيروان ثم استوطن مدينة دانية وطار ذكره فيها الى اقطار الاندلس والمغرب واشتهر بالتقدم في علم الطب حتى فاق اهل زمانه ومات هناك . ثم قال في حق جد جده محمد بن مروان انه كان عالمًا بالرأي حافظًا للادب حاذقًا بالفتوى متقدمًا بالشورى متفنن العلوم رصينًا فاضلًا جمع الرواية والدراية وتوفي بطليرة سنة ٤٢٢ للهجرة (سنة ١٠٣٠م) وتوفي ابو بكر في سنة ٥٨٥ للهجرة (سنة ١١٩٨م)

وابو بكر بن باجة وهو محمد بن باجة التجيبي السرقسطي المعروف ايضًا بابن الصائغ كان آخر فلاسفة المسلمين بالاندلس عارفًا بالعلوم والفنون مشتغلًا بالسياسة وهو ينسب الى التعطيل ومذهب الحكماء والفلاسفة والضلال اعتقده انكر واجب الوجود واعتقد ان الزمان دور وان الانسان كالنبات وغيره وله تصانيف في الرياضيات والمنطق قُتل بالسمّ في مدينة فاس بين سنة ٥٢٢ وسنة ٥٢٣ للهجرة (سنة ١١٢٨م)

ويحيى بن حبش بن اميرك الملقب بشهاب الدين السهروردي معدود من جملة فلاسفة المسلمين وحكمائهم . قيل انه كان بارعًا في فن الشعبذة ايضًا ويعجب به اهل عصره كما يعجب اهل اوربا في عصرنا هذا من خزعبلات بوسكو شهير في بلادهم وغيره . يحكى عنه انه كان مرافقًا لرجل في طريق الشام

واشتريا من راعٍ تركماني خروفاً بعشرة دراهم ثم بعد ان اخذهُ وانصلا عن الراعي قليلاً واذا بتركماني آخر جاء يتبعها وطلب منهما ان يردّا له الخروف او يعطياهُ عشرة دراهم أُخر لان الخروف قيمتهُ عشرون درهماً فوقف له الشهاب وبدى بمحاورتهِ الى ان استشاط التركماني غيظاً وامسك بيدهِ ليجذبها اليهِ واذا بيدهِ قد قُلعت بيد التركماني ودمهِ يجري فخاف التركماني وانثناها على الارض وهرب فمد يدهُ الشهاب ورفعها واذا بها منديل كان في يدهِ اوهم التركماني بهذا الوهم ويتقلون عنهُ اموراً كثيرة غريبة مثل هذه ومن مؤلفاتهِ كتاب التنقيحات في اصول الفقه وكتاب التلويحات وكتاب الهياكل وكتاب حكمة الاشراق ولهُ ايضاً رسالة معروفة بالغربة الغريبة على مثال رسالة الطير ورسالة حيّ بن يقظان لابن سينا وفيها بلاغة تامّة اشار بها الى حديث النفس وما يتعلق بها على اصطلاح الحكماء وكان يُتهم بالزندقة ويعتقد ازلية العالم حبسهُ الملك صلاح الدين الايوبي في حلب وقتلهُ حبيساً سنة ٥٨٧ للهجرة (سنة ١١٩١م)

الكلام على علم الفلك والطبيعيات

لما لم يكن للعرب في زمن جاهليتهم من العلوم والفنون ما يبعث افكارهم الى البحث عن العلل الاصلية التي تتسبب عنها الحوادث الطبيعية والتقلبات الجوية والتغيرات الفلكية وما يتعلق بالعناصر وغيرها من المكونات العلوية والارضية وانما كانوا ينظرون اليها نظراً بسيطاً ونظراً لما هو معروف فيهم من الفصاحة العربية كانوا يضعون لكلّ نوع من النجوم او من العناصر التي تتركب منها الكرة الارضية اسماء تختلف بحسب اختلاف تقلباتها الطبيعية كما يتضح ذلك من التفاصيل الآتية بهذا الباب على قدر الامكان وبناء على ذلك نقسم الكلام هنا الى نوعين الاوّل في معارف العرب القديمة الفلكية والطبيعية والثاني في العلوم التي مارسوها في العصر الاسلامي بعد ترجمة الكتب على ما تقدم

في معارف العرب الفلكية والطبيعية

لا يخفى بان العرب في الجاهلية كانت تعتقد في انواء المنازل اعتقاد المنجمين في السيارات على ما سبقت الاشارة اليهِ في الفصل الرابع من المقالة الرابعة وكان ذلك موضوع معارفهم الفلكية ولا زالوا عليهِ الى ان ابطلهُ الاسلام والانواء هي سقوط نجم من المنازل في المغرب مع الفجر وطلوع رقيبهِ من المشرق وكانوا يسمّون اوّل نوّ السنة البدريّ ويكون من تاسع ايلول الى ثامن عشر تشرين الاوّل ونوّ سقوط الفرعين وبطن الحوت والوسميّ من هناك الى تاسع كانون الاوّل ونوّ سقوط الشرطين والبُطَين والثريا والدَّبران والولي من هناك الى ثامن عشر نيسان ونوّ سقوط الهقعة والهنعة والذراع والنثرة والطرف والجبهة والزبرة والصرفة والعواء والسماك والغُفر من هناك الى تاسع حزيران ونوّ سقوط الزبانى والاكليل والقلب والبسرى من هناك الى خامس تموز ونوّ سقوط الشولة والنعائم وبارح القيظ من هناك الى ثالث عشر آب ونوّ سقوط البلدة وسعد ذابح وسعد بلع واحراق الهواء من هناك الى ثامن ايلول ونوّ سقوط سعد السعود وسعد الاخبية وهو البدريّ اوّل انواء السنة ذُكر اولاً

وكانوا يعرفون النجوم السيارات السبعة على رأي القدماء وهي الشمس والقمر والمريخ والمشتري والزهرة وعطارد وزُحل ويعرفون ايضاً ابراج الشمس ومنازل القمر

وكانوا يقسمون السنة كما هو الآن اي بعد الاسلام الى اثني عشر شهراً قمريًا وقبل ظهور الاسلام بنحو مئتي سنة تعلّموا كبس الشهور فكانوا يكبسون كل ثلاثة اعوام شهرًا واحدًا لاجل مطابقة السنة القمرية على دورة الشمس السنوية فيقع الحجّ في زمن واحد لا يتغير مناسب الى اشغالهم وكان يتولى ذلك النسأة

نسبة الى النسيء يعني منسي الشهور وهي الايام التي يضمها المصريون الان على شهورهم فلما جاء الاسلام ابطل الكبيس وابقى الشهور القمرية على ما كانت عليه حسبما سبقت الاشارة اليه في الفصل الثالث من المقالة الرابعة

وجميع فرق الاسلام ما عدا الشيعة تعتمد في احكامها الشرعية رؤية الهلال وابتداء سنتهم المحرّم وجعلوا شهور السنة شهرًا كاملاً ثلاثين يومًا وشهرًا ناقصًا تسعة وعشرين يومًا لتتمّ بذلك السنة القمرية التي هي ثلاث مئة واربعة وخمسون يومًا وخمس وسدس . قال الامام المقريزي وزادوا من اجل هذا الكسر يومًا واحدًا في ذي الحجة اذا صار هذا الكسر اكثر من نصف يوم فيكون ذي الحجة في تلك السنة ثلاثين يومًا ويسمّون تلك السنة كبيسة ويصير عددها ثلاث مئة وخمسة وخمسين يومًا فيجتمع بذلك في كل ثلاثين سنة من الكبس احد عشر يومًا

وقوله في كل ثلاثين سنة يريد بذلك في كل ثلاثين سنة قمرية وتسمّى دورًا فيكون منها تسعة عشر بسيطة واحدى عشر كبيسة وهذه الاخيرة هي الثانية والخامسة والسابعة والعاشرة والثالثة عشر والسادسة عشر والثامنة عشر والحادية والعشرون والرابعة والعشرون والسادسة والعشرون والتاسعة والعشرون

واوّل الشهور عند العرب كما هو عند غيرهم موافق الى الثامن والخامس عشر والثاني والعشرين والتاسع والعشرين منه فاذا كان اوّل المحرّم يوم الاحد مثلاً فيكون اول صفر يوم الثلاثاء واول ربيع الاول يوم الاربعاء واول ربيع الآخر يوم الجمعة واول جمادى الاول يوم السبت واول جمادى الاخر يوم الاثنين واوّل رجب يوم الثلاثاء واول شعبان يوم الخميس واول رمضان يوم الجمعة واوّل شوال يوم الاحد واوّل ذي القعدة يوم الاثنين واوّل ذي الحجة يوم الاربعاء . واذا كان اوّل محرم يوم الاثنين فانهُ يكون اوّل صفر يوم الاربعاء واوّل ربيع الاول يوم الخميس واذا كان اوّل محرّم

يوم السبت فانهُ يكون اول صفر يوم الاثنين واول ربيع الاول يوم الثلاثاء وقس على ذالك

وكانت العرب العرباء تسمّي الشهور القمرية ناتق ونقيل وطليق واسخ وانخ وحنك وكسح وراهر ونوط وحرف وبغش . فناتق هو المحرَّم ونقيل صفر وهكذا ما بعدهُ على سرد الشهور اما ثمود فكانت تسميها موجب وموجر ومورد وملزم ومصدر وهوبر وهوبل وموها وديمر ودابر وحيفل ومسبل . فموجب هو المحرَّم وموجر صفر الّا انهم كانوا يبدون بالشهر من ديمر وهو شهر رمضان فيكون اوّل شهور السنة عندهم وكذلك باقي العرب كانت تسميها باسماء أُخر وهي . موتمر وناجر وخوّان وصُوان وحنم وزبا والأصمّ وعادل ونافق ووعل وهواع وبرك ومعنى المؤتمر انهُ يأتمر بكل شيء مما تأتي بهِ السنة من اقضيتها وناجر من النجر وهو شدّة الحرّ وخوّان فعّال من الخيانة وصُوان بكسر الصاد وضمّها فعّال من الصيانة والزباء الداهية العظيمة المكاثرة سمّي بذلك لكثرة القتال فيهِ

ومنهم مَن يقول بعد صوان الزباء وبعد الزباء بائدة وبعد بائدة الأصمّ ثم واعل وباطل وعاطل ورنة وبرك فالبائد من القتال اذا كان يبيد فيهِ كثيرٌ من الناس وجرى المثل بذلك فانهم يقولون "العجب كل العجب بين جمادى ورجب" وكانوا يستعجلون فيهِ ويتوخون بلوغ الثار والغارات قبل رجب فانهُ حرامٌ ويقولون لهُ الأصمّ لانهم كانوا يكفّون فيهِ عن القتال فلا يُسمع فيهِ صوت سلاح . والواعل الداخل على شرب ولم يدعوهُ وذلك لانهُ يهجم على شهر رمضان وكان يكثر في شهر رمضان شربهم الخمر لان الذي يتلوهُ هو شهر الحج وباطل هو مكيال الخمر سمّي بهِ لافراطهم فيهِ في الشرب واما العادل فانهُ من العدل لانهُ من اشهر الحجّ وكانوا يشتغلون فيهِ عن الباطل واما الزباء فلان الانعام كانت تذبح فيهِ لقرب النحر واما برك فهو لبروك الابل اذا حضرت النحر

وقد روي ايضًا انهم كانوا يسمّون المحرَّم موتمر وصفر ناجر وربيع الأوّل اصار وربيع الآخر خوّان وجمادى الأوّل حنين وجمادى الاخر الرنة ورجب

الاصمّ وهو شهر مُضَر وكانت العرب تصومهُ في الجاهلية وتعظمهُ ويأمن بعضهم بعضاً فيهِ ويخرجون الى الاسفار ولا يخافون وشعبان عاذل ورمضان ناتق وشوال واعل وذو القعدة هواع وذو الحجة برك ويقال لهُ ايضاً ابروك ويسمّونهُ المجون

ثم سمّت العرب شهورها بالاسماء المعروفة الآن من امورٍ اتفق وقوعها عند تسميتها فالمحرّم كانوا يحرّمون فيهِ القتال وصفر كانت تصفر فيهِ بيوتهم لخروجهم الى الغزو وشهرا ربيع كانا زمن الربيع وشهرا جمادى كان يجمد الماء فيهما لشدة البرد قال الشاعر

في ليلةٍ من جمادى ذات اندية   لا يبصر الكلب من ظلمائها الطنبا

ورجب الوسط وشعبان يتشعب فيهِ القبائل ورمضان من الرمضاء لانهُ كان يأتي فيهِ القيظ وشوال تشيل الابل فيهِ اذنابها وذو القعدة لقعودهم في دورهم وذو الحجة لانهُ شهر الحج

قال بعض المؤلفين ولا يجوز عند بعض العلماء ان يقال جاء رمضان بل جاء شهر رمضان بناء على الحديث لا تقولوا رمضان فان رمضان اسم من اسماء الله تعالى ولكن قولوا جاء شهر رمضان

ويستبين مما ذكر ان الاتفاقيات التي وقعت عند تسمية الشهور بهذه الاسماء كانت عند ما استعملت العرب الكبس لاجل مطابقة السنة القمرية على ما تقدم اذ جُعلت الشهور وقتئذٍ على حالةٍ واحدة لا تتغير

واما السبب في كون شهري جمادى الذين يجمد الماء فيهما وُضعا بعد شهري الربيع فهو لان البعض من العرب يجعل الربيع الفصل الذي تدرك فيهِ الثمار وهو الخريف فيكون الشتاء بعدهُ ثم فصل الصيف بعد الشتاء وهو الفصل الذي تدعوهُ العامة الربيع ثم فصل القيظ وهو الصيف

ومن العرب من يسمّي الفصل الذي يعتدل وتدرك فيهِ الثمار وهو الخريف

الربيع الاول ويسمي الفصل الذي يتلوهُ الشتاء وما يأتي فيهِ الكلام والدور الربيع الثاني والحاصل بان غالبهم متفقون على ان الربيع هو الخريف

ويقال ان القدماء من الفرس والصين وقبط مصر في الزمن الأول لم يكونوا يستعملون الاسابيع في الايام واول من استعملها هم اهالي بر الشام وما حواله من اجل ما اخبر بهِ موسى النبي في التوراة وهو ان الله خلق السموات والارض في ستة ايام واستراح في اليوم السابع ثم انتشر ذلك في سائر الامم واستعملهُ العرب العاربة بحسب تجاور ديارهم وبلاد الشام

وكانوا يسمون اليوم الاول من الاسبوع وهو الاحد أوهد والاثنين أهوَن والثلاثاء جُبَار والاربعاء دُبار والخميس مؤنس والجمعة عَرُوبة والسبت شيار وزعموا ان اول من سمّى يوم الجمعة عروبة هو كعب بن لوي وقيل ان عروبة اسم يوم الجمعة باللغة السريانية ثم تعرّب قال الشاعر

عامت بان اموت وان موتي	بأوهد او بأهوَن او جُبَارِ
او التالي دُبارٌ او بوافي	مؤنس او عَرُوبة او شِيارِ

ولما كانت شهور العرب مبنية على مسير القمر واوائلها مقيدة برؤية الهلال والهلال يُرى لدن غروب الشمس صارت الليلة عندهم قبل النهار فيجعلون اليوم من غروب الشمس الى غروبها

ويسمون اول ساعةٍ من الليل ناشئة الليل والشفق ثم الغشوة ثم الغسق ثم هدأة ثم شرع ثم جنح ثم زلفة ثم هربع ثم عَبَس ثم تحر ثم الفجر ثم الصبح

واول ساعةٍ من النهار البكور والثانية البزوغ والثالثة الرأد والرابعة الضحى والخامسة الموع والسادسة الظهيرة والسابعة الزوال ويقال لها الهاجرة ايضاً والثامنة الاصيل والتاسعة العصر والعاشرة الطفل والحادية عشرة الحرور والثانية عشرة الغروب . اما البَرْدان فهما طرفا النهار اي الغداة والعشي والاضحيان اليوم الذي تطلع شمسهُ وتصفو سماؤهُ

ويسمّون ايضاً كل ثلاث ليالٍ من الشهر باسماء اولها الغُرَر وهي الثلاث الليالي الأُوَل من الشهر ثم النُّفَل ثم تُسَع ثم عُشَر ثم بيض ثم ادرُع ثم الظُلَم ثم الحنادس ثم الدرادي ثم المحاق

وكذلك يسمّون الليلة الاولى من الشهر الغُرَّة واول الليالي البيض وهي الليلة الثالثة عشرة العفراء وبعدها البلهاء وهي ليلة البدر واول ليالي المحاق وهي الثامنة والعشرون الدعجاء والتي بعدها الدهماء والاخيرة الدهماء وقيل الدأداء ليلة اربع عشرة من الشهر والسرار آخر ليلة منه وقيل الدأداء آخر الشهر

والبَرَاء اول ليلة او يوم من الشهر او آخرها او آخرهُ قبل ما ذلك لتبرؤ الشمس من الشمس وابن البراء آخر ليلة من الشهر او آخرهُ وليلة التمام اطول ليالي الشتاء وهي ثلاث لا يستبان نقصها او هي اذا بلغت اثني عشر ساعة فصاعداً والتهواء طائفة من الليل يقال مضى تهواء من الليل اي طائفة منه والحوش النصفة العظيمة من الليل او من آخره والحوش صدر الليل او وسطه والمحرج من الليالي الشديدة البرد والمحوقات الليالي التي يطلع القمر في جميعها اي من اول الليل الى آخره وقد يكون ذلك من دون غيم فتظن انك قد اصبحت. والخِرمِس الليل المظلم

ويسمّون ظل القمر السَّمَر واحاديث الليل السَّمَر ومن ذلك المسامرة وهي المحادثة والمتحدثون السُّمَّار كما يعبّرون عن الاحاديث المستطرفة بالخرَعْبَل وعن الباطلة بالخُرَعْبل وعن الاضحوكة بالخُرَعِبلة وعن المزاح واللعب بالخُزَعبالة. اما قولهم حديث خرافة فالخرافة اسمٌ مشتق من اختراف السمر اي استطرفه ومن امثالهم أمحل من حديث خرافة وقال هو اسم رجل من عذرة استهوته الجن مدة ثم لما رجع أخبر قومه بما رأى فكذبوهُ حتى قالوا لما لا يمكن حديث خرافة وفي الحديث خرافة حقٌ يعني ما تحدَّث به عن الجن حقٌ ذكرهُ الميداني في تفسير المثل

ومن امثالهم "لا آتيك السمر والقمر" قال الميداني عن الاصمعي السمر عندهم

الظلمة والاصل فيه انهم كانوا يجتمعون فيسمرون في الظلمة ثم كثر الاستعمال حتى سموا الظلمة سمرًا وانشد في ان السمر الظلمة

لا تسقني ان لم أزرْ سمرًا غطفان موكب جحفل ضخمِ
تُدعى هوازن في طوائفه بنوفدون نوفد الخمِ

ويسمون الليل المقمر ابن سمير وفي محيط المحيط ابن ثمير بالثاء ايضًا والليل المظلم ابن جُمَيْر وقالوا الجُمير والجمير الدهر وابناه جُمير الليل والنهار سُمّيا بذلك للاجتماع فانه يقال أجمر القوم على الشيء اي اجتمعوا وسُمّيا ايضًا ابني سمير لانه يسمر فيها ويسمون الليل الكافر ايضًا لكفره الاشياء اي ستره والليلة الطَّلق والطلقة الساكنة التي لا حرّ فيها ولا قرّ

وفي درّة الغواص وغيرها من كتب اللغة السمر حديث الليل خاصة والطروق الاتيان ليلاً والتغليس سير القوم مع الصبح والإدلاج بكسر الهمزة سيرهم من اول الليل والأدلاج بفتحها سيرهم من آخر الليل والتأويب سيرهم نهارًا ونزولهم ليلاً والسرى سير الليل خاصة والاسآد سيرهم ليلاً ونهارًا والمقيل الاستراحة وقت الهاجرة والتغوير اذا نزلوا للاستراحة في نصف النهار والتعريس اذا نزلوا في نصف الليل والاعتاق الاسراع فيه وتهجّد المصلّي اذا تنفّل في طل الليل والاستظلال يكون من الحرّ والاستدفاء يكون من البرد والاستكنان من المطر

ويعبرون عن الشمس في وقت ارتفاعها بالغزالة وعند غروبها بالجونة وعن اشدّ الاوقات حرًّا بالهاجرة والهاجري والحمارّة والجيهز وهو من حرّ القيظ اشدّهُ وكذلك الحُسْذة الحرّ الشديد مأخوذ من حاذ وهو من اسماء الشمس ويقال شهري ناجر في الصيف شهرا قُح في الشتاء وهما اشدّهُ بردًا ويقال لهما شيبان وملحان ايضًا وكذلك كلبة الشتاء يراد بها شدّة بردهِ والباحور القمر وشدّة الحرّ في تموز

ويسمّون السبعة الايام المعروفة ببرد العجوز وعند العامة المستقرضات وهي من خامس وعشرين شباط الى ثالث اذار بهذه الاسماء الاول الصِنّ والثاني الصِنَّبْر والثالث الوَبْر والرابع الآمر والخامس المؤتمر والسادس المعلل والسابع مطفي الجمر ويروى مكفي الظعن

ويسمّون اوّل مطر الربيع الأوّل الوسميّ سمّي بذلك لانهُ يَسِمُ الارض بالنبات وهو منسوبٌ الى الوسم واما المطر الذي يليهِ فيسمّونهُ الوليّ وقد جمعهما ابو الطيب المتنبي في بيتٍ واحدٍ حيث يقول

أ منعمةٌ بالعودة الظبية التي بغير وليٍّ كان نائلها الوسمي

واول المطر رَشٌّ والشديد من الامطار الضخم القطر وابل وشدة صوب المطر انهلال . قال الزوزني الصوب المطر من صابَ يصوبُ صوبًا اي نزل من علوٍ الى اسفل ثم اذا احيا الارض بعد موتها فهو الحياء واذا جاء عقيب المحل او عند الحاجة اليهِ فهو الغيث فاذا دام مع سكون فهو الدِّيمة فاذا زاد فهو الهتان فاذا كان ضعيفًا فهو الرِّهمة واذا تبعّق بالماء فهو البُعاق فاذا كان يروي كل شيءٍ فهو الجود فاذا كان عامًّا فهو الجَسْر فاذا حرف ما مرَّ بهِ فهو الساحية فاذا تتابع فهو العَلول فاذا نزل دفعات فهو الشآبيب

وقالوا في امثالهم نحن بوادٍ غيثهُ ضَروس قال الميداني عن الاصمعي يقال وقعت في الارض ضروس من مطر اذا وقعت فيها قطع متفرقة يضرَب لمن يقلّ خيرهُ وإن وقع لم يعمّ وقيل ايضًا الضرس المطرة القليلة والنضاحُ والنشعُ ما ترشّش من المطر الخفيف الضعيف قال الشاعر

كأنَّ فاها عبقريٌّ باردٌ او ريح روضٍ مسّهُ تضاحُ رِكْ

يراد بالعبقر هنا وقيل عب قرّ وحقر البرد ومنهُ المثل "أبرد من عبقر" ورواهُ ابو عمرو بن العلاء أبرد من عب قر فذل والعب اسم للبرَد ويسمونهُ ايضًا حبّ المزن وحبّ الغمام

والعارض اسمٌ للسحاب والسارية السحابة الماطرة ليلاً والدجن الباس الغيم افاق السماء والبكر من السحاب السائق مطرهُ والمكفهر والمكرهف السحاب المتراكب والشبب السحائب التي فيها سواد وبياض والطخاء الغيم الرقيق والذي يواري النجوم فيغير اهادى والكرفئة جمعها كرافي قطعٌ من السحاب بعضها فوق بعض والجهام السحاب لاماء فيه او قد اراق ماءهُ

وكانت العرب تضرب ابياتها في القبيلة مطلع الشمس لتدفئهم في الشتاء وتزول عنهم في الصيف فما هبَّ من الرياح عن يمين البيت فهي الجنوب وما هبَّ من شماله فهي الشمال وما هبَّ عن امامهِ فهي الصباء وما هبَّ من خلفهِ فهي الدبور وما استدار من الرياح بين هذه الجهات فهي النكباء ومنها الازيب بين الشرق والجنوب والصابئة بين الجنوب والدبور والجربياء بين الدبور والشمال والهيف بين الشمال والصباء

واوّل الريح نُشُونٌ فاذا كانت الريح شديدة باردة فهي الخرجف فان هبَّت من جهات مختلفة فهي المتناوحة فاذا كانت لينة فهي النسيم فاذا ابتدأت بشدة فهي الناجمة فاذا كانت شديدة فهي العاصف فاذا حركت الشجر فهي الزعزع فاذا جاءت بالحصباء فهي الحاصبة والحصباء الحصى واحدتها حَصَبة وفي القاموس الحاصبة ريح تحمل التراب فاذا كانت الريح سريعة فهي الجفول ومجال ومجالة فاذا هبت من الارض كالعمود فهي الاعصار فاذا كان مع بردها ندى فهي البليل فاذا كانت حارّة فهي الحرور والسموم

وقد ذُكر في القرآن من الرياح ثمانية اربع رحمة واربع عذاب فاما التي هي للرحمة فالمبشرات والمرسلات والذاريات والناشرات واما التي للعذاب فالصرصر والعقيم وهما في البرّ والعاصف والقاصف وهما في البحر

وقد سبق الكلام في ما مرَّ على افتخار العرب بكثرة النيران لانها تكون عندهم اكبر دليل على كثرة الطعام لكنهم يوقدونها لاسباب اخرى غير الطعام ايضاً ولكل نوع منها اسمٌ مخصوص فمنها نار القرى المخصوصة بالصفة التي

مرّ ذكرها في الفصل الاول من المقالة السادسة توجد نار الوسم وهي التي توقد يحمون بها الميسم الذي يسمون به ابل الملوك لترد الماء اولاً ونار الاستسقاء توقدها الجاهلية طلباً للمطر ونار التحالف وهي التي توقد على الجبل اعلاماً بالاحالف والاباعد ونار الغدر كانوا اذا غدر الرجل بصاحبه يوقدون ناراً في ايام الحج ثم يقولون هذه غدرة فلان ونار السلامة توقد للقادم من سفر سالماً ونار الزاجل توقد للمسافر اذا لم يحبوا ان يعود ونار الاسد توقد عند الخوف من سطوة الاسد حتى اذا رآها ينفر منها ونار السليم والسليم الملسوع يقال له ذلك تفاؤلاً بالسلامة وهم يكرهونه على السهر ويوقدون له ناراً ليسهر على ضوءها ونار الفدى كانوا اذا سبيت نساء الاشراف منهم وفدوهنّ يخرجوهنّ ليلاً ويوقدون لهنّ ناراً ليستضيئن بها

وهناك نارٌ اخرى يقال لها نار المهوّلة ذكرها بعضهم فقال قال ابو عبيدة كان في الجاهلية لكل قوم نارٌ وعليها سدنة فكان اذا وقع بين الرجلين خصومة جاء من تمت عليه اليمين الى النار فحلف عندها وكان السدنة يطرحون فيها ملحاً من حيث لا يشعر يهولون بها عليه قال الكميت

كهولة ما اوقد المحلّفون   لدى الحالفين وما هوّلوا

وضرب العرب المثل بحسن النار فيقولون لمن ارادوا وصفه بالمحاسن احسن من النار ولمن ارادوا المبالغة في وصفه بالحرارة أحرّ من الجمر ولهم قولهم أخلف من نار الحباحب فهي النار التي تورِيها الخيل بسنابكها من الحجارة وقيل غير ذلك

وللارض عدّة الفاظ تشير اليها وكلها مترادفة منها الساهرة والبسيطة والغبراء والكون والكرة والمعمورة والمسكونة والعالم والدنيا والتربة والحيتة فاذا كانت مستوية فهي جحجب وصعيد وسهل او كانت لينة فهي دمثة او مخصبة فهي وعدة وتجمع على وهاد فاذا كانت لاماء فيها ولا شجر فهي فراحٌ

او لم يكن بها سكان فهي قفر والقطعة من الارض بقعة وتجمع على بقاع فاذا كانت سريعة الانبات فهي مبكار فاذا كانت واسعة بعيدة الاطراف او الفلاة لاماء فيها ولا ابس وان كانت معشبة فهي التنوفة فان كانت روضة فيها حياض ومساكات للماء فهي ثجنة فاذا كانت خالية عن العالم فهي الموجل فاذا لم تكن سهلاً وكانت غليظة فهي الحزن والفدفد والقلظ والجلد فاذا كانت غليصة ذات حجارة فهي الأبرق وبرقة والبرقاء فاذا لم يكن فيهـا بناء فهي عرصة واذا كانت بعيدة فهي الزوراء والتي ليس بها زرع الجزراء او كانت صحراء فهي البادية فاذا كانت مهلكة لاماء فيهـا فهي المفازة او كانت معارة بعيدة فهي المهه او كانت لانبت فيها فهي المرت فاذا كانت مرتفعة فهي نجد ونشر فاذا كان ارتفاعها مع اتساع فهي اليفاع فاذا كانت مستوية مع الاتساع فهي صحصف واذا كانت مع ليونتهـا سهلة فهي البرث فاذا كانت طيبة التربة عكسها فهي الصراء والدمية فاذا كانت مهيأة للزراعة فهي الحقل فاذا كانت غير مهيأة فهي البور فاذا لم يصبها المطر فهي الفل فاذا لم يتزعا نازل من قبل فهي الحطة فاذا كانت لم تعمر ولم تحرث فهي الحادسة فاذا كانت ذات سباخ فهي سبخة فاذا كانت كثيرة الشجر فهي شجرة فاذا كانت كثيرة الحصى يعني صغار الحجارة فهي الامعز فاذا كانت كثيرة الحجارة فهي حجرة فاذا كانت كثيرة الصخور فهي صخرة فاذا كانت كثيرة الغلات فهي مخصبة ومغلة فاذا كانت بعكس ذلك فهي جرداء فاذا كانت كثيرة الثمر فهي ثمرة فاذا كانت زكية معجبة للعين فهي أريضة فاذا كانت طيبة الهواء فهي عزاة فاذا كانت بعكس ذلك فهي وبلة ووخام ووخمة ووخيمة وغمة فاذا كانت ذات وباء فهي وبئة فاذا كانت كثيرة الاهل والصنائع فهي غناء وعامرة فاذا كانت بعكس ذلك فهي خراب وغامرة وفلاة وبلقع

واما البوغاء والدقعاء فهو التراب الرخو الرقيق الذي كانه ذريرة والثرى والتراب الندي وهو كل تراب لا يصير طيناً ولازباً اذا بل والمور

التراب الذي تمور به الريح والهباء التراب الذي تطيرهُ الريح فيكون على وجوه الناس والهابي اذا دقّ وارتفع والسّافيا الذي يذهب في الارض مع الريح والجُرثومة التراب الذي يجمعهُ النمل والعفا التراب الذي يعفي الآثار وكذلك العفر. والرغام التراب المختلط بالرمل والسماد التراب الذي يُسمد به النبات والنقع الغبار الذي يثور من حوافر الخيل والعجاجة التراب الذي تثيرهُ الريح والرهج غبار الحرب

واصغر ما ارتفع عن الارض نبكة ثم الرابية وتجمع على رُبى وروابي ثم الاكمة وهي اقلّ من حجارة وتجمع على آكام اما التلّ فهو كومة من التراب والرمل وغيره والكثيب والدعص التلّ من الرمل ثم الحزوة ثم الربع ثم الهضبة وهي الجبل المنبسط على الارض وتجمع على هضب وهضاب ثم الدك وهو الجبل الذلول ثم الجبل ثم الطود والعلم وهو الجبل العظيم ثم الاخشب

واول الجبل الحضيض وهو القرار من الارض ثم السفح وهو ذيلة ثم السند وهو المرتفع في اصله ثم الكيح وهو عرصة ثم الربد وهو ناحيتهُ المشرفة على الهواء ثم الجيد وهو جناحهُ ثم الرعن وهو انفهُ ثم الشعفة والذروة والقمة وهي راسهُ

واما المنهل فهو مكان الشرب وجمعهُ مناهل والبطيحة والبطحاء والابطح مسيل واسع فيه حصى ويجمع على اباطح وبطاح وبطائح والوادي ما كان بين جبلين وجمعهُ اودية ووديان . ورحبة المكان ساحتهُ ومسيل ماء الوادي والموق والبرزخ الحاجز بين شيئين والشامة الموضع الذي يخالف لون الارض ويجمع على الشام والاجمة الغابة والحرث الطريق المكدود بالحوافر والارجع والجزيرة او شبه الجزيرة جزيرة تتصل من احدى اطرافها بالبرّ والجرعاء الكثير الممتد من الرمل

ويعبرون عن النهر العظيم بالعطمط وخضم والكبير من الانهر طبع وخليج اما الجعفر فهو النهر الكبير وقيل الصغير صد والكثير من الماء غمر والكثيرة الماء من العيون ثرّة وواد زاخر اذا كان ممتلئاً وبحر طام ونهر طافح

واذا كان الماء جامداً فهو العصرس وقيل العصرس ضربٌ من النبات واذا كان الماء من السحاب فهو يبخ ومن الينبوع ينبع ومن الحجر ينبجس ومن النهر يفيض ومن السقف يكف ومن القربة يسرب ومن الاناء يرشح ومن العين يسكب

ومما يتمثلون به في الحماقة قولهم لمن يبالغون في وصفه بها احمق من لاعق الماء ومن ناطح الصخر وعليه قول الاعشى

كناطحٍ صخرةً يوماً ليفلقها ... فلم يضرها واوهى قرنه الوعلُ

(والوعل المذكور هنا هو تيس الجبل) ويقولون في اباحة الشيء أحل من ماء الفرات (والفرات هو الماء العذب) ويقولون في الخيبة أخيب من القابض على الماء

ثم ان ما اوردتهُ في هذا الفصل من الاسماء لاي نوعٍ كان من الانواع والعناصر المذكورة بحسب اختلاف هيآتها انما هو اخصُّ ما شاع منها فقط والّا فان الاستقراء بعيدٌ جداً عن مثل هذا التأليف ولا يكون موضعهُ الّا في القواميس المطوّلة هذا ما كان من معارف العرب القديمة في الفلك والطبيعيات

الكلام على علم الهيئة

اما الذين اشتغلوا بعلم الهيئة بعد ظهور الاسلام فهم كثيرون اذ لا يخفى بانه قبل ظهور الاسلام باجيال كثيرة كان الاعتقاد بمعرفة الامور الخفية والمستقبلة وسعادة الانسان ونحسهِ من مجرّد النظر الى وجه النجوم شائعاً في جميع اجزاء كرة الارض بل والى الآن باقٍ عند الاكثرين من شعوب المشرق ولذلك يمكن ان يقال هنا بان هذه الغاية كانت هي السبب الاصلي في التفات العرب الى هذا العلم قبل غيره في اول الاسلام لانهُ منذ تولّى الخلافة ابو جعفر

الخوارزمي

الفزاري

المنصور العباسي امر رجلاً يقال له محمد بن الفزاري وكان ممن اشتهر بالفلسفة والنجوم فترجم له كتاباً يسمّى سند هند الكبير قال بعضهم ان معناهُ الدهر الداهر وهو كتابٌ شهير وقتئذٍ باستيعاب هذا من اختصرهُ الخليفة المشار اليهِ من المد وعين الفزاري المذكور الى ترجمتهِ فترجمهُ على احسن وجه وبقي هذ الكتاب معمولاً بهِ عند المنجمين من ذلك الوقت الى عصر المأمون العباسي الذي كان اعظم الخلفاء رغبةً واجتهادًا في ترجمة كتب الاقدمين ونشر علومهم ومعارفهم بين العرب فامر محمد بن موسى الخوارزمي الذي مرّ ذكرهُ هو واخوتهُ بجملة الذين طافوا البلاد لاجل جمع الكتب اليونانية وترجمتها باختصار هذا الكتاب وتجميعهِ فكان هذا الكتاب اساساً لعلم الهيئة عند العرب بعد الاسلام لانهُ يشتمل على حركات النجوم والاعمال الفلكية

ثم ان امر الخليفة المشار اليهِ بترجمة الكتب الى اللغة العربية على ما سبقت تفاصيلهُ امر بترجمة المجسطي في سنة ٢١٢ للهجرة (سنة ٨٢٧م) واختلفوا في مترجمهِ فقال قوم هو اسحق بن حنين وقال آخرون هو الحارث بن يوسف ومن ثم اتبع المشتغلون بهذا العلم من العرب رأي بطليموس صاحب الكتاب المذكور وتوسعوا فيهِ الى ان حصلوا على اكتشافات جديدة منها انتقال نقطة الرأس والذنب للارض ووقفوا في رصد ميل دائرة البروج على خط الاستواء وضبطوا الوقت وانشأوا مراصد في بغداد وقرطبة فدخلت منهم الى الافرنج وقد اشتهرت بينهم علماء مشاهير سوف يأتي ذكرهم قال صاحب المقتطف ان العلامة ملّي وهو من مشاهير علماء الهيئة من الافرنج لم يكتفِ بان جعلهم حياة العلم في اوربا بل قال لولا كتاب نور الدين في الكرة ما تهيأ لكبلر ان يكتشف الحكم الاول من احكامهِ الثلاثة الشهيرة وهو اهليلجية افلاك السيارات ولولا زيوجهم في السيارات والثوابت لم يكن زيج الفونسو الاسبانيولي . وابن رشد الذي مرّ ذكرهُ مع الفلاسفة رأى كلف الشمس وكتب عنها قبل ان عرفها اهل اوربا بقرون وكان اول مشاهير علماء الهيئة المذكورين من العرب الخليفة المأمون

المشار اليه فانه وان كان راغبًا في كثير من العلوم والفنون الا انه اشتهر خاصةً بعلم الفلك فامر ببناء بيت للرصد وهو هيكل معد للنظر في احوال النجوم وحساب سيرها وغير ذلك ومشتمل عادةً على جميع الآلات اللازمة هذا العمل فعمروهُ له في مدينة يقال لها الشماسية بنواحي الشام وذلك في سنة ٢١٤ للهجرة (سنة ٨٢٩م) وعيّن في عمره يحيى بن ابي منصور وعبد الملك وعباس بن سعيد الجوهري لرياسة المنجمين فاستخرجا الزيج الجديد وكان هذا الرصد اول رصد بُني في الاسلام

ويقال بان الخليفة المشار اليه رصد ميل دائرة البروج رصدين احدهما في بغداد تولاهُ يحيى بن ابي منصور المارّ ذكرهُ و[illegible] وعباس بن سعيد فوجدوا ميل دائرة البروج ٢٣° ٣٥' على ما رواهُ بواس و٢٣° ٣٣' على ما رواهُ الفرغاني في كتاب اصول علم الهيئة والثاني في دمشق تولاهُ خالد بن عبد الملك وسناد وابو الطيب وابن عيسى فوجدوا ميل دائرة البروج ٢٣° ٣٣' ٥٢"

وفي ايام الخليفة المأمون المشار اليه ظهر احمد بن عبد الله البغدادي الذي له ثلاثة زيوج الواحد على مذهب الهند والثاني المشهور باسم الممتحن والثالث الزيج الصغير وله رسالة لطيفة في فنّ الاسطرلاب

وفي ايامه كذلك كان عمر بن مرجان الطبري احد المنجمين وقد ترجم بامره كتبًا كثيرة وله تصانيف في النجوم وسائر العلوم

وكذلك احمد بن محمد الفرغاني كان من المنجمين كاملاً في علم الهندسة والهيئة والنجوم وله كتاب المدخل وكتاب الجامع الذي بيّن فيهِ مسائل المجسطي باعذب الالفاظ والطف الاشارات

ثم بعد ذلك ظهر ابو معشر جعفر بن محمد بن عمر البلخي المشهور وقد مرّت ترجمته في الكلام على الصناعة من المدارك الغيبية في الفصل الرابع من المقالة الرابعة وثابت بن قرّة الحراني الذي مرّ ذكرهُ بجملة مترجمي الكتب بين له الخليفة

سنان

المنار اليه رصدًا في بغداد فاستخرج حركة الشمس وحسب طول السنة الحقيقية ٣٦٥ يومًا و٦ ساعات و٩ دقائق و١٠ ثوانٍ وميل دائرة البروج ٢٣° ٣٣' ٣٠" فقابلهُ بما قبلهُ فوجد انهُ يتغير على تمادي الاجيال وقال بحركة مستقيمة واخرى متقهقرة لنقطتي الاعتدال

ومحمد بن جابر بن سنان ابو عبد الله الحراني المعروف بالبتاني نسبة الى بتان ناحية من اعمال حرّان الحاسب المنجم المشهور صاحب الزيج الصابي واشهر علماء النجم بالاعمال العجيبة والارصاد المتقنة . يحكى عنهُ انهُ ابتدأ بالرصد في سنة ٢٦٤ للهجرة (سنة ٨٧٧ م) الى سنة ٣٠٦ للهجرة (سنة ٩١٨ م) واثبت الكواكب الثابتة في زيجهِ سنة ٢٩٩ للهجرة (سنة ٩١١ م) وكان يرصد في رقة وفي انطاكية وتوفي سنة ٣١٧ للهجرة (سنة ٩٢٩ م) وكان صابي المذهب . قال ابن خلكان ولا اعلم انهُ اسلم وانما اسمهُ يدل على اسلامهِ ومن مؤلفاتهِ الزيج وهي نسختان اولى وثانية والثانية اجود وكتاب معرفة مطالع البروج في ما بين ارباع الفلك ورسالة في مقدار الاتصالات وكتابٌ شرح فيهِ اربعة ارباع الفلك ورسالة في تحقيق اقدار الاتصالات وشرح اربع مقالات بطليموس وغير ذلك ذكرهُ صاحب المقتطف فقال . قال لالاند (من علماء الهيئة الافرنج) انهُ من العشرين عالمًا الذين اشتهروا بعلم الهيئة . وقال العلامة هالي وكان قد امعن النظر في كتاباتهِ ما معناهُ بانهُ علامة عصرهِ عجيب التدقيق ومجرّب في الرصد وقال آخرون ان زيجهُ اصح من زيج بطليموس وحسب حركة الاعتدال ١° في ٦٦ سنة وكانوا يحسبونها ١° في كل ١٠٠ سنة ووجد ميل دائرة البروج ٢٣° ٣٥' فاذا أُصلحت حساباتهُ للاختلاف الافقي والانكسار كان ميلها ٢٣° ٣٥' ٤٠" وحسب مباينة فلك الارض ٣٤٦٥ حاسبًا نصف قطرهِ ١٠٠٠٠٠ واكتشف انتقالات نقطة الراس والذنب ووضع للقمر معادلتين كالمعادلتين اللتين وضعهما بطليموس ورصد خسوفين وكسوفين[1] ورصودهُ واكتشافاتهُ

(١) الخسوف للقمر والكسوف للشمس

مذكورة في احد مؤلفاتو ترجم الى اللاتينية وطُبع بهما ولم يطبع بالعربية قبل ولم يزل محفوظًا في الفاتيكان(١) بخط مؤلفو

الكندي
وابو محمد الكوكندي عاش نحو سنة ٣٨٢ للهجرة (سنة ٩٩٢ م) وحسب ميل دائرة البروج ٢٣° ٣٢' ٢١" بربع احد اضلاعهِ مقسوم ثواني

البرجاني
وابو الارجاني عاش نحو سنة ٤٦٢ للهجرة (سنة ١٠٧٠ م) على ما ذكرهُ ابو الفرج بن العبري ونحو سنة ٣٨٥ للهجرة (سنة ٩٩٥م) على ما ذكرهُ احد علماء الافرنج المسمى ربار وحسب ميل دائرة البروج ٢٣° ٣٥' بربع نصف قطره ١٥ ذراعًا

الزرقالي
والزرقالي عاش نحو سنة ٤٦٩ للهجرة (سنة ١٠٧٦ م) وحسب ميل دائرة البروج ٢٣° ٣٤'

والحازن الاندلسي عاش في اواخر القرن الخامس او اول السادس للهجرة او آخر القرن الحادي عشر واوائل القرن الثاني عشر للميلاد وقيل زمانه مجهول ألف كتابًا في الفجر والشفق وعيّن ابتداء كلّ منهما وقت بلوغ الشمس ١٩ درجة تحت الافق وحسب علو الهواء ٥١٢٨ ميلًا حاسبًا محيط الارض ٢٤٠٠٠ ميل ولهُ كتاب كثير الذكر في البصريات ضمه في سبع مجلدات طُبع باللاتينية في سنة ١٥٧٢ م (سنة ٩٨٠ للهجرة) اظهر فيهِ انكسار شعاع من النور في الهواء على حق اصولهِ واستخرج كمية الانكسار وفيهِ يصف العين وصفًا مقبولًا ويبحث عن كيفية ادراك المرئيات بحاسة البصر مبينًا ان اهمّ ما يتمّ بهِ ذلك هو البلورية لكن لم يحسبها عدسية وبرهن ان البصر انما يتم بشعور الدماغ بالمحسوسات الظاهرة بواسطة العصب البصري ويعلل عن رؤية الاشباح مفردة مع انها تنظر بعينين لا بعين واحدة بان قسمين متوافقين من الشبكية يتأثران فيؤديان صورة واحدة الى الدماغ وفاق هذا الاندلسي سائر القدماء في فن الانكسار واكتشف كثيرًا من احكامهِ منها انهُ يزيد في ارتفاع الاجرام

(١) الفاتيكان سراي البابا في رومية

المموية في الظاهر وهو اوَّل من قال انَّا بالانكسار نرى الاجرام فوق الافق وهي تحته وان الانكسار بقصّر اقطارها وذكر عن سمواته اول من عرف انكسار الاشعة الى العين وله اقوال أُخر كثيرة بعضها صحيح وبعضها فاسد وهو اول من ذكر خاصة التكبير في الزجاج لقوله اذا وضعت مادة عند قاعدة زجاجة اكبر منها كبرت فادَّى ذلك الى اختراع النظارات والمنظارات ونحوها وروي عنه انه ادَّعى يومًا انه يستطيع آلة في النيل تدفع عن الناس ضرر الفيضان او النقصان الزائد فاتصل قوله الى الحاكم بامره وسوف يأتي ذكرهُ وكان يكرم العلماء فاستدعاهُ اليه ولما حضر خرج الحاكم المذكور الى خارج القاهرة للاقاته وغمرهُ بالاحسان ورفع منزلته وجعل تحت يده من الفعلة والادوات ما يستعين به كلامه فطاف الحازن الديار المصرية فرأى ان اتمام ما ادَّعى به محال فسقط في يده وعاد الى القاهرة خائبًا ولخوفه من الحاكم المذكور تظاهر بالجنون وبقي عليه حتى مات الحاكم واظهر الحازن جنَّا حتى لم يعد له ما يخشى به وكان يؤلف وينسخ الكتب ويبيعها الى ان توفي في سنة ٤٣٠ هجرة (سنة ١٠٣٨ م)

وابو الحسن علي بن ابي سعيد بن عبد الرحمن بن احمد بن يونس بن عبد الاعلى الصدفي المصري المنجم المشهور صاحب الزيج الحاكمي المعروف بزيج ابن يونس وهو اربع مجلدات قال ابن خلكان انه لم يرَ في الازياج على كثرتها اطول منه وقد امرهُ بعمله وابتداءهُ له العزيز ابو الحاكم بامره المذكور صاحب مصر وكان مختصًا بعلم النجوم بارعًا في الشعر واهل مصر يعوِّلون في الكواكب على اصلاحه لزيج يحيى بن منصور وعدله القاضي محمد بن النعمان سنة ٣٨٠ هجرة (سنة ٩٩٠م) وكان افنى عمرهُ في الرصد والتسيير للمواليد وعمل فيها ما لا نظير له وكان يقف للكواكب قال ابو الحسن المنجم الطبراني انه صعد معه الى الجبل المقطم بمصر وقد وقف لزهرة فنزع ثوبه وعمامته ولبس ثوبًا ساويًا احمر ومقنعة حمراء تقنع بها واخرج عودًا فضرب به والبخور بين يديه وكان ابله مغفلاً يعتم على طرطور طويل وزعموا انه كان له اصابة بديعة غريبة في النجامة

لا يشاركهُ بها احد توفي سنة ٥٣٩ للهجرة (سنة ١١٤٤ م)

وابو القاسم هبة الله بن الحسين بن يوسف وقيل احمد المنعوت بالبديع الاسطرلابي الشاعر المشهور ذكروا انهُ كان وحيد زمانهِ في عمل الآلات الفلكية متقن هذه الصناعة وحصل لهُ من جهة عملها مال جزيل في ايام خلافة المسترشد وما مات لم يخلفهُ في شغلهِ مثلهُ والاسطرلاب كلمة يونانية معناها ميزان النجوم وذكروا ان اوّل من وضعهُ بطليموس صاحب المجسطي توفي في سنة ٥٣٤ للهجرة (سنة ١١٣٩ م)

ودام الامر على استعمال الكرة والاسطرلاب الى ان استنبط الشيخ شرف الدين الطوسي ان يضع المقصود من الكرة والاسطرلاب في خطٍّ فوضعهُ وسماهُ العصا وعمل لهُ رسالةً بديعة فهو اوّل من اظهر هذا الى الوجود فصارت الهيئة توجد في الكرة التي هي جسم لانها تشتمل على الطول والعرض والعمق وتوجد في السطح الذي هو مركَّبٌ من الطول والعرض بغير عمق وتوجد في الخط الذي هو عبارة عن الطول فقط بغير عرض ولا عمق ولم يبقَ سوى النقطة ولا يتصور ان يعمل فيها شيء لانها ليست جسمًا ولا سطحًا ولا خطًا بل هي طرف الخط كما ان الخط طرف السطح والسطح طرف الجسم والنقطة لا تنقسم فلا يتصوَّر ان يرتسم فيها شيء

ويقولون بان اول من تكلّم في الجواهر العلوية والحركات النجمية وبنى الهياكل ومجّد الله فيها هو هرمس الاول قال ابن خلدون المغربي وقد يقال ان هرمس هو ادريس اقدم الانبياء المذكور في التوراة باسم اخنوخ واليهِ تنسب العامة صناعتي الخياطة والحياكة كما ينسبون الى نوح اختراع صناعة النجارة لكونهِ عمل السفينة

ويقولون ان هرمسًا هذا بعثهُ البودشير بن قبط ملك مصر الى جبل القمر حتى ركَّب جريةَ النيل من هنالك وعدَّل البطيحة الكبرى التي تنصبُّ اليها عيون النيل وعمَّر بلاد الواحات فان ارسطاليس الفيلسوف شرح كتابهُ وترجمهُ من

اللسان المصري الى اليوناني وشرح ما فيهِ من العلوم والحكمة والطلسمات وله كتاب الاسطوجس يحتوي على عبادة الاول ذكر فيهِ ان اهل الاقاليم السبعة كانوا يعبدون الكواكب السيارة كل اقليم لكوكب ويسجدون له ويبخرون ويقربون ويذبحون وروحانية ذلك الكوكب تدبرهم بزعمهم وهذا الكتاب يحتوي على فتح المدن والحصون بالطلسمات والحكم ومنها طلسمات لانزال المطر وجلب المياه وكتاب الاسطرتاش في الاختيارات على سري القمر في المنازل والاتصالات وكتب اخرى في منافع وخواص الاعضاء الحيوانية والاحجار والحشائش

ومثل هذه الاحاديث وغيرها من آراء قدماء الحكماء المشحونة بها كتب مؤلفاتهم في النجوم وخاصةً ميل العرب الطبيعي لتثبيت ما صادفوهُ على ذلك لم يكتفوا بما نقلوهُ من كتب الاقدمين في امر الحكمة بل زادوا عليهم اصنافاً اذ انهم جعلوا لها رموزاً صناعية ينظرون اليها في التنجيم عوض نجوم كخط الرمل وحساب الجمل والزايرجة وغيرها كما سبقت الاشارة الى ذلك في الفصل الرابع من المقالة الرابعة وادخلوا ذلك ما اشتقوهُ من العلوم الفلكية كما افسدها من تقدمهم من الشعوب القديمة

الكلام على الجغرافيا

قال بعض المؤلفين ان العرب يحسبون من الطراز الاول بين الجغرافيين ايضاً وقال مالطبرون العالم الجغرافي الشهير الفرنسي انهم جاروا حدود الارض المعروفة وتوغلوا لا سيما في ارض اسيا وافريقية وان الخلفاء في صدر الاسلام امروا امراء جيوشهم وعمالهم ان يرسم كلٌّ منهم خطط البلاد التي افتتحها واستولى عليها وفي سنة ٢١٨ للهجرة (سنة ٨٣٣م) امر الخليفة المأمون العباسي المتقدّم ذكرهُ ان يقيسوا درجة عرض في صحراء سنجار بين الرقة وتدمر فمسحوها

ومسحت ثانية بقرب الكوفة وبهذا توصل الى معرفة مقدار مساحة الارض وذكر ابن خلكان طريقة العمل فقال ان المأمون كان يرى رأي القدماء بان دورة كرة الارض ٢٤ الف ميل كل ٣ اميال فرسخ[1] فسأل بني موسى وهم ابو عبد الله محمد ابن موسى بن شاكر واخواه محمد والحسن الذين مرّ ذكرهم في الكلام على جمع الكتب وترجمتها فقالوا نعم هذا قطعي فقال اريد منكم ان تعملوا الطريق الذي ذكرهُ المتقدمون حتى نبصر هل يحرر ذلك ام لا فسألوا عن الاراضي المتساوية في اي البلاد هي فقيل لهم صحراء سنجار وكذلك وطاة الكوفة فاخذوا معهم جماعة ممن يثق المأمون الى اقوالهم وخرجوا الى سنجار فوقفوا في موضع واخذوا ارتفاع القطب الشمالي وقاسوا بحبل ربطوها الى اوتاد حتى انتهوا الى موضع اخذوا فيه ارتفاع القطب المذكور فوجدوهُ قد زاد على الارتفاع درجة فمسحوا ذلك القدر الذي قدروهُ من الارض بالحبال فبلغ ستة وستين ميلاً وثلثي الميل فعلموا ان كل درجة من درج الفلك يقابلها من سطح الارض هذا المقدار من الاميال وتحققوا صحة ذلك بقياس ما يقابل تلك الارض من جهة الجنوب بالحبال التي قاسوا بها سابقها واخذوا الارتفاع فوجدوا القطب الشمالي قد نقص درجة عن ارتفاعهِ الاوّل فصحّ حسابهم وحققوا ما قصدوهُ وضربوا حساب الفلك الذي يعتبرونهُ اثني عشر برجًا وكل برج ثلاثين درجة فتكون الجملة ثلاث مئة وستين درجة في ستة وستين ميلا وثلثي الميل فيكون الخارج اربعة وعشرين الف ميل وهي ثمانية آلاف فرسخ فعادوا الى المأمون واخبروهُ بذلك فسيّرهم الى ارض الكوفة ففعلوا هناك كما فعلوا في سنجار فتوافق الحسابان فعلم المأمون صحة ما حررهُ القدماء في ذلك

وقال ملطبرون ايضًا بانهُ خرج من لشبونة ببلاد الاندلس قبل كرستفورس

---

(١) الميل اربعة آلاف خطوة فيكون الفرسخ اثني عشر الف خطوة وتكون دورة الارض ثم ستة وتسعين الف الف خطوة والخطوة في المساحة ستة اقدام فتكون دورة الارض خمس مئة وستة وسبعين الف الف قدم

كلموس بعدة طويلة جماعة يقال لهم المغرورون وهم من العرب ركبوا البحر وساروا يبحثون عن الاراضي الغربية في البحر الاتلنتيكي

وقال ايضاً ان العرب استكشفوا استكشافات في مجري اسد واصبهان وظهر منهما راصدان بذلا وسعهما في التخطيط وهما الواقدي وابو زيد حبابا اعد بلاد اسيا وخططاها من سنة ٢٣٧ للهجرة (سنة ٨٥١ م) الى سنة ٢٦٤ للهجرة (سنة ٨٧٧ م)

فالواقدي المذكور هنا لعله ابو عبد الله محمد بن عمر بن واقد الواقدي المدني مولى بني هاشم وقيل مولى بني سهم بن اسلم صاحب التصانيف في المغازي وغيرها وله كتاب الردة ذكر فيه ارتداد العرب بعد وفاة صاحب الشريعة الاسلامية ومحاربة الصحابة لطليحة بن خويلد الاردي والاسود العنسي ومسيلمة الكذاب الذين مرّ ذكرهم في الفصل الرابع من المقالة الرابعة وولاهُ المأمون القضاء بعسكر المهدي لكن ضعفوهُ في الحديث توفي ببغداد سنة ٢٠٧ للهجرة (سنة ٨٢٣م) غير ان تاريخ وفاته لا يطابق ما ذكرهُ سطبرون فاما ان يكون وقع غلط في احد التاريخين او يكون الذي ذكرهُ سطبرون من اولاد هذا الرجل

واما ابو زيد فهو عمر بن شبة واسمهُ زيد وشبة لقبٌ له بن عبيدة بن زيد ويقال ابن رائطة النميري صاحب كتاب تاريخ البصرة وكان صدوقاً في الحديث توفي سنة ٢٦٢ للهجرة (سنة ٨٧٦ م)

ومن اشهر مؤلفي الجغرافية في الاسلام قطب الدين المسعودي بن عتبة واسمهُ علي بن الحسين بن علي بن عبد الله بن زيد بن عتبة بن عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود وكان مشتغلاً بتآليف الجغرافية في ايام المطيع لله بن المقتدر العباسي وألف كتاباً سمّى مروج الذهب ومعادن الجوهر في تحف الاشراف والملوك واهل الدرايات وهو تاريخٌ عام مشتمل على جميع الممالك المعروفة في اقسام الدنيا الثلاثة وهو يبسط الكلام في الجغرافية ولاسيما ما يتعلق بافريقية والهند واسيا الوسطى توفي بالقاهرة سنة ٣٤٦ للهجرة (سنة ٩٥٧م)

وفي هذا الزمان ظهر ابن حوقل صاحب كتاب المسالك والممالك والمفاوز والمهالك الذي كتبهُ سنة ٣٦٧ للهجرة (سنة ٩٧٧ م) وقد تُرجم هذا الكتاب الى اللغة الفارسية ومنها الى الانكليزية وفيهِ تخطيطاتٌ مفيدة مشبعة تتعلق بجميع بلاد الاسلام واما ما عداها من البلاد فلم يتكلم عليهِ الا بوجهٍ اجمالي وقد قال في كتابهِ واما بلاد النصارى والحبشة فلم اتكلم عليها الا يسيرًا لما ان توافي بالحكمة والعدل والدين وانتظام الاحكام يأبى ان اثني عليهم بشيءٍ من ذلك

ثم ظهر الشريف الادريسي الملقب عند الافرنج بجغرافي النوبة ألَّف كتابًا للملك روجار الاوَّل صاحب صقلية سماهُ نزهة المشتاق وهو شرح كرة ارضية مصنوعة من الفضة اشار بعملها هذا الامير وكان وزنها ثمان اواق وذكر في كتابهِ ايضًا سانات كل قطرٍ وكان ذلك سنة ٥٤٨ للهجرة (سنة ١١٥٣ م)

ثم ظهر ابو عبد الله ياقوت الحموي بن عبد الله الرومي الجنس الحموي المولد البغدادي الدار الملقب شهاب الدين وكان أُسر من بلادهِ صغيرًا فاشتراهُ تاجر ببغداد علَّمهُ الكتابة لينتفع بهِ وكان متعصبًا على علي بن ابي طالب وكان قد نسخ التواريخ وألَّف كتابًا في الجغرافيا مرتبًا على حروف الهجاء يسمى معجم البلدان وله تصانيف غيرهُ منها ارشاد الالباء الى معرفة الادباء وهو نحو اربع مجلدات وجمع كتابًا في اخبار الشعراء القدماء والمتأخرين وكتاب معجم الشعر وكتاب معجم الادباء وكتاب المشترك وضعًا المختلف صقعًا وكتاب المبدإ والمآل في التاريخ وكتاب الدول ومجموع كلام ابي علي الفارسي وعنوان كتاب الاغاني والمقتضب في النسب وكتاب اخبار المتنبي توفي سنة ٦٢٦ للهجرة (سنة ١٢٢٨ م)

وبعد ذلك ألَّف ابن الوردي في حلب كتابًا في الجغرافيا الطبيعية يعني علم طبيعة الارض وسماهُ خريدة العجائب ذكر فيهِ تفاصيل ما يتعلق بالمواليد الثلاثة واطنب في الكلام على افريقية وبلاد العرب والشام دون غيرها كاوربا والهند وشمال آسيا ويشمل كتابهُ هذا على خريطةٍ عامة لسائر الارض وكان ذلك سنة ٦٢٠ للهجرة (سنة ١٢٢٣ م)

والملك المؤيد عماد الدين ابو الفداء سلطان حماه ومن مولفاتهِ كتاب تقويم البلدان وفيهِ تخطيط الارض بتمامها على وجه التفصيل وقد رتبهُ على جداول بحسب الاقاليم مع ذكر درجات جميع الاحوال والعروض لسائر الاماكن وفي مقدمتهِ يتعرّض لعلم الهيئة ولاعظم بحار الدنيا وانهارها وجبالها ولما كانت الشام وطنهُ كان تخطيطهُ لها اتمّ من سائر تخطيطاتهِ وقد ذكر ايضاً فوائد جيدة في ما يتعلق بالاقاليم المجاورة لبلادهِ مثل العرب والعجم ومصر والمغرب واما كلامه على بلاد التتار والصين فلم يكن وافياً واما بلاد النصارى باوربا واقاليم افريقية المسكونة بالسودان فكانت عندهُ لست جديرةً بمزيد الاعتناء والاهتمام بشأنها وله تاريخ عمومي ايضاً هو في الحقيقة تاريخ الاسلاميين توفي سنة ٧٣١ للهجرة (سنة ١٣٣٠م)

وفي القرن الثامن للهجرة المقابل للقرن الرابع عشر من الميلاد ظهر المعوي وألف كتاباً سماهُ عجائب المولى القادر في ارضهِ

والى هنا ينتهي كلام ملطبرون في ما نحن بصددهِ غير انهُ يوجد كثيرون من الجغرافيين الذين الفوا في هذا الفن من المسلمين وان لم يدرجهم ملطبرون المذكور مع الذين ذكرناهم فقد ذكرهم غيرهُ من جغرافيي الافرنج ومنهم ابو اسحق الاصطخري الذي ألف كتاباً سماهُ كتاب الاقاليم بين سنة ٣٠٣ وسنة ٣٠٩ للهجرة (سنة ٩١٥ و٩٢١ م) ومنهم ابو القاسم عبد الله صاحب كتاب المسالك والممالك توفي سنة ٣٠٠ للهجرة (سنة ٩١٢ م) ومحمد الجيهاني صاحب كتاب المسالك في معرفة الممالك توفي سنة ٣٣١ للهجرة (سنة ٩٤٢ م) وابو الفرج البغدادي صاحب التذكرة المتوفى سنة ٣٣٧ للهجرة (سنة ٩٤٨ م) والقزويني وغيرهم

وقام بين العرب من السياح عدد غير منهم ابن فضلان الذي ساح الى افريقية ووصفها جيداً في القرن التاسع للميلاد (بين الثاني والثالث للهجرة) ومنهم البيروني الذي كان فلكياً وساح الى الهند وكتب فيها كتاباً حسناً وذلك

في القرن الحادي عشر للميلاد (الخامس للهجرة) وكتب في التجارة الكريمة . ومنهم ابن بطوطة الذي ساح الى افريقية والهند والصين وروسيا و برها في القرن الثالث عشر للميلاد (السابع للهجرة) ومنهم الحسن بن محمد القرطبي المعروف بالاسد الافريقي ساح الى افريقية وجانب من اسيا في القرن السادس عشر الميلاد (العاشر للهجرة) ومنهم من كتب في السياسة . ومنهم في انواع المعاملة ومنهم في صادرات البلاد ووارداتها وعدد اهاليها ومدنها وقراها وسائر اوصافها ومنهم في الفروسية . ومنهم في الموسيقى . ومنهم من كتب قواميس عامة وبعضهم كابي الفداء الذي مرَّ ذكرهُ قرن الجغرافيا بالهيئة والرياضيات مجرى العالم على اثره في هذه المباحث قال ملطبرون يُستدل من بعض امور على ان اول الجغرافيين وراسمي الخرائط من النصارى كانوا متطفلين على الكتب العربية وناسجين على منوالها

الكلام على علم النبات

وللعرب ايضًا اشتغال في علم النبات الذي اخذوهُ عن ديوسكوريدس وقام منهم من كتب في الحيوان وفيه وفي الزراعة كالقزويني والدميري وابن البيطار الآتي ذكرهُ مع الاطباء وابن البيطار الطبيب النباتي الذي سافر الى بلاد اليونان وجمع النباتات منها وكتب فيها كتابهُ المعروف بالادوية المفردة . وابو زكريا الاشبيلي كتب كتابًا جليلاً في الحراثة وذكر فيه التصيدي انه طبق معارف اهل العراق واليونانيين والرومانيين واهل افريقية على بلاد الاندلس فصاروا ينتفعون منها

وكان الاندلسيون يعرفون خواص الاتربة ويركبون الزبل تراكيب متعددة موافقة لطبائع الارضين ويحسنون دمن الارض والحراثة والغرس والسقي وبذلك حولوا الاندلس جنة وسط قفار اوربا وادخلوا اليها زراعة الحبل

والخرنوب والقطن والتوت وقصب السكر وعلموا الاهالي صناعة رفع المياه من سطحها الاصلي ونقلها الى الاعلى بواسطة النواعير الى ان صارت اعمر اقطار اوربا وفي الحرف والصنائع ايضاً

وفي ايام الخليفة المقتدر بالله العباسي نقل العرب الاترجّ المدور من الهند وزرعوهُ بعمان ثم نُقل الى البصرة والعراق والشام قال ابن خلدون المغربي انهُ بعد ان كثر في الثغور الشامية وانطاكية ومصر عدمت منهُ الرائحة الطيبة واللون الحسن الذي كان فيهِ بارض الهند لعدم ذلك الهواء والتربة وخاصة البلد ثم نقلوا البرتقال من بلاد اوربا الى المشرق ايضاً . قال بعض المؤرخين ان البرتقال اصلهُ من الصين والهند واستنبت في اوربا واول من استنبتهُ اهل البرتوغال ومنها انتشر في غيرها من بلاد اوربا ولما نقلهُ العرب سموهُ برتقال باسم البلاد التي نقلوهُ منها

الكلام على الهندسة وغيرها

وكان بعد ان ترجم العرب كتب اقليدس وارخميدس وابولونيوس على ما سبقت الاشارة اليهِ انهم اشتغلوا بعلم الهندسة ايضاً قال ابن خلكان ان ابا الوفاء محمد بن محمد بن يحيى بن اسماعيل بن العباس البوزجاني الحاسب المشهور كان احد الائمة المشاهير في علم الهندسة ولهُ فيهِ استخراجاتٌ غريبة لم يُسبق بها وكان العلامة كمال الدين ابو الفتح موسى بن يونس وهو المقيم بهذا الفن يبالغ في وصف كتبهِ ويعتمد عليها في اكثر مطالعاتهِ ويحتج بما يقولهُ وكان عدهُ من تآليفهِ عدة كتب توفي سنة ٣٧٦ للهجرة (سنة ٩٨٦ م)

وقال صاحب المستطرف ان اسماعيل الرقّاص كان معروفاً عند العرب غير ان مخترعهُ مجهول وكان حقهُ ان يخلد اسمهُ في بطون الاوراق على ما افاد بهِ العالم اهـ . ومن ذلك ستبين بان جربرت الراهب الفرنسي الذي عمل

اول ساعة ذات رقّاص وادخلها الى اوربا اخذ هذه المعرفة عنهم عند ما كان يدرس العلوم في الاندلس كما يتضح ذلك من الفصل الثاني

وقال صاحب المقتطف ايضًا انهم هم واضعو حساب المثلثات على ما هو عليه الآن فانهم كانوا يستعملون الجيوب عوضًا عن اوتار مضاعف الاقواس وقد وضع ~~ابو الحسن~~ الذي مرّ ذكرهُ مع علماء الهيئة جدولاً في الجيوب فيهِ قسم القطر ثلاث مئة قسم واكتشف جابر قضيتين عليهما بنى فن المثلثات الحديثة

وزعم بعضهم ان اول من وضع الحساب هو ابو الفرج قدامة بن جعفر بن قدامة الكاتب البغدادي الذي كان موجودًا في ايام المقتدر بالله العباسي وبهِ يُضرَب المثل في البلاغة فيقولون من ارادوا وصفهُ بها ابلغ من قدامة لكن الصحيح ان العرب اخذوا طريقة الحساب العشري عن الهنديين غير ان لهم فيهِ اتعابًا جزيلة واعمالاً حسنة وهم الذين ادخلوا الى اوربا الرقوم الحسابية

وكانت لهم اليد الطولى في علم الجبر الذي هو من اعظم مخترعات العقل البشري حتى شاع زمانًا ان واضعهُ هو ابو عبد الله محمد بن موسى الخوارزمي الذي مرّ ذكرهُ بجملة الذين سعوا في جمع الكتب القديمة وترجمتها وعمل للمأمون حساب دورة كرة الارض على ما تقدم في الكلام على علم الهيئة والصحيح انهم نقلوهُ عن اليونان ولكنهم سعوا فيهِ وحسنوا حتى صار يُنسب اليهم ولعل ابا عبد الله المذكور كان اول من عرف هذا العلم ونشرهُ بينهم

وكانوا يعرفون الثقل النوعي قال صاحب المقتطف ان الدكتور ماين قدم خطابًا الى اكاديمية العلوم في مدينة نيويورك من بلاد اميركا عن معرفة الثقل النوعي عند العرب وذكر فيهِ اقتباسات كثيرة من كتاب لخازيني يسمى ميزان الحكمة تدل على انهم كانوا يعرفون ثقل الهواء وكانوا يعرفون طرقًا مدققة لاستخراج الثقل النوعي لاكثر السوائل والجوامد حتى التي تذوب في الماء قال وفي الكتاب المذكور جداول مدوَّن فيها الثقل النوعي المعروف لنا الآن وفيهِ ايضًا رسم آلات طبيعية منها ميزان بديع الصنعة لاستعلام الثقل المذكور

الكلام على الطب عند العرب

قد ذكرنا فيما مرَّ انهُ كان للعرب في زمن جاهليتهم معارف في الطب حشة اما عملاً بالاستقراء والتجربة واما اخذاً عن السريان والفرس والهنود

والمشهور من اطبائهم رجل يقال له لقمان بن عاد وُجد حكيم[ا] وكانوا يزعمون ان اباهُ عاد بن لجيم بن عاد بن عوص بن ارام بن سام بن نوح وان لقمان المذكور عاش ثلاثة آلاف وخمس مئة سنة وهو عمر سبعة أنسر

ويليهِ رجل آخر من تيم الرباب يقال له ابن حذيم ويضربون فيهِ المثل بالحذاقة في الطب فيقولون لمن ارادوا وصفه بذلك أطبُّ من ابن حذيم وهو اطبُّ العرب عندهم ويفضلونهُ على الحرث الآتي ذكرهُ قال اوس بن حجر

فهل لكمُ فيهـــا اليَّ فانني بصير بما اعيى النطاسي[1] حذيما

اما الحرث بن كلدة المذكور فهو من بني ثقيف من اهل الطائف رحل الى ارض فارس واخذ الطب عن اهل جنديسابور وغيرها في الجاهلية وطبب في ارض فارس وحصّل مالاً ثم ان نفسهُ اشتاقت الى بلادهِ فرجع الى الطائف قيل انهُ مات سنة ١٣ للهجرة (سنة ٦٣٤ م) وقيل سنة ٢٠ للهجرة (٦٤٠ م) من سمٍّ سُقيهُ قبل سنةٍ

وكان ابن ابي رومية التميمي طبيبًا ايضًا معاصرًا للحرث المذكور

والنضر بن الحرث بن علقمة بن كلدة بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي كان من الجاهلية أُخذ اسيرًا يوم بدر فقتل وهؤلاء هم اشهر اطباء العرب وقد بقي من كلامهم في الطب ما قالهُ لقمان بن عاد المار ذكرهُ كل داء

(١) النطاسي العالم والطبي المطبب والنُطُس الاطباء الحذاق وهو من [illegible] [illegible] يونانية معربة [illegible] لم [illegible]

حسم بالكي آخر الامر ولذلك قالوا في امثالهم آخر الطب الكي وما قاله الحرث ابن كلدة ايضاً من سرّه البقاء ولا بقاء فليباكر الغداء وليخفف الرداء وليقلّ من غشيان النساء يريد بخفة الرداء ان لا يكون عليه دَين . ومن انواع معالجاتهم في معالجة الاحول بادامة النظر الى حجر الرحى في دورانه يزعمون ان الاعين تستقيم به . ويعالجون الخدر وهو شيء يعتري الاعضاء فلا تطيق الحركة بان يدعو صاحبه احبَّ الناس اليه وعليه قول بعضهم يخاطب محبوبته

رآني الله يا سلمى حياتي … وفي يوم الحساب كما اراكِ
الى كم تهجرين فتى معنّى … اذا خدرت له رجلٌ دعاكِ

ثم لما جاء الاسلام اباحت الشريعة الاسلامية التطبيب وامرت به اذ انه قد ورد في الحديث عباد الله تداووا فان الله عزّ وجلّ لم يضع داء الاّ وضع له دواء الاّ واحداً وهو الهرم ولما تولى الخلافة الوليد بن عبد الملك شرع في بناء المرستان ودور المرضى وكان ذلك اوّل ما بني من مثلها في الاسلام وجعل في المرستان الاطباء واجرى عليهم النفقات وامر بحبس المجذومين لئلاّ يخرجوا واجرى عليهم وعلى العميان الارزاق وهذه بداءة الاعتناء بهذه الصناعة منذ استيلاء الخلفاء الامويين ومن ثم ترك التطبيب عند اصحاب الطب الخشني من العرب وبحث عن اصحاب الصناعة فيه لما ورد في الحديث استعينوا على كل صنعة بصالح اهلها ويدل ايضاً ان في زمن صاحب الشريعة الاسلامية كان الحرث بن كلدة الذي مرّ ذكره ساكناً في المدينة فارسل اليه سعد بن ابي وقاص وهو احد الصحابة يستوصفه في مرض نزل به فدل ذلك عندهم على انه جائز ان يشاور اهل الكفر في الطب لان الحرث المذكور ادرك الاسلام ولم يسلم ولذلك لم تبرح مدة جزئية بعد الاسلام الاّ وقد تعين للرياسة على الطب عند الخلفاء الامويين ثم العباسيين من بعدهم الاطباء البارعين وتنظر من اليهود والنصارى
وكان اول من تعين من الاطباء المذكورين راهبٌ رومي يقال له

موريانوس وهو الذي علّم صناعة الطب والكيميا لابي هاشم خالد بن يزيد بن معاوية بن ابي سفيان الاموي وسوف يأتي ذكرهُ مع الاطباء الاسلاميين

ويليه اسطفاوس الذي كان اوّل المترجمين لخالد المشار اليهِ وقد ترجم لهُ عدة مصنفات من الرومي الى العربي

ومنهم ماسرجويه الطبيب البصري سرياني اللغة يهودي المذهب مشهور في العلوم الطبيعية تولى ترجمة مؤلَّف اهرن القس من السرياني الى العربي في خلافة مروان بن الحكم

ومنهم ثيوذوكس وثيودون طبيبان روميان كانا في خدمة الحجاج بن يوسف الثقفي حاكم البصرة في خلافة عبد الملك بن مروان المتقدّم ذكرهُ وكان لاحدهما ثيودكس عدَّة تلامذة وكتب في الطب وكان من تلامذتهِ الذين نبغوا في زمن المنصور

ومنهم عائلة بختيشوع واولهم كان جاورجيوس بن بختيشوع الجنديسابوري قيل لما مرض الخليفة المنصور ثاني الخلفاء العباسيين وعجز الاطباء عن معالجتهِ استحضرهُ من جنديسابور فجاء الى بغداد ومعهُ تلميذهُ عيسى بن شهلاثا ولما دخل الحضرة دعا لهُ بالفارسية والعربية فعجب المنصور من حسن منطقهِ ومنظرهِ وامرهُ بالجلوس ثم سألهُ عن اشياء اجابهُ عنها بسكون وهدوّ فاخبرهُ بمرضهِ فقال انا اذن اداويك بمشيئة الله وعونهِ فامر لهُ للوقت بخلعة جميلة وانزلهُ في احمل موضع من دورهِ وكرمهُ كما يكرم اخصّ الاهل ولم يزل جاورجيوس يطبّهُ حتى برئ من مرضهِ ففرح بهِ الخليفة فرحًا شديدًا وقال لهُ يومًا من يخدمك هنا قال تلميذي فقال لهُ اني سمعت انهُ ليس لك امرأة فقال لي زوجة كبيرة ضعيفة لا تقدر على النهوض من موضعها وانصرف من الحضرة ومضى الى الكنيسة فامر المنصور خادمهُ سالمًا ان يحمل من الجواري الروميات الحسان ثلاثًا الى جاورجيوس مع ثلاثة آلاف دينار ففعل ذلك فلما انصرف جاورجيوس الى منزلهِ عرَّفهُ عيسى بن شهلاثا تلميذهُ بما جرى واراهُ الجواري فانكر امرهنَّ وقال

عيسى يا تلميذ الشيطان لما ادخلت هولاء الى منزلي أأردت ان تنجسني امضِ وردهنّ على اصحابهنّ فمضى الى دار الخليفة وردهنّ على الخادم فلما اتصل الخبر الى الخليفة احضرهُ وقال لهُ لِمَ رددت الجواري قال لا يجوز لنا معشر النصارى ان نتزوّج باكثر من امرأة واحدة وما دامت امرأة حيّة لا ناخذ غيرها فحسن موقع هذا عند الخليفة وزاد موضعهُ عندهُ وفي سنة ١٥٢ للهجرة (سنة ٧٦٩ م) مرض جاورجيوس واستاذن بالانصراف الى بلدهِ فعرض عليهِ المنصور الاسلام قال يا حكيم اتقِ الله واسلم وانا اضمن لك الجنة فقال جاورجيوس قد رضيت حيث آبائي في الجنة او في النار فضحك المنصور من قولهِ فانصرف الى بلدهِ وترك تلميذهُ عيسى بن شهلاثا عند الخليفة فاتخذهُ المنصور طبيبًا اما هو فاخذ لاذية الناس الى ان اطلع المنصور على امرهِ فنفاهُ

وفي ذلك الوقت كان من اصحاب المنصور منجم اعجمي اسمهُ نوبخت وكان خبيرًا بعلم الهيئة فلما كبر وضعف قال لهُ المنصور احضر ولدك ليقوم مقامك فاحضر ولدهُ ابا سهل قال ابو سهل فلما دخلت على المنصور ومثلتُ بين يديهِ قيل لي تسمّ لامير المؤمنين فقلت اسمي خرشاذ ماه وطيماذاه مابازار خسروابهشاد فقال لي المنصور أكلّ ما ذكرت هو اسمك قلت نعم فتبسم ثم قال اختر مني احدى خلتين اما ان اقتصر بك من كل ما ذكرت على طيماذ واما ان تجعل لك كنية تقوم مقام الاسم وهي ابو سهل قال قد رضيت بالكنية فبقيت كنيته وبطل اسمهُ

ثم بعد وفاة جاورجيوس المذكور قام ابنهُ بختيشوع وصار طبيب الخليفة هرون الرشيد

وفي ايام هذا الخليفة كان يوحنا بن ماسويه الطبيب البارع صاحب المؤلفات الشهيرة

وبعد بختيشوع المذكور قام ابنهُ جبرائيل وبعد جبرائيل جاورجيوس اخوهُ ثم بختيشوع بن يحيى وبقيت هذه العائلة عند الخلفاء والامراء الى سنة ٤٥٠

للهجرة (سنة ١٠٥٢ م) اي مدة ثلاث مئة سنة ولهم مصنفات كثيرة في الطب وكتب واحدٌ منهم انجيل السبع

ومن مترجمي هذه المدة حجاج بن مطر ترجم مجسطي بطلميوس وترجم اقليدس وبعض مصنفات ارسطاليس

ومنهم عبد المسيح بن نعيمة والبطريق في عصر المنصور وابو زكريا يحيى بن البطريق

وفي هذه المدة اشتهر كذلك بعض الاطباء من الهنود والفرس واليهود والنصارى غير الذين ذكرناهم عند الخلفاء منهم منكة وصالح بن بهلة وعبدوس ابن يزيد وموسى ابن اسرائيل الكوفي وعيسى الطيفوري وزين الدين الطبري اليهودي وابو يوسف يعقوب بن اسحق الصباح الكندي المسيحي وقسطه بن لوقا ويحيى بن ماسويه الذي مرَّ ذكرهُ

ومنهم ايضاً ابو زيد حنين بن اسحق العبادي الطبيب المشهور تلميذ يوحنا ابن ماسويه المذكور ولد سنة ١٩٤ للهجرة (سنة ٨٠٩ م) وكان في ايام الخليفة المأمون بن هرون الرشيد واشتهر وتقدم بالترجمة وهو امام وقته في الطب وله مؤلفات مفيدة . يحكى عنه انه كان يذهب كل يوم الى الحمام ومتى خرج ونشف عرقه تبخر بالعود والعنبر وكان يأكل الدجاج ويشرب كل يوم اربعة ارطال خمر عتيق ويأكل الفواكه والنتاج وحصل زمن الخليفة المتوكل توفي سنة ٢٦٠ للهجرة (سنة ٨٧٣ م)

وكان لابي زيد حنين المذكور ولدان احدهما يقال له ابو يعقوب اسحق كان فيلسوفاً ومترجماً للكتب ايضاً وله مصنفات مفيدة في الطب نظير مصنفات ابيه والثاني يسمى داود وكان ماهراً في علم الطب مفيداً بعلاج المرضى

وابرهيم بن ثابت بن قرة الحراني وقد سبق ذكر ابيه بجملة مترجمي كتب القدماء بلغ رتبة ابيه المذكور في الفضل وكان صابيّ المذهب مثله ايضاً ومن حذاق الاطباء ومتقدمي اهل زمانه في هذه الصناعة

وابن اخي ابرهيم المذكور ابو الحسن ثابت بن سنان بن ثابت بن قرة الحراني كان في بغداد في ايام معز الدولة بن بويه وكان طبيباً عالماً يقرأ عليه كتب ابقراط وجالينوس وقد سلك مسلك جدّه ثابت في نظره الى الطب والفلسفة والهندسة وجميع الصناعات الرياضية للقدماء وله تاريخ ايضاً

وفي ايام المقتفي لامر الله العباسي كان امين الدولة ابو الحسن هبة الله بن صاعد[1] ويعرف بابن التلميذ النصراني ولم يكن مثله بعد بقراط وجالينوس على ما ذكروا وكان ظريف المنادمة حسن المجالسة حتى ان كبراء الوقت كانوا يرغبون في منادمته وكان معتبرًا عند الامراء والوزراء بسبب كثرة علومه وله كتاب في الاقرباذين وشرح على كليات ابن سينا . يحكى عنه انه كان قائماً بين يدي المقتفي المشار اليه وله ادلال الخدمة والصحبة اذ دخل ابو منصور الجواليقي البغدادي صاحب كتاب شرح ادب الكاتب والمعرّب الذي لم يعمل في جنسه اكثر منه وتتمة درة الغواص تأليف الحريري سماه التكملة وكان امامه للخليفة والّف له كتاباً في علم العروض فما زاد على ان قال السلام على امير المؤمنين ورحمة الله تعالى فقال له هبة الله ما هكذا يسلم على امير المؤمنين فلم يلتفت ابن الجواليقي اليه بل قال للمقتفي يا امير المؤمنين لو حلف حالف ان نصرانيًا او يهوديًا لم يصل الى قلبه نوع من انواع العلم على الوجه المرضي لما لزمته كفارة الحنث لان الله تعالى قد ختم على قلوبهم ولن يفك ختم الله الاّ بالايمان فقال له الخليفة صدقت وكانما أُلجم ابن التلميذ بحجر مع فضله وغزارة علمه ومن شعره لغزٌ في الميزان

ما واحدٌ مختلف الاسماء	يعدلُ في الارض وفي السماء
يحكمُ بالقسطِ بلا رياء	اعمى يري الارشاد كل راء

١) هو عبد شرف الدين هبة الله بن صاعد الفائزي احد الكتاب الاقباط بمصر الذي اسلم في ايام الملك الكامل ووزر للملك الناصر عز الدين ايبك التركماني الصالحي متولي مملكة مصر

أخرسُ لا من عنّةٍ وداء يعي عن التصريح بالانباء
يجيبُ ان ناداهُ ذو امتراء بالرفع والخفض على النداء
يُفصحُ ان علّقَ في الهواء

قوله مختلف الاسماء يعني بذلك ميزان الشمس وهو الاصطرلاب وسائر آلات الرصد وهو معنى قوله يحكم في الارض وفي السماء وميزان الكلام وهو النحو وميزان الشعر العروض وميزان المعاني المنطق والميزان المعتاد والمكيال والذراع

قال ابن خلكان في ترجمته كان هبة الله هذا ابقراط عصره وجالينوس زمانه ختم به هذا العلم (يعني الطب) ولم يكن في الماضين من بلغ مداه فيه عمّر طويلاً وعاش نبيلاً جليلاً حسن المنظر حسن الرواء عذب الجنى ولطيف لطف الروح ظريف الشخص بعيد الهم عالي الهمة ذكي الخاطر مصيب الفكر حازم الرأي شيخ النصارى وقسيسهم ورأسهم ورئيسهم الى ان قال كان متميزاً في العلوم ذا رأي رصين وعقل متين طالت خدمته للخلفاء والملوك وكانت مباديه احسن من الدر المسلوك والدرّ في السلوك شعره رائق ونظمه فائق خلف جدّهُ لامه معتمد الملك ابي الفرج يحيى بن التلميذ النصراني فنسب اليه توفي ببغداد يوم عيد الفصح ولم يبقَ فيها من لم يحضر جنازته وذلك سنة ٥٦٠ للهجرة (سنة ١١٦٤م)

واوحد الزمان ابو البركات هبة الله بن علي بن ملكان الحكيم المشهور صاحب كتاب المعتبر في الحكمة وكان بينه وبين ابن التلميذ المذكور تنافر وتنافس وكان ابو البركات هذا يهودياً ثم اسلم في آخر عمره وكان ابن التلميذ كثير التواضع واوحد الزمان متكبراً فعمل فيهما البديع الاسطرلابي هذين البيتين

ابو الحسن الطبيبُ ومقتفيه ابو البركات في طرفي نقيض
فهذا بالتواضع في الثريا وهذا بالتكبّرِ في الحضيضِ

وكان شيخ ابن التلميذ في الطب ابو الحسن هبة الله بن سعيد صاحب

تصانيف مشهورة منها كتاب التلخيص والمغني في الطب وهو جزء واحد وكتاب الاقناع وهو اربعة اجزاء

وكان المسلمون في غالب هذه المدة الطويلة مشتغلين بدرس الفلسفة وباقي العلوم التي ادخلها بينهم الخلفاء العباسيون بواسطة الاطباء المذكورين هنا وغيرهم الى ان ظهر بينهم اطباء بلغوا درجة عالية في هذا الفن يحسبون الآن كحلقة ترابط سلسلة هذا الفن بين اليونانيين والافرنج

وقد اتبعوا فيه ابقراط وجالينوس وكانوا يعرفون التقطير وصناعة التخمير في اخذها من النار وشكلوا الاواني الكيمية باشكال سهل بها التناول واستنبطوا بعض طرق في علم الكيميا العملي. قال بعض المؤلفين ان العرب انتفعوا كثيرًا في الطب والصيدلة والكيميا فهم اول من وصف الجدري وعرف نسبتها فكانت نساؤهم قديمًا يطعمنّ اولادهنّ باصابعهنّ ويمصصنّ ايديهم بالشوك وهم اول من وصف الحصبة وقالوا بالبدالة غيرهم زادوا في المواد الطبية كثيرًا على ما وضعه اليونان كالسنا والراوند والتمرهندي والكاسيا وجوز الطيب وكبش القرنفل وغيرها وهم اول من استحضر المياه والربوب بالتقطير والتصعيد واول من استعمل السكر في الادوية وكان غيرهم يستعمل العسل واول من جعل الكيميا علمًا ذا اصول واول من كتب الوصفات على قاعدة وكان لهم في الطب مدارس شهيرة وكان حكام الاندلس يعتنون بادارة الصيدليات فيفحصون ادويتها ازالة للغش ويسعرونها رفقًا بالفقير وفضلهم في الطب على اوربا لا ينكر فان مدرسة سالرنو لولاهم لم تتم ولا امتد هذا الفن بين اهلها. واما التشريح فلما يكن له نصيب مهم حيث ان الدين الاسلامي لم يبح تشريح البشر واما الجراحة فبرعوا فيها كثيرًا ويظهر من كتابة ابي القسم ان النساء بالاندلس كنّ يعانين كثيرًا من العمليات الجراحية بغيرهنّ من الاناث وذلك ما يحث عليه اهل اوربا وامريكا اليوم وبالاجمال يقال انهم توغلوا اخيرًا في البحث عن حجر الفلاسفة وهو الكيميا الكاذبة معللين آمالهم بان يحولوا الذهب والفضة من

النحاس والقصدير وبقية المعادن لتوفير ثروتهم كما كانوا يبحثون في العلوم الفلكية عن النجوم الكواكب لمعرفة مستقبل سعادتهم وبذلك افسدوا علومهم هذه وعطلوها كما سبقت الاشارة الى ذلك في غير موضع من هذا الكتاب

وحيث ان كثيرين من حازوا فيهم فضائل السبق في هذا العلم كابن سينا وابن رشد وغيرهما قد مرّ ذكرهم مع الفلاسفة فنذكر هنا بعضاً من الباقين الذين لم تدرج اسماؤهم هناك ولئن كان في الحقيقة يجب ان نضمهم اليهم في سلك الفلاسفة ايضاً كما يستبين ذلك من تراجمهم الآتية

وكان اول من اشتهر في الطب بين الاسلام خالد بن يزيد بن معاوية الاموي الذي كان عالم قريش بفنون العلم وله كلام في صنعة الكيميا والطب ورسالة فيهما دالة على معرفته واخذ الصنعة عن موريانوس الراهب الرومي كما سبقت الاشارة الى ذلك وله فيها ثلاث رسائل تضمنت احداهن ما جرى له مع موريانوس المذكور وصورة ما تعلمه منه والرموز التي اشار بها وله في ذلك اشعار كثيرة توفي سنة ٨٥ للهجرة (سنة ٧٠٤ م)

واحمد بن ابراهيم طبيب الخليفة يزيد بن عبد الملك في نحو سنة ١٠٠ للهجرة (سنة ٧١٨ م) استخلص من كتب الاقراباذين كناشاً في اصول الطب ورسالة في النبات المستعمل في الطب

وابو بكر محمد بن سيرين البصري كان ابوه عبداً من جرجرايا حداداً في عين التمر في بعض المصالح وجده خالد بن الوليد اسيراً مع اربعين فتى آخرين فاشتراه انس بن مالك ثم فدى نفسه بعشرين الف درهم وتزوج صفية مولاة ابي بكر فولدت محمداً الذي نحن بصدده في سنة ٣٣ للهجرة (سنة ٦٥٣ م) واشتهر في معرفة الحديث وتعبير الاحلام وصار كاتباً لانس بن مالك لما تولى البصرة قيل ولد له ثلاثون ولداً من امرأة واحدة وغلب عليه الدين فأُتي الى الحبس ولما مات انس بن مالك اوصى ان لا احد يغسله ولا يقرأ عليه الصلاة الا ابن سيرين فأُتي به من السجن ولما اكل القرص عاد الى السجن دون ان يرى اهله وبيته

وهو صاحب كتاب تفسير الاحلام أكثير الذكر بين الذين اتوا بعده وقد مرّ ذكرهُ في الفصل الرابع من المقالة الرابعة

وابن ابي زاجر الذي تقدم ذكرهُ في علم النبات كان موجوداً نحو سنة ١٢٥ هجرة (سنة ٧٤٣م)

وعبد الله بن المقفع كاتب عيسى بن علي عمّ المنصور العباسي وقد مرّ ذكرهُ في الفصل الاول من المقالة العاشرة ألف كتابا في الامراض وشرحا على ارسطاليس ترجم من الفارسي الى العربي

وابو قريش عيسى الصيدلاني كان في بغداد في عصر الخليفة المهدي ولم يكن ماهرًا في صناعة الطب وانما يذكر بين الاطباء لطرافة خبره قيل انه كان صيدلانيا ضعيف الحال جدًّا فشكت الخيزران حظية المهدي وكانت من مولدات المدينة وتقدمت الى جاريتها بان تخرج القارورة الى طبيب غريب لا يعرفها وكان ابو قريش بالقرب من القصر الذي للمهدي فلما وقع نظر الجارية عليه ارته القارورة فقال لها لمن هذا الماء فقالت لامرأة ضعيفة فقال لا بل لملكة جليلة الشان وهي حُبلى بملك وكان هذا القول منه على سبيل الزرق وانصرفت الجارية من عنده واخبرت الخيزران بما سمعت منه ففرحت بذلك فرحا شديدا وقالت ينبغي ان نضع علامة على دكانه حتى اذا صحّ قوله اتخذناه طبيبا لنا ثم بعد مدة ظهر الحمل وفرح به المهدي فرحا شديدا فانفذت الخيزران الى ابي قريش خلعتين فاخرتين وثلاث مئة دينار وقالت استعن بهذا على امرك فان صحّ ما قلتهُ استخصصناك فتعجب ابو قريش من ذلك وقال هذا من عند الله عزّ وجلّ لاني ما قلته للجارية الا وقد كان رجمًا من غير اصل ولما ولدت الخيزران موسى الهادي سرّ المهدي سرورًا عظيما وحدثته الخيزران الحديث فاستدعى ابا قريش وخاطبهُ فلم يجد عندهُ علمًا بالصناعة الا شيئًا يسيرًا من امر الصيدلة ومع ذلك اتخذهُ طبيبًا لما جرى منهُ واستخصهُ واكرمهُ الاكرام التام

وابو عبد الله جعفر بن محمد بن علي الصادق الذي مرّ ذكرهُ في الفصل

الرابع من المائة الرابعة ألَّف في الهيئة والكيمياء والرمل وتوفي في المدينة سنة ١٤٨ للهجرة (سنة ٧٦٥م)

وابو موسى جابر بن حيان بن عبد الله الصوفي الطرسوسي مولدًا الكوفي مسكنًا من تلامذة جعفر الصادق اشتهر في الكيمياء وجمع خمس مئة رسالة من رسائل جعفر في الف صفحة طُبع ولهُ في استراسبرج سنة ١٥٣٠ و دنتسك سنة ١٦٢٥ وطُبع كتاب اصول الكيمياء لجابر المذكور وابن سينا في باسل سنة ١٥٧٢ وكتاب لهُ في الهيئة في نورمبرج سنة ١٥٣٤ م

والشيخ ابو بكر محمد بن زكريا الرازي الذي كان ماهرًا في فنون الطب والمنطق والهندسة والموسيقى وكان يضرب بالعود في صغره ثم توغل في العلوم الطبيعية وصار رئيس الاطباء في بيمارستان بغداد بعد ان دبَّر مرستان الري اخذ الطب عن الحكيم ابي الحسن بن زين الطبري صاحب كتاب فردوس الحكمة ومن مصنفاته في الطب كتاب الحاوي وهو نحو ثلاثين مجلدًا جمعهُ من صحف متفرقة اخذها جالينوس ابوباي عن آثار دائرة من كلام ابقراط الذي هو اول من كتب في صناعة الطب بعد ان كانت سرًا مكتومًا بين بني اقليبوس يتوارثونها خلفًا عن سلف ولا يبوحون بها لاحد ولذلك قيل كان الطب معدومًا فاحياهُ جالينوس وكان متفرقًا فجمعهُ الرازي وكان ناقصًا فكمّلهُ ابن سينا البخاري الذي فاق كل من تقدمهُ ولذلك يلقبونهُ بالشيخ الرئيس وقد مرَّ ذكرهُ مع الفلاسفة . ثم من مؤلفات الرازي ايضًا كتاب الجامع وكتاب الاعصاب وكتاب المنصوري جمع فيهِ بين العلم والعمل صنفهُ لابي صالح منصور ابن نصر الساماني ومن كلامهِ في الطب مهما قدرت ان تعالج بالاغذية فلا تعالج بالادوية ومهما قدرت ان تعالج بدواءٍ مفردٍ فلا تعالج بدواءٍ مركَّب وحكى بعض المؤلفين ان الرازي المذكور صنف لمنصور هذا كتابًا في اثبات صناعة الكيمياء (الكاذبة) فقال له منصور كل ما احتجت اليهِ من الآلات احضرهُ لك كاملاً حتى تخرج ما صنفتهُ كتابك الى العمل فلما عجز عن ذلك قال له

...ور ما اعتقدت ان حكيمًا يرضى بتخييد الكذب في كتب ينسبها الى الحكمة ثم حمل السوط على رأسه وامران يضرب بالكتاب على رأسه حتى يتقطع فكان ذلك سبب نزول الماء في عينيه توفي في السنة التي مات فيها الخليفة المقتدر بالله العباسي سنة ٣٢٠ للهجرة (سنة ٩٣٢ م)

وابو القاسم الزهراوي طبيب اندلسي ولد في الزهراء قرب قرطبة في القرن الخامس للهجرة (الحادي عشر للميلاد) وألف في الطب تآليف مفيدة منها كتاب في امراض النساء وآخر في الجراحة طُبع احدهما مترجمًا الى اللاتينية في اكسفورد سنة ١٧٧٨ م (سنة ١١٩٢ للهجرة) وكتاب في اختصار الادوية ترجم كذلك الى اللاتينية وطبع في البندقية سنة ١٥٨٩ م (سنة ٩٩٨ للهجرة)

وابو علي يحيى بن جزلة الطبيب صاحب كتاب المنهاج الذي رتبه على الحروف وجمع فيه اسماء الحشائش والعقاقير والادوية وغير ذلك وكتاب تقويم الابدان وكتاب منهاج البيان في ما يستعمله الانسان وكتاب الاشارة في تلخيص العبارة ورسالة في مدح الطب وموافقته للشرع وقالوا انه كان نصرانيًا واسلم وهو يقرأ على ابي الحسن سعيد بن هبة الله بن الحسن وكان يطب اهل محلته ومعارفه بغير اجرة ويحمل اليهم الاشربة والادوية بغير عوض ويتفقد الفقراء ويحسن اليهم توفي سنة ٤٩٣ للهجرة (سنة ١٠٩٩ م)

وابو الصلت أُمية بن عبد العزيز بن ابي الصلت الاندلسي اديب كان فاضلًا في العلوم والادب عارفًا بالحكمة ماهرًا في علوم الاوائل وله ديوان شعر وهو غير أُمية بن ابي الصلت الشاعر المشهور في اول الاسلام ومن مؤلفاته في الطب كتاب في الادوية المفردة وصنّف للافضل بمصر رسالة العمل بالاسطرلاب وكتاب الوجيز في علم الهيئة وله كتاب في المنطق سماه تقويم الذهن وكتاب الحديقة على اسلوب يتيمة الدهر للثعالبي توفي سنة ٥٢٩ للهجرة (سنة ١١٣٤ م)

والامام فخر الدين الرازي ابو عبد الله محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن

ابن علي التيمي البكري الطبرستاني الرازي المولد الذي فاق اهل زمانه في علم الكلام والمعقولات وعلم الاوائل وله التصانيف المعتبرة في فنون عديدة منها في الطب شرح الكليات للقانون وشرح الاشارات لابن سينا الذي مرّ ذكرهُ في الحكمة والملخص وشرح عيون الحكمة وله في علم الكلام المطالب العالية ونهاية العقول وكتاب الاربعين والمحصل وكتاب البيان والبرهان في الرد على اهل الزيغ والطغيان وكتاب المباحث العمادية وكتاب تهذيب الدلائل وعيون المسائل وكتاب ارشاد النظار الى لطائف الاسرار وكتاب اجوبة المسائل البخارية وكتاب تحصيل الحق وكتاب الزبدة والمعالم وله في الطلسمات السرّ المكتوم وشرح اسماء الله الحسنى وله في اصول الفقه المحصول والمعالم وله في النحو شرح المفصّل للزمخشري وشرح الوجيز في الفقه للغزالي وشرح سقط الزند للمعري وله مختصر في الاعجاز سمّاهُ نهاية الاعجاز وله مؤاخذات جيدة على النحاة وله طريقة في الخلاف وصنّف في علم الفراسة وغير ذلك ومن شعره

المرء ما دام حيًّا يُستهان بهِ ... ويعظم الرزء فيه حين يُفتقدُ

توفي بمدينة هراة سنة ٦٠٦ للهجرة (سنة ١٢٠٩ م)

ثم ان الكتب التي الّفها هؤلاء الافاضل وغيرهم من العرب في صناعة الطب كثيرًا ما تشتمل على فنون من هذه الصناعة كالبيطرة وهي طبّ الخيل والزردقة وهي طبّ الطيور وقد يتعرضون فيها ايضًا لشيء من البيزرة وفي صناعة الغرس وآفاته والفلاحة وهي صنعة الاغراس ومغارسها وكثيرون منهم يضمون ايضًا الى علم الطب علم الطبيعيات لعلاقته بهِ في الاحكام المزاجية وغيرها وعلم النجوم لتأثير الاجرام العلوية في الابدان وعلم الموسيقى لمساعدته في احكام النبض وفي ما قد ذكرناهُ في كتابنا زبدة الصحائف في اصول المعارف ما هو كافٍ لمعرفة عظم اهمية مؤلفات الطب العربية المذكورة هنا ببلاد اوربا في القرن الخامس عشر من الميلاد

الفصل السادس

في مدارس العرب واشتهارها وما آل اليهِ امرها

وكان لما نزعت نفوس العرب الى الاشتغال بالعلوم واحراز المعارف انهم انشأُوا لها مدارس وجمعوا اليها العلماء وكانت اشهر مدارسهم بغداد والبصرة وبخارا في الشرق والقاهرة في مصر ومراكش وفاس ببلاد البربر وكان بمدرسة بغداد في القرن السادس للهجرة (الثاني عشر للميلاد) ستة آلاف شخص من معلم ومتعلم وبقرطبة وحدها من بلاد الاندلس ثمانون مدرسة في خلافة الحكم المستنصر بن عبد الرحمان في منتصف القرن الرابع للهجرة (المنتصف الثاني من القرن العاشر للميلاد) وكان بالقاهرة وحدها عشرون مدرسة منها الجامع الازهر الذي هو الآن مدرسة الاسلام العظمى بمصر اسسهُ جوهر القائد عند ما بنى مدينة القاهرة للخليفة المعز العبيدي كما سبقت الاشارة الى ذلك في الفصل الاول من المقالة الخامسة . قال رفاعة بك الطهطاوي انهم كانوا يدرسون فيهِ علم الاصول والتوحيد والفقه والتفسير والحديث والعلوم الآلية مثل العلوم العربية والمنطق والوضع والمناظرة وجميع الرياضيات والالهيات وعلم الطب والهيئة والتاريخ واما الآن فلا يقرأ فيهِ الا العلوم الشرعية فقط وآلاتها مع غاية الاهتمام والمحافظة على حفظ الشريعة ولغة العرب من الضياع ويقال بانهُ كان فيهِ من المجاورين نحو اثني عشر الفًا والآن لم يكن فيهِ ازيد من الف ومئتين . وقال غيرهُ ان من هذه المدرسة انتشرت بمصر العلوم والآداب وقد تخرَّج فيها كثيرون من الغرباء ولا زال حتى الآن يقصدونها فضلاً عن اهالي مصر

الذين ظهر منهم الشيخ محمد البوصيري والشيخ محمد البيومي صاحب الكتاب المشهور في اللغة العربية والشيخ جلال الدين السيوطي

ومنها دار الحكمة التي كان انشأها صاحب ديانة الدروز الحاكم بامر الله ابو علي منصور بن العزيز بالله ابي المنصور نزار بن المعز العبيدي واجلس فيها القراء وحملت اليها الكتب من الخزائن والقصور ودخل اليها الناس وجلس فيها الفقهاء والمنجمون والنحاة واصحاب اللغة والاطباء وحصل فيها من الكتب في سائر العلوم ما لم يرَ مثله مجتمعًا واجرى على من فيها من الخدام والفقهاء الارزاق السنية وجعل فيها ما يحتاج اليهِ من الحبر والاقلام والمحابر والورق وكان ذلك في سنة ٣٩٥ للهجرة (سنة ١٠٠٤ م) وكان من تخرج في هذه المدرسة رجلان يقال لاحدهما حميد بن مكي الاطفيحي القصار (اطفيح قرية من قرى مصر) والثاني بركات فشرعا في افساد عقول الناس وادَّعيا الربوبية فبلغ ذلك الافضل بن امير الجيوش الجمالي وزير السيف والقلم لخليفة المستنصر العبيدي صاحب مصر فامر للوقت بغلق دار الحكمة المذكورة والقبض عليهما اما بركات فانه مات وهو متوارٍ منهُ وقتل الافضل بعض من كان باقيًا من اتباعه. واما حميد القصار فبقي متواريًا الى ان مات الافضل واعاد الخليفة الآمر باحكام الله ابو علي المنصور العبيدي دار الحكمة ثانية فظهر حينئذٍ وضلَّ وافسد جماعة وادَّعى الربوبية وكان لهُ من الشعبذة والمخرقات ما جعل خاصته الذين يطلعون على باطنهِ ان يهابوهُ حتى انهم يخافون الاثم في تأمل صورته فلا يسكنون مطرقين بين يديهِ فامسكهُ المأمون وزير هذا الخليفة وصلبهُ على الخشب مع الذين اصرُّوا على الاعتقاد بهِ من اتباعهِ وذلك في سنة ٥١٧ للهجرة (سنة ١١٢٣ م) ثم لما انقرضت دولة العبيديين من مصر واستولى عليها السلطان صلاح الدين الايوبي واعاد اليها الراية العباسية استولى على القصر واموالهِ وذخائرهِ وما فيه من الجواهر قال ابن خلكان ومن جملتها قضيب من الزمرد طولهُ نحو قبضة ونصف وحبل ياقوت ونحو مئة الف مجلد من الكتب

المتفحة وقال ابن خلدون انهسا نهاهز مئة وعشرين الف سفرًا واعطاها لعبد الرحيم البيساني كاتبه وقاضيه وهدم دار الحكمة وكانت حسنا فبناها مدرسة الشافعية انتهى

ولنرجع الى ما كنا بصدده فنقول وحيث قد حصلت هذه المدارس والمكاتب التي انشأها العرب سواء كان في بغداد او في غيرها من بلاد المشرق واسبا واسبانيا وافريقية بانواع العلوم والفنون على شهرة كبيرة كان من الشهير في المعارف مدة القرن السادس والسابع للهجرة (الثاني عشر والثالث عشر للميلاد) في الغالب قد تعلم فيها ومضت عدة قرون على ذلك ولم تعرف الناس في القرون الوسطى فلسفة ارسطاطاليس الا بواسطة معرفة تراجم مؤلفاته باللغة العربية حيث كان مترجمو العرب وفلاسفتهم معتبرين كانهم اعظم مرشد واحسن دليل في معرفة مذهبه

قال صاحب المنتخب ان مدارس الاندلسيين كانت على غاية من الاتقان فقصدها اهالي اوربا في القرون الوسطى وقرأوا العلم فيها ثم تزودوه منها الى بلادهم ففي سنة ٢٦٠ للهجرة (سنة ٨٧٢م) امر هربوث رئيس دير ماري غال جماعة من رهبانه بدرس اللغة العربية لتحصيل معارفهــا وكان الرهبان الدكتيون يطلبون العلوم العربية بشوق لا مزيد عليه واشهر من تعلم العلم في هذه المدارس هو البابا سلبستروس الثاني واصله رجل فرنسي يسمى جربرت وقد مرَّ ذكرهُ في الكلام على الهندسة طاف بقسم كبير من اوربا طالبًا المعارف حتى دخل قدمه في الاندلس فرتع في مدارس اشبيلية وقرطبة وصرف رغبته الى العلوم فلما ساغها منيفًا عاد الى دياره وما زال يسمو على اقرانه حتى نُصِّب بابا فشاد للعلم مدرستين الواحدة في ايطاليا والاخرى في ريمز وادخل الى اوربا معرفة العرب والارقام الهندية التي نقلها عنهم

ومن ثمَّ ثارت الحمية في اهل ايطاليا وفرنسا وجرمانيا وانكلترة فقصدوا الاندلس من كل فجٍّ عميق وتناولوا المعارف عن اهلها قال مونتكلا في تاريخ

العلوم الرياضية ولم يتم من الافرنج عالم بالرياضيات الا كان علمه من العرب مدة قرون عديدة فمن جملة من نقل عنهم المعارف الى ايطاليا دوكريمونا فانه قرأ عليهم الهيئة والطب والفلسفة بطليطلة وترجم عنهم المجسطي وكتب الرازي والشيخ الرئيس ابن سينا الى اللاتينية وكذلك ليونارد البيزي نقل عنهم الحساب والجبر وارنولد الفيلانوفي نقل عنهم الهيئة والطبيعيات والطب ومن نقل عنهم من الانكليز راهب اسمه بلارد وآخر اسمه مورلي وآخر يقال له اسكوت. وروجر باكون الشهير فان ما حصله من المعارف في الكيميا والطبيعيات والرياضيات انما استخلصه من كتبهم وقد اقتبس من اقوال الحسن (يعني الخازن الاندلسي الذي مرّ ذكرهُ مع الفلاسفة) في البصريات . ومثله ويتلو احد اشهر البصريين فانه اخذ كثيرًا عن الحسن المذكور وآخرون ذكرنا بعضهم في كتابنا زبدة الصحائف في سياحة المعارف

ثم لما عرف ملوك الافرنج قيمة معارف العرب وما تم عندهم من التمدن بواسطة الحروب الصليبية التي اثاروها عليهم اخذوا في اقتفاء آثارهم وامروا بترجمة كتبهم الى لغاتهم كما يتضح ذلك مما يأتي والحاصل ان الافرنج نقلوا عن العرب ما سبقه العرب عن غيرهم او استطلعوهُ هم انفسهم من الفلسفة والهيئة والطبيعيات والرياضيات والبصريات والكيمياء والطب والصيدلة والجغرافيا والزراعة والفلاحة واخذوا عنهم عمل الورق والبارود والسكر والخزف وتركيب الادوية ونسج كثير من الاقمشة وادخلوا منهم دود القزّ الى بلادهم وكثيرًا من الحبوب والاشجار كالارز وقصب السكر والزعفران والقطن والسبانخ والرمان والتوت ونقلوا عنهم دبغ الادم وتجهيزه وذلك انه لما طرد اهل اسبانيا الاسلاميون منها هاجروا الى فاس فنقلت هذه الصناعة من الاندلس ثم استردها الانكليز ولا يزالون يسمون الجلود المصنوعة بها (موركو وكوردوفان) نسبة الى مراكش وقرطبة

وقال صاحب المقتطف ايضًا ولا تزال الالفاظ العربية في كثير مباحث

الامزجة الطبيعية كالسمت والنظير والسموت ومقنطرات واسماء النجوم والكحول والقلي والجبر والقطن والشرب والكيميا وغيرها ولولا لغة العرب لبقيت لغة اهل اسبانيا قاصرة كما كانت باسماء ارزاقهم واقيستهم اكثرها عربي محرّف كالقنطار والربع والمد وكذلك اسماء قطع الماء كالبحيرة والبركة والجب والقبة (مصغّرة) وغيرها كثيرٌ فمولّدون كانوا في زمانهم حلقة من سلسلة العلوم اتصلت بها علوم الاولين بالمتأخرين ولولاهم لفقد اكثر المعارف ان لم نقل كلها

قال روبرتسون المؤرخ الانكليزي الشهير وغيرهُ ما خلاصته هو انه في الزمن الذي كان يتدارس به العرب هذه العلوم وينشرونها في بلادهم كانت اهالي اوربا في حالة لا زالوا هم دوائهم يدونونها حتى اليوم ولم يستفيقوا من ذلك الخمول المفرط والنوم العميق الّا بواسطة شروعهم في تلك الغزوات الصليبية الوحشية التي اجروها مع المسلمين بقصد استخلاص الاراضي المقدسة من اياديهم حيث مرّوا في غزواتهم هذه وسيرهم جهة بلاد اورشليم باراضٍ عامرة لحسن زراعتها اكثر من اراضيهم وبدول متمدنة اكثر من تمدن دولهم ووجدوا في آسيا آثار تلك العلوم والفنون التي كان أسسها واعان على نموها الخلفاء العباسيون وان تكن وقتئذٍ خارجة عن حكمهم (يعني تحت حكم الخلفاء العلويين الفاطميين الذين سبق ذكرهم)

وكذلك لما استولوا على القسطنطينية كرسي القيصرية اليونانية الشرقية في اثناء هذه الغزوات المذكورة وذلك في سنة ٦٠٢ للهجرة (سنة ١٢٠٥ م) شاهدوا فيها ما لم يكن موجودًا في بلادهم من التمدن وحسن الآثار الادبية القديمة وكانت وقتئذٍ هذه المدينة لم تزل تحت حكم القياصرة اليونانيين وكانت محطًّا لصنائع اوربا المهذبة وكانت قوّتها الحربية عظيمة جدًّا مزينة بالمعامل المعتبرة وفيها توجد منابع الغنى التي سببت لاهلها الميل الى الزينة والعلوم والاشياء الفاخرة وكانت هذه العلوم كاسدة اذ ذاك في غربي اوربا ومصيبة في هذه

المدمنة وغيرها من مدن الامبراطورية المذكورة ولما كان لا يمكن لهؤلاء المحاربين من الافرنج ان يجوبوا هذه البلاد بدون ان يكتسبوا من علومها ومعارفها شيئًا جديدًا اتسعت حينئذٍ اطماعهم وضعفت اوهامهم وتصورت اذهانهم تصورات اخرى نافعة وصارت عساكرهم التي تستبدل ترجع الى محلاتها مستصحبة تلك العادات التي اكتسبتها في تلك المدة الطويلة حتى انه بعد زمن قليل من ظهور تلك المحاربة التي ابتدأت سنة ٤٩٠ هجرية (سنة ١٠٩٦ م) في ايام خلافة المستظهر بالله العباسي في بغداد والمستنصر بالله ابي تميم معدّ الفاطمي بمصر وانشاء حارت المحسّنات في دواوين امراء اوربا والدرسات في المحافل العامة والمجمع المدنية وانتشرت دائرة العلوم رويدًا رويدًا في بلادهم وما عثروا عن كتب ارسطو وغيرها من كتب العلوم ليتعلموها او لينقلوها الى لغتهم كانت اللغة العربية وقتئذٍ هي التي يمكنها ان تجود عليهم بذلك نظرًا لاختلاطهم باهلها سواء كان ذلك في اسيا او في بلاد الاندلس وحينئذ اللغة اليونانية فتناولوها من من يد العرب على الوجه الذي سبقت الاشارة اليه

غير ان كتب الفلاسفة التي كان ترجمها العرب بل بعضهم اذ استخرجت من اللغة اليونانية على وجهٍ معسود بسبب جهل المترجمين الذين ترجموها في لغة اليونان حيث انها كانت وقتئذٍ مهجورة ولذلك قد زيّد بعض منهم اشياء في كتب ارسطو وبعض تعاليمه لم تكن موجودة في الاصل لكونهم ما عرفوا قصد هذا الفيلسوف في بعض جمل فاوردوها بموجب اختراعات عقولهم الخصوصية وآخرون فعلوا ذلك عن قصدٍ كان سببًا على ما سبقت الاشارة اليه في ترجمته المدرجة بمحلة الفلاسفة ومن ثمّ صحت تعاليم هذا الفيلسوف ليوناني معسودة عندهم فسادًا كافيًا ولما استخرج الافرنج هذه الكتب من اللغة العربية الى اللغة اللاتينية استخرجوها على هذا الوجه المفسود عينه الذي به استخرجت من اليونانية الى العربية فكانت كانما هي تعليم آخر منسوب لارسطو غير تعاليمه الاصلية لكونها معسودة من وجهين الاول من جهل المترجمين الاولى والثاني

من ابن سينا المذكور وقد بقي هذا التعليم في ورباعة قرون على هذه الصورة متاخمة الى ان افتتح آل عثمان مدينة القسطنطينية في سنة ٨٥٧ للهجرة (سنة ١٤٥٣ م) وهرب كثيرون من علماء اليونانيين الى ايطاليا وغيرها من مدن اوربا واقاليمها واستوطنوا هناك وكانوا مستصحبين معهم بجملة كتبهم نسخ فلسفة ارسطو الاصلية فحينئذ أُعيد اخراجها الى اللغة اللاتينية بكل تدقيق وبذلك صححت نسخة اللاتينية المترجمة من ابن سينا المذكور وعرف الافرنج فلسفة ارسطو على حقيقتها وانشأوا في كل جهة من بلادهم مدارس لا تحصى وجمعوا فيها من كتب اليونانيين والرومانيين والعرب خزائن لا تستقصى الى ان انتهت اليهم الآن الرياسة في المعارف العقلية والتجريبية وصاروا مصدرًا لكل حقيقة سامية وطريقة علمية وسريرة طبيعية

اما العرب فانه لم يبق عندهم من تلك المكاتب التي اشرنا اليها بانهم جمعوها والمدارس التي شيدوها حتى ولا ذكرها فكأن دولة علومهم كانت مرتبطة بدولهم السياسية التي متى اضاعوها اضاعوا كل هذه العلوم والمعارف معها اذ انه لم تسقط لهم دولة من دولهم سواء كانت في المغرب او في المشرق الا وهدمت جيوش اعدائهم مدارسها واشعلوا نيران حقدهم في مكاتبها

قال صاحب المنتطف ان مكاتب الاندلس لم تعش طويلًا اذ قد روى سعيد بن احمد ان المنصور اتلف اكثر كتب (الملك المؤيد) بعد اكثرها وهكذا لما افتتح الاسبانيون تلك البلاد وانتزعوها من يد العرب على ما رواه بعض المؤلفين عن كردينال اسمه شيمز أمر بحرق ثمانين الف كتاب في ساحات مدينة غرناطة بعد استظهارهم عليها في سنة ٨٩٨ للهجرة (سنة ١٤٩٢ م) الى ان قال نقلًا عن مؤرخ اسباني يقال له رملي بان الاسبانيين وجدوا ف الف وخمسة آلاف مجلد كتبها خطها اقلام العرب وانهم ظفروا بثلاث سفن كانت مشحونة بالمجلدات العربية النفيسة طالبة ديار سلطان مراكش فسلبوها والقوا كتبها في قصر الاسكوريال الى سنة ١٦٧١ م (سنة ١٠٨٢ للهجرة) حين بعثت

بها النيران فأكلت ثلاثة ارباعها ولم يتخلص منها الا الربع الاخير حين استفاقوا من غفلتهم فعوضوا الى رجل ماروني من اهالي طرابلس يقال له ميخائيل الغصيري فكتب لهم اسماء الف وثمان مئة واحدى وخمسين كتاباً منها والظاهر ان هذه الكمية التي اشار اليها صاحب المقتطف هي الكتب التي يدل انها لا زالت محفوظة من كتب العرب في خزانة الكتب السلطانية هناك

وكان قبل ذلك بعدة قرون لما افتتح هولاكو ملك التتار مدينة بغداد من يد المستعصم العباسي في سنة ٦٥٦ للهجرة (سنة ١٢٥٨م) خرب ما كان في تلك المدينة من المدارس والقى في نهر دجلة كل ما كان فيها من الكتب النفائس

واضف الى ذلك الخمول والزهد الذين شملا الامة العربية وما سببته طول المدة ايادي الافرنج منذ التفاتهم الى العلوم ولا زالوا يبحثون عنه ابتداءً من بلاد الشرق حتى هذه الساعة من فضلات كتب مكاتبها الثمينة الى ان غادروا مدنها العظيمة التي كانت مشحونة بالكتب والمدارس خاوية على عروشها وقد انتهى بنا الحال الى ما نحن عليهِ الآن حتى اذا وجد فينا من يوجد عندهُ بعض كتيبات فلا تكون الا من كتب اللغة او ما يختص بالامور الدينية وربما كان اكثرها بلا تجليد وعند الاكثرين ليست باكثر من علف للسوس ثم انهُ لم يبقَ اثرٌ للمدارس الا مدرسة واحدة في مصر وهي الجامع الازهر الذي مرَّ ذكرهُ وهو كذلك لا يوجد فيهِ والحالة هذه من تلك العلوم التي كانت تدرس فيهِ في ما سلف الا العلوم الشرعية وما يتعلق بحفظ اللغة العربية من الضياع كما سبقت الاشارة الى ذلك في بداءة هذا الفصل

الخاتمة

في بيان تواريخ سني جلوس الخلفاء ونوابهم من السلاطين وغيرهم

كان انتخاب ابي بكر الصديق للخلافة بعد وفاة صاحب الشريعة الاسلامية في سنة ١١ للهجرة (٦٣٢ م)

وقام بالخلافة بعدهُ عمر بن الخطاب في سنة ١٣ للهجرة (سنة ٦٣٤ م) وتوفي قتيلاً بعد ذلك بعشر سنين وستة اشهر

وتولى بعدهُ عثمان بن عفان سنة ٢٣ للهجرة (سنة ٦٤٤ م) وتوفي كذلك قتيلاً بعد ان حكم اثنتي عشرة سنة

وتولى بعدهُ علي بن ابي طالب سنة ٣٥ للهجرة (سنة ٦٥٦ م) وتوفي قتيلاً بعد اربع سنين وشهرين

وتولى ابنهُ الحسن في سنة ٤٠ للهجرة (سنة ٦٦١ م) واقام في مسند الخلافة ستة شهور ثم انتقلت الخلافة الى بني أُمية ومن ذلك الوقت صارت وراثة بعد ان كانت انتخابية واستمرّت بيد الخلفاء الامويين يتداولونها خمسة عشر شخصاً منهم على التعاقب الواحد بعد الآخر وكانت سلطتهم ممتدة على مصر والحجاز والهند والصين وخراسان والمشرق وافريقية والاندلس وسائر اقطار الاسلام وكرسي ملكهم كان في دمشق الشام

واول خليفة منهم كان معاوية ابن ابي سفيان الاموي تولى الخلافة

سنة ٤١ للهجرة (سنة ٦٦١ م) وتوفي بعد عشرين سنة

وتولى بعدهُ يزيد ابنهُ في سنة ٦٠ للهجرة (سنة ٦٨٠ م) وتوفي بعد ثلاث سنوات ونصف

والثالث معاوية بن يزيد تولى سنة ٦٤ للهجرة (سنة ٦٨٣ م) وخُلع بعد تسعين يوماً

والرابع عبد الله بن الزبير تولى ملك الحجاز والعراق في سنة ٦٤ للهجرة (سنة ٦٨٣م) وقتل بعد تسع سنين

والخامس مروان بن الحكم اوَّل الخلفاء المروانيين كانت حكومته على الشام ومصر في سنة ٦٤ للهجرة (سنة ٦٨٣ م) ثم قتل بيد عليهِ غدرًا بعد ثمانية اشهر وعشرة ايام

وتولى بعدهُ ابنهُ عبد الملك سنة ٦٥ للهجرة (سنة ٦٨٤ م) لكن لم تصح خلافته الأ بعد ان قتل ابن الزبير ثم توفي بعدها نحو ثلاث عشرة سنة

وتولى بعدهُ ابنهُ الوليد سنة ٨٦ للهجرة (سنة ٧٠٥ م) وتوفي بدير مران بعد تسع سنوات

وتولى بعدهُ اخوهُ سليمان سنة ٩٦ للهجرة (سنة ٧١٤ م) وتوفي بمرج دابق بعد سنتين وثمانية شهور

وتولى الخلافة بعدهُ عمر بن عبد العزيز في سنة ٩٩ للهجرة (سنة ٧١٧م) وتوفي مسموماً بعد سنتين وثلاثة اشهر بدير سمعان بارض حمص

وتولى بعدهُ يزيد بن عبد الملك في سنة ١٠١ للهجرة (سنة ٧١٩ م) وفي ايامهِ كان تلف آل المهلب الذين مرَّ ذكرهم في الفصل الاول من المقالة السادسة ثم توفي بعد خلافتهِ باربع سنوات في حوران

وتولى بعدهُ اخوهُ هشام في سنة ١٠٥ للهجرة (سنة ٧٢٣م) وتوفي بالرصافة التي بناها بارض الشام بعد ان اقام خليفة نحو عشرين سنة

وتولى بعدهُ الوليد بن يزيد بن عبد الملك سنة ١٢٥ للهجرة (سنة

٧٤٢ م) وتوفي قتيلاً بعد سنة واحدة

وتولى ابنهُ يزيد في سنة ١٢٦ للهجرة (سنة ٧٤٣ م) وتوفي بالطاعون بعد خمسة اشهر وايام

وتولى بعدهُ اخوهُ ابرهيم سنة ١٢٦ للهجرة (٧٤٣ م) وخُلع بعد اربعة شهور

وتولى بعدهُ مروان بن محمد بن مروان آخر الخلفاء الامويين في سنة ١٢٧ للهجرة (سنة ٧٤٤ م) وقتل في قرية بوصير بعد خلافتهِ بخمس سنوات وانتقل الامر الى بني العباس

وكان اول خليفة من بني العباس المشار اليهم عبد الله السفاح تولى الخلافة في سنة ١٣٢ للهجرة (سنة ٧٤٩ م) وشرع في ابادة الامويين على ما تقدَّم بيانهُ في الفصل الاول من المقالة الخامسة . يحكى بانهُ بعد ان قتل مروان بن محمد بن مروان المذكور وجلس على تخت الخلافة عمل وليمة لاجل الصلح بينهُ وبين الامويين المذكورين فاغتروا بما ظهر لهم من حلمهِ واجتمع منهم في هذه الوليمة ثمانون اميرًا فقتلوا فيها عن آخرهم ولم ينجُ الاَّ عبد الرحمن الداخل وابوهُ وهو من نسل مروان الاول هرب الى مصر ثم الى برقة ثم الى بلدة يقال لها طاهر سوف يأتي الكلام عليها واما السفاح المشار اليهِ فانهُ أمر ببساطٍ فُرش له على لاشات المقتولين واكل طعامهُ فوقهُ وقال انهُ لم ياكل مدَّة عمرهِ طعامًا لذَّ لهُ مثل تلك الاكلة ثم توفي بعد ذلك باربع سنوات

وتولى بعدهُ اخوهُ ابو جعفر عبد الله المنصور سنة ١٣٧ للهجرة (سنة ٧٥٤ م) ونقل كرسي الخلافة الى بغداد مدينتهِ التي بناها في ايام خلافتهِ وكان عبد الرحمن الداخل الاموي المارّ ذكرهُ اصل بقرية طاهر على ما تقدَّم وهي من بلاد المغرب ولكون امهِ كانت من قبيلةٍ هناك يقال لها الزينبية رحبت بهِ تلك القبيلة واجتمع لهُ جموع كثيرة حارب بها الامير يوسف عامل بني العباس على الاندلس واستقل بالملك هناك في سنة ١٣٨ للهجرة (سنة ٧٥٥ م) واقام لهُ ولخلفائهِ دولة مستقلة دامت الى ان انقرضت بما جرى بينها وبين البربر من الحروب في سنة ٤١٧

للهجرة (سنة ١٠٢٦ م) في زمن خلافة القادر بالله العباسي حيث مزّقها ملوك الطوائف واستولى كلٌّ منهم على قطعةٍ منها فدرس بذلك جزءٌ كبير من معالم العلوم والفنون التي كانت احدثتها هذه الدولة فيها ولا زالت تتلاشى شيئاً فشيئاً الى ان انتهى امرها بطرد العرب من بلاد الاندلس باسرها واستيلاء اهاليها الاصليين عليها على يد الملك فرديند وزوجته ايزابلا في سنة ٨٩٨ للهجرة (سنة ١٤٩٣ م)

وكان ظهور هذه الخلافة الجديدة مبدأ ضعف شوكة العرب حيث توزعت قوتهم بين خلافتين متباعدتين متعاديتين كلٌّ منهما ترغب في الانتقام من الاخرى لكنهما لم يستطيعا ان يعملا مع بعضهما شيئاً اكثر من ان تمنع دولة الخلفاء العباسيين في الشرق عن دولة الامويين بالاندلس المدد بالرجال كما ان دولة الامويين ايضاً منعت عن دولة العباسيين الاعانة في الاموال

جدول اسماء الملوك والخلفاء من بني أمية بالاندلس وتاريخ جلوسهم

هجرة	للميلاد	اسماء الملوك
١٢٨	٧٥٥	عبد الرحمن الداخل احتدم بيعة المشرق فلم ينسب بالخليفة
١٧٢	٧٨٨	ابنه هشام
١٨٠	٧٩٦	الحكم بن هشام
٢٠٦	٨٢١	ابنه عبد الرحمن الاوسط
٢٣٨	٨٥٢	محمد بن عبد الرحمن المذكور
٢٧٣	٨٨٦	ابنه المنذر
٢٧٥	٨٨٧	عبد الله اخو المنذر المذكور
٣٠٠	٩١٢	حميدهُ عبد الرحمن سمّي امير المؤمنين ولقب بالناصر لدين الله

للهجرة	للميلاد	
٣٥٠	٩٦١	الحكم بن الناصر ولقب بالمستنصر
٣٦٦	٩٧٦	ابنه هشام المؤيد واقام هذه الخليفة مدة خلافته كلها تحت تغلب وزيره المنصور بن ابي عامر الذي استقل اخيرًا بالملك وتلقب بالحاجب المنصور وتوفي سنة ٣٧٤ للهجرة (سنة ٩٨٤ م) وقام من بعده اخوه المظفر ثم ابنه عبد الرحمن منصور ايضًا وسلك عبد الرحمن هذا وعمه المظفر المذكور في الحجر على الخليفة المؤيد المشار اليه واخيرًا اكرهه على ان يوليه عهده فكتب له بذلك صكًا واعطاه صفقة يمين بيعة تامة فاغضب ذلك عصابة من الامويين والقرشيين وخلعوا المؤيد المذكور وبايعوا محمدًا بن هشام بن عبد الجبار ابن امير المؤمنين الناصر ولقبوه بالمهدي في سنة ٣٩٩ للهجرة (سنة ١٠٠٨ م) ومن ثم ثارت الحروب بين الفريقين الى ان تفرقت المملكة وانتهت باستيلاء الافرنج عليها على ما تقدم . ولنرجع الى ما كنا بصدده فنقول

وبعد ان توفي ابو جعفر المنصور العباسي المشار اليه بقرب مكة بعد اثنين وعشرين سنة من خلافته تولى الخلافة ابنه المهدي في سنة ١٥٨ للهجرة (سنة ٧٧٤ م) وتوفي بعد عشر سنوات

وقام بعده ابنه موسى الهادي في سنة ١٦٩ للهجرة (سنة ٧٨٥ م) وتوفي بعد سنة واحدة وثلاثة شهور

وتولى بعده اخوه هرون الرشيد سنة ١٧٠ للهجرة (سنة ٧٨٦ م) وهو الذي اباد البرامكة الذين مرّ ذكرهم في جملة محلات من هذا الكتاب ثم توفي بعد ثلاثة وعشرين سنة بقرية طوس

وتولّى الخلافة بعده ابنه محمد الامين سنة ١٣٩ للهجرة (سنة ٨٠٨ م) وكان

بقول مخالف الأرآء ونبغ في ذلك اخوته الذين تولوا الخلافة بعده فكانت بدعة جلبت وبالاً عظيمًا بسفك دماء كثيرة في الاسلام وقتل بعد اربعة سنين وشهرين

فقام بعدهُ اخوهُ المأمون عبد الله بن الرشيد سنة ١٩٨ للهجرة (سنة ٨١٣ م) وتوفي في بلاد الروم بعد عشرين سنة من خلافته

فتولى بعدهُ اخوهُ المعتصم بالله محمد سنة ٢١٨ للهجرة (سنة ٨٣٣ م) وتوفي بعد تسع سنين

فقام بالامر بعدهُ ابنهُ هرون الواثق في سنة ٢٢٧ للهجرة (سنة ٨٤٢ م) وتوفي بعد ذلك بست سنوات

فجلس عوضهُ اخوهُ جعفر المتوكل على الله سنة ٢٣٢ للهجرة (سنة ٨٤٧ م) واراد ان ينقل كرسي الخلافة من بغداد الى الشام فلم يقدر واخيرًا تجمع عليه ابنه ثم قتل بمكيدة وصلت اليهِ منه بعد اربعة عشر سنة

وتولّى عوضهُ ابنهُ محمد المنتصر بالله سنة ٢٤٧ للهجرة (سنة ٨٦١م) وتوفي بعد ثلاثة شهور

فقام بالخلافة بعدهُ المستعين بالله احمد بن محمد بن المعتصم توفي سنة ٢٤٨ للهجرة (سنة ٨٦٢ م) وفي ايامهِ تقوّت شوكة الاتراك في بغداد واتسع بينهم وبين العامة مجال الخصام والمقاتلات فخلع نفسهُ ثم قتل بعد اربع سنوات من خلافتهِ

فجلس عوضهُ المعتز بالله محمد بن المتوكل في سنة ٢٥٢ للهجرة (٨٦٦م) ثم خلع نفسهُ بعد ان كابد اهوالاً عظيمة مدة خلافتهِ التي لم يبرح بها مضطربًا وكانت لا تزيد عن اربع سنين ونصف وفي ايامهِ استقل بملك مصر احمد بن طولون وهو اول سلاطينها في الاسلام وكانت قبلاً تأتي اليها العمّال من طرف الخلفاء الراشدين وبني امية والعباسيين الى ان تغلب عليها وعلى غيرها هذا السلطان لكنهُ لم يدّعِ الخلافة بل كأنهُ نائبٌ عن هذا الخليفة وذلك في سنة ٢٥٤ هجرية (سنة ٨٦٨م) وقام لهُ ولخلفائهِ فيها مملكة استقلوا بها الى عصر خلافة المكتفي بالله العباسي نحو خمس وثلاثين سنة . وهذا جدول اسمائهم وتاريخ جلوسهم

الهجرة	الميلاد	اسماء السلاطين
٢٥٤	٨٦٨	احمد بن طولون المذكور
٢٧٠	٨٨٣	ابنهُ ابو الجيش خمارويه
٢٨٣	٨٩٥	ابو موسى هرون بن خمارويه واقام هذا السلطان في السلطنة تسع سنين ثم قتلهُ عمّاهُ ولدا احمد بن طولون وتولى عوضهُ ابو المعازي شيبان عشرة ايام وقُتِل وبهِ مضت دولتهم ، واعيدت مصر لتصرُّف بني العباس الى زمن خلافة الراضي الآتي ذكرهُ

ولئلاَّ يتوهم القارئ بان مثل هذه السلطنة طالما هي عبارة عن نيابة للخلافة ولا تصرُّفها بشيءٍ يقتضي توضيح كيفية هذا الانقياد الصوري للخلفاء المشار اليهم وهو ان بني العباس كانوا هاشميّي المذهب من فرقة تُعرَف بالكيسانية لكنهم اخيرًا تركوا ذلك نظرًا لضعف شوكة الذين يدعون تخصيص الامامة والخلافة وحصرها في النسب القرشي بسبب كثرة تنوّع الآراء والاهواء وتفرّق الاحزاب ومن ثمَّ تمزّقت عصابة هذه العائلة الملكية وتشتت انصارها فلم يبقَ لها شوكة اصلاً . ولما اشعروا بالعجز عند ذلك عن محافظة ما بقي بايديهم من البلاد فضلاً عن عدم مقدرتهم على توسيع دائرة السلطنة الاسلامية اباحوا السلطة المطلقة والاستقلال التام الى الغزاة من رؤساء العشائر كالاكراد والاتراك وغيرها في ما يفتحونهُ من البلاد الاجنبية ولقبوهم بالسلاطين بحيث قنعوا منهم بمجرد الاعتراف لهم بالسيادة والدعاء لهم بالخطبة يوم الجمعة على المنابر في المساجد ووضع اسمائهم على سكة المعاملة المتداولة بين الناس فكان ذلك في بداءة الامر مفيدًا في الفتوحات الاسلامية بما انها لم تعد تكفُّ عن الامتداد في زمن ضعف هولاء الخلفاء المشار اليهم لان مثل هولاء الغزاة المتوطنين في حدود ملكهم صاروا يغزون من يجاورهم ويفتحون بلادًا يستولون عليها لذواتهم ولذراريهم فكانوا يبذلون على ذلك ارواحهم بغيرة وحمية قلَّ ما امكن معها انقلابهم . ومن

ثمّ سرى هذا الاستقلال نفسهِ اخيرًا الى نفس عمّال ملكهم ايضًا بداعي حط البلاد من تسلط الاغيار كالافرنج الصليبيين من خارج والرقباء من داخل واوجب ذلك فسخ كثير من ايالاتهم التي رغبت حكامها في الاستقلال والتمتع بالسلطة وليس هنا ما يوجب تفاصيل ذلك كما في كتب التاريخ المكفلة باصحابهِ بل نهاية ما ينبغي ان يقال هو ان هذا الامر امتدَّ حتى استقلت سلاطين خوارزم واتابكة الموصل واتابكة فارس (والاتابك معناهُ امير الاتراك) والايوبية والاتراك بمصر والايوبية ايضًا في حلب وكردستان وبعلبك واليمن وحماه وحمص والجنكيزية في المغول والسلجوقية في قونية وبنو ارتق في ديار بكر وبنو رسول وشرفاء مكة وملوك خراسان الخ . وخلاصة الامر انهُ ما بقي للخلفاء العباسيين المشار اليهم نفوذٌ في تلك الاراضي الواسعة التي كانت في قبضة تصرفهم بل ولا في نفس بغداد واعمالها حيث لم يعد ممكنًا لهم ان يحموها بالذبّ عنها كما تتضح ذلك مما يأتي . ولنرجع الى علاقة ما كنا فيهِ

ثم بعد المعتز تولى المهتدي بالله محمد بن الواثق في سنة ٢٥٥ للهجرة (سنة ٨٦٩ م) ولم يستتم سنة واحدة حتى قام عليهِ الاتراك وخلعوهُ وبعد ذلك قتلوهُ

فتولى الخلافة بعدهُ المعتمد بالله احمد بن المتوكل في سنة ٢٥٦ للهجرة (سنة ٨٧٠ م) واقام فيها عشرين سنة وتوفي وفي ايامهِ كان ابتداء ظهور القرامطة الذين هددوا بني العباس في جميع بلاد المشرق التي كانت تحت سلطتهم ومن ذلك الوقت اخذت دولتهم في الوهن والانحطاط

ثم تولى الخلافة المعتضد بالله احمد بن الموفق في سنة ٢٧٩ للهجرة (سنة ٨٩٢ م) واقام ست سنين وشهرين وتوفي

فتولى الخلافة بعدهُ اخوهُ المقتدر بالله جعفر سنة ٢٩٥ للهجرة (سنة ٩٠٨ م) واقام بها اربعة وعشرين سنة وبعض شهور وقُتل في بغداد وفي ايامهِ تقوّى امر القرامطة وفرضوا على بني العباس اموالاً يحملونها اليهم في كل سنة ولا زالوا يهبون ويسفكون الدماء في بلاد هذه الدولة واستطالوا على الحجاج ونهبوهم

ونهبوا ايضاً الحجر الاسود وباب البيت وفي ذلك الوقت ظهر ابو جعفر بن علي الشلمغاني المعروف بابن ابي العزاقر وكان من الباطنية ويدّعي الربوبية فاتبعه على ذلك الحسين بن القسم بن عبد الله بن سليمان بن وهب وزير الخليفة المشار اليه وجماعة غيرهُ ولما ان طلبهم هربوا فاستوزر عوضه ابن مقلة صاحب الخط المشهور

وبينما كان الحال على هذا المنوال قام ابو عبد الله الشيعي واجرى الحروب في القيروان من بلاد افريقية واقام فيها الخلافة العلوية ومن ذلك الوقت اخذ العباسيون في احتمال اثقالها ومكابدة اهوالها الى ان انقرضت بدولة الاكراد الايوبية تحت الراية العباسية في مصر . ولنذكر هنا اسماء الخلفاء العلويين الفاطميين العبيديين المذكورين

الهجرة	الميلاد	اسماء الخلفاء منهم بافريقية
٢٩٧	٩٠٩	عبد الله المهدي
٣٢٢	٩٣٣	ابنهُ ابو القاسم محمد القائم بامر الله
٣٣٤	٩٤٥	اسماعيل المنصور بن القائم

اسماء الخلفاء منهم بمصر

٣٤١	٩٥٣	ابنهُ المعد المعزّ لدين الله فاتح مصر من بني العباس
٣٦٥	٩٧٥	العزيز بالله ابو النصر نزار بن المعزّ
٣٨٦	٩٩٦	ابنهُ الحاكم بامره ابو علي منصور صاحب ديانة الدروز
٤٠١	١٠٢٠	الظاهر لاعزاز دين الله ابو الحسن علي بن الحاكم فاتح الشام
٤٢٧	١٠٣٥	ابنهُ المستنصر بالله ابو تميم خُطِبَ لهُ ببغداد
٤٨٧	١٠٩٤	المستعلي بالله ابو القاسم احمد بن المستنصر
٤٩٥	١١٠١	ابنهُ الآمر باحكام الله ابو علي المنصور

الهجرة	الميلاد	بقية اسماء الخلفاء بمصر
٥٢٤	١١٢٩	الحافظ لدين الله عبد المجيد بن محمد بن المستنصر
٥٤٤	١١٤٩	الظافر باعداء الله ابو علي بن الحافظ
٥٤٩	١١٥٤	ابنهُ الفائز بنصر الله عيسى
٥٥٥	١١٦٠	العاضد لدين الله عبد الله بن يوسف بن الحافظ

ولما توفي العاضد المذكور ورث ارضهُ ورتبتهُ وزيرهُ صلاح الدين يوسف ابن ايوب الكردي وتلقب بالملك الناصر وكان سنيًّا فجعل مملكتهُ تحت اعلام العباسي نظير غيره من السلاطين المعترفين لبني العباس بالسيادة عليهم ولا زال يتوارثها خلفاؤهُ الى ان قامت عليهم دولة مماليكهم الاتراك . وهذا جدول اسماء السلاطين الاكراد المذكورين بمصر

الهجرة	الميلاد	اسماء السلاطين
٥٦٧	١١٧١	الناصر صلاح الدين يوسف المذكور تولى الشام واضافها الى مصر وكان يعتمد على رجل يقال لهُ بهاء الدين قراقوش تضرب العامة المثل بسوء احكامهِ غلطًا اذ انهُ بعكس ما يزعمونهُ فيهِ
٥٨٩	١١٩٣	ابنهُ العزيز عثمان
٥٩٥	١١٩٨	المنصور محمد بن عثمان
٥٩٦	١١٩٩	العادل سيف الدين ابو بكر بن ايوب
٦١٥	١٢١٨	ابنهُ الكامل محمد
٦٣٥	١٢٣٧	العادل ابو بكر بن الكامل
٦٣٧	١٢٣٩	اخوهُ الصالح ايوب نجم الدين
٦٤٧	١٢٤٩	الملك المعظم توران شاه . فقام شبرت ونهض وتولت عوضهُ شجرة الدر سرية ملك الصالح ثلاثة شهور وخلعت

للهجرة	الميلاد	بقية اسماء السلاطين الايوبية بمصر
٦٤٨	١٢٥٠	الملك الاشرف موسى بن يوسف وبعد تملكه بخمس سنين عُزِل وقامت بعدهُ الدولة التركية مماليك الاكراد المذكورين . وهاك اسماء ملوكهم

اسماء الملوك الاتراك

٦٥٢	١٢٥٤	المعزّ عزّ الدين ايبك التركماني الصالحي
٦٥٥	١٢٥٧	ابنهُ المنصور علي
٦٥٧	١٢٥٨	المظفر قطز المعزي

الظاهر ركن الدين والدنيا بيبرس العلائي البندقداري الذي في ايامهِ كانت نكبة بغداد الاخيرة في زمن خلافة المستعصم بالله بن المستنصر العباسي كما يأتي الكلام على ذلك ومن ثمَّ لم يبقَ لنا حاجة لاستيفاء اسماء باقي ملوك مصر من هذه العشيرة ولا غيرها لانقراض دولة العرب التي هي السبب لوضع هذا الكتاب الداعي والسبب بل نرجع الى تتمة الكلام على الخلفاء العباسيين فنقول

وبعد المقتدر بالله العباسي تولى الخلافة اخوهُ القاهر بالله محمد سنة ٣٢٠ للهجرة (سنة ٩٣٢ م) واقام نحو سنة ونصف ثم خُلع وسُمل

وقام بالخلافة بعدهُ ابنهُ الراضي بالله محمد سنة ٣٢٢ للهجرة (سنة ٩٣٣م) واستمرَّ ست سنوات

وتولَّى الخلافة بعدهُ اخوهُ المتقي بالله ابرهيم سنة ٣٢٩ للهجرة (سنة ٩٤٠م) وكان لم يبقَ تحت نفوذ الخلفاء العباسيين غير بغداد واعمالها ومع ذلك وقع فيها حروبٌ من الاكابر في ايامهِ على امرة الجيش فلم يستمر بالخلافة غير ثلاث سنوات ثم خُلع وسُمل ايضاً

وجلس بعدهُ المستكفي بالله عبد الله بن المكتفي سنة ٣٣٣ للهجرة (سنة ٩٤٤ م) واقام سنة واحدة وثلاثة شهور ثم عزلهُ معزّ الدولة بن بويه الديلمي

الجبى وسمل عينيه وبقي محبوسًا الى ان توفي وكان معزّ الدولة المذكور جاء الى بغداد سنة ٣٣٤ للهجرة (سنة ٩٤٤ م) وامتلكها ولقب نفسه بسلطان العراق واستولى على هذه القطعة الصغيرة التي كانت باقية للخلفاء من تلك المالك المديدة وصارت اعمال العراق وولاية اراضيه بيد بني بويه وهو ايضًا يولي وزراء الخليفة مع انه لم يكن لهم غير النظر في امور اقطاع سيدهم ومتنات داره وكانوا لايتصرفون في شيء منها الا باذنه فلم يترك للخليفة شيئًا غير السرير والمنبر والسكة والختم على الرسائل والصكوك والجلوس للوفد واحلال التحية والخطاب فقط واما القائم بالاحكام من دولة بني بويه المذكورين والسلجوقية بعدهم فينفرد بلقب السلطنة ولايشاركه فيه غيره

ودامت سلطنة بني بويه المذكورين واستبدادهم على الخلفاء العباسيين من زمن هذا الخليفة الى عصر القائم بامر الله الآتي ذكرهُ ثم انقرضت بقيام سلطنة السلجوقية المذكورين في سنة ٤٤٧ للهجرة (سنة ١٠٥٥ م) فلم يخلص الخلفاء من ربقة الاسر اصلاً حتى جاء هلاكو ملك التتار وقتل المستعصم بالله وملك بغداد واجلى من العباسيين تلك الديار. وهاك جدول اسماء سلاطين بني بويه المستولين على بغداد واعمالها

للهجرة	للميلاد	اسماء السلاطين
٣٣٤	٩٤٥	معزّ الدولة بن بويه اوّل سلاطين بغداد
٣٥٥	٩٦٥	ابنه بختيار (اي الموفق)
٣٦٧	٩٧٧	عضد الدولة بن عم بختيار خُطب له على المنابر في بغداد وضرب على بابه ثلاث نوبات وكان محبًّا للعلماء وصنف الكتب باسمهِ كالايضاح في النحو والحجة في القراءات والملكي في الطب والتاجي في التواريخ وعمل البيمارستانات وبنى القناطر وفي ايامه حدثت المكوس على المبيعات ومنع من الاحتراف بعضها وجعلت متجرًا للدولة

للهجرة	للميلاد	بقية اسماء سلاطين بني بويه
٣٧٢	٩٨٢	صمصام الدولة بن عضد الدولة
٣٧٦	٩٨٦	اخوهُ مشرّف الدولة ابو الفوارس
٣٧٩	٩٨٩	اخوهُ بهاء الدولة
٤٠٣	١٠١٢	سلطان الدولة ابو شجاع بن بهاء الدولة
٤١٢	١٠٢٢	اخوهُ مشرّف الدولة ابو علي
٤١٨	١٠٢٧	اخوهُ جلال الدولة وفي ايامهِ اختل امر الخلافة والسلطنة في بغداد واغار الاكراد والجند على بستان الخليفة ونهبوا اثمارهُ وانتشر العرب في نواحي بغداد وضواحيها وعاثوا فيها حتى سلبوا النساء في المقابر
٤٣٥	١٠٤٣	ابو كاليجار ابن اخي جلال الدولة ولقبهُ الخليفة بمحيي الدولة
٤٤٠	١٠٤٨	ابنهُ ابو نصر الملقب بالرحيم وفي ايامهِ تجدّدت الفتنة ببغداد بين اهل السنّة والشيعة وسفكت بينهم دماء كثيرة واوقعوا الحريق في بعض المحلات منها وفي مقابر بعضهم فتقدم رجل يقال لهُ طغرلبك السلجوقي وكان غازيًا من الترك في بلاد الروم ودخل بغداد في سنة ٤٤٧ للهجرة (سنة ١٠٥٥ م) ووقع الحرب بين العامة وبين عساكرهِ فنسب ذلك الى الملك الرحيم وامسكهُ واعتقلهُ في محبسهِ واستصفى اموال الترك في بغداد واستولى على السلطنة وكانت لهُ الدولة التي ورثها بنوهُ وقومهُ السلجوقية وجعلوا دار سلطنتهم مدينة قونية اما دار الخلافة فكانوا يجعلون فيها نائبًا يسمونهُ شحنة بغداد وكان من يتولى الخلافة وقتئذٍ من اولئك الاسراء المطيعين او هم السادة المستعبدين عند ما يتمثل بحضرتهِ السلطان من بني بويه او السلجوقية المذكورين ينزل بعدهُ

ويلدم في خطابه الادب ويصرف جهده في تعظيمه ثم متى
شاء عزله وسمل عينيه او قتله

ومنهم المطيع لله الفضل بن المقتدر تولى الخلافة سنة ٣٣٤ هجرة (سنة ٩٤٦ م) واقام فيها نحو ثلاثين سنة وخلع وفي ايامه اعاد القرامطة الحجر الاسود الى مكة

وولي الخلافة الطائع لله عبد الكريم بن المطيع المشار اليه في سنة ٣٦٣ للهجرة (سنة ٩٧٤م) واقام بها سبعة عشر سنة وبضعة شهور ثم خلعه بهاء الدولة الذي ليستصفي امواله ويصرفها على العساكر

وولي مكانه عمه القادر بالله ابا العباس احمد بن المقتدر في سنة ٣٨١ للهجرة (سنة ٩٩١ م) فاستمر احدى واربعين سنة وتوفي

وقام مكانه ابنه القائم بامر الله في سنة ٤٢٢ هجرة (سنة ١٠٣١ م) ودام في الخلافة اربعًا واربعين سنة وتوفي وفي ايامه زالت دولة بني بويه من بغداد وقامت فيها السلطنة السلجوقية كما سبقت الاشارة في ما مرّ والسلجوقية ينتسبون الى سلجوق وهو ابن وزير كان لاحد خانات التتار وفي بعض المؤلفات ان سلجوق المذكور اتى سنة ٤٨٢ للهجرة (سنة ١٠٩٠ م) بجيش عظيم وتملك في سمرقند وبخارا وهناك دخل في دين الاسلام مع قومه ثم امتد ملك دولته من حدود الصين شرقًا الى الاناطولي غربًا ووصل الى سوريا ومصر ايضًا. وبها انقرضت الدولة الغزنوية

وعند استيلاء آل سلجوق المذكورين على سلطنة بغداد كان ابتدأ انحطاط قدر العلوم والفنون بين العرب. قال العلامة الفاضل خير الله افندي المؤرخ العثماني ما ترجمته ومن ابتداء القرن الخامس للهجرة (يقابل القرن الحادي عشر الميلادي) بطل اعتبار الناس للعلوم والفنون ولم تبق للآداب والمعارف حرمة اصلاً وكانّ ذلك قد تلاشى من افكار العرب بالكلية واعترى العلماء منهم الفتور والكسل نظرًا لاضطراب الاحوال في تلك الاوقات لان التتار كانوا يتناظرون

للهجوم على بلاد الخلفاء العباسيين من كل جهاتها وتلاشت سلطة العرب بما وقع من الهرج والمرج بينهم بعد ان اختلّ نظام الخلافتين في المشرق والمغرب وخرج من امشائخ الصوفية رجلٌ يقال له ابن التميّ في بلاد الاندلس ولبس برد السلطنة عوضاً عن عباءة المشيخة وكان يدعو الناس الى اقامة الحق فحكم مدّة وتسمت اصحابه بالمرابطين وكذلك سهل بن سلامة الانصاري علّق مصحفاً في صدره وكان يطوف شوارع بغداد ويدعو الناس الى العمل بالكتاب والسنّة وظهر ايضاً في مدينة سوس من اعمال افريقية الشيخ الجوريزي من المتصوفة وخرج من قبيلة عمارة رجل يقال له العباس ادّعى انه المهدي

ثم بعد القائم بامر الله تولى الخلافة المقتدي بالله عبد الله بن محمد بن القائم المشار اليه سنة ٤٦٧ للهجرة (سنة ١٠٧٥ م) واقام بها تسع عشرة سنة وتوفي وفي ايامه ظهرت الفرقة الباطنية المشهورة بسفك الدماء

ثم قام مكانه ابنه المستظهر بالله احمد سنة ٤٨٧ للهجرة (سنة ١٠٩٤ م) واستمرّ ست وعشرين سنة وتوفي وفي ايامه استولى الافرنج الصليبيون على اراضي الشام وافتتحوا انطاكية واقاموا ملكاً من امرائهم على بيت المقدس (اورشليم)

ثم تولى عوضاً عنه ابنه المسترشد بالله الفضل سنة ٥١٢ للهجرة (سنة ١١١٨ م واقام سبع عشرة سنة وقتله السلطان مسعود السلجوقي بظاهر مراغة

ونصب عوضاً عنه ابنه منصور الراشد في سنة ٥٢٩ للهجرة (سنة ١١٣٥ م) واقام سنة وقُتل ايضاً

وتولى عوضاً عنه المقتفي امر الله محمد بن المستظهر سنة ٥٣٠ للهجرة (سنة ١١٣٦ م) واستمرّ اربع وعشرين سنة وتوفي

ونُصب عوضاً عنه ابنه المستنجد بالله يوسف سنة ٥٥٥ للهجرة (سنة ١١٦٠ م) واقام اثني عشرة سنة

وتولى عوضاً عنه ابنه المستضيء بنور الله حسن سنة ٥٦٦ للهجرة (سنة ١١٧٠ م) واقام تسع سنين وسبعة شهور

وجلس عوضاً عنه ابنه الناصر لدين الله احمد في سنة ٥٧٥ للهجرة (سنة ١١٨٠ م) واقام ست واربعين سنة وتوفي وفي ايامه طردت دولة الاكراد الايوبيين بمصر وقامت الحروب بين السلطان صلاح الدين والافرنج واخذ منهم اورشليم لكن دهي المسلمون بمصيبة ظهور التتار الذين يكونون النكبة الاخيرة

ثم تولى بعده ابنه الظاهر بالله محمد في سنة ٦٢٢ للهجرة (سنة ١٢٢٥ م) ولم يستتم عاماً وتوفي

واقام بالخلافة عوضاً عنه ابنه المنصور المستنصر بالله في سنة ٦٢٣ للهجرة (سنة ١٢٢٦ م) واقام سبع عشرة سنة وتوفي وفي ايامه انتشر التتار وتعاظم امرهم وكثرت غاراتهم على ضواحي بغداد

وبعده تولى ابنه المستعصم بالله عبد الله سنة ٦٤٠ للهجرة (سنة ١٢٤٢ م) واقام في الخلافة خمس عشرة سنة. وكان هذا الخليفة ضعيف الرأي عديم التدبير قطع غالب اجناده واستوزر مؤيد الدين العلقمي وكان ابن علياً وفي ذلك يقول الشيخ شمس الدين بن الكوفي الواعظ

يا عصبة الاسلام نوحي والطمي	حزناً على ما حلّ بالمستعصم
دست الوزارة كان قبل زمانه	لابن الفرات فصار لابن العلقمي

فانه يقال بان هذا الوزير اغرى هلاكو ملك التتار الى ان قدم بغداد وافتتحها ونهب اموالها وسفك دماء سكانها وقتل هذا الخليفة في سنة ٦٥٦ للهجرة (سنة ١٢٥٨ م) فلم تقم بعدها قائمة لبني العباس

وكان من جملة مظالم هذا الملك الهمجي الجائر انه بعد ان خرب ما كان بمدينة بغداد من المدارس القى في نهر دجلة كل ما وجد فيها من الكتب النفائس

ثم ان الذين تبقوا من هذه العشيرة المنكوبة التجأوا وفروا الى مصر فتبلهم الاتراك مماليك الاكراد الايوبية الذين كانوا خلعوا ساداتهم قبل مدة في التملك على مصر كما سبقت الاشارة الى ذلك ولا زال يسمى فيها منهم خلفاء

واحداً بعد واحد الى ان تسمّى سبع عشرة خليفة نظرف مئتين وواحد وتسعين سنة كابدوا من سلاطينها انواع التنديم والتأخير والتعظيم والتحقير الى ان كان آخرهم المتوكل على الله محمد بن المستمسك بالله يعقوب الذي بويع له بالقسطنطينية وكان ذهب اليها مع السلطان سليم العثماني فاتح مصر ثم رجع الى مصر واقام فيها الى ان توفي في سنة ٩٥٠ للهجرة (سنة ١٥٤٣ م) وبه انقطعت من الدنيا الخلافة العباسية التي لم تكن في تلك المدة الأصورية

وكان بعد ان انكسفت من بغداد شمس دولة بني العباس اشار اليهم واغربت محلولها في مصر بعيدة عن تلك الاقطار تسقطت ايضاً باتباع نجوم المعارف والعلوم التي كانت لم تزل محجوبة في آخر مدتهم تحت ظلام غيوم تلك الزعازع من اوج الوجود الى حضيض العدم والبوار وخلت ارض العراق من الرغائب والنفائس وتلاشى ما كان اسسه فيها اولئك الخلفاء العظام من المكاتب والمدارس وبالجملة كفت بعد ذلك رغبة ذوي الاجتهاد وارباب المعارف اذ لم يبقَ من يبذل عليهم كالخلفاء المذكورين الاموال والنطائف ويتحفهم كما كانوا يتحفونهم بكل تليد وطارف فلم يوجد بعد ذلك في كل بلاد الشرق لها راغب كما كان وقع في اسبانيا وافريقية ايضاً قبل ذلك بمدة حيث عدم هناك المطلوب والطالب وتركت العرب كافة تلك العلوم والفنون بعد ان كان دأبهم البحث عن استخراج درّها المصون وجوهرها المكنون ومن ثمّ تفرّق شملها ما بين فاقد وضائع وتقاصرت محلولها العقول ايضاً عن السباق في حلبة الاعمال والصنائع بل قايض عليها الاكثرون من الشبان بمطالعة كتب الخرافات كحكاية السندباد البحري والمحتالة دليلة او قتل الاوقات عمداً بسماع حماس قصة عنترة ومجون الف ليلة وليلة على انهم لو حافظوا على ما كان لهم من مجد المعارف كمحافظتهم على النفور ممن سواهم وان كان من اهل الذمى لكان ختام كلامنا هنا بان ذلك المجد هو في الحقيقة بهم ابتدأ واليهم انتهى